



مخاطر وجولات في جزيرة العرب

من العراق إلى عُمان 1918-1930

للرحالة البريطاني : برترام توماس

ترجمة : سُهير الجَدَا

مراجعة وتحرير : د. أحمد إيبش



مكتبة
مُهْمَن قريش

تأسست في عام 1412 هـ في مكة المكرمة
الرياض - جدة - مكة المكرمة - الرياض - جدة - مكة المكرمة

http://www.muhmenquraysh.com

روّاد المشرق العربي

مخاطر وجولات

في جزيرة العرب

من العراق إلى عُمان 1918-1930

للرّحالة البريطاني

برترام توماس

ترجمة

سهير الجّدّا

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS244 .T461 2 2013

Thomas, Bertram, 1892-1950

مخاطر وجولات في جزيرة العرب: من العراق الى عمان 1930-1918/ للرحالة البريطاني: برترام
توماس: ترجمة: سهير الجدا؛ مراجعة و تحرير: أحمد إيبش. - ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي
للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.

ص. : سم.

تدمك: 1-290-17-9948-978

ترجمة كتاب: Alarms and excursions in Arabia.

1. شبه الجزيرة العربية -- وصف ورحلات -- القرن 19. 2. شبه الجزيرة العربية -- العادات
والتقاليد -- القرن 19. أ. جدا، سهير. ب. إيبش، أحمد. ج. العنوان.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

«المجمع الثقافي»

© National Library

Abu Dhabi Tourism &

Culture Authority

"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1435 هـ 2014 م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae

www.tcaabudhabi.ae



مكتبة
هؤمّن قریش

أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة في 1435 هـ / 2014 م
في المكتبة الأولى للمجمع الثقافي

مخاطر وجولات
في جزيرة العرب

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثيّة عريقة ثمينّة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، التّحو، الحديث الشّريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنّا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوّكّد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقفّي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيلْيوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلَمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والمستع والسّفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة

هذا الكتاب

كنّا مؤخراً قدّمنا للقراء الكرام كتاباً قيماً يصف رحلة أوّل مغامر أوروبي يجتاز بنجاح صحراء «الرّبع الخالي»، انطلاقاً من صلالة بظفار في جنوبي عُمان ووصولاً إلى الدّوحة بقطر، وهو الرّحالة البريطاني برترام توماس. فاليوم، يسرّنا أن نقدّم كتاباً ثانياً لهذا المستكشف المقدم، الذي لم يكن من زُمرة الرّحّالين الاعتياديين، بل كان وزيراً لدى سلطان مسقط تيمور بن فيصل بن تركي بين 1925-1932. تدور أحداث كتابه بين منطقة الأهوار في جنوبي العراق عام 1918-1920، وفي عُمان التي قام فيها ببعض الرّحلات البريّة والبحريّة كان بعضها بصحبة السّلطان ذاته (1928-1930)، فأثحفنا بإضافة شائقة تُضمّ إلى مكتبة تراث أدب الرّحلات في جزيرتنا العربيّة.



برترام سيدني توماس

ينتمي المؤلّف إلى عائلة متواضعة، لكنّه حقق شهرة عالميّة كبيرة عندما كان أوّل من اجتاز صحراء الرّبع الخالي، وهي مغامرة عظيمة لبثت تراود مخيلة جميع رّحّالي الإنكليز طويلاً وعجزوا عنها. حتى أنّ الرّحالة الألمانّيّة دوروتيا فون لينكه (الكونتيّسة دوشكا مالمينياتي) حلمت بذلك إبان رحلتها إلى المدينة المنوّرة عام 1914، غير أنّ قيام الحرب العالميّة الأولى حطّم أحلامها بالجملة، وممّا قيل إنّها كانت تخطّط لعبوره أولاً بطائرة أو منطاد، ثمّ خطّطت لعبوره برّاً غير عارفة بمدى مشقّة ذلك، ولو

أنّها حاولت لراحت ضحيّة محاولتها على الأرجح. وعلى ذلك كان برترام توماس أول من اجتازه عام 1931، وتلاه هاري سنت جون فيلبي عام 1932، ثم وفريد ثيسيجر في عامي 1946-1947.

ولد برترام توماس في إيستون إن غوردانو بالقرب من بريستول في 13 يونيو من عام 1892، وتابع دراسته بمفرده ثم دخل كليّة ترينيتي في كامبردج وحصل منها على الدّكتوراة، وعمل في الخدمة المدنيّة 1908-1914. قاتل إيّان الحرب العالديّة الأولى على الجبهة الغربيّة في بلجيكا عام 1914-1915، ثم تمّ نقله إلى العراق في السنتين الأخيرتين من الحرب 1916-1918 فلفت انتباه السير آرنولد تالبوت ويلسون Arnold T. Wilson الذي كان يشغل آنذاك منصب المفوض المدني البريطاني في الخليج العربي. وكان المحرّك الفعلي لرحلات توماس اللاحقة في جزيرة العرب.

بعد ذلك عُيّن ممثلاً بريطانياً مساعداً في إمارة شرق الأردن 1922-1924، ثم وزيراً للماليّة لدى سلطان مسقط (تيمور بن فيصل بن تركي) بين 1925-1932. وفي أثناء ذلك، قام بعدّة رحلات في أرجاء عُمان برّاً وبحراً، ومنها ما كان بصُحبة السلطان نفسه، كما يفصّل هنا في هذا الكتاب. كما جال في قلب الصّحراء مستهدفاً أن يكون أوّل من يجتاز الرّبع الخالي، فكانت محاولته الأولى عام 1928 لكتّها مُنيت بالفشل، غير أنّه أعاد الكرّة بنجاح في شتاء 1930-1931 وكان له ما أراد. وفي رحلاته، انطلق برترام توماس بوسائله الخاصّة، يرتدي زيّ الأقوام المحليّين ويتكلّم لهجاتهم. ولكونه وزيراً لسلطان مسقط فقد مكّنه ذلك من متابعة رحلاته الطويلة إلى قلب برّ عُمان، وعُدّت هذه الرّحلات «مساهمة بالغة القيمة في المعرفة الجغرافيّة والإنثولوجيّة حول هذا القسم من الجزيرة».

تزوّج توماس من بيسي هويل Bessie Hoile عام 1933، وتابع حياته المهنيّة بنجاح كضابط مستعمرات، ليضحى فيما بعد ضابطاً للعلاقات العامّة في البحرين 1942-1943، ثم مديراً لمعهد الشرق الأوسط للدراسات العربيّة MECAS في

فلسطين 1943-1946 ثم في فرع آخر للمعهد بشملان في جبل لبنان، وكان أول مدير له 1947-1948. وهذا المعهد لم يعمر طويلاً، إذ أغلق أبوابه إبان الحرب الأهلية اللبنانية عام 1978 وكان لزللي ماكلوكلين آخر مدير له، وكان اليساريون في لبنان يسمونه «وكر الجواسيس».

* * *

أمّا أول طبعة لكتاب توماس هذا فقد صدرت بلندن عام 1931 عن دار نشر آلن أند أنوين Allen and Unwin، وفي السنة ذاتها صدرت الطبعة الأميركية الأولى في إنديانابوليس عن دار بوبز ميريل Bobbs-Merrill. وهو بذلك سابق لكتابه «العربية السعيدة» الذي صدر في العام التالي 1932. ولقد حصلتُ على نسخة نادرة من طبعة إنديانابوليس، وعليها عملت.

بذلتُ جهدي في ضبط لغة النص وتدقيق الترجمة، وبالدرجة الأولى في ضبط أسماء الأماكن الواردة في متن الكتاب، والمؤلف لا يتبع طريقة دقيقة في كتابة الأسماء، ممّا يجعل المهمة شاقة، فمثلاً يذكر الشيخ Sikar مراراً وتبيّن لي أنّ اسمه: سُكّر. وأشير هنا إلى أنّ موضوع ضبط أسماء الأشخاص والأماكن وجميع التسميات الاعتبارية الأخرى يبقى أهم واجب في تحرير مثل هذه المؤلفات، وكم نرى ترجمات بها أغاليط فادحة.

وكما هي العادة التي اتبعتها في هذه السلسلة، أضفت مجموعة من الصور عقب المقدمة ليست من أصل الكتاب، وكذلك نسخت صور الكتاب الأصلية من طبعة بوبز ميريل المذكورة أعلاه. ومن بين الصور التي أضفتها صورة تُنسب إلى الشيخ بدر الرّميص المذكور في الكتاب ملياً.

* * *

مؤلفات أخرى لتوماس

نشر توماس وقائع رحلته عبر الربع الخالي للمرّة الأولى في مجلّة الجمعية الجغرافيّة الملكية بلندن، عدد سبتمبر 1931، وضمّنها خارطته ومجموعة من صوره المتقنة لوقائع الرّحلة، ثم صدرت في كتاب عام 1932 بعنوان: *Arabia Felix*. وكذلك له كتاب قيّم عن دور العرب في الحضارة البشريّة، نشرته بلندن دار ثورنتون بّروورث عام 1930:

The Arabs: The Life Story of a People Who Have Left Their Deep Impress on the World, Thornton Butterworth Ltd., London 1930.

وله مقالة عن شبه جزيرة مُسندم وسكّانها الشّحوح، نشرت في صحيفة الجمعية الملكية الآسيويّة عام 1929:

“The Musandam Peninsula and its people the Shihuh”, *Journal of The Royal Central Asiatic Society*, Volume 16, Issue 1, 1929.

ودراسة فيلولوجيّة أخرى حول لهجة قبيلة الشّحوح، نُشرت في الصّحيفة ذاتها عام 1930:

“The Kumzari dialect of the Shihuh tribe and a vocabulary”, *Journal of the Royal Asiatic Society* (Oct 1930).

وأيضاً مذكرات أثناء خدمته في العراق، ترجمت إلى العربيّة بعناية عبد الهادي فنجان وكامل سلمان الجبوري، بيروت 2002.

ولقد حُفظت أوراقه ومراسلاته وصوره في أرشيف مكتبة المعهد الشرقي بجامعة كامبردج، وكذلك ثمة صور له من مقتنيات الجمعية الجغرافيّة الملكية RGS. ومؤخراً في عام 2004 عُرض عن رحلته فيلم وثائقي لريتشارد ميور بعنوان: “The Forgotten Explorer”.



أخيراً، نرجو أن نكون قد قدّمنا ما هو جديد ومفيد، وخاصةً أنّه يتمّ بشكل مفيد كتاب توماس «العربيّة السعيدة»، وكتاب رحلة البريطانيين ثودور ومايبل بنت «جنوبيّ جزيرة العرب»، وكتاب الرّحالة فريا ستارك «البوّابات الجنوبيّة لجزيرة العرب»، اللذين نشرناهما في هذه السّلسلة، وليست هذه بعدُ خاتمة المطاف.

والحمد لله على ما وفق وأعان.

جبل، 7 ديسمبر 2013

د. أحمد إيش



ALARMS AND EXCURSIONS IN ARABIA

by BERTRAM THOMAS

With a Preface by
SIR ARNOLD T. WILSON

ILLUSTRATED

INDIANAPOLIS
THE BOBBS-MERRILL COMPANY
PUBLISHERS

كتاب «مخاطر وجولات»، طبعة إنديانابوليس عام 1931

ARABIA FELIX:

ACROSS THE EMPTY QUARTER OF ARABIA

by BERTRAM THOMAS

O.B.E. [Mil.]; formerly Wazir to H.H. the Sultan of Muscat and Oman, sometime Political Officer in Iraq, and Assistant British Representative in Trans-Jordan. Founder's Medallist of the Royal Geographical Society; Burton Memorial Medallist of the Royal Asiatic Society; Gold Medallist of the Royal Geographical Society of Antwerp; and Cullum Gold Medal of the American Geographical Society

WITH A FOREWORD BY

T. E. LAWRENCE (T.E.S.)

AND APPENDIX BY

SIR ARTHUR KEITH, F.R.S., M.D., ETC.

CONTAINING ALSO

MAPS, CHARTS, DIAGRAMS
AND ILLUSTRATIONS COMPLEMENTARY
TO THE TEXT



LONDON:

JONATHAN CAPE, THIRTY BEDFORD SQUARE

OR AT 91 WELLINGTON STREET W. TORONTO

1932

كتاب «العربية السعيدة» لتوماس، طبعة جوناثان كايب، لندن 1932

ARABIA FELIX

ACROSS THE "EMPTY QUARTER"
OF ARABIA

by

BERTRAM THOMAS

O.B.E. [Mil.]; formerly Wazir to H.H. the Sultan of Muscat and Oman, sometimes Political Officer in Iraq, and Assistant British Representation in Trans-Jordan. Founder's Medallist of the Royal Geographical Society; Burton Memorial Medallist of the Royal Asiatic Society; Gold Medallist of the Royal Geographical Society of Antwerp; and Cullen Medallist of the American Geographical Society, New York

WITH A FOREWORD BY

COLONEL T. E. LAWRENCE
[T. E. S.]

AND AN APPENDIX BY

SIR ARTHUR KEITH, F.R.S., M.D.

CONTAINING ALSO

MAPS, CHARTS, DIAGRAMS, AND
ILLUSTRATIONS COMPLEMENTARY
TO THE TEXT

NEW YORK

CHARLES SCRIBNER'S SONS

1932

كتاب «العربية السعيدة»، طبعة نشارلز سكريبنر، نيويورك 1932

THE ARABS

THE LIFE STORY OF A PEOPLE WHO HAVE
LEFT THEIR DEEP IMPRESS ON THE WORLD

By

BERTRAM THOMAS

O.B.E. (Mil.): Ph.D. (Cantab): D.Litt. (hon.)

Bristol: D.Sc. (hon.) Acadia, Nova Scotia

For some time Political Officer Mesopotamia: Assistant British

Representative, Trans-Jordan: Prime Minister
to the Sultan of Muscat and Oman

Gold medallist of the Royal Geographical Society:

the Royal Geographical Society of Antwerp: the

Geographical Society of New York: the Royal

Geographical Society of Scotland: and

Burton Memorial medallist of the

Royal Asiatic Society



DOUBLEDAY, DORAN AND CO., INC.

Garden City, New York

1937

كتاب «العرب» لتوماس، طبعة نيويورك الأولى عام 1937



برترام سيدني توماس، المستكشف والمستعرب
لوحة زيتية للرّسّام والتر وستلي رّسل (بين 1925-1932)



برترام بالزّي العربي وقد أطلق لحيته



برترام توماس كما صوّر نفسه عام 1928



أعضاء مجلس الوزراء العُماني عام 1928

الذي تشكّل للمرة الأولى عام 1920

اليسار إلى اليمين: الشيخ راشد بن عزيز الخصيبي (وزير الشؤون الشرعية)

السيد محمد بن أحمد (والي مطرح)، برترام توماس (وزير الشؤون المالية)

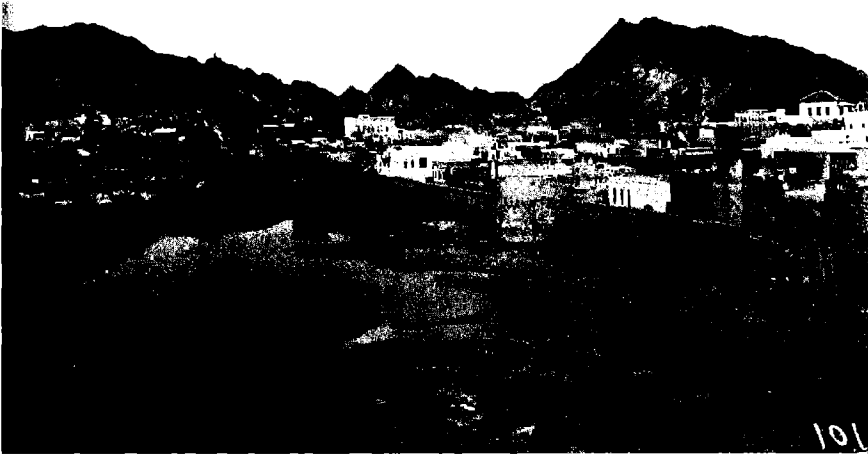
الزبير بن علي الهوثي (وزير العدل)



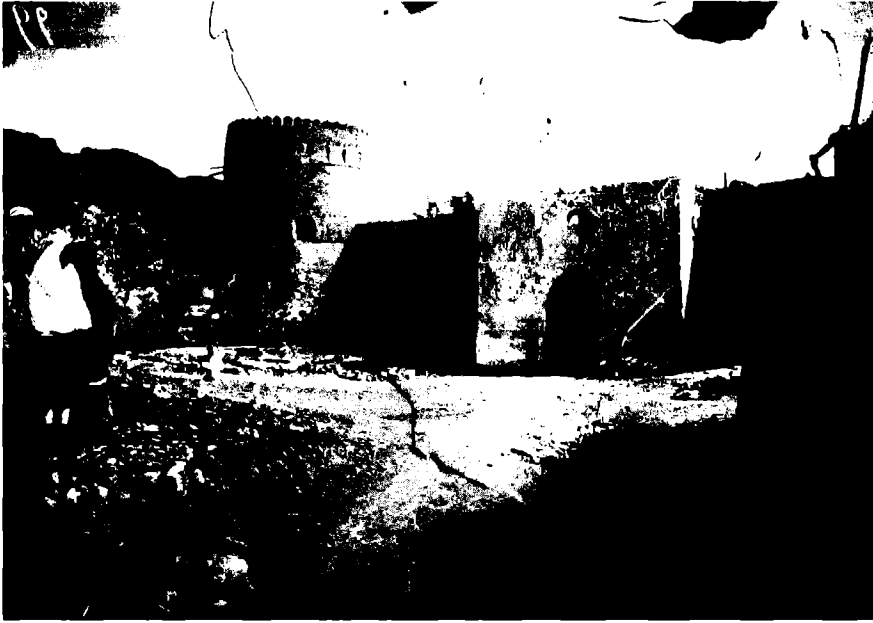
صورة فوتوغرافية شاع أنّها للشيخ بدر الرمّيس
شيخ عشائر بني مالك بالعراق، من آل بوصالح
لكن بها شكّاً، فهي مطبوعة أيام الانتداب الفرنسي بسوريا 1920 1945
وتنصّ الكتابة المذكورة أعلاه: حلب، بدوي (بشكل خاطئ بالفرنسية)
مع ذلك فهذا البدوي حتماً من الشيوخ، ويتقلّد وساماً، لكن هل هو بدر؟



قوارب محلّية من نوع البدن والهوري
ترسو بمواجهة قصر العلم القديم في مسقط
صورة مؤرّخه في مايو 1957



منظر لمدينة مسقط وسورها من البرّ
صورة مؤرّخة بين 12-15 مارس 1904
التقطها الرّحالة الألماني هرمان بورخارت



أحد أبواب مسقط القديمة من الجهة الخارجية
صورة مؤرّخة سن 12 15 مارس 1904
التقطها الرحّالة الألماني هرمان بورخارت



عرب منطقة الأهوار الواقعة بين نهري دجلة والفرات
في جنوبي العراق، تاريخ الصورة عام 1950



لقطة قديمة لبلدة الشطرة في جنوبي العراق
محافظة ذي قار، تبعد 40 كيلومتراً شمالي الناصرية
وكانت مقر إقامة برترام توماس عامي 1918-1919



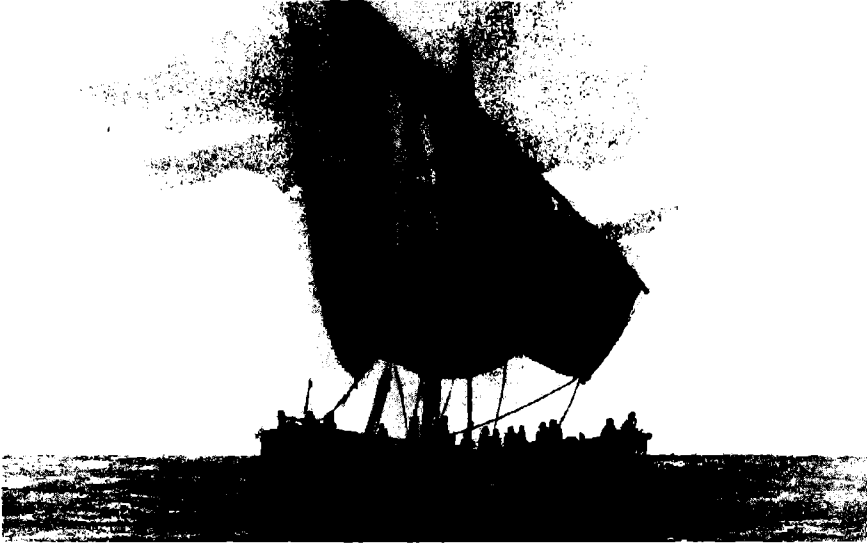
الميجور هارولد ديكسون عام 1919



هارولد ديكسون مع الملك عبد العزيز آل سعود



الشيخ خيَّون العبيد شيخ عشيرة العبودة



قارب عُماني تقليدي في رحلة إلى زنجبار



دولار ماريّا تيريزا أرشيدوقة النمسا 1780
العملة الرئيسيّة السائدة في عُمان أثناء رحلات المؤلّف
كما يذكر في نصّه مراراً



روبية فضيّة، كُتِبَ عليها بالأوردية: يك روپيه
العملة الصّغيرة السائدة في عُمان أثناء رحلات المؤلّف
حكومة الهند البريطانيّة 1913 بعهد الملك جورج الخامس

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خلاً كبيراً لم تتمكّن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التّركيّة العُثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسبانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاجين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التّركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çinar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّج، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوّط جداً (فيكتبون: جورج) لترجمة الجيم المُعطشة المرققة، التي يُعبّر عنها في التّركيّة العُثمانية والفارسيّة والأوردية بحرف: ژ، ويمثّلها في الفرنسيّة والبرتغاليّة z والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والبولونيّة z والچيكيّة ž.

3 - أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوغل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: قوغل، وفي فلسطين: جوجل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعداد، چدعون، چدّول، رامات چان (علماً أنّ ڭا هي ذاتها جَنَّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهّي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلَف. ومن مظاهر التّشويش الذي يفرضه الأمر أنّ بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلنط Galant، كتالوج Catalogue جندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عربّوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغش، أراغون. لكن على أنّ نسمّه بثلاث نقاط: (غ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز ممّيز: وليكن بقلم المُسنَد الحِميريّ اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأنّ «اللّسانيّات التّيمانيّة» تحتل الإقلاّب بين الجيم المُشبعة وهذه الجيم اللّهُويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مُشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حُذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجريّة وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غُيوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهوية. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كِيِفُو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانية القديمة تُكتب الجيم الشجرية كالعربية ج، وأما اللهوية فاستعاروها من الفارسية گ. وفي التركية الحديثة بالأبجدية اللاتينية جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهوية، كقولهم: gerçek (غِرِچَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (گِجِه لِر)، Avci (آو جِي)، Cem (جِم).

أما الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهوية فحسب، كما في: Gewehr (غُفِير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربية لقوا التّباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أنّ حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمطلق. وأما لدى الإسبان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتالية أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصوتية اللفظية ثمة مناطق تلفظه غيناً لهوية، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragón: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربية عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السعودية) يمكن حسم بطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبية، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرُتْجال،

بلجاريًا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البرغل مثلاً: بُرْجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

4 - ثمة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربيّة (كما هي في السريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربيّ تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورخالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتاب العربيّة في العصر العباسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللّغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كولي، زُنيه، غارنييه، جِرْفيه. والأسماء الإسبانيّة: خوسيه، بيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كوندّه، أو Enrique إنريكه، والألماني Porsche پورشه، أو Pritzke پريتسكه، والهولندي Goeje خوّه، والپولوني Tyskie تيسكه، والإيطالي Simone سيمونه، أو Michele ميكيله.

5 - نصرّ في هذه السلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصحّ بالألمانيّة: مدينة لايتسيك وليس

لايبنغ، زولنغن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، فلهم وليس ولیم، ريكارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أمريكا، فارشافا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس بكين. وفي البرتغالية الأصح لفظ: كريشتيانو، كوستا، جوزيه، جواو. ولكن ثمة أسماء رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربية مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانية: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتالية: دون كيخوته)، باريز أو باريس (وصوابها بالفرنسية: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دي لوزنيان)، ولیم الصوري (غيم)، بُرج إيفل (وصوابه: آيفل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسية يصرون على لفظ الكنى الأرمنية المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسي فيه غنة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسي، علماً أنّ ثمة شيئاً في التركية يسمى: Yumuşak Ge أي الجيم الطرية، تلفظ كمدة مكبوتة لا كخين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آج.

6 - حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينية: الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والرومانش، ما خلا حالة في البرتغالية بآخر الكلمة مع الألف والواو فيلفظ ياء، مثل: Covilhã كوفيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أنري، وهو بالإيطالية إنريكو، والإسبانية إنريكه. وأيضاً فيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 - وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربية التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظية مختلفة دون انتباه لأصولها العربية، كالاسم التركي ميرفت Mervet الذي ترنمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مروة. أو اسم فتاة الشاشة التركية Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربية «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبى.

وثمة كنية عريقة في لبنان: جانبته، يطيب للناس أن يلفظوها بلكنة فرنسية: Jean-

Béy بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتركية: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نَفْس. وكذلك اسم قَبْلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتركية: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلينية (إغريقية) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سُميت بها بلاد الشّام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أنّ حرف الشّين لا يوجد في الألفباء اليونانية، فأُقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأنّ الهاء بآخر الكلمة ترد بالتّسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة. وللبحث صلة..

د. أحمد إيش

مقدمة

بقلم السير آرنولد تالبوت ويلسون

تمتاز جزيرة العرب بقدرة رائعة على الاستحواذ على القلوب، ويجد الأوروبيون الذين يعيشون فيها غالباً نقيصة في السنين الأولى، وهم الذين جلبوا معهم ساعات اليد وثياب السهرة وذوقاً مكتسباً أو موروثاً لوجبات الطعام الأوروبية في ساعات منتظمة، والأشربة الباردة والجرائد والسيارات والهواتف والآداب الاجتماعية بما فيها المباريات بالأحجام المختلفة للكرات. على الرغم من أنه قد يأتي وقت يشعرون فيه بأن تلك المتع الحسية بالنسبة لهم مجرد التزامات أثناء إجازاتهم الطويلة وأنّ عليهم العودة إلى طرق أبسط، وعندما يفكر مثل هؤلاء الرجال بجزيرة العرب تسيطر على تفكيرهم إمّا وجهة نظر معينة أو وجهة نظر أخرى، فيسعد الدارس عندما يتأمل فرص الأبحاث المتاحة التي ما زالت جزيرة العرب تزوده بها لغوياً وآثارياً، بينما يتأمل أتباع العالم ليناوس Linnaeus بالطيور غير المعروفة وغير المحددة والوحوش والأزهار التي يمكن أن تحتويها القارة حتى الآن، أمّا الرّحالون فهم تواقون لاجتياز أجزاء من المناطق الشاسعة في جنوب جزيرة العرب التي لم تقع عليها أعين الرّحالين حتى الآن ويرسمون لها الخرائط.

ويستمتع آخرون، وهم كثر، مجدداً بجزيرة العرب لأنهم يحبّون العرب، ليس على أسس عاطفية للتمتع بمناصرتهم التي جعلت من العرب وصحراواتهم الرّملية موضوعاً لعدد لا يحصى من الروايات أثناء السنين العشرة الماضية، ولكن لأنهم يرون في العربي الكثير ما يثير إعجابهم، فقد أدركوا بأن العرب استنبطوا على مرّ القرون فلسفة وأسلوب حياة يتناسبان مع محيطهم، يفضيان إلى الصّحة الجسدية والسّكينة

الرّوحية، وتوقفوا عن التفكير بهم كمتعصّبين أو مستسلمين للقدر، حيث أنّ اللهو والخزي وحتى التّنافر الذي ارتبط بطريقة معيشتهم جعل من يلاحظهم من البشر عرضة للإحساس بأسلوب حياة مختلف بشكل حيوي عن أسلوب حياتهم، ممّا أفسح المجال لمقياس تعاطف كبير عند تعرّفهم عليه، مثل هؤلاء الرّجال غالباً ما يبدأون كطلّاب وباحثين، ثم يتطوّرون ليصبحوا سفراء غربيين حقيقيين إلى الشّرق.

كان مؤلّف هذا الكتاب من أكثر السّياسيين الشّباب موهبة في بلاد ما بين النّهرين أثناء الحرب وبعدها، وخدم بمقدرة مماثلة في شرق الأردن، قبل أن يُختار لشغل مركز الموظف المسؤول كمستشار مالي ووزير لسموّ سلطان مسقط وعمّان. أبدى شجاعة وبراعة في ظروف خطيرة وشديدة الصّعوبة أثناء وبعد الحرب في بلاد ما بين النّهرين، وتعدّ سجلّات عمله في عُمان التي تلقى عليه صفحات هذا العمل بالصدّفة ضوئاً متواضعاً، تعدّ بحق ذات أهمية استثنائية.

أعتقد بأنّه كان أول رجل إنكليزي شغل منصب رئيس وزراء في دولة عربيّة مستقلّة، وقد نال في هذا المركز ثقة صديقي السّلطان سيّد تيمور بن فيصل وثقة مجلس الدّولة الكاملة، وقد مكّنته علاقاته مع قادة قبائل ساحل عُمان المتمرّدين أثناء فترة منصبه من القيام برحلتين جديرتين بالاهتمام في إقليم مجهول تماماً حتى الآن. أولاهما (راجع صحيفة الجمعيّة الجغرافية، مارس، 1929) كانت بمحاذاة حدود الرّبع الخالي الجنوبيّة من قرب رأس الحدّ إلى ظفار، وثانيهما (راجع صحيفة الجمعيّة الجغرافية، يناير 1931) من ظفار نحو الدّاخل إلى مسافة ما يقارب المئتي ميل، تعدّ الرّحلتان اللتان قام بهما معاً من أكثر الاستطلاعات الجغرافية التي نُفذت في أيّ جزء من العالم منذ الحرب أهّمية وشمولية، وقد نشر في صحيفة جمعية الأنثروپولوجيا الملكيّة (يونيو، 1929) بعض الدّراسات الأولية عن القبائل التي صادفها في رحلته الأولى، كما نشر بعض الدّراسات الهامة التي تتعلّق بلغة الكمزارة Kumzara المحكيّة في شبه جزيرة مُسنَدَم Musandam (صحيفة الجمعية الآسيوية الملكيّة، أكتوبر 1930) وكانت مقالته الأكثر شمولاً عن رؤوس مُسنَدَم Musandam البحرية وسكّانها (صحيفة جمعية وسط آسيا، المجلد الرّابع عشر، عام 1928) وقد كان في

وقت كتابته منشغلاً برحلة استكشافية ذات اهتمام أوسع ومخاطر جمة.

بثقة أطري للقارئ تلك الروايات المرححة الذي يرغب كما ينبغي أن نرغب جميعاً، بمعرفة شيء عن الحياة التي يعيشها اليوم عرق ليس أقل ذكاءً ولا أقل سعادة أو اهتماماً منا، وعندما نقرأ تلك الصفحات ربما نرى القوافل ونسمع رنين الأجراس على طرق ما وراء المدن، وعلى ممرات جبلية شديدة الانحدار وعند أطراف الصحراء. ربما نرى الفلاحين الذين يعملون في بساتين التخيّل ونرى رجالاً مسلّحين يجنون الضريبة من القرويين، دون ندم كمثل من يصيد السمك من البحر، والسلطان يهيمن على بلاطه والقبائل تحلب نوقها. كل أولئك بشرٌ مثلنا تماماً وتشغلهم شؤونهم الخاصة كما تشغلنا شؤوننا، فعليهم كسب معيشتهم والاعتناء بزوجاتهم وإذا شاء الله تكوين عائلة لهم، وإذا لم تبدُ لهم حياتهم مهمة جداً كما تبدو لنا حياتنا فذلك بسبب استعدادهم الكامل للتضحية بأنفسهم لأجل قضية يؤمنون بأنّها أهم من الحياة ذاتها، فهم يدركون بأنهم عرب ويفخرون ببلادهم، وعلى الرغم من أمّيتهم فهم ليسوا بجاهلين، إذ ورثوا وأحيوا ثقافة مشتركة بالاضافة إلى ديانة مشتركة وخطاب مشترك.

كما ينوّه يوستوس ليسيوس⁽¹⁾ Justus Lipsius:

“Humiles istae et plebeiae animat domi resident, et affixae sunt suae terrae, ilia divinius est quae coelum imitatur et gaudet motu”.

أو بكلمات سفر حكمة يشوع، 38: 37-39:

«هؤلاء لا يأوون المدن ولا يتمشّون ولا يدخلون الجماعة، ولا يجلسون على منبر القاضي، ولا يفقهون فنون الدعاوى، ولا يشرحون الحكم والقضاء، ولا يضربون الامثال». «لكنهم يصلحون الأشياء الدهرية، ودُعَاؤهم لأجل عمل صناعتهم».

أ.ت. ويلسون

غرة شهر يناير عام 1931

(1) في رسالة إعلان فيليب لانويوم Philip Lanoyum.



المؤلف على متن ذلوله المفضلة، خوارة

المغامرة الأولى

حملة تأديبية ضد عرب الأهوار

الفصل الأول من المغامرة الأولى

عناد

بلاد ما بين النهرين! كان الوقت في ربيع عام 1918، من السنة الأخيرة للحرب الكبرى، وقد كسحت الجيوش البريطانية الأتراك إلى خارج بلاد ما بين النهرين باتجاه جبال الموصل، وانشغلت السياسة البريطانية في تقليل تواجد القبائل العربية في المؤخرة.

كان كل شيء على ما يرام في أهوار المُنْتَفِق باستثناء ما يتعلق بعدم إخضاع شيخ واحد قوي هو الشيخ بدر بن رميض⁽¹⁾ الذي كان شخصاً عسيراً! ومصدر إزعاج مستمر.

تبع نجاح الجيش البريطاني تطوُّر في حالة القبائل المحلية، وضعفت مع سير الأحداث المقاومة الشرسة التي صادف وجودها في البداية في بلاد المُنْتَفِق الجامعة⁽²⁾، ومن تلك الأحداث انسحاب الجيش التركي من نهر الحي Hai، واكتمال مدّ سكتنا الحديدية من البصرة إلى الناصرية، وتم الانبعاث السار لنا للعداء الصّارم

(1) هو بدر بن عجيل بن سلمان بن ثنيان بن حمّد بن شدود بن رميض، شيخ عشائر بني مالك بالعراق، من آل بوصالح، اشتهر بشجاعته وشهامته وتمسّكه بالعادات العربية الأصيلة وفطنته. واجه الاحتلال البريطاني، فدعا إلى الجهاد عام 1914 وأقسم في معركة الشّعبية عام 1915 ألا يهادن ولا يعقد حلفاً مع الإدارة البريطانية، وظلّ وقتاً لقسمه هذا كما يروي توماس هنا. عمّر طويلاً سنة وتزوَّج من التّساء 96 امرأة وله منهن 24 ولداً و 36 بنتاً، وتوفي عام 1942. (أحمد)

(2) في هذه المنطقة أطلق رصاص من الأرض على السّير آلان كوبهام Sir Alan Cobham في رحلة طائرته الخطيرة إلى أستراليا عام 1926، وقد قُتل على الفور الميكانيكي المرافق الذي كان بجانبه.

مع الأتراك في الكوت و«الاختبار الحمضي» "acid test" المحلي على سبيل المثال الذي أدى بنصره إلى ذروة استيلائنا على بغداد، وأثناء السنة الفاتنة تعزيزنا لمكاسبنا. قرّرت القبائل «وحواسهم في عيونهم» كما يقول مثلهم، بأننا لم نقدّم تضحيات كبيرة بالدماء والمال دون طائل مهما كانت مهامنا محبة للغير. كانوا واثقين بأننا جئنا لنبقى، وشاهدوا جبروتنا وعقدوا العزم بشكل طبيعي وهم متفائلون على إفنائنا مهما كانت نشاطاتهم قائمة عندما تعلق القضية في الميزان، وقد قاموا بتنفيذ ذلك - الإغارة على القوارب النهرية وقطع أسلاك التلغراف وسلب قتلى ساحات القتال - ولكن انتهت تلك المرحلة، وأقسموا انهم سوف يلتزمون بالسلوك الحسن في المستقبل: جميعهم باستثناء رجلنا العجوز في الأهوار.

تساءل الرميضي شيخ قبيلة البوصالح وأعلى سلطة، بالاسم فقط، على الأقل في بني مالك، السلطة الثالثة في أكبر اتحاد كونفدرالي بقبيلة المُنْتَفِق قائلًا: «الاستسلام؟ على الرّغم من أنّ جميع الشيوخ الآخرين في هذه البلاد التي ضربتها الحرب قد استسلموا، فإنه بالنسبة لي لن يحدث ذلك أبدًا!» ثم وضع إصبعه على زناد بندقيته من نوع ماوزر Mauser طراز 1912 بولع محارب الصحراء العجوز.

عمّت الأهوار الفوضى السياسية وإراقة الدماء في فترة حكم الأتراك الأخيرة وبالمقارنة، جعل لجهودنا تنازلات عن قناعتنا الهامة برغم انحدار معاييرها بشكل كبير عن المستوى الذي نرغب فيه لإنشاء السلام والنظام، لم يعد الأتراك أكفيا في هذا المكان منذ زمان النظام القبلي الشعبي لحكم السلطان عبد الحميد، على الرّغم من الهيبة التي أربطت بفرون سياسه الهيمنه وبالرّغم من الإرث الديني المشترك. فقد استسلم قبل أن توجد روح عشائرية في النظام القبلي ذاته، روح معادية لأهداف وأساليب الحكومة المستقرّة، وربما تقدّم اليوم حكومة وطنية في العراق توقعاً هاماً لإمكانية الزوال التدريجي للنظام العشائري تحت تأثير التطوّر الصناعي وتطوّر أساليب حكومة مبنية على النماذج المنظمة والأفكار التقدّمية، أو تصبح مع مرور الوقت معادية لوكالاتهم.

يمكن تحقيق هذه الحالة على أفضل وجه، كما نعتقد، بواسطة حكم مُقنع من خلال الزعماء الطبيعيين الذين أفرزتهم التربة المحليّة، أي شيوخ العشائر. وقد تعمّدنا تجنب خيار تجربة حكومة بيروقراطية غير ناضجة مزوّدة بأعضاء من السّكان المحليّين تحبط غاياتنا الفورية، إذ يكفي في هذا الوقت نفوذنا وحده ليفرض السّلام بين القبائل، وقد أحرزت القبائل ثروة لم يحلموا بها في غضون بضعة سنين امتدّت على فترة هدنة الحرب، فزَيّنوا نسائهم بالذهب الخالص وسلّحوا أنفسهم بالبنادق الحديثة التي زوّدتهم ميادين القتال بواسطة بحصاد وافر، بعد أن عمّ الأمن بين بعضهم بدرجة لم يسبق لها مثيل، وتمكنوا من بيع حبوبهم وتمورهم ومواشيهم لإطعام جيوشنا الكبيرة في ميادين القتال بأسعار المجاعة.

اقتنعت بأنّه سيأتي يوم في وقت قريب على القبائل لم يفكروا فيه بعد، عندما يوجهون تلك الأسلحة نحو مصدر رخائهم، فشرعنا بتحريك عمليات تؤدي لمنع حدوث ذلك، لأنّ التسلّح هو مصدر فخر بين كل القبائل في جزيرة العرب، ولكل قبيلة عدوّ موروث وماضٍ تثار له، ووصمة عار على شرفها تريد التخلّص منها، وأفرادها يستعدّون لاسترداد حق أو الحفاظ على شيء آخر أو يسعون لتحقيقه. وليس هناك مسوغ للاعتقاد بأنّ التسلّح غير العادي التابع من رخاء اقتصادي شاذ لديه في هذه المرحلة أيّ دافع خفيّ محدّد، وفي الواقع، أصبح كل شيخ سلطة قانون بحد ذاته، تحت انهيار النّظام العثماني التدريجي الذي شكّل تجربته الوحيدة، وربما هو على حق فإنّ التفوّق في السّلاح بات هدفاً رئيسياً للقبيلة، وهو مفتاح إنجاز مقولة «افتح يا سمسّم».

ولكن ماذا عن الشّيخ بدر؟

خرج من أهواره بمعزل عن معظم أمثاله لأجل سحر قصير الأمد في حياته الطويلة، وهو أن يزحف عند الدّعوة إلى الجهاد⁽¹⁾ لمجابهة أول موجة من الغزو البريطاني الذي

(1) الجهاد أو الحرب المقدّسة، هو أحد أركان الإسلام الخمسة [وكلام المؤلف غير صحيح]، والأركان الأربعة الباقية هي الصّلاة والصّيام والزّكاة والحجّ إلى مكّة، وفي الشريعة يعدّ الجهاد

تبعه تفجّر الخصومات. ثم أقسم في معركة شعبية بألا يقدم وعود ولاء لنا وقد حافظ على كلمته، وقد أهمل تكرار عروضنا للسلام معه الآن بعد ثلاث سنين من الأمن في مواقعه الخلفية، واستهزأ بعملاتنا واحتجز المبعوثين الأتراك، ولكن بعد مرور الوقت وبعد أن أصبحنا أكثر ثباتاً، بات عليه أن يتوقع عقوبات التمرّد، وقد جاء الوقت، بلا ريب، ليعرف بأن أعماله قد تجاوزت حدود الإصلاح، بسبب هذا من جهة، ومن جهة أخرى لعدم قدرته تصوّر أي عالم خارجي - إذ تتوسّط أهواره العالم المسطح الذي يؤمن به مع سلطة العثمانيين المشوشة التي تدور حول حدودهم.

ربما يجب أن يُعزى تمرّده الأخير لنزعة جنون العظمة في شخصيته، ويبدو أنه يعتبرنا جزءاً من خلق الله المبهّم الكافر الذي تطفّل بقدمه ولا يعرف متى جاء ولا يهّمه إلى أين يذهب ولكن يجب أن يأفل نجمه في القريب العاجل. تشبّث بدر بمفرده بإيمانه القديم، إيمان بنظام أهواره غير القابل للتغيير، وبعودة الأتراك إلى منزلتهم الرفيعة الغامضة كما كانت في الماضي، رفض هو وحده بين حكم أقلية الشيوخ أن يعترف بأيقونة السلام البريطاني، ووضعنا هو وحده في المواجهة.

كان هارولد ديكسون⁽¹⁾ في ذلك الوقت موظفاً سياسياً لدى المُتّفق، وكان بدر هو إخفاقه الواحد، وقد كان لدى ديكسون فهمٌ للنفسية القبليّة العربية، ودراية باللغة المحكيّة في التّهر كانت لا تضاهي عبر البلاد حسب ما توصّلت اليه تجربتي، فقد كان لديه إعجاب أصيل وربما متطرّف برجال القبائل وأعتقد بأنه عرف كل رجل باسمه

دعوة لحمل السّلاح لحماية الدّين الحق، ولكن تحوّل السّلاح الذي كان بأيدي الأتراك إلى المصلحة السياسيّة قبل أن يبطل السّلطان منصب الخليفة، تم فعل ذلك في بلاد ما بين النّهرين حينما هبّت القبائل بأمر الأتراك بذريعة القضية الدّينية عند نشوب الحرب الكبرى. يفسّر مولوي محمّد علي في ترجمته للقرآن (حاشية 1073) كلمة الجهاد بأنها «الكفاح» (وهي وجهة نظر طائفة مسلمة صغيرة دون شك) وينكر أهميتها الحربية، ربما تعني من حيث اشتقاق الكلمة كما قال، ولكن بالتّطبيق العملي بين القبائل العربية نفسها فإن الكلمة تتضمّن المعنى الذي قدّمته أنا. (1) وكان آنذاك برتبة رائد (ميجور)، أمّا الآن فهو العقيد إتش. آر. بي. ديكسون، المندوب الشّياسي في الكويت، الخليج العربي.

واسم كل امرأة وطفل في بعض المناطق التي أكسبته صلابته فيها لقب أبو رصاص⁽¹⁾. كان خريج كلية إكسِتر Exeter College، في أوكسفورد والفوج التاسع والعشرين ل سلاح الفرسان الهندي، ولقد جمع التعاطف الشَّهم بالصَّبر الدَّؤوب فتفوق على العربي بلعبته الخاصة في رواية القصة.

ولكن واحسرتاه! كانت تلك المزايا النَّاجحة في مكان آخر محتومة لتبرهن عقمها بالتعامل مع بدر الحازم، فهي لم تجعله يتجاوز مرحلة مقابلة الرَّجل العجوز، وقد حدثت بالطريقة النَّالية كما قال لي هو فيما بعد.

كان يقوم بجولة في منطقة البحيرة ليعرض العَلَم ويحاول أن يقوم باتصال معه، جلب له جواسيسه في الوقت المناسب رسالة من بدر تقول: «لن آتي إلى النَّاصرية ولكن نعم سأقابلك هنا وجهاً لوجه بأية وسيلة، كن غداً عند الفجر إذا شئت في بقعة محدَّدة في السَّهل المكشوف، ستجدني هناك دون أن يأتي أيّ منا مسلَّحاً».

كان ذلك تقدماً بكل تأكيد، ونظر ديكسون حول جنوده الخاصين من العرب المخلصين بحثاً عن التشجيع.

لم يكن هناك أحد مستعد للمساعدة.

كان تعليقهم: «لا تذهب، لا يوجد في ذلك العرض خير، بل ليس فيه إلا الشَّر».

لكن السَّياسي شعر بأن الإنصات لمشورتهم يعني إغلاق الباب نصف المفتوح، لذلك يتوجَّب عليه الدَّهاب.

(1) إنَّ صيغة هذا اللقب لدى العرب تتضمَّن الدَّم على الإطلاق ويندر إفلات اللقب السَّامي منها. وكان السَّير ريتشارد الذي كان وقتها الملازم الأول بُرتون يُعرف لدى صاحبه البدوي القديم في رحلته السَّرية إلى مكَّة باسم: أبو شنب، بسبب إهماله تشذيب شاربه حسب الأسلوب الشَّافعي Shaf'i العام، كما أضحكني ما سمعته في إحدى المناسبات في جنوب جزيرة العرب عن ضابط بريطاني شهير كان قد زار المكان قبل عدة سنين، وكان يذكر باسم: أبو خرطوم فقط - إشارة إلى أنفه البارز النَّاتئ.

قلت: الخرطوم في لهجة بعض القبائل يعني الأنف، دون مواربة أو تهكُّم.

كان الملتقى في كوخ على هضبة منخفضة في السهل المكشوف، فكان هناك عند انفلاق الفجر، ولكن أين كان بدر؟

مضت الدقائق دون ظهور أثر للرجل العجوز، ولكنه سيبتظر، وكلما ارتفعت الشمس في السماء الشرقية كلما بدأت آماله التي بناها بالزوال، فلعن نفسه لسذاجته وسهولة خداعه، وبات في مرحلة المغادرة عندما لفتت انتباهه بقعة في خط الأفق، أصبحت في منظاره المكبر تثير سحببات من الغبار وانثقت منها كوكبة فرسان مؤلفة من ثمانين فارساً جاؤوا يعدون ليطوقوا الكوخ حيث كان يقف وحيداً، ترجلوا جميعاً وخرج من وسطهم بدر وهو يسير بخطى واسعة. لا يمكن أن يقع خطأ بمعرفته، فهو شخصية جذابة لرجل طويل ضخيم، لكنّه انحنى لسنوات عمره الخمسة والسّتين، ووجهه مجعّد ماكر وعيناه نفاذتان ولحيته مربّعة برّاقة - ذلك ما تركه من انطباع لا ينسى.

قال: «السّلام عليكم» وهو يتوجّه مباشرة نحو ديكسون بطريقة ملطفة، لأنّ خيانة من طلبت له السّلام هي أسوأ أنواع الغدر، من أجل ذلك كلّ بدت كأنها مكيدة، وامتلاء السّياسي بالغیظ لشعوره بأنّ بدرًا قد تصرف بأسلوب سئ بشرطه المهين جداً للمقابلة المنفردة بينهما، فاستدار وأعرب عن غضبه بشكل صريح. وقف الشّیخ العربي يرمقه بصمت لوهلة، ثم انفجر ضاحكاً واقترب منه ووضع يديه السّمراتين المجمعدين على كتفي ديكسون، ثم طبع قبلة على إحدى وجنتيه وأردفها بالوجنة الأخرى وهكذا شرع ببحث هدف اللقاء.

قال الانكليزي بالملخص: «تعال معي، تعال معي تحت الحظ والبخت *hadh wa bakht* (العبور الآمن) إلى النّاصرية، سوف أرسل برقية للمفوض⁽¹⁾ المدني في بغداد وأقدّم له تقريراً بأنك قد أعلنت السّلام من جهتك وأعدك بالحفاظ على حياتك وبتسوية مشرّفة. انزل عليّ ضيف شرف وسوف أقدم لك تعهداً جدياً بأنك ستعود

(1) لم يكن تعبير المفوض السامي للعراق يستعمل أثناء التّهاء الاخيرة للحرب وفترة ما بعد الحرب، وكانت تعرف السّلطة العليا المدنيّة باسم «المفوض المدني لبلاد الرّافدين» وكان أول من شغلها الشّير پرسی كوكس وفيما بعد الشّير أرنولد ويلسون.

بسلام إلى قرينتك بعد بضعة أيام».

بدا بدر العجوز في البداية مسترخياً وهو يحدّق بالسياسي بفضول ثم مدّ يده ليصافح يد الآخر.

قال: «كلماتك لبقة وحتى كما توقعت لها أن تكون، شكراتي الكثيرة أيها الحاكم، ستقابل غداً ثانية إن شاء الله، فلتكن في هذا المكان ذاته وفي الساعة ذاتها! إلى اللقاء، بأمان الله!» واستدار وذهب كما جاء مع وقع الحوافر الشّجاعة.

أطرى ديكسون نفسه، فهو على الأقل في المسار الصحيح، وامتنطى صهوة حصانه وعاد إلى المعسكر وهو يرتجل البرقية التي ستسرع غداً بالذهاب إلى أعلى الجهات حاملة لهم الارتياح.

ولكنه كان خيلاً وهمياً، فقد وردت مع بزوغ الفجر أنباء ارتداد بدر وهروبه.

مالذي ألمّ به بعد هذه المقابلة الرّسمية الواعدة؟ حتماً لم تنتبه أية مخاوف؟ لماذا اختفى ثانية لأسباب مجهولة في قوقعته التي تبدو وكأنه مقدّر لها ألا تستسلم لشيء أقل من الفولاذ البارد؟

ثم ماذا سيكون التأثير على القبائل المؤيّدة التي أنجزنا خضوعها بجهد بليغ جداً؟ ربما تنطوي رغبة بدر في تعظيم ذاته على نتائج ضارة وبعيدة المنال.

ارتبك ديكسون، فقد اهتزّ فجأة إيمانه بمقاييس السّلام وآماله باللجوء إلى المنطق، ألم يكن هو عميل الحكومة العسكرية؟ ومن المؤكد أنّ بدرًا لا بدّ أنّه أدرك قوّتنا العسكرية؟

لكن بدا بدر ينوي وضع إيهامه على أنفه والتّحدّي مع «الأخماس المتتالية» consecutive fifths التي يمقتها المتخصّصون في الموسيقى، الضّابط الأمر العام ودفاعات الفُرات.

* * *



اللفتنانت كولونيل السّير آرنولد ويلسون

الفصل الثاني من المغامرة الأولى لقاء تمهيدي

28 مايو 1918

نظام عملية

و. سي. ريفر كولن RIVER COLUMN

رقم 1

(المرجع، خارطة مسح بمقياس نصف إنش على ميل في الغباشية والخميسية
والناصرية).

1 - الموقف:

إلى الوقت الزّاهن لم يستسلم الشّيخ بدر الرّميضي من قبيلة البوصالح للحكومة
البريطانية.

بقي موقفه لمدة طويلة سلبياً وغير واضح، ولكن استعصاءه بعدم الامتثال يؤخّر
استقرار مسألة البوصالح.

2 - الهدف:

ترمي سفينة الدّفاع فاير فلاي وإس 9 مع كتيبة المشاة التاسعة والتّسعين والتّجريدة

”d“ قسم فرقة الرّشاشات الهندية مصحوبة بقائد التّاصرّيّة السّياسي والضّابط السّياسي المساعد في سوق الشّيوخ Suq، إلى زيارة قرية بدر الرّميص في 29 مايو 1918 وتفرض عليه الاستسلام للحكومة البريطانية.

3 - تنظيم العمليات وتفصيلها:

في صباح يوم التّاسع والعشرين من شهر مايو ستبحر سفنٌ ورد اسمها في الطّلب من مزلق Mazlik، عيّنت سفن الدّفاع فاير فلاي Firefly وجرينفلاي Greenfly وإس 9 في السّاعة الخامسة صباحاً.

ستبقى جرينفلاي خلف فايرفلاي بمسافة أربعمئة يارد، وتبقى إس 9 خلف جرينفلاي. تتقدّم السفن عبر أهوار الحمّار Hammar والفهود وأم القطين وبو غلوين وهور Taliyah إلى نقطة مقابلة لقرية بدر (sq. F.2.2O.55).

4 - احتياطات وقائية:

سوف تتخذ السفن والقوات والأفراد احتياطات وقائية كاملة ضد إطلاق النّار عند الدّخول إلى بحيرة قطين، كإجراء احتياطي بالرّغم من عدم توقع وجود المقاومة. في حال ضرورة الرّسو على البرّ، ستقوم كتيبة المشاة التّاسعة والتّسعون وإم جي جي إس Mg.G.S. وسيارة إسعاف الميدان المشتركة بتحضير طعام الغد في هذه الليلة كإجراء احتياطي.

5 - التّصرّف المتبع في حال حدوث إطلاق النّار على السفن:

في حال حدوث إطلاق النّار على السفن سوف تفتح نيران المدافع الرّشاشة أو تطلق نيران البنادق فوراً على الأطراف المعادية.

ستتحرك السفن بحذر لأنّ الملاحة ستكون في أماكن غير آمنة بسبب الضّفاف والمياه الضّحلة.

اتصالات الكتائب:

ستقوم شركة قسم خط إشارة الاتصالات رقم 3 بالمحافظة على الاتصال بين فايرفلاي و غرينفلاي و إس 9.

7 - التقارير:

كل تقارير عملية سي ريفر كولن River Column في سفينة الدفاع فايرفلاي.

سيكون هذا أول تذوق لي للعمل السياسي، وكنت قد غادرت للتو فوجي ذه فورث سومرست Somerset 4 / the 1، في الناصرة للموافقة على تعيين الضابط السياسي المساعد في سوق الشيوخ. كان هايسوم⁽¹⁾ Haysom وهو كابتن شاب يتحدث عدة لغات منتدب من فوج راجبوت كان هو المسؤول، وقد أُرْسِيت معه سفينة إس 9 تنفيذاً للأوامر عندما كانت تمر في النهر في الساعة السابعة وخمسة وأربعين دقيقة صباحاً أثناء جولة اليوم الثامن والعشرين من مايو.

قابلنا على متن السفينة العقيد سي دي ج. لوكسمور C. de J. Luxmore من كتبة المشاة التاسعة والتسعين، وقد كان الضابط الأمر في عملية الكولن ومع الزائد ديكسون رئيسنا السياسي المحلي وأطلعنا على الفور على الخطة ضد الرجل العجوز في الأهوار.

كست بساتن التخيل الكثيفة ضفتي نهر الفرات العظيم، واحتضنت فسحاتها القرى الطينية أو انتشرت هنا وهناك مقامات ذات قبب زرقاء اعتاد الحجاج الشيعة جلب الهدايا إليها، أبحرنا دون انقطاع حتى وصلنا عند الظهيرة إلى انتشار ماء هور الحمار الواسع حيث رست سفيتنا المدفعية فايرفلاي و غرينفلاي. كنا زوار جناح الضباط الأكثر شعبية لأننا جئنا نحمل حصتهم من الثلج التي لا يقدر قيمته رجل أكثر من ذاك الذي يُجبر على شرب البيرة ساخنة في المنطقة المدارية تحت ظروف الحملة العسكرية، التي تسجل الحرارة أثناءها في الظل مئة وعشرين درجة فهرنهايت. انتقلنا في تلك الليلة مع أو سي كولن O.C. Column إلى سفينة الفايرفلاي ونقلنا إلى

(1) الكابتن ر. ر. هايسوم Captain R. R. Haysom.

السّفينة معنا في الوقت ذاته شحنة ذخيرة لاثني عشر مدفعاً.

كان علينا تنفيذ المهمة باكراً في حال شئنا أن نستفيد من عنصر المفاجأة، إذ كنا سنخدع أنفسنا لو ظننا أنّ هدف حشد قواتنا العسكرية قد فقد على شاطئ العرب، أو أن هؤلاء سيعجزون عن إرسال سعاة إلى رجلنا العجوز في الأهوار قبل فترة طويلة من ارتفاع نفث الدخان من مداخنا فوق أفقه ليحذّره من زيارتنا الوشيكة.

صحوت فوجدت سفيتنا جارية، وكان رجال الإشارة والمدفعيون منشغلين بملء أكياس الرّممل التي نبني بها جداراً مضاداً للرّصاص داخل متاريس السّفينة، فأخذنا إبحار أربع ساعات إلى الجانب البعيد من البحيرة، وعند السّاعة التاسعة والتّصف وصلنا إلى مرسى في موقع يبعد عن حصن بدر مسافة مئة وأربع وعشرين ياردة في جهة الغرب الجنوبي الغربي.

رَحّبت بنا طلقات نيران متفرّقة واضحة العداء من الضّفة الشّرقية، بينما كنا نغادر البحيرة ونقترب عبر القناة الضّيقة المحفوفة بالتّخيل نحو قرية بدر، ولكننا لم نرد على إطلاق النّار، لم تثر فينا تلك الطّلاقات سوى تعليق أحد المرافقين السّواريين Sowar فقال: «الكلاب تنبح والقافلة تسير» وهو يضحك من استعراض التّحدّي غير المجدي.

انقضت ساعات الصّباح الباكر بينما كنا نستمتع لرواية قصة العربي، فالعربي العشائري بارع برواية القصص ربما بسبب أمّيته، ووصفه الحيّ لبسالة بدر وعمله البطولي أبقانا مستمتعين. استولى الرّجل العجوز منذ بضعة شهور فقط، كما نسمع الآن، على قارب مدفعية مرسل في مهمّة طبيعتها مماثلة لطبيعة مهمّتنا وأعمل السّيف بالمجموعة التي على متن السّفينة دون استثناء، من المستغرب ألاّ تتمكّن همسة عن تلك المسألة من طرق مسامعنا، في حين كان الأعراب يجزمون بوقوع كل تفاصيلها المغيظة! يتابع ملفّق القصص بأنّ تلك السّفينة قد ذهبت إلى الشّاطئ فوق الضّفة الرّمليّة، وتابع الأعراب دون إبطاء إلى مسافة ميل أو اثنين أعلى النّهر، وبدأوا بنشاط شديد يصنعون مئات الحبال من الأعشاب، قامت تلك الحبال بعمل ما يتطلب منها بطوفانها تحت الماء في أسفل النّهر - فقد تشابكت برّاقص السّفينة

الذي كان يدور دون جدوى وعرقلت المحاور فأصبحت الاستفادة من المحركات بعد ذلك مستحيلة، أما البقية فكانت سهلة، عندما بدأ الطاقم البريطاني منشغلاً بشدة بعمليات انقاذ السفينة، تقدّم بدر ورجاله المرحون الذين كانوا بالانتظار واستولوا على المركب، وهكذا انتهت الرواية الملفقة.

يوجد عبرة وراء القصة رغم ذلك، فقد كان بدر رجل انشغافات بلا ريب، لنأخذ الشجاعة العائلية لوحدها، ألم يتزوج خمساً وستين امرأة⁽¹⁾، بترتيب حسابي لعذراء شابة في كل سنة من الحياة على سبيل المثال، وعندما كان يمضي إلى الحرب ألم يسر عند مرفقه فرقة من عشرين من أبنائه؟ لقد اجتمع هنا سليمان ويوشع في رجل واحد. لا عجب من جو هذه الأرض - ألم تكن هي أرض شنعار Shinar وأرض مدينة بابل وجنة عدن؟ جو الآباء القدماء والمعاصرين الذي لَوْنُ أغاني زمانهم البديئة، كانت مثالية فوجدت فيها فرقة الجنود بهجة آثمة في ذلك الصّباح⁽²⁾.

(1) يبدو أنّ شيوخ العشائر في بلاد ما بين النهرين قد تفوقوا في هذه النقطة على شيوخ أيّ جزء من شبه الجزيرة، كان انتماء خمس عشرة أو عشرين امرأة لرجل واحد (كل العمال اليدوين المربحين اقتصادياً) أمراً نادراً بشكل مطلق بين أهل المُنْتَفِق، رغم أن التعايش كان محصوراً بثلاثة أو أربعة زوجات، وقد اقتصرت تجارب الآخرين على مدة قصيرة من وصولهم المبكر، أي بمعنى عندما كانوا بعمر الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، ويسمح للمسلمين في عقيدتهم بأربع زوجات شرعيات فقط، ومع ذلك يمكن إضافة نساء أخريات كجوار أو محظيات، ولكن عادة المتعة التي تفسّر تعدّد زوجات بدر المفرط، هي عادة مخصصة للشيعة وهو مذهب أغلبية واسعة لعشائر العراق في جنوب بغداد. تنشئ المتعة علاقة تعاقدية مع امرأة حرّة يصعب تمييزها عن الزواج في الممارسة العشائرية، ولكن زوجة المتعة بخلاف المحظية، فهي وريثة لممتلكات الرجل بالدرجة ذاتها مع زوجاته الأربع المحدّدات، وبالرغم من ذلك فإنّ النظام مرن بشكل ملائم، فأتناء الحج إلى الأماكن المقدّسة في كربلاء والتجف يستطيع رجل القبيلة الحصول فوراً على زوجة متعة ويتزوجها لليلة واحدة أو لمدّة أسبوع أو للفترة التي سيمكث فيها. مثل هذه العقود قصيرة الأمد، بالرغم من أنها لا تنافي أحكام مذهب الشيعة فهي ماثار للامتعاض، كما استنتجت، حتى في بلاد فارس.

(2) فيما يلي هذيانات بشكل شعر غنائي رخيص يتناول قصص التّوراة، لربما يرى البعض وجوب حذفها، لكنني تركتها حفاظاً على فحوى الكتاب والجو المحبب والمرهق الذي عاشه عسكر

كان آدم رجلاً فاضلاً لا عمل له
باستثناء تعميد الحيوانات وتجنّب التفاح أيضاً
وعندما طُرد من عدن، كان عليه أن يعزق
بينما جهّزت حوّا ثياب النّوم من ورق شجر التّين

كان نوح حارس حديقة حيوان بابل
اعتاد أن يأخذ الحيوانات للسّير اثنين اثنين
بنى سفينة من خشب الغوفر طفت فوق الماء
وعندما انحدر الطّوفان لم يُبالِ شروى نكير

كان هناك السيّد إبراهيم أبو اليهود
أعطى فرعون زوجته لأنّه لم يستطع الرّفّض
عاش حياة طمأنينة بغرور حتى ما يقارب الواحدة والتّسعين
عندما كان لدى سارة الجرأة لتنجب له ابناً

كان عيسو فلاحاً من الغرب الجامح والصّوفي
ترك له أبوه نصف أرضه وليعقوب كل ما تبقيّ منها
فلم يرَ عيسو في صكّ الملكية شيئاً واضحاً
فباع الحصّة ليعقوب بشطيرة وبعض البيرة

الإنكليز بأواخر الحرب العالميّة الأولى، وهو ما نلمسه بوضوح في سيرة حياة اللورد جورج
ناتانييل كُرزون التي نشرناها في هذه السّلسلة. (أحمد)

كان يوسف عبقرياً برأس ملاء الغرور
فأمسكه إخوته من سرواله وقذفوا به إلى غيابة الجب
قابل السيدة فوطيفار وأساليبها الحمقاء
وعندما قام بصفقة مع فرعون واحتكر كل القمح
كانت لموسى أمٌ حزينة لأنه ولد
فتركته قرب النهر في سلّة مسيّياً تماماً
التقطته ابنة فرعون بينما كانت تسير في صباح أحد الأيام
ثم بدأت قطط القاهرة البذيئة بالكلام

كان يوجد فتى يدعى يوشع، قائد ذو شهرة
كان لديه وجنة مباركة تمنع الشّمس من الغروب
فالتحق بفرقة الألمان وعزف على الزّمخر الكبير
ففجّر جدران أريحا بعزفه النّشاز

كان شمشون ملاكماً من مدرسة داركي جونسون
فدلّى من حزام المحافظين عظمة فك سفلي لبغل
ثم قابل دليّة فسقته شراب الجنّ حتى امتلأ
وعندما قصّت جدائله اعتقلته الشرطة

عاش سليمان وداود أبهج أنواع الحياة
مع ملايين المحظيات ومئات الزوجات
وعندما تقدّما بالسّن ثار فيهما تأنيب الضمير
فكتب أحدهما الأمثال وغنى الآخر المزامير المقدّسة

كان أوريا حثياً له زوجة جمالها منقطع النظير
وعندما رآها الملك داود وهي تسبح أحبتها في ذلك الزّمان والمكان
فدعا قائد جيشه وقال له بحرص:
«خذ الحثي متورّد اللون وانقل لي خبر موته».

كانت توجد السيّدة إيزابل ذات السمعة السيئة جداً
ذهبت وتزوّجت أحاب بمزاج يشبه مزاج البهيمة
انحنت خارج النّافذة وكان قد منعها من فعل ذلك على نحو صارم
حتى صاح أحدهم: «ألقوها إلى الأسفل» فقاموا برميها إلى الأسفل

كان يونس بحاراً، كما يدور في الحكاية القديمة
فحجز مكان مرور على حوت ما وراء المحيط الاطلسي
وعندما أثقل جوّ الأسماك صدره
ضغط يونس الزّر فتدبّر الحوت أمر كل ما تبقى

كانت هناك فرقة من المشعوذين قدّموا عرضاً ربيعاً
أسماؤهم: شدرخ وميشخ وعبد نغو
قاموا بخدعة تنفيذاً لرغبة الملك، هي أفضل ما قدّموا
عندما وثبوا وهم يرتدون ثيابهم في النار المتأججة المُحرقة

بلغنا حدود الملاحة للسفن ذات الحمولة الطّنية بوزن حمولتنا بأمان، خلق الإبحار
شديد البطء لبضعة أميال الأخيرة مخاطر جمّة في المسير، فقد يختلف موقع الأرض
المنخفضة بين يوم وآخر تبعاً لارتفاع النّهر أو انخفاضه، فيوجد في الواقع مجال كاف
للمناورة عندما يرتفع الفيضان في شهري يوليو وأغسطس، إلا أنّ الحرارة الشّديدة في
هذين الشّهرين تعمل ضد نجاح العمليات التي تقوم بها القوات البيضاء، ولو تمكّنا
من اختيار توقيتنا للتّحدي، لما كنا اخترنا أشهر الصّيف.

كان المشهد أماناً مميّزاً، فقد تراجعت الضّفتان الشّرقية والغربية بامتدادات جافّة
منحت بدورها مناطق بحيرات مؤقتة، كانت القطعان في الحقول الفسيحة الصّفراء في
منتصف المسافة علامة إضافية على الرّيف المأهول بكثافة لو احتجنا لها. تمتدّ قرية
بدر في الجانب الغربي من بساتين النّخيل، وكان يفصلنا عنها سهل أجرد تغصّن بطرق
غائرة يمكن أن ترّجح وجود كمين لجنود مجهولين، فكانت لمحة واحدة تكفي لتُظهر
بأنّ رسوّ قوة صغيرة بحجم قواتنا ليست مضمونة حتى ولو كانت تلك الطّرق معروفة.

على الرّغم من ذلك كانت مهمتنا السّلام، ولكن يتطلّب الأمر طرفين لصنع
السّلام، وإذا أراد بدر السّلام، فهو يستطيع الحصول عليه ببساطة بالقُدوم إلى متن
السّفينة والتّفاوض، وسوف يؤمّن له المرور الآمن للعودة إن لم تُرضه عروضنا، أو إذا
طلب مدّة لدراستها وفي الحاليتين لن يكون في حالة أسوأ من حالته إذا لم يأت مطلقاً.
تبدو قرية بدر مهجورة من مكان تواجدنا، لم يمكننا رؤية بشر بالرّغم من وجود خيام
مجالس ضيافة كبيرة وصغيرة تقوم قبالة الحصن، وبضعة خيول مقيّدة قريبة منها تدلّ

على السّكن منذ فترة وجيزة فيها إن لم تكن مسكونة بالفعل.

ظهر شخص للعيان فجأة من الخيمة الكبيرة وتوجه مباشرة نحونا، اقتربت منا العربة الوقورة والشخص البدن بطلعة متكلفة وكسوة غير زاهية تدلّ على رجل دين، كان في الواقع الملاً مشرف المستشار الديني لبدر، رجل الدين الرئيس والكاآب - واحد من طبقة ذات سلطة كبيرة في زمانها استمرت إلى السنين التي أكتب فيها.

بعد انتهاء الشكليات بادر بالقول:

«لماذا جئنا؟ لقد اضطربت القبيلة بسبب زيارتنا، وإذا كنا نسعى وراء الشيخ بدر فإنه لسوء الحظ قد غادر باتجاه الدّاخل في صباح ذلك اليوم ذاته، ولكن أكبر أبنائه حسن موجود وهو خادمنا المطيع».

قال له ديكسون: «عد واثب به»، فوصل حسن في الوقت المناسب.

«يا حسن، أين والدك؟».

«يبعد الشيخ بدر مسافة ساعة سير على الحصان».

«جئنا لرؤيته، ولن تحدث له أذى، ولا عقوبات ستطبق عليه بسبب جرائمه السابقة، كل ما نرغبنا به هو زيارة رسمية للتأصيرية وإجراء من جانبه عليه القيام به في المستقبل، ليس أسوأ ولا أفضل من جيرانه».

أجاب حسن: «بركات الله عليك».

«ولكننا نريده هنا، هل هو مستعدّ للقدوم إلى متن المركب؟».

أجاب حسن: «الله أعلم» ممّا يدل على إنكاره. «ولكننا خدّامك، وأخواي الاثنان الآن في القرية، خذهما وأنا معهما، في حال رغبتك خذنا إذا شئت رهائن».

كان ذلك مثيراً، بدا واضحاً بأنّ الشيخ يلعب لعبته القديمة. لطفه ديكسون ووعدته وناقشه تباعاً ولكن كل ذلك كان بلا طائل، فالوسطاء نادراً ما يتوقّع أن يصرّحوا عن نيّة سيدهم حتى ولو عرفوها، وبعد انقضاء نقاش ثلاث ساعات استنفذ صبر السياسي

بالكامل. فانسحب مع قائد قطعة الكوكن العسكرية لبحث الخطوة التالية. تقرر بسرعة أن يرسل الملاً مُشرف إلى الشاطئ مع إنذار نهائي رسمي لبدر على أن يعود إلى متن السفينة بعد ساعة، وأرسل حسن الذي سيبقى على متن السفينة رسالة سرية في الوقت ذاته - رغم أنه لم يتضح تماماً مدى ما كان يخفيه - يطلب أخويه الاثنين للقدوم إلى المركب دون قيد أو شرط.

أجبر ذلك بإعلان آرائه ومبادئه للمحاكمة، فعند الساعة الواحدة والنصف سلّم الملاً جواباً مكتوباً مهوراً بخاتم بدر برفضه المهذّب، وسوف لن يأتي بدر ولا ولده. وُضع في الحساب أنّه إذا استمرت فرقة ريفر كوكن هذه الكذب وغادرت تاركة وراءها سمعة بأنها لم تنجز شيئاً، فإنّ تصرفها هذا لن يشجّع بدرّاً على المزيد من العناد فحسب، ولكنه أيضاً سيحثّ الشيوخ الموالين الذين رضخوا للتوّ على تركنا معتقدين بأنهم يستطيعون فعل الشئ نفسه والإفلات من العقاب. تطلّب الأمر اتخاذ تصرّف من أي نوع لإظهار أنّ الحكومة كانت جادة. وكان عملنا هذا متوقعاً على الشاطئ أيضاً، إذ حدث اندفاع مفاجئ بالحركة حول الخيام، وفرقة رصاص وعويل نساء ورقصة حرب شكّلت كلها ردّ بدر - فزعة العشيرة أو نهوضها التمودجي. كان ذلك تتمّة طبيعية للمواجهة الكلامية، وانطلق خارج بساتين التّخيل بعد ذلك بوقت قصير ما يقارب المئة من رجال القبيلة يحملون البنادق بأيديهم، ليقطعوا السهل ويتجمّعوا حول البيرق الذي رُفع في الخارج أمام الخيام. كنا ملتزمين بالشرف أن نكفّ أيدينا حتى انقضاء الوقت المذكور في إنذارنا النهائي، وإلا كنّا خلفنا خراباً كبيراً.

جاءت تلك اللحظة في الساعة الواحدة والنصف، وأصدرت الأوامر لفأيرفلاي أن تفتح نيرانها في البداية. تعطلّ أحد مدافعها بعد عدّة إطلاقات ثم أقتربت غرينفلاي من المعركة بضربة مباشرة، واستمرّ القصف. انفجرت الخيمة الكبيرة إلى أجزاء ثم شبت في الخيمة الأصغر النيران وسجلت بعض إصابات على وتد المضافة، وأكبر تلك الأخبار حدوث فجوات في البرجين الغربي والشمالي في القلعة.

جلس العقيد لو كسمور Luxmore قائد تلك العمليات بشجاعة في أعلى نقطة على

الجسر، حيث كان أفضل موقع لمراقبة وتسجيل التّحرّكات على الشّاطئ وليخطّط ويحدّد النقاط للمدافع، وقد جلب موقعه المكشوف عدداً كبيراً من الطّلاقات النّارية كانت كلها لحسن الحظ غير فعّالة. لم تظهر علامات الحياة بعد أول هجوم بالقنابل حتى اندفع بضعة رجال خارجين، يفترض أنهم بدر وحرّاسه الشّخصيّون، ووثبوا على صهوات جيادهم واختفوا وراء سحب من التّراب باتجاه الشّمال.

صدرت الإشارة «أوقفوا إطلاق النّار» في السّاعة الثّالثة بعد الظّهر وتبعها الأمر بالانسحاب. أبحرت الباخرة إس 9 في المقدّمة عبر النّهر في السّاعة الثّانية وأربعين دقيقة، وتبعها الآن غرينفلاي وفايرفلاي بمسافة أمان، متوقعين في كل لحظة توهّجاً قادماً نحوها من بساتين التّمّر التي تحفّ بضفّة النّهر، يقوم به رجال القبيلة الذين سوف يعترضون مؤخّرة انسحابنا. وبينما كنا نرفع المرساة ونتسارع في إبحارنا، بدا للعيان مجدّداً مئات القرويين في السّهل متجهين نحو مساكنهم المقفرة. دخلت غرينفلاي فوق طين الشّاطئ أكثر من مرّة ولم تخرج منه إلا بصعوبة، وتوقفت فايرفلاي في تلك الأحداث بجانب إس 9 لأنها حارسة المؤخّرة، ولكنها تابعت لقدرتها الأقلّ بتقديم بيان عن نفسها. كانت تلك لحظات مثيرة، إذ أنه لو ابتدأ هجوم العرب أثناء عملية الإنقاذ لكانت لديه فرصة جيدة للنّجاح وبشكل خاص عند هبوط الطّلام.

كان عربي الأهوار بطبعه برمائياً مثله مثل الضّفدع، وسباحاً ماهراً حتى بذراع واحد يجالّد النّهر في المياه العذبة ويده الأخرى مرفوعة فوق رأسه عالياً وهي تحمل ملابسه خارج الماء ممّا يمكنه من التّحوّل إلى الحالة الجافة في الضّفّة الثّانية. وقد انغمس في زمان الأتراك أثناء الحرب بعادة سيئة باستعمال براعته في أغراض مشبوهة أكثر، فيدهن جسده بالزّيّت وهو ينتظر المساء ويعوم أسفل النّهر بحذاء المركب الذي وضع عليه علامة في الأسفل ثم يقفز على متنه ووينزل من المركب بصمت ثانية حاملاً غنيمته، التي تقول الأسطورة بأنه يوصلها إلى الشّاطئ في حالة جافّة نسبياً.

لحسن الحظ، لم تعلق فايرفلاي وغرينفلاي في أي مكان بشدّة وسرعة، وقد حدثت حادثة مسليّة أثناء لحظة التّوتر في الوقوف على الأرض، تشرح رباطة جأش

«الملاح» البريطاني، إذ وقع من على متن السفينة جرو صغير منفوش الرّغب من أصل غير معروف، معروف جينياً عند الجيش في تلك الفترة باسم «سپانييل الموصل» Mosul Spaniel، فظهر صاحبه البحار العملاق الضخم في نفس اللحظة على سطح السفينة، وخطا من فوق جانب السفينة كما لو كان يخطو على الرّصيف دون أن يتوقف ليفكر بالعرب المعادين أو أن يجرد نفسه من غرزة من ثيابه، واختفى تحت الماء لبرهة ثم ظهر على السطح يناضل من أجل الجرو الذي كان يتراجع الآن مع التيار المندفِع ويجاهد دون طائل ليصل إلى السفينة، وبعد فترة طويلة استطاع اللحاق بها واستدار بعد أن وصل إليها وسلّم الجرو للأعلى ثم انتقل إلى متنها بنفسه، وقد التصقت بزّته النظامية بجسده البدين. تلفّظ بشتيمة كفر في حقّ المنبوذ الصّغير التّيس الذي كاد يغرق وهو يربت عليه، وشارك رفاقه بالضحك من الأعماق دون أن يدرك أنه لم يفعل إلا الشّيء الوحيد الذي يمكن فعله. ولكن المقادير كانت رحيمة فلم يكمن عربي في تلك النّخلات المتوعدة باستثناء حجارة ألقيت بعيداً.

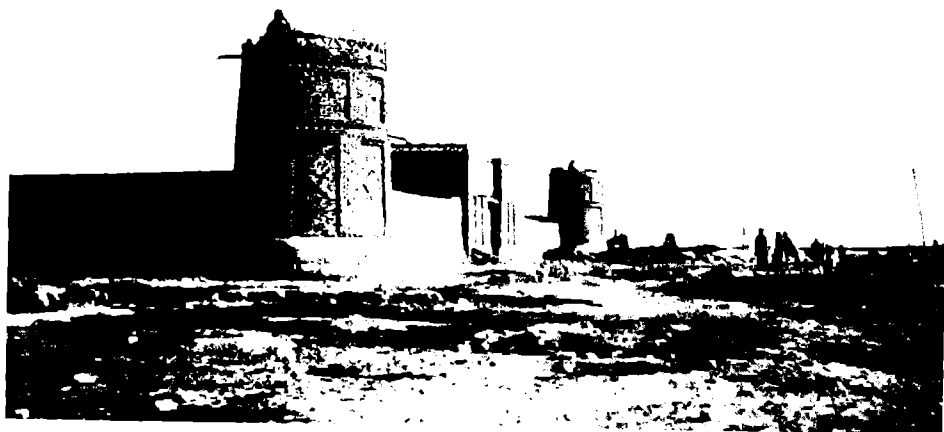
انزلت غرينفلاي إلى المياه العميقة وتابعت ريفر كوكّن رحلة عودتها الخالية من الأحداث، وعند غروب اليوم التّالي عدنا جميعاً إلى مواقع أعمالنا الطّبيعية. أخذنا حسن ابن الشّيخ رهينة معنا سجيناً لاعتقال غير محدود (أطلق سراحه فيما بعد بشكل عرضي)، وأعلن بشكل رسمي أنّ رجل الأهوار العجوز خارج عن القانون، وأشيع في الخارج بأنّ منافساً له قد عينته الحكومة خليفاً له وشيخاً لبني مالك.

أنزلت وهايسوم في موجة حرّ عند سوق الشيوخ، وسبقنا إلى هناك *tail bairdi* (لاسلكي القصب) أو ببساطة الإشاعة العربية، فأذاعت خطّ سير الحملة وأضيفت لها الحيوية بقليل من المبالغة، وتعلّمت في ذلك الوقت ألا أصعق عندما حيّاني حمالي العربي بابتسامة عريضة وروى لي بقناعة واضحة، بدعة البازار التّمودجية، كيف أنزل رأسّ دام لواحد من ذرية بدر التي لا تعدّ ولا تحصى بعد القصف من أعلى غصن في نخلة بعيدة.

* * *



مجموعة من شيوخ المُنتَفِق (العلامة X تدل على صورتي)



حصن الفتحي

الفصل الثالث من المغامرة الأولى

هدوء مؤقت

مرّت سنة.

تركت سوق الشيوخ في أدنى الفرات أثناء الشتاء، وذهبت في مهمة مستقلة في منطقة الشطرة السياسية في الغراف Gharraf، وهي منطقة الوصول الدنيا في نهر الحي Hai. وعلى الرغم من أنني كنت ما أزال في ديرة المتنفق فإنّ بدراً كان خارج حدودي و«البعيد عن العين بعيد عن الذاكرة» وظننت أنني قد رأيته لآخر مرة، ولكنني أخطأت فقد كان شلال النهر ببساطة قد أوقف العمليات.

لنعد برهة لوصف الأرض، هي أولاً ودائماً سهل طيني فسيح سفحته الشمس، تبدّى فيه الطبيعة بأقصى حالاتها، هو هبة نهريّن يخطّان طريقهما بشكل ملتوٍ غير مستقرّ من خلاله، ويجلبان حملاً من الطمي الأحمر في الربيع وبداية الصيف، فيترسّب عند انحسار الفيضانات. أمّا الحرارة فهي نادراً ما تكون رحيمة أكثر من مئة وخمس عشرة درجة فهرنهايت، وتجعل الأمسيات انخفاضها إلى ثلاثين أو أربعين درجة ببرودة مبهجة محببة.

لا توجد حجارة في هذا السهل الهائل إلا فيما ندر، حتى لو كانت بحجم قبضة اليد، لذلك بُنيت مدينة بابل أفخم مدينة فيه بكاملها من آجر الطين المحروق بالشمس على العكس من نينوى Nineveh ومدن آشور المقامة على التلال.

أما النهر الذي لم يكن سوى مجرى ضعيفاً في الشتاء فيغدو فياضاً مندفعاً وسفاحاً عندما تذيب شمس الصيف ثلوج جبل أنغورا Angora، ويسبّب فيضانا عنيفاً على

طول الأرض ليختلط في النهاية بمياه الخليج العربي . ما يقلق عقول الناس الآن ما إذا ستتماسك السدود الترابية التي أنشأتها القبائل ضد هذا الحدث، لأنّ النهر الفائض في مستوى أعلى من مستوى السهل وهو يفيض بعنف عبر تلك السدود، فثغرة واحدة سوف تغرق الرّيف بمجمله في غضون ليلة واحدة وتسبب العجز في محاصيل مجهود فصل الشتاء، ونحن ندين في قصّة نوح لفيضان استثنائي من طبيعة هذا الفيضان، ولكن الفيضان نعمة أيضاً فهو يسرّع حياة الرّيف، فالطّمي الذي يخلفه سنوياً هو أساس حقول الأرز الخصيبة، ومن سوف يحجم باستخفاف عن صيد الشنّب في حقول الأرز؟

والنّهر أيضاً هو المصدر الوحيد للتزود بالمياه في البلد، سواء أكنت تقيم في بلدة تشهد، على اعتبارها خاضعة لاحتلال الجيش البريطاني، نعمة التّعيم بالكور، أو في منطقة خارجيّة بعيدة عن هذه الإجراءات، كتلك التي أمضيت بها أربع سوات من الخدمة ما بعد الحرب.

ولكن علينا أن نرتحل نزولاً مع التّيّار لنحظى بلمحات خاطفة من حياتها. إنّ الجذائم الصّفر في الحقول على جانبي الضّفتين هي كل ما يتبقّى من الحبوب الشّتويّة، الحنطة أو الشّعير أو الدّخن، أو عدا ذلك ما يتبقّى من محصول الأرز الصّيفي. يقطن أبناء القبائل في أعشاش صغيرة، تتألّف من أكوام قليلة من القصب غير المفسوخ، والمربوط بأسلات خُضر والمسنود بعضه على بعض، فتبدو كزرائب زريّة في أحسن الأحوال، تتجمّع على طول الضّفة، وإذا كانت القرية ذات حجم ما ترى حصناً طينياً للشّيخ يبدو خلف البرج ذي الشّرايف بارزاً من وسطه الأغبر. أبداً لم أر المسافات تبدي فتنةً إلى هذا الحد من التملّق. وعلى مقربة يوجد المسجد البسيط غير المبهرج، وفي الأعلى تجاه الحصن ثمة دهليز من القصب الأصفر المجدول، وهو المضيف *madhif* أي دار الضّيافة.

تسبق ثلّة من الكلاب الهجينة على طول مستوى الضّفة مع راحلتك لمسافة مئة يارد تقريباً، مبدية عدم الارتياح إلى تطفّلك. وثمة رجل قبيلة منفرد، داكن البشرة وعارٍ إلا من إزار للحقوين، يقف في عمق المياه، وتبدو سمكة متوازنة في يده، وهو يحدّق

إلى أسفل بحر ص بغنيمته المراوغة. والجواميس، تلك البهائم الضخمة البليدة، ترخي أعناقها في هذه المياه الفاترة، أو تسبح على هواها من ضفة إلى أخرى. وغيوم من الحشرات الطائرة تتكاثف في كل مكان، بينما يهمهم الهواء بطنين البعوض.

وهناك أسطول من زوارق المسقوف *mask-kuf* المحليّة، تنتشر على طول الضفة بأدنى القرية، وتبدو كأنها قوارب غندول عربيّة الطراز بزاناتها الدافعة المغروسة في الطين الضحل، وقياديمها وكوائلها العالية الرشيقة على شكل ميازيب مصبات القهوة المنحنية المستدقة. وهي بخواصرها الضحلة الغاطسة في الماء تشكّل صورة مستحسنة. وأحدها ينطلق ماراً كخفة الريشة بفعل الدفع القوي القويم لفتى أسحم اللون من المعدان *ma'adan* (أبناء الأهوار من أصول غير عربيّة)، وبدنه الأسود المطلي بالقار يتباين بقوة مع منافسيه الأكثر طموحاً، أعني قوارب البلم *bellam* المتأنقة البيضاء. وقارب البلم يتمّ دفعه بأسلوب التجديف المعهود بمجاديف ذات مقابض طويلة، وهو يزهو أيضاً بظلة فوق ألواح الكوثل، حيث يتكئ بارتياح الشيخ أو السيّد ذو العمامة الخضراء، ويستوي مبتسماً ليردّ على تحياتك العابرة.

وعلى الضفاف يلعب أولاد عراة صاخبون، زينت أمهاتهم المحبّات أجسادهم بتمائم أو حُجُب صغيرة تضمّ قصاصات لكتابات مقدّسة لإبعاد العين اللامة، وتغسل سيدات ذوات عيون سود الثياب فوق جدول صغير ومعهن صبايا عذراوات يمرحن بثياب زاهية لتمييزهن، وإذا كنّ من المعدان *ma'adan* (معيديات) من الأهوار وكنّ غير محبّبات، فيا للعب! ومن اللطيف أن ترى وجوههن الضاحكة المدوّرة كالقمر وشعرهن المصفور بخرزات ملونة وعيونهن الواسعة الوامضة وأسنانهن البيضاء المتألّفة، وترى أجسادهن المكتنزة الفتية المستقيمة كالزّمح التي يملؤها التناسق. كل أطرافهن موشومة وإن لم يكن فإنهنّ يتزيّن بحليّ فضية وخزّامات أنف زرقاء وحلقات أذن متدلّية وقلادات مصوغة من نقود ذهبية، ويتزيّن بالعديد من الخواتم والأساور الفضّية والخلاخيل الثّقيلة. تدرك الحوريات سحرهن وليست عذراء الأهوار قليلة الجاذبيّة على الإطلاق.

تنساب في أسفل النهر راية الشيعة الخضراء وهي ترفرف بمقياس كيس جنفاص فوق مؤخرة محيلة *mahaila* ضخمة (مركب نهري)، تتجه بحمولتها المبهرجة من الحجاج العجم والعرب الذين احتشدوا على ظهرها إلى الشمال نحو الأماكن المقدسة في كربلاء والتجف، وعنابرها السفلية محملة بالجثامين في طريقها إلى الفردوس⁽¹⁾. وبالنسبة لمسافر منفرد - من يعلم؟ - هي وادي ظل الموت، فهو يقدم على الحلفان برأس العباس⁽²⁾ لتبرئة نفسه من شبهة ذنب لا يمكن التكفير عنه بطريقة غير سفك دمه.

نغادر هنا النهر الرئيسي للانعطاف إلى واحدة من عدّة أفنية تتفرّع في مستنقع حقيقي، في البداية يعلف الجاموس في أعشاب ضفافه المائية الكثّة، أو يمكن أن يزود أفران الأجر لمدن بعيدة بوقود محتمل ومن ثم يتبع رقعة مياه فسيحة جبارة وينتشر بعيداً إلى شاطئ بعيد منخفض وردي اللون لا يمكن تمييزه إلا بصعوبة لو لم يصادف نخيلاً هزياً أو حوافاً من الصفصاف الكثيف تدفعه للبروز.

(1) في الوقت الذي كنت أكتب فيه، كان الدفن في الأماكن المقدسة للتجف قاعدة لا تتغير بالنسبة لرجال القبائل الشيعة، ونادراً ما يمرّ يوم دون أن يرى المرء حميراً عليها أحمال تشبه المومياء تشرع في رحلتها لقطع مئة ميل نحو الشمال. تستخرج اليوم الجثامين المجففة لمدة ستة أشهر في المقابر المحليّة للشيعة الذين يتيسر لهم ذلك حتى من مسقط البعيدة، وترسل بواسطة مركب الدّاء إلى البصرة، ومن هناك تُنقل بالسفن إلى التجف - كل ذلك لأنهم يؤمنون بأنّ الجثمان الذي يُحمل ويطاف به سبع مرات حول مقام علي ويدفن في التراب الذي دُفن فيه علي ينتقل مباشرة إلى الجنة.

(2) ابن علي، وهو شرس ومنتقم رهيب، ويعتبر الشيعة مقامه في كربلاء ذا قدسية عالية، وإذا كان القسم به كاذباً يجلب على صاحبه نتائج وخيمة، لذلك فإنّ القسم بالعباس عند رجال قبائل الشيعة في العراق هو أعظم ما يمكن للمرء أن يقسم به، وهو أكثر ما يجفل المرء منه. ويوجد نظير له في جنوبي جزيرة العرب تحت اسم أبو هود وهو وليّ من فترة ما قبل الاسلام. ويعتبر القسم بالله أو نبيه أو على القرآن عند معظم أهل ظفار لا يضارع أهميّة القسم بمقام أبو هود، وغالباً ما يقّر المذنب المشتبه بادّعاء براءته بذنبه خوفاً من تلقّي نتيجة اليمين الكاذب عندما يُجلب إلى هذا المقام.

قلت: هذا كلام المؤلف، والعهدّة عليه، ولسنا ملزمين بتصديق ما جاء فيه. (أحمد)

تنتشر في سطح المستنقع الزّجاجي لطخات عشوائية صفراء وورديّة وخضراء،
تترأى صورها لنيلوفر لسان الثور وزهر الإوز goose flower في مرآة صفحة سطحها
النّقية ويعوم اللقلق القزمي والطّير المائي الأرجواني بتوانٍ حوله.

كل شيء ساكن سكّون الموت إلا صوت أنين الرّياح في الصّفصاف، وعندما
أقبلنا نحوها شكّلت جيشاً جباراً من حرّاس خضر بطول عشرين قدماً محتشدين
ومستعصين، انقادت مركبتنا الضّعيفة بثبات سديد إلى داخل قناة مخفية ضيقة تسبر
وحدها تلك الأعماق المنيعة. كشف لنا تقصّف قصب شديد عند الحافة عن انزعاج
الجاموس من مرورنا، ثم بعد ذلك فرّ طائر الشّماط يتبعه تحليق كركي بجنون وهو
يتخبّط بعيداً بشكل أخرق وينزلق بخفّة بين رؤوس القصب المتدلّية، هنا موطن عدد
كبير من القضاة (ثعلب الماء) والخنزير البري، وهنا السّكن الشّتوي لأعداد لا
تحصى من البط والحذف والشّنقب.

كانت الشّمس تغرب في الجانب البعيد بألوان الفردوس الرّائعة، بينما كنا نمرّ -
وأنت لي أن أذكر مثل هذا الغروب؟ إلا ربما في سيلان - كانت الشّمس تغوص شيئاً
فشيئاً في الأفق حتى بدا أنها انغمست فيه، ثم حدث تغيّر فوري محبّب بدرجة الحرارة،
وكفّ التّوتّي عن العمل ليصلّي صلاة المغرب، وانتعشت الرّيح لتدفع برقعات غيوم
سوداء تنطلق عبر مقدّمات المراكب، وحلّقت تشكيلة أسراب البط بشكل حرف
V وهي تصبح بصوت عالٍ بعيداً في المدى، وأسدل الظّلام ستوره فوق مياه نقيق
الضّفادع.

لكن لنعد إلى الشّيخ بدر، فقد قدّم إطرأً لزيارة مركب ريفر كولن بالتسلل عائداً إلى
الأهوار ومارس من هناك، بلا ريب، تأثيراً قيادياً في شؤون البوصالح بدعوى أنّ قومه
قد صعدوا الأمور عليه. قمنا بتعيين سياسي مواطن في الفتحي Al Fathi بمجموعة
من خمسين جندياً تحت إمرة الكابتن هول⁽¹⁾، ليستفّع بوسائل معدّة لدخول موقعه.
وهول ضابط ممتاز خدم مع دائرة «خيالة المُتفّق» Muntafiq Horse منذ بدايتها

(1) الكابتن إف دبليو هول Captain F. W. Hall.

وترفع الآن إلى مركز قيادتها. ما زال هدفنا كسب بدر إلى جانبنا إذا أمكن كسبه، ولكن اكتشاف إشارات ذلك النصر يحتاج تفاؤلاً مفرطاً.

خرج الآن بهيئة الحرب الكاملة في شهر أبريل فجأة ودون توقع من غموضه، بعد هدوء ما يقارب السنة، وقد جلب اجتماع السباق في الناصرية هذا الشهر الشيوخ من كل حذب وصوب، وصلوا متحفزين لإدخال جيادهم السباقية ودعمها - إذ أن احتياج محبي الجياد البسيط على صهوة الجواد مسموح به حتى عند المتدينين المتشددين بينما يحرم الشراب المُسكر بشدة. ولقد أُخرج وقد خسر أربعة قتلى وثلاثة جرحى دون إصابات في طرفنا.

كان في هذه المناورة ما هو أكثر من لقاء العيون، وحتى شجاعة بدر نادراً ما تغامر بهذه المسافات الطويلة دون دعم خارجي، بمعنى أنه يمكن أن يوجد شك قليل بأنه تصرف بتغاضي الشيوخ الآخرين المجاهرين بولائهم، بالإضافة إلى ضيوفنا في السباق، وموقفهم هذا كان أكثر من واضح، شعروا بأن قوتهم قد حاصرتها حكومة مُلزمة بالسّلام، لا تسمح بفتح الجراحات القديمة بالأسلوب التقليدي والرجولي للاحتكام إلى السلاح، وأسوأ من ذلك كله، استُدعوا الآن لدفع الضريبة لأول مرة. فرض الضريبة! استجوابات وحشية! لا عجب إذن بأنهم وافقوا على نشاطات بدر لإبقاء الحكومة في توتر وقلق، ورأوا فيه أداة لخدمة أهدافهم.

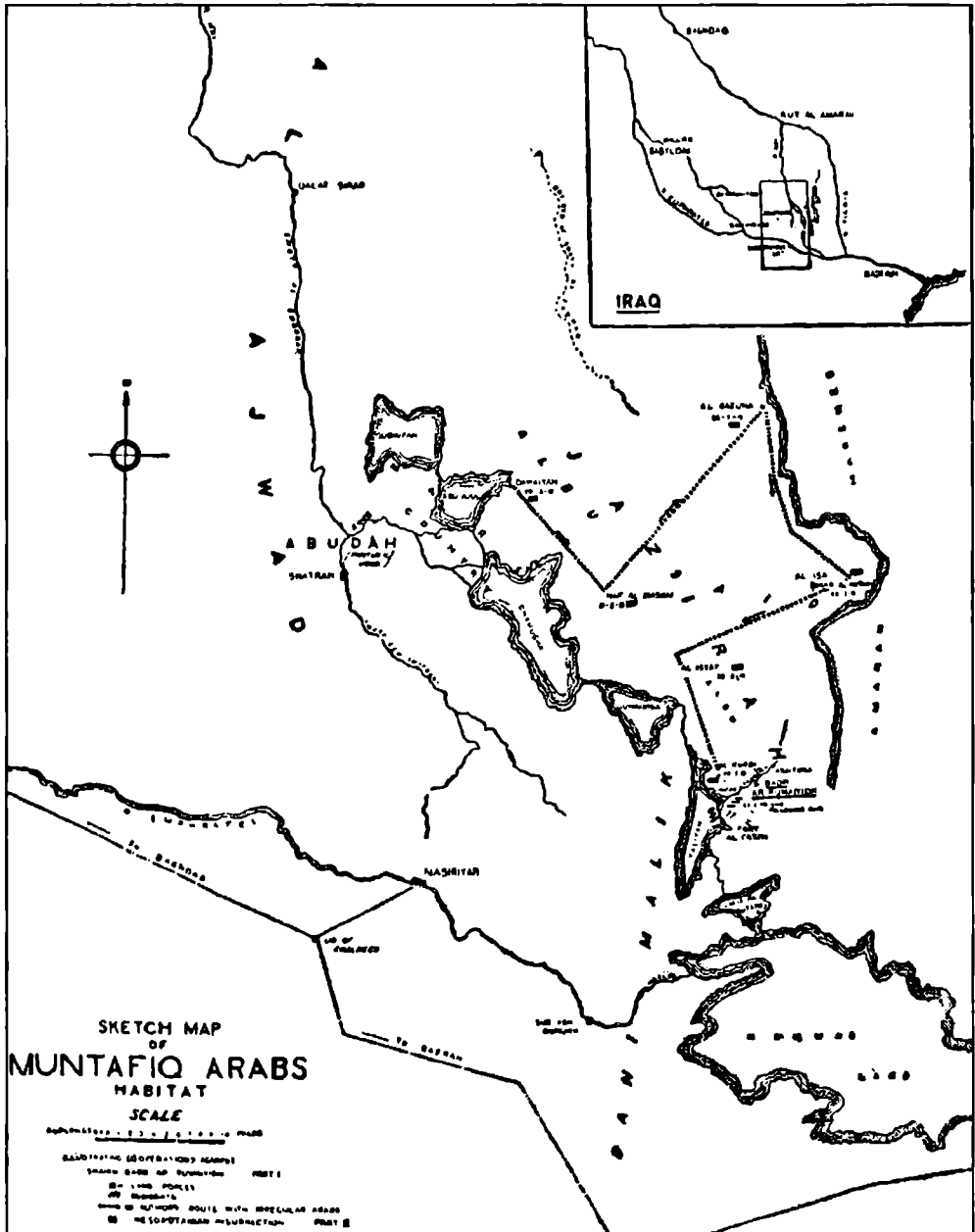
كانت مصلحتهم الشخصية تشجعهم ليقولوا لبدر: «تحرك، فنحن معك، وإذا تعكّر صفو السّلام يمكن أن نستحثّ الحكومة لمتنع عن مطالباتها بالعوائد المالية، فهل أننا لا نستطيع إعلان ذلك للضغط على أتباعنا الخاصين في الحالة الحاضرة ليكون لهم تأثير دفع الجميع نحو معسكرك ممّا ينتج ارتداد بالجملة عن حكومة البوصالح المجاهرة بالإذعان المكشوف الآن؟». مثل هذه الفرضية وحدها تفسّر ظهور بدر، ثم الدّفاع عن نفسه بعد محاولة مجهضة في الفتحي، ضمن ستة أميال من نطاق مرفأنا في قلب إقليم البوصالح.

كانت لدى بدر في هذه المرحلة أفضل حجة، وإذا سمح للأمر أن توجهه فستؤدّي

إلى شهرة أوسع له. وبالرغم من ذلك يمكن ترتيب وصول خبر تجهيز حملة تأديبية إليه، وكل ما عليه فعله حينها، أن يتسلّل عائداً إلى الأهوار وانتظار عودتنا إلى موطننا عن طريق النهر النازل، ومن عقب ذلك الظهور ثانية باحترام إضافي.

«من المؤكد أن الشبكة انتشرت دون جدوى تحت أنظار أيّ طائر» - ولكن الطائر لم يعد يخصّنا وحدنا، إذا ما زال هو مجال بحثنا الرئيسي، فقد قدّمت قرى الرّميض حماية علنيّة للمتمرّد وكانت تساعد وتحرّضه، لذلك يجب الآن تلقينهم درساً عاجلاً، في حال لم يكن مسموحاً لحالة خطيرة أن تنشأ.

* * *



خارطة تبين ديرة عرب المُنْتَفِق

الفصل الرابع من المغامرة الأولى الوقوع تحت السيطرة

أثبت حرّ صيف بلاد ما بين النهرين وجوده.

كان يوم العشرين من مايو عام 1919 يوماً جائراً في الشّطرة، كنت أغفو تحت مروحة السّقف عندما أعلن عن وصول عامل ارتباط على الحصان من النّاصريّة حاملاً رسالة سرّية عاجلة، اضطربت وأنا أفرك عيني وأندب إلحاح خدم بعض النّاس وضعف خادمي، وشرعت بفتح الرّسالة، ربما خمن القارئ فحواها للتوّ: «تعقّب رجل الأهوار العجوز» مرّة أخرى!

لم يكن أحد أبعد عن ذهني من بدر، الذي تغاضيت عنه في انهماكي في منطقة جديدة وإدارة نظامية، ولكن أصدرت لنا الأوامر أن نسلّك طريق الحرب مرّة أخرى، فوقع عليّ الاختيار للقيام بدور مختلف بشكل كبير عن المهمّة المحمية للسّنة الفائتة على متن قارب النّهر.

رُسمت الأوامر لي كما يلي: «سوف تُحشد قوة راكبة مؤلفة من مئتين من رجال القبائل المتعاونة على الفور، وتباشر العملية بالذهاب إلى الجزيرة بين المُنتَفِق وأهوار العمارة في الشّمال، في النّاحية الخلفية من قرية بدر، لتتعاون هناك مع القوة الرّئيسية التي سوف تهاجم من الجنوب».

كانت دفاعات G.O.C في القُرات تنظّم بالسّر هجوماً ربيعياً مع تعاون سياسي. صدرت الأوامر إلى ريفر كوكن الجديدة بالعمل كالسّابق، من جانب هور الحمّار،

على أن يكون فيها فرقة دعم كافية من القوات الهندية النظامية، وهي قوة ضاربة مؤلفة من أربعمئة رجل من فرقة المشاة التاسعة والتسعين ومئتي سوارى Sogar (خيال) من المُنتَفِق ومئة رجل من مستكشفي سوق الشيوخ وقاربين مدفعيين وثلاث طائرات، تحت قيادة اللّفتنانت كولونيل إف دي دايفيدسون I.A.

كنت جاهلاً تماماً حتى هذه اللحظة أن تلك العملية توشك أن تبدأ، فقد فرض التّكتم على أولئك الذين على اطلاع بها، بالرّغم من وجود حدود نهائية لعامل المفاجئة في السّرية المفروضة بالنّهر والبحيرة، وهما الخط الآمن الوحيد لمياه الاتصالات - التي كان معروفاً أنّ ظروف إمكانية الملاحة فيها تغطّي موسماً قصيراً في السّنة فقط، ومع ذلك كانت تتقدّم التّحضيرات المخفية لفترة من الوقت، كانت تستبدل للتّو قوات جند الحامية في الفتحي بالقوات النظامية بشكل مخفي قدر الإمكان، وقد دفعت قوارب المدفعية والبواخر التّهرية للاستعمال في هور الحمار في قاعدتها النظامية، وأبقيت الطّائرات التي جُلبت من البصرة محجوبة لبضعة أيام ولم يُسمح لها بالطّيران فوق البلدة، وتمركزت في النّاصرية أقرب مهبط للطّائرات لمسرح العمليات القادمة. أما على الصّعيد السّياسي، فقد أصبح خليفة موضع الشّبهة، إن لم يكن سجيناً فعلاً، وكان ينشئ اتصالاً ودياً مع ابن بدر ذي العشر سنوات من العمر كدليل على موقف التّسوية نحو آل الرّميضي، واعتبرت علاوة على تلك الحقائق بأنّها مدروسة لتهدئة المتمرّد وتجعله يشعر بأمان خادع.

أظهرت الخطط أنّ الحكومة كانت مدركة بالفعل لخطر نشاطات بدر، وهي تنهياً للتّعامل معها، فدفنتُ رأسي مرّة ثانية بالأوراق التي وصلّني حديثاً لتصوّر دوري في العمليات الوشيكة.

كانت خطة D.O ديكسون واضحة فهي تقول: «خطّط للهجوم الرّئيسي للحدوث في فجر يوم الثالث والعشرين، فإذا هرب بدر فالمرجّح أنه سوف يهرب باتجاه الشّمال، وستكون أنت هناك، يجب متابعته، وإن أمكن فليغلق مناصروك ثغرات الفرار».

عندما فكّرتُ بالأمر ملياً بدالي أنه إن لم يقتل الرّجل العجوز أو يقع في الأسر

حالاً، فإنه سيتراجع نحوي، ومن الممكن أن يكون معه أتباع يائسون بعدد يكفي ليقدم حساباً عن نفسه، ومن جانب آخر إذا تسلّل بعيداً واستفاد من الأهوار فستكون مهمة حراستي دون جدوى. ولكن توجب إعاقة تفكّر أحد عشر ساعة، وبالأخص تلك التأمّلات التي أدّت إلى إطلاق إشارات المعضلة، وكانت سوف تُبتلع في أي حال من الأحوال في احتمال حدوث مغامرة لم تكن بغیضة إلى نفسي برُمّتها.

اليوم هو العشرون من الشهر وقد خُطّط للهجوم الرئيسي أن يبدأ في الثالث والعشرين من الشهر.

كنت أنا هنا على بعد ثمانين ميلاً من موقع التعاون الذي كلّفت به، وما زلت حتى الآن دون مجنّد واحد، ويبدو أنه علي أن أرفع قواتي لأقرب ما يمكن من مسرح العمليات المرسوم، إذا توجب علي الالتحاق بمركزي في الوقت المحدّد. كان تطّعي نحو البحث في منطقة البوسعيد هو أملي الوحيد، وبغضون نصف ساعة هرولت نازلاً عبر عدة طوابق وكنت منطلقاً على صهوة حصاني، ثم خلفنا وراءنا بلدة الشّطرة ووصلنا أعالي التّهر في البدعة بعد بقبخته بالاعتراضات الباردة الاعتيادية. وعندما انعطفنا حول الانحناء ووجدنا التّيار موّاتياً لنا، تحرّكنا بسرعة معقولة وقطعنا بحيرة الجول ثم وصلنا إلى الدّواية Dawaiyah بعد أربعة ساعات ونصف.

قال لي الشّيخ محمّد صديقي القديم وهو يتقدّم لاستقبالي: «السّلام عليكم يا صاحب»، بينما كان ابنه يثب فوق رأس حصاني بلطف مألوف، فأجبته: «وعليكم السّلام» وترجّلت عن حصاني في الوقت الذي تقدّم فيه مدير الدّواية الأعرج، وهو عجوز موقر قابلني في الماضي على حافة المياه مع جياد ليجلب فرقتي لهذا المكان، وبعد جولة المصافحة شققنا طريقنا المُتّرف من خلال أرض درسة الحنطة المكشوفة، حيث دلّت أكوام القش الأصفر على الحصاد الحديث ومن هناك إلى الأبعد في المّضيف.

دخلنا في الدّاخل المعتم نسبياً، في الواقع كانت الأنوار الأخفت مريحة للّظر بعد أشعة الشّمس المشرقة في الخارج، وكان السّقف مقنطراً فوقنا بحُصر من القصب مثبّة

فوق أعمدة غليظة من القصب تشبه ضلوع السفينة المقلوبة، توزع اثنا عشر منها بأبعاد متساوية في مساحة طول مئة قدم، وتصاعد عمود نحيل من الدخان من موقد إسمتي مربع صغير داخل المدخل مباشرة (لهذا يرجع لون التلوث الملطف داخل المضيف *madhif*) جلس هنا صانع القهوة الذي لا يُستغنى عنه، قرب النجار والمدقة وصف مصبات القهوة التي سودها طول الاستعمال حسب أحجامها من الأكبر إلى الأصغر، كتلك الموجودة في قصة دبة بيت حضانة ساوثي. أخفض صانع القهوة العجوز رأسه الممدود فوق الموقد، وأضرم اللهب العنيد بأنفاس رثيته القويتين، وسرعان ما كان لديه «بابا دلال» يغني على النار، وقبل فترة طويلة «الطفل دلال» يقوم بمهام توزيع القهوة بسخاء على ما يقارب مئة شخص مصطفين حول الجهات الأربع للمضيف ويجلسون بشكل بين القعود والجلوس.

سُحب لي الفراش المخملي ومعه الوسادة الخضراء المترفة المعتادة لأن الجلوس على الأرض قاسٍ، ووقف الشيخ مرافقاً لفنجان القهوة المقدم لي حيث تقدّم المضيف ليقدّم لي سيجارة البلدة التحيلة الطويلة التي قد يشعلها أو لا يشعلها مسبقاً وهو يحملها بشكل عمودي بين سبّابته وإبهامه من نهايتها البعيدة كما هو الحال، مع ايماء مشعوذ تعني «هنا أيها السادة، لا يوجد خدعة!».

سحبْتُ بضع نشقات ثم بدأت.

يعتبر الدخول في موضوعك مباشرة قلّة ذوق في الشرق، وبينما كنت أتحدّث في داخلي على ضياع لحظات ثمينة، كانت شفاهي تنطق بالكلمات العربية عن الأخبار والغلال التي يجب أن أستفسر عنها في المدة التي تتطلبها قواعد التشرّيفات، ومع ذلك، لا يعتبر التهامس مع جارك في المجلس خرقاً للأصول المحليّة، وهكذا لاحظت أخيراً مع مشاعر تسلية إلى حدّ ما وأمل من جانب آخر، أنّ مساعدتي العربي قد اقترب فمه من أذن الشيخ المصغية واستمرّ ذلك لدقائق طويلة دون استحياء، لا بدّ أن يكون موضوعها، كما فكرت، إخلاء المضيف *madhif*. وهكذا كان، وبسرعة بقي الشيخ بمفرده.

قلت بطريقة تقديم الأمور للمناقشة: «يا شيخ محمد، أنت تعرف أن الحكومة قوية بما يكفي لمعاقبة الأفعال السيئة، وهي جريمة لتكافئ الخدمات المخلصة؟».

جاءني الرد الملتوي: «الحكومة أب، الله في المقام الأول ثم الحكومة *Hukuma*».

«كلام حسن، أيها الشيخ! ولكن الأب أغضبه ولد كسول أو معارض»

قال بشكل مبهم: «الله يخرب بيت أبي الكسول».

«جئتك باسم الحكومة، لدى الحكومة حاجة لمثني رجل وجواد من بني سعيد وتريدهم اليوم».

بدأ الشيخ المرتاع كلامه: «ولكن، أبوس يدك...» وفي الوقت الذي أجاب هذا الرد التجريبي بالنفي، مرر أصابعه الرشيقة على حبات مسبحته⁽¹⁾ وقسمها وعددها همساً، ثم رفع نظره وهو يقول: «الحمد لله» فملأني الأمل.

«ليس لك يا محمد، هل أتوقع أن أحمل وطأة هذا الطلب بكامله، إذا كان يتوجب سحب الرجال من الحقول فليُسحبوا بنسب عادلة من كل الفئات تبعاً لقوتهم، نحتاج لهؤلاء الرجال لبضعة أيام فقط ولن يخسر أحد منكم، إن شاء الله».

«ولكن لماذا كل هذا العدد، لأي هدف يا صاحب؟» كان الشيخ محمد أكثر ذكاء من أبناء جيله وودوداً بالإضافة لذلك، ولم أشعر بالتدم للكشف عن خططي له.

(1) تتألف السبحة شائعة الاستعمال في تلك الأهوار من تسع وتسعين حبة، ويلاحظ فرق بين التي تُستعمل للدعاء والأخرى التي تُحمل ويعبث بها كعادة شائعة. نشأ رجال القبائل الذين يؤمنون بالخرافات على الاعتقاد بأن السبحة تملك قوى سحرية، كأداة تعبر بواسطتها الإرادة الإلهية عن نفسها، وربما الأسلوب الأكثر شيوعاً هو كما يلي - هو الأسلوب الذي يتبعه الآن الشيخ محمد، الذي يلتمس الإرشاد الإلهي للعرض الذي فرضته عليه: يأخذ خيط الحبات التي عزلها بشكل عرضي بين إصبع وإبهام من يديه الاثنتين، فتكون الحبات قد قسمت، فيسمي كل واحدة من اليمين إلى اليسار بصيغة: «الله، محمد، علي، أبو جهل» ويعين الله للأولى والاسماء المتتابعة للحبات المتتالية، وتعاد الصيغة حتى الوصول إلى آخر حبة، فإذا صادفت هذه الأخيرة اسم الله أو محمد أو علي يكون فألها مواتياً، وإذا انتهت بأبي جهل يكون العكس. (كان أبو جهل المعاصر للرسول من قبيلة قريش معادياً للإسلام ويلعنه كل مسلم حتى هذا اليوم).

قلت في الختام: «تعال، لا يوجد وقت لنضيّعه، أرسل فوارس لتوزيع هؤلاء» وسلّمته حزمة رسائل موجهة إلى رؤساء الأقسام كان مساعدي العربي قد كتبها أثناء النزول. حُدّد الموعد في اليوم التّالي في مضارب الشّيخ نايف الرّئيس الأعلى على بُعد خمسة عشر ميلاً، وساعة الصّفر هي الثامنة مساءً.

كان الشّيوخ سيقابلوني في الليلة ذاتها هنا وسيقال لهم ما يفيدهم معرفته.

كان المساء يقترب وكنت متعباً جداً فأدرت وجهي إلى الفسحة المشبّكة المهوّاة الوحيدة في المضيف لكي أغفو. غفوت أخيراً وقهرت قوى العمل التي احتالت علي، وتملكنني أفكار التّعس، بأنّ المضيف كان مؤسّسة مباركة بما يكفي لتمنح امتياز عدم احساسك بالذّباب وتملك مزاجاً فلسفياً، وجاءت مسلحة بكميات كبيرة من بارود كيتنغ Keating.

عندما صحوت كان معظم الشّيوخ الذين أرسلت بطلبهم قد وصلوا، وسمعتهم يؤدّون صلاة المغرب، وجاء مساعدي العربي ليعلمني بالشّعور العام، فكان ذلك مبشراً بالتّجّاح بشكل كامل، وكنت واثقاً من تلقّي تأييداتي. لم يوجد تلغراف في تلك الأجزاء البعيدة يسمح لي أن أبعث تقريراً بالتّقدّم لمركز القيادة الرّئيسي، وأقرب إنكليزي يقيم على بعد أربعين ميلاً في الشّمال، ففكرت كم يمكن لنفوذ الجيوش النّاجحة أن يكون فعالاً. هجر الأتراك المنطقة هنا هجراً عملياً لمُدّة تتجاوز العقد من الزّمن لأنها كانت نائية جداً بالنّسبة لهم، وتملؤها الفوضى بدرجة أكبر من أن تدار بشكل مفيد، منطقة لم تعرف حتى وقع أقدام القروات البريطانيّة، لأنها تقع بعيداً عن المسالك المطروقة التي تتبع مسار نهري الفُرات ودجلة، ومع ذلك، تمكن الموظف البريطاني من القدوم إلى هنا وحده في غضون سنة من الاحتلال وحث القبائل لتنفيذ أوامر الحكومة.

ارتحت في اليوم التّالي كي أتهيّأ للبداية التي يفترض أن تكون مسيرة ليلة، وانطلقت على صهوة حصان في الصّباح من الدّواية Dawaiyah - ألهبنا الحرارة في الجولة عندما حاذينا الشّواطئ المنبسطة للبحيرة - وكنت أهنّي نفسي لأنّي جلبت معي سرج الخدمات لأنّ إزعاج سرج هذه البلاد لا يُنسى بسرعة، فيه مقعد صغير بشكل مضحك (أوراك العرب ضيّقة بشكل غير عادي) وقربوس عالٍ وركاب جلدي قصير طوله

مرهق، وقبّاب ركاب مربع وضخم من الحديد مثل قبّاب قاطع الطّرق المكسيكي المشمخر - بالمختصر كان بمجمله غير سارّ لأوروبي بطول ستة أقدام، وحتى الشّكيمة، رغم أن الجواد لا تبدو عليه الممانعة، فهي قاسية دون ضرورة.

خيّم الظّلام، السّاعة الآن الثّامنة مساء وهي ساعة البدء.

لم تخيّبني حصّة أية قبيلة فقد حضر حتى نقل الجمل الخفيف، ثم سرت مع موكبّي العربي، يسير فيه مئتان من الأقوياء في ليل الصّحراء، يلاحقون المتمرّد العجوز. كان هدفي الفوري البزون في الطّرف الغربي من أهوار العمارة، ومن هناك نتقدّم في الاتجاه الشّمالي الشّرقى ثم نستمرّ بالرحلة عبر السّهل في غضون السّاعات الأولى للوصول عند الفجر.

ورّعت قواتي إلى جزئين أثناء راحة التّهار في البزون، لإبقاء سرّيّة خيالة واحدة هناك تحت إمرة مساعدتي العربي. وخطّطت أن أقوم مع القسم الآخر بمسيرة أخرى في تلك الليلة إلى العيسى Al Isa في الجنوب في جهة مسرح العمليات.

كنا قد أمضينا مدّة ست ساعات على السّروج عندما انبلج الفجر بدويّ كامل للقصف البعيد الذي جاء ضعيفاً مع الرّيح. قدّرت أن بُعد قرية بدر يبلغ عشرين ميلاً غرب جنوب غرب موقعنا، عزّجتُ إلى مسافة أبعد قليلاً فكانت قواتي تنتشر الآن، كما اعتقدت، بأفضل وجه على طول تلك الأهوار الغربيّة، التي يفضّل بدر ارتيادها في منفاها الأخير. كان هواء الصّباح الباكر بين الهور والصّحراء متألّفاً بوضوح. توهّج بضعف أول تدفق للصّباح عبر مئة ميل من الأرض المستوية في مؤخرتنا، وخط جبال پُشتي كوه Pusht-i-Kuh. الفارسيّة المنخفض.

نُقّدت تنظيماتنا البسيطة خلال ساعة واحدة وكانت المدافع الآن قد توقفت عن القصف، وتبعها صمت مشؤوم.

كانت أول فكرة تتبادر لذهن المرء: إلّا مآل القتال؟ وأين مكان بدر؟ أهو سجين؟ أم فار؟ يراجع باتجاهنا نحو الفخ - فكرة غير سارة! - أم مع قوة يمكن أن تتفوّق علينا؟

أرسلت عدداً من رجالي، فرادى وأزواجاً باتجاه نقاط مجاورة للمراقبة والانتظار ولجلب المعلومات، ولم أستطع استثناء المزيد بشكل آمن، كنا جميعاً مرهقين تماماً وجائعين، بعد ليلتي سير إجباري، وكان ذبح وطبخ خروف محليّ بإلية ذهنيّة يحتاج عمل ساعتين، وسرعان ما وجدنا أنفسنا نكتب بنهم على الخروف المحشو بالأرز والزبيب.

يطلّ موقعنا على منظر جميل في كل الاتجاهات، ولا يتلائم بسهولة بحيث يفاجئنا العدو فيه، تم ترتيب حراستين واعترف بنفسي بأنّي انتُخبت لأكون من الأرقام الأولى لدورية «خارج أوقات العمل». نمت نوماً عميقاً وأيقظتني حركة كبيرة واهتياج في مخيمي بعد عدّة ساعات فقط عندما انقضى معظم النهار.

ولكن ماذا بشأن الجبهة الرئيسيّة، في الجنوب تحت خط الأفق المبهم؟

اشتبك القتال، وانخذت قوتنا مركزها طوال الليل دون معرفة العدو، حسب الخطّة المرسومة. ولكن حدث هذا الصّباح أمرٌ ما لساعة الصّفر قبل وصول الطّائرات لترمي القنابل على قرية بدر والقريتين المجاورتين «حفاظ»⁽¹⁾ Hafaz و Araithim، كان القرويون في حركة صلاة الفجر، فأدركوا الخطر المحيق بهم فرتّبوا دون إبطاء أمر الهروب - هذا للأسف قبل أن تنزل عليهم أول ضربة.

كان إطلاق رجال القبائل في هذه المناسبة كثيفاً ودقيقاً رغم أنه كقاعدة عامّة ضعيف وعصبي، وكان الدّفاع المبيّت عنيفاً، ومع ذلك لن يستطيع مجابهة قوتنا المتفوقة، كانت خيالة المُنتفِق أول من اخترقوا الشّريش مدعومين برشاشات لويس من فرقة المشاة التاسعة والتّسعين، وأجبروا المدافعين على الخروج من قرية بدر وقرية Araithim، وبعد ذلك احتشدوا لمهاجمة قرية حفاظ Hafaz حيث تدلّ راية بدر الخضراء على قوّته البريّة، والى الخلف على بعد ميلين، كان شخصيّاً ممتطيّاً جواده، يزوده مئة وخمسون من الأقوياء بوسائل الهرب إذا اقتضت الضّرورة، أو بإمكانات مهاجمة خاصرة الجيش في فرقة مشاتنا إذا حدث عبور قبل أوانه للشّريش من جانبهم،

(1) نسبة لآل حفاظ من طيّ، ومنازلهم في الناصريّة. أمّا القرية الثانية فلم أجد اسمها العربي، فهل يقصد بها الرّميثة إلى الشّمال الغربي من هور حَمَار؟ (أحمد)

ووضعوا هذه العقبة في مؤخرتهم، ولكن هذه الحالة الطّائرة لم تنشأ.

كان فرسان المنطقة الوسيلة الظّاهرة للالتحام الأول مع العدو⁽¹⁾. كانت خيالة المُتَنَفِّق التي لدينا تحت قيادة هول قد حملت العبء وأثبتت نفسها بجدارية، والآن على فرقة منها أن تزحف إلى حفاظ وتحتلّها، هذا ما فعلوه بمساندة مشاة التاسعة والتّسعين ولكن بتهوّر بحيث غفلت الطّائرات عن مدّ وجزر المعركة وألّقت قنابلها، لسوء الحظ، على القرية بعد السيطرة عليها فقتلت شخصاً واحداً وجرحت أربعة من رجالنا السّوارية Sowars (الخيالة)، ولكن كان الهجوم نجاحاً حريماً بلا حدود بغضّ النّظر عن هذا الحادث الثّانوي. كانت خسائر العدو في غضون بضعة ساعات تسعة وثلاثين قتيلاً وتسعة وثلاثين جريحاً. وعند السّاعة الثّامنة مساءً كان بدر قد فرّ مسرعاً باتجاه الشّمال الغربي، فتوقف هنا الاشتباك إذ لم تصدر الأوامر بملاحقته بالرّغم من أن الميجور ديكسون، وهو يعرف حقيقة الأرض أكثر من أي شخص آخر، قد أمر فرقة استطلاع بحجم مقبول، فقامت بحركة التّفاف بعرض ستة أميال وأضرمت النّار بمخازن القمح في طريقها.

بالعودة إلى الورا يوماً واحداً لأروي ما آل إليه حالي «تحت السّماء الزّرقاء» في الشّمال، كانت يقظتي على صرخات مهتاجة في مخيمي مع الأسف لا علاقة لها بفرار بدر، فقد أعلنت عن وصول مارز Marrs وريفت كرنك Rivett-Carnac زميلي من ناحية العِمارة، وقد تبين أنهما وصلا بمهمة مشابهة لمهمتي، ففي الظّروف الحالية لا يخدم التّدخل هدفاً نافعاً. كان الشّيخ سُكّر النّعمة⁽²⁾ Sikar al Na'ama شيخ قسم

(1) كان قتال الوقوف غير معروف عند العربي ابن العشائر. والتّصّر الذي يحزره أثناء الحرب كان نتيجة لحركته، فهو ينسلّ حول الجوانب وبشكل خاص بعد حلول الظّلام، وإمكانية هروبه ربما دون أن يراه أحد بسبب معدّاته الخفيفة وتفضيله أن يكون على صهوة جواده، والجواد العربي في المنطقة غريب عن فرشاة الأناقة ومشط شعر الفرس، وقد رُبّي الفرس على الإطعام والسّقاية غير المنتظمين، ويستطيع قطع ثلاثين ميلاً في اليوم لعدة أيام متتالية دون أن تتزاح منه شعرة، ومع ذلك في النّهاية، تحرّر معرفة العربي ببلاده من ضرورة حملته للمؤن، وقد بدا واضحاً احتمال سيطرة قوّة نشأت محلياً وتجهّزت بشكل مشابه ومحمولة على الجياد.

(2) هو الشّيخ سُكّر بن نعمة الفدعم، شيخ آل العيسى من بني سعيد (من عشائر المُتَنَفِّق) في العِمارة جنوبي العراق. وبذلك فهم من أقارب بني مالك الذين يعودون إلى المُتَنَفِّق أيضاً. (أحمد)

العمارة وهو السلطة المحليّة في البلاد، وكان موجوداً ومتعاوناً بشكل ظاهري فقط. وعربانه يعرفون كل قصبة في الأهوار ممّا يزودنا بوسائل فعّالة إلى مدى بعيد في خفر القصب أكثر ممّا يمكن توقّعه من العرب الذين تطوّعوا عندي من مكان بعيد. ولكن مشاركة سُكّر، كما استنتجت، لم تكن إلا رحلة في السهل فعندما أطلقت أول رصاصة قدّم ممثل الحكومة العربي أوراق اعتماده في خيمة سُكّر.

قال: «يا سُكّر يجب عليك الآن رفع رايتك وتقديمها لكل خيال من اتباعك، لا تفكّر بصدافتك السابقة مع بدر وكيف تقاسمت الخبز معه في خيمته وأنت ترى أنكما من القبيلة ذاتها، لن يكون لك عذر إذا قصّرت معنا، أمّا بالنسبة لي ولسيد محمّد فقد أقسمنا بأقدس الأيمان بأننا سنكون بين الأوائل في هذه العملية ضد عدوّ الحكومة هذا. ولكنك إن لم تستدع رجالك فسنكون مُجبرين على العودة إلى العمارة وسوف يلحق الشين باسمك إلى الأبد».

لم يكن لدى سُكّر خيار إلا الطاعة، ثم تبعت ذلك الفرقة وعدا الفرسان بسرعة من كل حذب وصبوب عند رؤية الرّاية، وكل واحد منهم مسلّح ببندقية حديثة. ثم بدأت رقصة الهوسا (رقصة الحرب) لتقدّم صورة الشّجاعة لرجال الأهوار الهمجيين أنصاف العراة وهم يصرخون بصيحاتهم الحربية ويلوّحون ببنادقهم حول رؤوسهم ويحجلون حول راياتهم مرّة برجل ومرّة بالرجل الأخرى، وفي هذه الأثناء دار فرسان سُكّر الذين ينحدرون من أصل أرفع بدائرة أوسع حول رجال الأهوار العرب. وتواجدت هنا بشكل طبيعي كل مقوّمات التّزاع القبلي، ولكن لحسن الحظ لم يتحقّق أيّا منها.

بدا واضحاً أنّ بإمكان فرقتي أن تنسحب للعمل في مكان آخر، وكان تقييم التّطوّرات اليومية يسير في صالح خطتي، وافترض أنّ العدو الرّئيسي من الجنوب قد أطلق رصاصته، في كل الأحوال، فقرّرت التّقدّم إلى مسرح العمليات، فبدت تلك خطوة أمنة رغم أنها غير واضحة، فلم يأت من الآفاق الواسعة الصّامته في الجزيرة بشيرٌ بالنّجاح أو الفشل.

تبعت ذلك وليمة سخية من الدّجاج المشوي، وعقب ذلك أسرّجت الخيول.

انتظرتُ ظهور القمر الأول ثم تحرّكتُ بالمسير ثانية لقطع السّهل باتجاه الحدود الشماليّة لمنطقة البوصالح، وقد انشئ العديد من الحيوانات بسبب السّير أكثر من اللازم فلجأت لاستراحات متفرّقة أثناء الليل لإراحة الحيوانات ولسماع أصوات أيّ أحد آخر يتحرّك، فُرض الصّمت على العرب غير النّظاميين أثناء مسيرة الليل - وتذكّرت دروسي كفارس في فرقة نورث سومرست يومانري في فرنسا عام 1914 - كان ضجيجهم ميوّساً منه فقد كان لديهم مراقبتهم الخاصّة عند نشوب الحرب.

حافظ أحد الحراس المتقدّمين على الغناء بدرجة عالية في وتيرة واحدة لأغانٍ حربية ولكن بصوت رتّان لا يناسب لحناً رقيقاً. انتشر العديد من تلك الأغاني المعروفة جداً، برأيي، وأغانٍ أكثر منها فيها محاولة ارتجال لألوان محلّية، كما هو واضح. والعديد منها أيضاً أغانيّ متطرّفة وخليعة لا تدوّن هنا، يدور في نموذج للشعر الرّديء وترجمته بشكل تقريبي في ذلك الوقت كما يلي:

فرقتي للمحاربين تنتبه لأوامري
كن أصمّ للتصائح الجبّانة
ومقدماً في شرب مياه الموت
لأنّ ما قدّره الله سوف يحدث

لا ينام المحارب
لكنه جاهزاً دوماً
لينقضّ على ضحيّته
مثل الذّئب الماكر في الصّيد

سوف نقتل هذا الصّاحب بدر

دون أن تصدر لنا الأوامر

هو الذي هجر حريمه

وفرّ أمام من كان يطلبه

وصلنا عند الفجر إلى داخل بضعة أميال من بلدة البوصالح بعد ليلة طويلة ظامئة وحافلة بالضّجيج، صادفنا هنا مضارب بدوية ضخمة لعرب آل سالم فيها ما يقارب الألف جمل ترتحل نحو الشمال، وانهشتنا جرات وافرة من الحليب فارتحنا لبضعة ساعات هنا.

على الرّغم من أنّ سهل الجزيرة الذي قطعناه أكثر من مرّة مقفر الآن فإنّه يحمل شواهد لمجد غابر جدير بالاعتبار، أحصيت أربعة قيعان نهريّة رملية قديمة بالإضافة إلى آثار سدّ قديم، ورأينا عدة استحكامات وآثار لا بدّ أنّها كانت ذات مرة مدناً مزدهرة. كان هنا في الواقع قاع نهر دجلة قبل أن يغيّر مجراه إلى المجرى الحالي، لأنّ الجزيرة كانت مقاطعة فارسية مزدهرة في العصر الذي غزاها به العرب وأخضعها في القرن السابع من عصرنا. أخبرني الرّائد ديكسون الذي اضطلع أثناء هذه العمليات بمهمّة ضابط اتصال للطيران فوقها، بأن السّمة المميّزة من الجو هي قاع نهر قديم يظن هو أنّه كان، بلا شك، شط الأخضر الشّهير، ورُتّمًا يعثر هنا على مواقع مدن سلالة حاكمة بابليّة لم تُحدّد مواقعها بعد: لاراك Larak وعوان Awan، وحمزي Hamazi وماير Maer، وبد تبرا Bad-tibira، ونيسن⁽¹⁾ Nisin والبقية.

كانت الشّمس ترتفع في كبد السّماء ولا يوجد وقت للتّريث لمثل هذه التأمّلات،

(1) ربما يكون موقع نيسن هو روابي بحريات على بعد سبعة عشر ميلاً جنوبي نَفر Nippur. يعتبر البروفسور الرّاحل أي تي كلاي A. T. Clay الذي أطلّعه على اكتشاف الكولونيل كي ستيفنسون، آر إي، وهو زميل هاو لعلم الآثار، لمخروط لبييت عشتار Lipit Ishtar في مكانه الأصلي، بأنّ مصدر المخروط يحدّد موقع هذه المدينة القديمة.

تقدّمنا باطراد كي نصل إلى العسّاف في السّاعة الحادية عشرة صباحاً، وكانت بهائمنا قد أرهقت بعد سلسلة مسيراتنا الليلية وأيامنا التي عكّرها الأرق، أصبحت الحرارة مفرطة أثناء تقدّمنا، والسرّج يسخن إذا تعرّض لأشعة الشّمس بالترّجل قصير الأمد، ونفحات ريح السّموم المؤذية تلذع وجه المرء مثل لفحات الفرن. أكتشفت بعد بضعة أشهر بان بدر كان في وقت من الأوقات يختبئ ضمن بضعة ياردات من الطّريق الذي مررت به، قد سبّبت له دون قصد ما يقارب ساعة قلق.

أمضيتُ كل ذلك اليوم في الاسترخاء في العسّاف Al Assaf ولكن أرسلتُ دورية عند الغروب إلى نقطة في الجزيرة قيل بأنّ المتمرد كان مع ثلاثين من أتباعه مختبئين بها، ولكن ثبت بأنّ ذلك خبر خادع. وعند السّاعة الثانية قبل الظّهر كنا نتحرّك ثانية، وبعد خمس ساعات وصلنا الكردي. كان تقدّمنا إليها عند شروق الشّمس قد منحنا بعض الحماس، لأنّ أول شيء أظهره ضوء الشّمس لنا هو كتلة فرسان كبيرة تتحرّك قرب خط الأفق أمامنا، ترى من يمكن أن يكونوا؟ وسرعان ما تحرّر ذهني من التّوجّسات بتشكيلتهم المنظّمة كالجنود - وهي تغاير مظهر أرجل الكلب الخلفية الذي لا بدّ أن يكون أتباعي الشّدج قد ظهروا به، ثم تبّين أنّهم هول Hall ورجاله المرحون، ومع ذلك لم يجازف أحدا بالتّقدّم، فأرسل كل منا فارساً يعدو أمامنا لتأكّد بشكل مضاعف، كل واحد من الآخر، ثم بعد إعادة التّوكيد تابعنا التّقدّم إلى القرية، فدخل هول من أحد جانبيها بينما دخلت أنا من الجانب الآخر.

وجدتُ وهول بقعة هادئة ظليلة للتأمّلات، بصحبة السّجق المعلّب الذي بدأ يئزّ بشكل شهوي على نار المخيم بقربنا، كنت متعطشاً لسماع أخبار الحملة، واستغرقت رواية القصّة بعض الوقت. كان بدر هارباً وحيداً في مكان ما في مجاهل الأهوار وتراجعت قوتنا الرّئيسية إلى التّاصرة، فكان تقرير خططي الخاصّة للتحرّك عائداً إلى موطني هو النّقطة الحاسمة.

كان ممتعاً في تلك الأثناء، مقارنة الملاحظات المكتوبة، وما زال لدينا اليوم بكامله. كانت البداية هي من الأحداث الأكثر خفّة في الأداء، فحين تقدّمت فصائل جند متناوبة من

فرقة المشاة التاسعة والتسعين عبر العراء، ظهر شابٌ عربي من مكمنه في مقدمتهم اليمنى، فوقف هناك لبرهة وجيزة وتقدّم عدة مرّات وهو متردّد، ومع ذلك بدا غير مسلح. لم يستطع الكولونيل لوكسمور الذي كان قائد فرقة المشاة التاسعة والتسعين أن يتّبع هذا اللغز ولكنه ظنّه خدعة ثقة لجذب عيون رجاله وانتباههم بينما تُدبّر خطة خبيثة في مكان آخر، فصاح بأحد الرُماة ليتعامل مع الهدف الغامض، أخطأت الرّصاصة الهدف وفرّ الشاب وانبطح على الأرض. بدا أحد راكبي الخيل بعد ذلك اليوم في مقدّمة الفرقة التاسعة والتسعين بأنه عنيد أيضاً، ففتح الكولونيل نار رشاش لويس عليه فقرّر الجميع أنه قد وقع ميتاً بعد أن أثيروا الرؤيته يسقط بثقله، ابتعد الجواد الرّمادي دون راكبه ولكن بعد بضعة دقائق ظهر الفارس يركض مثل الأرنب في المدى الشّمالي الأبعد، أضاف الكولونيل الذي سمعت منه القصة مباشرة فيما بعد: «كان الضّحك الآن علي أنا، فقد أوقع المحتال نفسه متعمّداً تحت غطاء ما، وجرى محاذياً له حتى أصبح بعيداً عن مجال الرّمي، دون أن تصيبه شائبة بالطّبع. صرّح بعض الأعراب الموالين بأنه لم يكن إلا الرّجل العجوز نفسه، ومهما يكن الأمر فإنّه رجل رياضي».

انتظرت مع هول برود غروب الشّمس، ثم انطلق هو نحو الجنوب باتجاه حصن الفتحي وتحركت أنا شمالاً مع رجالي بحذاء ريف شواطئ بحيرة المُنتَفِق لتسريحهم في الدّيوانية، واستطعت هناك أن أجِد الانعاش بسباحة انتظرتها طويلاً وبنوم ليلة هادئ هو الأول خلال مدّة أسبوع.

تسارع مسيري الذي استهلّته في فجر اليوم التّالي نحو الشّطرة، وقد انتهت المطاردة بالنسبة لي.



الفصل الخامس من المغامرة الأولى

معاهدة استسلام

أبحرت ريفر كولن عائدة وهي ترفع أشرعتها.

بدا أنّ الحالة في الأهوار لم تتغيّر، ولكن المظهر يناقض الواقع، فقد بدأ بدر يشعر بالتعب في الصّراع غير المتكافئ، وهذا ما لمسّه ديكسون، فعندما انتهت مدّة خدمته، ربما اعتبر بدر أنّه يستطيع القدوم إلى الحكومة دون إراقة ماء وجهه.

لا يمكن لشؤون الأهوار أن تتخذ شكلاً منطقياً حاسماً، إذ أنّ المستقبل لم يضمن رعاية أحد الأنظمة للشيخ بشكل كاف، وربما يأتيه البُعبُع⁽¹⁾ عندما تحين الفرصة إلى بلده هو، لأنّه في علم النفس الإنساني لا يتطابق رأي رجلين في كل جوانب حالة من الحالات.

هذا ما كان، فقد رأى بدر بصيص أمل عندما خلف ديتشبرن⁽²⁾ Ditchburn ديكسون في المنصب، فقد رعى ديتشبرن شعلة تحقّق الأحداث بدهاء أكبر، واستغرق ذلك خمسة أشهر شاقة كانت بها الشعلة تخبو مرّة وتومض أخرى، ولكنها كانت تحت خطر الانطفاء باستمرار.

كان المتمرّد يقاوم التسوية بعناد حتى الآن، ويتحالف مع التهر والأهوار تحالفاً لا يضلّ تحت رعاية العناية الإلهية. ولكن أخيراً الآن ظهرت نتائج عقابنا الحديث

(1) يستعمل برترام توماس تعبيراً فرنسياً: *bête noire* التي تعني الشخص الذي يعافه المرء ولا يودّ لقاءه. والمعنى الحرفي بالفرنسية: الحيوان الأسود. (أحمد)

(2) الميجور أي إتش ديتشبرن، O.B.E. المفتش الإداري في العراق.

للمقابل التي أطلقت له العنان أثناء ظهوره الأخير، فهم لن يجازفوا أبداً ويعرضوا أنفسهم للعقوبات ثانية، لذلك أصبح بدر منفياً دون أمل يأتي من جانبه هو. أكدنا مجدداً خروجه عن القانون رغم أن تأثير ذلك لا يعني الكثير، وربما كانت أية إدارة أخرى غير الإدارة البريطانية ستفرض عقوبة منذ البداية على المتمرد أثناء الحرب، وستهدد لنفس السبب، أية قبيلة بالقصف إذا قدمت له المأوى. هذه الصيغة سوف تجلب نجاحاً فورياً على الأرجح، حتى بسلاح جو غير متطور جداً كما هو الحال اليوم، مما يجعل مهام ريفر كولن المكلفة غير ضرورية. لكننا اعتبرنا هذه الصيغة غير رياضية حتى ولو لم تنقض سابقة هذه الطرق.

لقد وظف كيتشنر تلك الطرق، كما اعتقد في السودان واستخدمت ضدّ لصوص الهند وفي الجبهات الشمالية الغربية، ولكن على الرغم من أن بدرًا كان متمرداً على الحكومة فإنّ الحالة ربما غير متشابهة، ولم تدفعنا طبيعة مقاومته المنفردة في منطقة هادئة ومالية إلى مثل ذلك المدى البعيد. لكن موقف الرجل العجوز يسبب بعض التساؤل في ظل هذه الظروف. كان يضرب الكرة على كوة الأساسية، وقام سريعاً باكتشاف كيف نلاحظ بدقة قوانين اللعبة: كيف في الواقع، كنا حتى هذه النهاية نعوق أنفسنا في تحديد مكان الميدان. سيستفيد هو بشكل طبيعي من هذه المعرفة. ولكن لإنصافه فقد ضرب بمضرب استقامة، وبالرغم من أننا أجبرناه على الهروب القصير في بعض الأحيان فإننا لم نستطع إخراجه، وما زال يحوز على الشرف حتى الآن.

كان عامل الوقت في صالحنا، وقد أحدث مزاج بدر المؤدّب والإدارة الجديدة تغييراً في الجبهة، وكان إبقاء ذكر اسم بدر حياً على كل لسان هو أحد آثار الإجراءات الفعالة في مسألة البوصالح، رغم ضرورتها المؤكدة في الوقت الحاضر عندما حاول بنزاهة الفوز بإكليل الغار كبطل، أو على الأقل سوء سمعة فهو على الأقل سوف يستاء منها. لم تكن الدلالات التي تشير إلى أن الوقت قد أزف مفقودة، لتعيين ابنه البكر حسن، خليفته الطبيعي في المشيخة، ولمعرفة ماذا تكون نتيجة إهمال الرجل العجوز. ولم يكن هنالك من سبب أيضاً، حول لم لم تجد الاقتراحات طريقها إلى الأهوار التي لم تبدأ تحت رعاية محدّدة.

وكان ذلك اليوم الصّافي الذي جلب فيه رسولٌ من السّادة وهو رجل دين محترم وأكثر توقيراً لأنه حفيد رسول الله، جلب قبولاً لفظياً لشروط تُصادق عليها الحكومة، بشرط تنازل المتمرّد الخاضع لإعلان خلافة حسن يرتبط بالسّماح لكل أعضاء البيت الرّمضي بالعودة إلى تراب وطنهم باستثناء الشّيخ بدر نفسه الذي سيغادر في نفي طوعي إلى المُحمّرة، وينزل هناك ضيفاً على حليفنا القديم الشّيخ خزعل. ويمكن أن يترك المستقبل ليشفيه بلسم الزّمن.

ربما تعلقنا بغصن الزّيتون هذا بحدّة شديدة، لأنّ بدرّاً ارتدّ بعد بضعة أيام على أمل أن يحصل على شروط أفضل، ثم تبع ذلك تراخي شهرين من صيف محتوم موحش وحارّ، ثم قرّر بدر أخيراً أن يختبر نوعية الرّحمة البريطانية حين لم يعد قادراً على تحمل خسوفه أكثر.

كان ديتشبرن يقوم برحلة في هور الحّمّار في شهر أكتوبر بصحبة پلاتس⁽¹⁾ مساعده التّشيط في سوق الشّيوخ وكانا يجلسان في مجلس (اجتماع عام)، محاطين بمئات من رجال القبائل، وفجأة شوهد ثلاثة فرسان وأبلغ عن عدوهم عبر السّهل باتجاه خيمتهم. وعند دنوّهم أعلنت الرّغاريد القويّة للنّساء في الخارج حدثاً ذا أهمية أكبر من أن تكون عابرة، لقد كانت بالفعل أغنية نهاية رجل الأهوار العجوز.

ترجّل الفرسان وكان المتمرّد بنفسه أحدهم، لقد جاء ليستسلم دون شروط.

كانت لحظة لا تُنسى، تتابع رجال القبائل في طابور إلى خارج الخيمة بصمت وهم مطأطئون رؤوسهم، وتقدّم بدر إلى مكان وقوف الضّابطین البريطانین لتشريف خصم مقهور، كادت الرّمال أن تنفذ ويتداعى التّشبّث بالهدف.

أزاح عن وجهه اللثام وهو ينحني، واتباعاً لآداب بلاده ربطه بتؤدة على رجل كرسي من يخضع لهم.

قال: «ليس لدي اعتبار أكبر من أكون شبّانة shabana (جندي عادي) في قوّاتكم المسلّحة».

(1) الكابتن أي پلاتس Captain A. Platts.

ثم قال وهو ينهض إلى ركبتيه: «لقد أنزلتم الجبابة من مقعدهم» - هذه روح بدر العجوز المصاب بجنون العظمة، ولكنه قال ما يكفي.

عاد السياسيان متهللين إلى الناصرية، وأبرقا بالأخبار الحاسمة للمفوض المدني في بغداد.

جاء الرد: «تهانينا، ستعم المسرة في السماء....».

* * *

المغامرة الثانية

ضابط المنطقة في بلاد الرافدين
أثناء عصيان 1920

تمهيد

يمكن أن يكون القارئ غريباً عن سياسة الحرب العربية، وليس المقصود هنا أن يؤدى به إلى متاهة جدلية، زجّ العديد من الرجال القادرين فيها بأنفسهم. ولكن ربما يعود إليه أن يُمنح، مخططاً لأبرز الأحداث العربية محدّدة دون تحشية كخلفية لهذه القصة، حيث يستطيع أن يأخذ لمحات عن تلك التركيبة السياسية التي انطلقت منها بشكل رئيسي شرارة اضطرابات بلاد ما بين النهرين في عام 1920، ويمكنه على صعيد آخر أن يختار الانتقال مباشرة إلى القصة.

بقيت البلاد العربية في سوريا وبلاد ما بين النهرين والحجاز لمدة ستة وعشرين جيلاً بيد الأتراك، وقد وجدت دلائل نهضة عربية في العقد السابق للحرب، كانت حركة انفصال سياسي استلهمت وحيها من الليبرالية الغربية أكثر منها نهضة ثقافية، وتجذّرت في بلاد ما بين النهرين في بغداد والمدن الرئيسية في شمالها وانحصرت بالمفكرين، ولم تتأثر بها العشائر التي كانت تنحدر في غموض معتم، وقدمت عناصر منهم، فعلياً، إلى القنصلية البريطانية في أيام قبل الحرب باقتراحات محرّجة بأنه يجب على الحكومة الكبيرة المعتدلة أن تجرّد الأتراك من أعبائهم الحكومية بالإكراه، ولكنهم لم يكونوا نموذجيين، لأنّ رجل العشائر الفردي بالكامل هو بشعوره وحقيقته عنصر من هيئة المجتمع الأبوي، مكتفٍ بذاته ويجري في وجدانه معاكسة الحكومات المنظمة مهما كانت، تركيّة أم بريطانية أم عربية. أيد المجتمع ذلك بالفعل عن بعد سلطانه عتيق الطراز عبد الحميد ووحده الإسلاميه، ولكنه اعتبر مقلّدي أوروبا

في جمعية الاتحاد والترقي المؤلفة من شباب الاتراك المفكرين الأحرار المعادين للتقاليد بأنهم يجسدون الفساد بإيحاء من قادته الدينيين.

يمكن السيطرة على رجل العشائر فقط إذا كان مقتنعاً بسلطة حاكمه وإرادته للحكم، إلى جانب رغبة الحاكم الحقيقية برفاهيته، ذلك شرط أساسي، يجب أن يرتبط مع كل الأحداث التي وقعت في بلاد ما بين النهرين العشائرية.

لم تكن قد نشأت بعد اضطرابات إدارية في السنة السابقة للحرب الكبرى، وكانت حركة القومية العربية التي قد تكون بدت غير ذات أهمية في وقتها هامة بالنسبة لشرائح رفيعة محدّدة. كان اللورد كيتشنر Kitchener الموجود الآن في مصر، قد احتكّ بنفوذ الخليفة وسط المسلمين الهنود بصفته قائداً أعلى للقوات المسلحة في الهند. كان الخليفة العربي المحتمل في حركة القوميين العرب، والخليفة العربي المتحالف مع بريطانيا العظمى وسيلة فورية تعارض الجهاد في الهند وتتفادى طموحات الألمان في الشرق الأوسط - في حال تطوّرت في يوم من الأيام العلاقات التُّركيّة الألمانية التي نمت بسرعة في حروب البلقان الحديثة إلى حرب عالمية.

جاءت الحرب العالمية وجاء معها التدخّل التركي، فوقع الاختيار على حسين شريف مكّة حامي الديار المقدّسة ليرشّح لقيادة الحركة العربية. كان أحد أهداف الثورة العربية الفورية أن يرفع الرّاية، إشارة للإسلام بأنّ الأماكن المقدّسة لن تطيع بعد ذلك القسطنطينية وإنما في الواقع تتبرّأ منها، وهدف آخر هو جلب السوريين وعناصر من بلاد ما بين النهرين إلى جانبها وبذلك تضعف موقف العدو في تلك البلاد. كانت موارد الدولة البريطانية تمدّ الثورة العربية بمبالغ طائلة أثناء سنين الحرب وبعد الحرب مباشرة، لتحرّر من النّير التركي الذي طوّق الأقاليم العربية بواسطة الموائيق السياسية التي أدخلتها الحكومة البريطانية فيها.

كانت تلك الموائيق أو بالأحرى صعوبات حضور صراعات تفسيراتها هي التي سبّبت بعد ذلك نشوء سوء الفهم، فكانت مصدر عدّة اضطرابات هيّجت الشرق الأوسط فيما بعد.

ربما يكون تعبير الثورة العربية مضللاً نوعاً ما، لقد اقتصر في جزيرة العرب الحقيقية على شريحة ضيقة في السواحل الغربية ومنطقة الحجاز - لأن جزيرة العرب هي كيان جغرافي وليس سياسياً. لم تكن معظم الإمارات في جزيرة العرب معنية بذلك، أما نجد وجبل شمر ومسقط والبحرين والكويت فكل واحدة لها حاكمها الوراثي المستقل الذي يرفض تحت أية حالة أن يرفع الشريف على حسابه. ولم تكن الثورة العربية لأجلهم، فقد حصرت نشاطاتها المادية بالحجاز وحوض البحر الأبيض المتوسط اللذين كانا مسرح الحرب، وقد زوّدت تلك المناطق وبلاد ما بين النهرين وحدهما بالفرصة السياسية الملائمة للثورة.

كان منوطاً بحكومة الهند تمثيل المصالح البريطانية في كل مكان من جزيرة العرب الحقيقية - باستثناء ساحل البحر الأحمر. بينما وقعت مسؤولية مهام ساحل البحر الأحمر وبالتحديد أكثر الموانئ مع الحجاز بما يخص الثورة العربية على وزارة الخارجية. وتغير مسار مسرحي نشاط عربيين كانا يخضعان لإدارة وزارتي دولة منفصلتين، فأصبح مسرح حوض البحر الأبيض المتوسط، عن طريق المكتب العربي ومصر، تحت إدارة وزارة الخارجية، لأنّ وزارة الهند كانت مسؤولة عن بلاد ما بين النهرين.

عندما قاربت الحرب على نهايتها انبثق مشهذان متشعبان يتعلّقان بالسياسة العربية: 1 - مشهد المكتب العربي الذي يستمدّ أفكاره من عناصر المثقفين القوميين في الثورة العربية. 2 - مشهد المدرسة الهندية التي تدير بلاد ما بين النهرين بنفسها وهي مضطّعة بتفاعل المسألة التركية والفارسية والتّجدية.

تساوى الشريفيون والبيروقراطيون القوميون في نظر المكتب العربي مع استقلال العرب، وتطلّعوا لإنجاز وعد الحرب البريطاني التّام في التّخلّي عن سوريا وبلاد ما بين النهرين (وإذا أمكن، توحيد الدولتين فدرالياً) إلى حكم ملكي مؤلّف من أفراد من عائلة الشريف حسين مع سيطرة إدارية منوطة بأيادي البيروقراطية القومية.

كانت المدرسة الهندية تسير نحو تعريب أكثر تدرّجاً في سيطرة السّلطة التّنفيذية في

بلاد ما بين النهرين، على ضوء تخلف وانعزال رجال العشائر والافتقار إلى السلام مع
تُركية، مع التّعهدات البريطانية العسكرية في الوقت الحالي في بلاد فارس، والتّهديد
الرّوسى وكذلك حساسية ابن سعود الذي أصبح الحاكم القوي لكل نجد والعدو
الدّود للشّريف.

أحدهما كان مثالياً والآخر تقليدياً، ولم تبسّط نقطة الخلاف بوجهة النّظر الفرنسية
التي كانت مناوئة للشّريف، أمّا الشّريفيّون كما لُقّب قوميّو الثّورة العربية، فقد كانوا أيضاً
غير راغبين بالتّعرّف إلى الفرنسيين وألحوا على تنفيذ البريطانيين وخدمهم لتّعهدات
الحرب التي قدّموها في البداية. كان تعاطفهم الطّبيعي يتجه نحو المناوئين للمكتب
العربي والمناوئين للفرنسيين والمناوئين للمدرسة الهندية. وأخذت وطنيتهم شكل
عصيانين مسلحين في غضون السّنتين اللتين تلتا الحرب، أحدهما كان ضد الفرنسيين
في سوريا ولكن لم يفلحوا فيه بالمحافظة على أهدافهم، والعصيان الآخر نجح وكان
ضد البريطانيين في بلاد ما بين النّهرين.

وبشكل واسع مختصر، فإنّ تعهدات الحرب التي أدّت إلى حالة الأمور الرّاهنة
كانت كما يلي:

I - في مستهل الثّورة بين عامي 1915-1916 تقدّمت الحكومة البريطانية بعرض
إلى الشّريف ينصّ على عدّة بنود من بينها:

بخصوص... [منطقة ساحلية محدّدة على البحر الأبيض المتوسط]، بريطانيا
العظمى مستعدة للدّعم وللإعتراف باستقلال العرب ضمن السّواحل [بما فيها سوريا
الشرقية وأدنى بلاد ما بين النّهرين] وعندما تسمح الطّروف سوف تقدم بريطانيا
العظمى توصيتها وتساعدتهم في تأسيس ما يمكن أن يظهر للعيان بأنّه أنسب نموذج
للحكومة في تلك المناطق.

على صعيد آخر، يُفهم أنّ العرب قد قرّروا طلب توصيات وإرشاد بريطانيا العظمى
فقط...

آخذين بالاعتبار أن العرب سيقدرّون الحالة الرّاهنة ومصالح بريطانيا العظمى في ولايتي بغداد والبصرة، ممّا يستلزم إجراءات سيطرة إدارية لحماية هاتين المنطقتين من العدوان الأجنبي ولتعزيز مصالح السّكان المحليّين، وكذلك لحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة.

II - وُقعت معاهدة سايكس بيكو بشكل سرّي بين فرنسا وإنكلترا عام 1916، ورسمت هذه المعاهدة حدود مجالات نفوذهما في البلاد العربيّة المحرّرة من الأتراك. فسوريا كانت ستصبح منطقة فرنسية، ويعود أدنى بلاد ما بين النّهرين لبريطانيا العظمى.

III - وضع إعلان بلفور في نوفمبر عام 1917 الذي يحدّد فلسطين كمقاطعة منفصلة.

IV - صدر إعلان فرنسي إنكليزي بعد انتهاء الحرب مع تُركيّة في السّابع من نوفمبر عام 1918 حدّدت فيه أمور أخرى:

كانت التّهاية التي سعت لها فرنسا وبريطانيا العظمى هي التّحرّر الكامل للشّعوب التي اضطهدّها الأتراك لفترة طويلة، ولتأسيس حكومة وإدارات قومية تستمد سلطتها من المبادرة والخيار الحرّ للشّعوب الأصليّة... بعيداً عن رغبتهم فرض أية مؤسّسات معيّنة، ليس لدى الحلفاء رغبة غير دعمهم ومساعدتهم الفعّالة لضمان أداء طبيعيّ للحكومات والإدارات، التي حدّدتها الشّعوب بنفسها.

كانت المنطقة الفرنسيّة في سوريا أثناء بداية فترة الهدنة تحت الاحتلال البريطانيّ، احتلال جيش الجنرال آلنبي المنتصر.

تولّت بشكل منطقيّ القوة الشّريفية العسكريّة التي كانت ملحقة بذلك الجيش مع نواتها من الضّباط البريطانيّين الإدارة التّنفيذية للحكومة، وكان في نظامها «العهد العراقي» *Ahd al Iraqi*، الذي كان منظّمة القوميين لأهل بلاد ما بين النّهرين، وقد عمل أولئك الآن بجدّيّة من موقعهم في مشكلة تحرير بلاد ما بين النّهرين، وبمعنى آخر لتأمين السّيطرة التّنفيذية في الإدارة هناك كما بدأ أنهم أحرزوه في سوريا كخطوة

تمهيدية للتحرر من قيود التأثير الأجنبي. أصبحت سوريا منذ الآن فصاعداً المنبع الرئيسي للدعاية العربية، وكان هناك نهر من ذهب مكرّس لتقويض مركز بريطانيا في بلاد ما بين النهرين، انبثق من ذلك المكان.

لنعد للإعلان الإنكليزي الفرنسي المشترك الذي بدا أنه يقدم لنشاطات القوميين قضية معنويات وحافزاً، لكن الحظ لم يحالف نتائج هذا الإعلان، فقد بدا في كل مناشداته الديموقراطية والمثالية السامية، لأولئك الذين طلب منهم التأثير فيه على الفور، بدا أنه ناسب مجتمعات فيها مؤسسات متطورة وحسّ مشترك أكثر من البلاد العشائرية التي تنقصها تلك الشروط بشكل كامل.

كيف تمنح شعباً غير واضح سياسياً «تحريراً كاملاً ونهائياً»؟ كاد سكان جنوب بغداد يكونون كتلة شيعية صلبة ومعظمهم أمّيون تقريباً يعيشون في مجتمع سياسي بدائي ولكنه عشائري متحفظ، بقي في عدة أماكن لعقود دون استخدام في أية حكومة على الإطلاق، وكانت رغبتهم الحقيقية على الأرجح التحرّر من أي نوع من الحكومات من غير مجموعتهم العشائرية.

كيف يمكن تشكيل «حكومة قومية وإدارة ترسم مبادراتها واختيارها الحرّ» من بلاد مأهولة على نطاق واسع برجال مثل هؤلاء الرجال غير المتعلّمين؟

إنّ أيّ تشكيل لحكومة محليّة يتطلب موظفين سُحبوا من طبقة واحدة مثقفة - المفكّرون السّنة بشكل رئيسي من بغداد والمدن الشماليّة - وهي الطبقة التي أعلن رجال العشائر رفضهم المتجذّر لها، في تعاملاتهم مع الضّباط البريطانيين عندما لم توجد قضية معلقة. لو بدأنا قبل الأوان بعد الجلسة الممتازة للموظفين البريطانيين بالأفنديّة المحليين الذين كانوا بالإضافة إلى ذلك إمّا دون خبرة أو أنهم اكتسبوا خبرتهم في مدرسة تركيّة فلن يفي برأي سلطات بلاد ما بين النهرين (بعيداً تماماً عن المسائل المتضمّنة بما يتعلق بتركيّة وروسية وبلاد فارس ونجد) بشرط «المبادرة والخيار الحرّ للشعب الذي سوف يقومون به بأنفسهم».

باختصار، فإنّ الشّيعَة والعامل القبلي الموجودين في بلاد ما بين النّهرين دون باقي البلاد العربيّة، جعلوا تشكّيل دستور هناك ينسجم مع شروط الإعلان الإنكليزي الفرنسي صعباً إلى أقصى الحدود.

كان غالبية شعب بلاد ما بين النّهرين قد استسلموا ورضوا بالإدارة البريطانيّة حتى وقت صدور الإعلان، فقد قبلوا لإيمانهم الشّرقي بالقضاء والقدر قرار السّلاح وتهيّأوا، كما يقول المثل العربي: «اليد التي لا تقدر عليها قَبْلُها». وجاءت المفاجأة الكبرى مع نقاط الرّئيس ويلسون الأربعين في مؤتمر السّلام، ثم ظهرت نتيجته بعده بشهر - بالإعلان الإنكليزي الفرنسي. شاع على الفور بين البغداديين خبر تعيين أمير عربي، وارتفعت صرخة أمل من المقاهي، ولكن لم يحصل شيء عند العشائر لبعض الوقت، ثم انطلقت إلى الخارج فكرة غامضة بأنّ المستقبل يخبئ الخير العميم، فلا مزيد من الضّرائب ولا ريع أراضٍ ولا تداخلات ولكن فقط «حرّية» عشائرية متحرّرة من أية سلطة قسريّة. وأحرزت تلك الفكرة تقدماً. أما بالنّسبة للأماكن المقدّسة فقد ابتهج حاملو شعله الدّين الخاص لمحو الذّات المعلن للحكومة كافرة.

دعيت جماعة ذات مصالح مضادّة للحكومة لتنهض وتكون فاعلة، وأوجد تضامناً لم يكن موجوداً في السّابق.

أخذ المفوض المدني خطوات ضروريّة للتحقق من الآراء المحليّة عند البدء، بتوجيهات من الوطن، لم يكن هناك رأي متشكّل في هذه المرحلة لذلك لا يوجد وسائل للتحقق منها. وطلب السّياسيون اجتماعات عامّة، وقد اتخذوا كل الاجراءات التي ضمن سلطتهم بإخلاص لتشجيع الناس للتصريح فيما إذا كانوا يفضلون الأمير وإذا كانوا كذلك، فمن هو، وأي نموذج من الإدارة يرغبون، وهكذا. ولكن أفق النّاس العقلي توافّق مع أفقهم الجسدي، فلم يسبق أن دُعيت العشيرة للمساعدة بتشكّيل الدّستور من قبل أبداً، وكانوا عادة يجيبون - للفوز بالحظوة عند رؤسائهم الحاليين - بأنّ البريطانيّين كانوا أكثر ارتباطاً مرغوب به. أصبح، بالتدريج طبعاً، للرّجل «الذي أحاسيسه في عيونه»، شعور بالتشجيع في دمه. كان يعتقد حتى هذا الوقت بأنّ الله فقط

هو القادر على تبديل البريطانيين، وهو يتصرّف وفقاً لذلك، والآن وُضع في فكره بأنّ عليه إهانة السّلطة فقط وسوف يزيل البريطانيون أنفسهم، فأصبح بذلك أداة جاهزة للمهتجين، الدّينيين والقوميين، وهؤلاء بدورهم وجدوا ما يؤيّدهم بوفرة في الصحافة البريطانية، التي كان فيها قسم يرفع صوته بالدّعاية ضد مغامرة بلاد ما بين النّهرين ومع مطالبة بقطع جبل المركب.

هكذا كانت تُبذر بذور الاضطراب، وسرعان ما كُنا نجني زوبعة الحصاد المأساوية.

أسهمت أحداث خارجية باحداث ثورة كما لو أنّ الحظ العاثر كان يترسّخ بشكل مضاعف، وكانت سوريا في هرج ومرج وكذلك كانت مصر. سيطر مبدأ تقرير المصير على الميدان السّياسي، فقد ورد في الفقرة الثّانية والعشرين من ميثاق الأمم المتحدة «يجب أن تُعتبر رغبات المجتمعات قاعدة أساسية في اختيار المنتدب».

مهما كان الشّيء الذي لم تصرّح به بلاد ما بين النّهرين، فقد وُجد شعور متفق عليه بأنّ الارتباط بالبريطانيين كان مرغوباً، ولكن أعتبر الشّريفيون في سوريا بشكل مبدئي أنّ البند الثّاني والعشرين يلغي معاهدة سايكس بيكو، وبناء على ذلك البند فإنّ سوريا ستكون تحت الانتداب الفرنسي طوعاً أو كرهاً، فلذلك انخرطوا في دسائس معادية لفرنسا. اقترح الرّئيس ويلسون في مؤتمر السّلام استفتاءً عاماً في سوريا، ولهذا الغرض كان على أربعة ممثلين لقوى التّحالف أن يباشروا هناك، ولكن لم تتم المصادقة على بنود الصّلاحيات، وكان الممثل الأميركي هو الوحيد بين الأربعة الذي سيذهب إلى سوريا، وأصبح مركز قوى الاضطراب في موقع الاستياء، واختلّ الأمن في سوريا.

كان احتجاز القوات البريطانية المحتلة للسوريين البارزين المؤيدين لفرنسا قد دفع للتوّ القضايا إلى التّضج، وعزا الفرنسيون مشاكلهم في سوريا إلى مكائد ضباط بريطانيين يخدمون مع الشّريفيين، ومهما كانت تلك التّهمة غير حقيقية، فقد وجدت ثورة لادّعة في الصحافة الفرنسية - وهي لحظة سوء حظ متناهية للعلاقات الإنكليزية الفرنسية التي سوف تتوتّر، لأنّ مصر كانت في ذلك الوقت تغلي بالثّورة لإلغاء الوصاية البريطانية، فتقرّر سحب كل القوّات البريطانية من المنطقة السّورية، وبناءً عليه سيطر

الفرنسيون على الدولة وعلى إدارة الشّريفيين.

أصبح الأمير فيصل وجيشه من الثّوار العرب في حالة حرب مع القوة المتتدبة في غضون ستة أشهر، وأخرجهم الجيش الفرنسي في سوريا من تلك البلاد بحد السّيف في شهر يوليو من عام 1920.

اعترفت بريطانيا العظمى بمطالب العرب الكبيرة منها مقابل خدماتهم في الحرب، ولكن بقيت سوريا وفلسطين مصاريح مغلقة، وبذلك بقيت بلاد ما بين النّهرين نقطة المركز لتطلّعات القوميين العرب.

* * *

الفصل الأول من المغامرة الثانية

أحداث قادمة

مرّت الأشهر الأولى من عام 1920 بصفاء تام في بغداد، فعلى سبيل المثال، كانت تقام أمسيات الأحاد اللطيفة للمسّ غرتروود بل بعد جولة صباح الأحد الاعتيادية على صهوة الحصان، بصحبة تلك المرأة المميّزة نفسها، تقام تلك الندوات "P.S.A.'s"، بي إس أي كما كانت تختصر، في حديقة المسّ بل ويُدعى إليها الطليعة في بغداد - تجتمع يحضره قسم كبير من أولئك الذين كان لهم إخوة في المعسكر الشريفي مع الأمير فيصل في سوريا. قدّمت البي إس أي منبراً حراً، عبّر منه العرب عن قناعاتهم السياسية في ذلك الوقت: معاهدة سايكس بيكو والصهيونية وإعلان بلفور والإعلان الإنكليزي الفرنسي، ومسألة الموصل والمسألة التركية، إلى جانب تطلّعاتهم الخاصة.

كان لي امتياز العيش مع رفاق مائدة سياسيين من الدرجة الأولى، أعلى نخبة سياسية في البلاد، كانت أعدادها تتضمّن رئيسنا اللامع آرنولد ويلسون والمسّ بل وآخرين، لم تعرف تلك النخبة لحظة خمول، أحرزت آلة بيانو رائعة من منزل ألماني قديم في بغداد، وأنا أذكر بوضوح تام ليالي الضيافة التي ربما سمع فيها عزف جي إم ويلسون *Prologue to I Pagliacci*، المفعم بالحيوية، ومحفوظاتي الشخصية لخدع الرّدهة و *A Major Polonaise*، لشوپان و«مشاهد كرنفالية من فيينا» *Faschingsschwank aus Wien* لشومان. كان الزوّار الأخيار العظماء الذين خرجوا إلى الرّيف في هذا الوقت قد جعلوا من شارع ميس Mess رقم 1 مقرهم الدائم. تراوح الموجودون بين نظراء عالميين وحكّام محتملين في الرّئاسات الهندية يقومون بمسح تمهيدي للبلاد،

إلى علماء آثار مشهورين عالمياً في رحلة إلى هذا الفردوس البابلي الذي يخصّهم الآن أخيراً بأمان، وكانت توجد بالإضافة إلى ذلك موجة من الموظفين مغادرين أو عائدين إلى أقسامهم: شخصيات من أمثال ليتشمان Leachman وسون Soane لهم معرفة فذة بالبلاد والناس التي أوقفوا على دراستهما حياتهم، والذين اعتبروا الهي إس أي مربية إن لم تكن منظمة خطيرة بشكل مؤكّد.

لكنني فضّلت عبودية مقعد المكتب بنسبة أقل من الحياة الحرّة كمسؤول سياسي في المقاطعات - لأنني كنت قد عُيّنت كمساعد ثانٍ في أمانة سرّ الدّخل منذ عودتي من أجازة البيت - أمضيت معظمها على صهوة الحصان وأتوق إليها ثانية.

كنّا في شهر مايو والعصيان المسلّح بين ظهرائنا، وكان قد بدا التّدثّر العام للتوّ، واعتبر المفوّض المدني أنّ عدد القوات في البلاد غير كافٍ لمنع العاصفة، اتخذت القيادة العامّة وجهة نظر متفائلة، رغم أنها أكثر طيشاً. لم تواجه بابتهاج قضية رفع عدد قوات الحامية العسكرية قبل ان تنشأ الضّرورة لها، وعُهد بها إلى سياسة تقليل عدد جيش الاحتلال في نهاية العام بسبب الضّرورات المالية والتّسريحات في الوطن، علاوة على ذلك، كانت بلاد فارس حديد في التّار. كما كبحت قوة الشّمال الفارسي التي سمّيت: «قوة نورپر» "Norperforce" التي صدّت ضرب البلاشفة عبر بحر قزوين: وهي حركة يعتقد دوماً أنها يمكن أن تحدث آنذاك. ولكن قضية الاقتصاد لم تُخدم كما يجب بإنشاء محطة التّل العسكرية في بلاد فارس بالإضافة إلى معسكر الجيش في كارند Karind. من جانب آخر، خرج إلى ساريميل Sarimil في الشّتاء الماضي، زوجات وعائلات جيش الاحتلال وأعلنت القيادة العامّة G.H.Q الآن أنها أعدت نفسها للتّحرّك نحو بلاد فارس في الصّيف. عولجت الاعتقالات المدنية على الحالة السّياسية بشكل سطحي نوعاً ما، وجاءت منها هذه المحاكاة التّهكّمية الساخرة⁽¹⁾:

(1) بإذن من صحيفة «التّروث» Truth (الحقيقة)، من إصدارها في 19 يناير عام 1920.

نصف لاک (مئة ألف)، نصف لاک
تبدّد، نصف لاک
ونحو أعلى التلال الفارسية
تجوّلت القيادة العامة
يغويها باستمرار عقول هامبرو
ترميها بالبيض آلام جوليان
تدفعها إلى الأمام قطارات لوبوك
تجوّلت القيادة العامة⁽¹⁾

«التّهمة للمعسكر»
هل هناك فاتورة متأخرة؟
لا، رغم أن المقاول عرف
فقد أخطأ أحدهم
لا تحسب فاتورتنا
سنقدّمها باستقامة
باستمارات وتكاليف وحسابات مدوّنة، ثمانية
مضاعفة ثلاث مرات كل شهر
لا تستفهم عن فاتورتنا

(1) ثلاثة عمداء في أركان حرب القيادة العامة على التّوالي، المندوب كيو إم جي ومدير الخدمات
الطّبية ومدير سكة الحديد.

فقد بدّتها القيادة العامّة
الحروب في جهتهم الغربية
الحروب في جهتهم الجنوبية
المعارك في كل مكان حولهم
أمطرت بوابل وأرعدت
دون اهتمام للقبائل التي تُقتل
جلسوا بثبات وسكون
مطمورين في ساريميل Sarimil
ثم عادوا ولكن مع
تبديد نصف لأك

احترموا الشّجاعات الجميلات
الزّوجات اللاتي بقين في هناك الأعلى
يتنقّسن الهواء المشترك
لسن منفصلات الآن
يختلطن بي وبكم
كما لو أنّهن القيادة العامّة
ربما كنّ بشراً أيضاً
لماذا لا يكفي مخيم واحد
كل المتسائلين في كارند Karind

حيّوا الشّجعان الجسورين
دافعي الضّرائب، صغاراً وكباراً
دفعوا بالمثلات
رغم أنّه لم يُطلب منهم
فكّروا بالمعسكر الذي صنعوه
فكّروا بالماء المعروف
وأربطة الغولف المصنوعة
فكّروا بالفاتورة التي دفعناها
آه، على الضّريبة المفرطة التي فرضوها!
وبُدّد نصف لاك!

* * *

سمعتُ رنين الهاتف
«من فضلك أريد الكابتن توماس».
«يتحدّث إليك بنفسه».
«يتحدّث معك سكرتير المفوض المدني⁽¹⁾ C.C - يرغب السّير آرنولد أن تأتي
إليه وتراه».

كنت في مكتب المفوض المدني في غرفة كبيرة مفروشة بشكل حسن بالسّجاد
ولكنها خالية من الأثاث باستثناء منضدة للكتابة وبضعة كراسٍ ومقعد طويل اعتاد
رئيسنا السّياسي اللجوء لإغفائه الليل عليه، وأعمدة من الملفات حوله شغلته طوال
أربع عشرة ساعة من النّهار.

(1) اختصار العبارة الإنكليزية: Civil Commissioner. (أحمد)

«خذ كرسيًا! واقرأ هذه توماس».

كانت من دايفيدسون، الضابط السياسي لدى المُنتَفِق، قرأت:

تسلّمتُ تقريراً ملخّصاً من الضابط السياسي المساعد في الشّطّرة، بأنّ الوضع العشائري هناك يبدو قاتماً، فالقبائل تشتري البنادق وترفض احتساب محاصيلها لأهداف حساب الرّيع. وإذا اتحدت قبيلتنا خفاجة وعبودة فستنشأ حالة صعبة. وسيستحيل إخضاعهما بسبب تعذّر البلوغ إلى المنطقة ونقص وسائل الاتصال بالإضافة إلى شهرتهما بروح التّمرد، وقد أرفق الضابط السياسي المساعد استقالته.

نظرت إلى الأعلى.

قال المفوّض المدني: «حسناً، ماذا تفهم منها؟ لقد خدمت هناك مدّة أطول من أي شخص آخر على ما أعتقد».

أجبت: «أرغب جداً أن أرسل إلى هناك سيدي».

أرسلت في اليوم التّالي إلى المنطقة في القيادة العامّة لرؤية رئيس أركان الحرب، مصطحباً رسالة من المفوّض المدني.

تقول الرّسالة:

طُلب مني إرسال قارب مدفعية إلى الكوت، فالتّمتست إن كان بالامكان أن يوضع في تصرّف الكابتن بي إس توماس الذي سأرسله كضابط سياسي مساعد للشّطّرة، لاحقاً لوصوله إلى ذلك المكان ومن هناك إلى شطّ الغرّاف وإلى شطّ البدعة Shatt al Bada (وهو أبعد ما يمكن الوصول إليه بسلام). يعرف الكابتن توماس المنطقة جيّداً، يمكن أن تنشأ ضرورة لإرسال طائرتين إلى الشّطّرة حيث يوجد مهبط طائرات جيّد، يفضل إرسالها إلى النّاصريّة بتعليمات التّقّدّم إلى الشّطّرة إذا طلب منها ذلك الضابط السياسي المساعد.

بعد أربع وعشرين ساعة أرسلتُ تقريراً إلى الضابط السياسي في النّاصريّة وإلى

قسم المركز الرئيسي في المُتَّفِق بالفُرات الأدنى أسفل الخط بنحو مئتين وخمسين ميلاً، وتابعت هناك بالقطار - كانت سكة الحديد تلك حلمًا ألمانيًا قبل الحرب، ومأثرة حربية من البريطانيين إلى أرض الرّافدين.
ذهبتُ من النَّاصِرِيَّة على ظهر الحصان إلى الشَّطْرَة.

* * *



الشاطرة، منظر جوي للبلدة ونهر الغراف

الفصل الثاني من المغامرة الثانية

الشَّطْرَة

الشَّطْرَة مجدداً! لفترة خدمة ثانية، كان منظرأ مبهجاً، كنت أعرف في ذلك الحين عدداً من الناس بشكل شخصي وعلى وجه الخصوص ذوي السَّطْرَة بينهم، وأحببتهم كما يحبّ الإنكليزي رجال العشائر عند تعرّفه عليهم. تقع الشَّطْرَة بلدة الشوق للعشائر المحيطة بعيدة عن الطّريق العام في بلاد ما بين النّهرين، في قلبها الفسيح وسهل الجزيرة الخصيب قرب بقايا قناة نهر الحاي.

يقع منزلي في مكان متوسط في مواجهة النّهر، كان من نموذج البيوت العربية، بني حول فناء الدّار وليس فيه نوافذ خارجية كافية بسبب حجاب المرأة المسلمة والخوف من العين الفضولية، تفتح الغرف في الطّابق السّفلي نحو الفناء، وكان فيها غرف مكاتب - فناء بهيج مرصوف بأجرّات منقوشة عمرها أربع آلاف سنة من أيام الكاهن الملك غوديا Gudea في مدينة لاغاش السّومرية القديمة التي تمتدّ آثارها في طريق صغير في أعلى النّهر، وامتدّت شرفة حول السّاحة الدّاخلية من البيت خارج غرف الطّابق الأول التي كانت تمثّل قسم المعيشة، وتقود مجموعة درجات اعتيادية من الفناء إلى السّطح.

كنت ألجأ إلى هناك في برودة المساء لتدخين غليون بسلام، وأنظر إلى الخارج نحو أسوار المدينة وراء النّهر الصّغير في الجانب الآخر، إلى حقول الحنطة الصّفراء الفسيحة التي تمتدّ بعيداً مثل بحر ساكن تطوّقه حدود السّماء، تطلّ منارة فيروزية من ألواح صخرية لجامع يوم الجمعة على سطح بيتي، حيث يختار المؤمنون في

الأمسيات الحارّة الصّعود إلى قرب قُبته لسجودهم. وتقع بيوت المدينة المسطّحة وراءه وبعده، وبينها المدرسة الابتدائية للفتيان والمستوصف - تدين الشّطرة بفكرة إنشائهما للإدارة البريطانية. قدّرت هذه المؤسّسات التّقدّمية حقّ قدرها على الرّغم من اني واجهت معارضة للبدء بها عندما قدّمت كُرة للمدرسة ودعوتهما الأرض، لأنّ بعض الأهالي الذين استشعروا فيها الكفر اعترضوا عليها. تقع إصطبلاتي في الجانب المواجه للجامع، فقد كانت أيام السّيارات ما زالت شمسها لم تشرق في مناطق مثل الشّطرة، وفضّلت في جميع الأحوال أن أقوم بجولاتي على صهوة الحصان لأنها بدت لي الطّريقة الصّحيحة لدراسة العربي ولغته، وولكي تتركه يتعرّف عليك، إلى جانب أنها أكثر مرحاً بكثير، ولقد استولد ريف المحيط المثمر الحصان العربي العادي صغير الحجم ولكنه الحصان العربي الجميل.

امتدّ السّوق الذي انتعش في أيام خصب البلاد على طول البلدة، وأزيل منه شارع أو شارعان وتوازي مع النّهر، وهو يعجّ بأهل الرّيف ويضجّ ببريق أزيائهم وحشرجة كلامهم، معظمهم شباب قبائل متأنقون مسلحون حتى أسنانهم ويتألّفون في كسوة تشبه الكسوة الحربية. يزوّد السّوق أذواقاً عربية واسعة بشتّى ضروب البضائع حتى باتت الشّطرة الآن بتماس مع العالم الخارجي، ووُجدت محال صغيرة تزهو بالبهارج الهندية واليابانية وكوكبات داخلية من المرايا، وشارة حانوت حلاق فيه صورة نسوية ممتلئة بالحجم الطّبيعي للنّصف العلوي بلون اللحم عند المدخل. الحلاق في هذه المناطق هو محترف التّدليك والطّيب أيضاً، على الأقل يمارس فصد الدّم - وهو علاج شعبي للحمّى وللأمراض الغامضة. تتاجر معظم الحوانيت بتجهيزات الحرفيين في البلاد - بضائعها الشّتوية هي القمح والشّعير، والأرز في الصّيف، كما توجد أكشاك فاكهة تباع البطيخ الأحمر والرّمان والبرتقال والتّمور واليقطين وما شابه، وكشك البقالة الذي لا يمكن تجنّبه، قد تدلّت فيه أكواز السّكر، وعرضت فيه حبوب البن والشّاي والتّبغ والتّوابل التي تشبه كل نوع من الرّمال في رقعة تعطي انطباعاً لرقعة الشّطرنج. لكن الحانوت كان يزهو بالوفرة من الحرير والحليّ، تنيره أشعة الشّمس

التي تتخلل فتحات في سقف السّوق التي لم أستطع تنبيه نفسي لإصلاحها، فقد استحوذت على انتباه فتاة القبيلة كالسّحر، فتراها تحدّق هناك، وهي تنتظر أحدهم ليشتري حمل الحطب الذي حملته على رأسها الصّغير الجميل فيمنحها بذلك ثمناً للحصول على ما ترغب، إذا بقيت نقود بعد شراء التّبغ لزوجها.

يقارب حجم منطقة الشّطّرة حجم إقليم متوسط في الرّيف الإنكليزي، وهو المركز الجغرافي لاتحاد المُنتفق الكونفدرالي العربي الذي يقع في القسم السّفلي لوسط الفُرات ويمتدّ شمالاً من هنا، مبتعداً عن نهر الحاي (أو الشّراف) محاذياً لقلعة سُكّر إلى حدود مقاطعة الكوت. لم تطأ أرضه قدم الجندي البريطاني ابداً كما وطأت الفُرات ودجلة، بل كان في الواقع جزءاً من البلاد اشتهر باضطرابه حيث مرّت سنين عديدة على الاتراك لم يتولّوه إلا بشكل وهمي، إن كانوا حقاً تولّوه أصلاً. بهذا بقيت المُنتفق بيئة عربية بينما رزحت بقية بلاد ما بين النّهرين لقرون تحت نير الاتراك.

بقيت هنا عائلة السّعدون ذات المحتد الأصيل لمُدّة ثلاثة قرون سيدة البلاد المتوّجة، وكانت ستبقى كذلك لو أنها اكتفت بالولاء العشائري والتّقدير الاسمي، لكن ابتزازهم وتغيّر المزاج العشائري قد منح الأتراك فرصتهم لإنهاء ما اعتبروه شذوذاً، وهي حالة مشابهة لحالة منطقة الهنود المحلّيين المنعزلة المحاطة بالهند البريطانية الموحّدة. قيل إنّ القوة التّركية كان لديها ثمانية عشر ألف متطوّع في عام 1881 ساروا إلى الجنوب من الكوت وتودّدت إلى القبائل التي انتشر التّفور في طبقاتها، وقد كان غير ضروري لتحريضها لمجابهة السّعدون مراقبهم المزعوم، هرب العديد منهم إلى المحمّرة ليجدوا ملجأً آمناً عند والد الشّيخ الحالي المنكود، ولم يتوافدوا بالعودة متحرّرين من قيود النّفي البائس للإقامة في حدود أملاكهم المفقودة إلا بعد مضي ست سنين.

أتبع الأتراك نصرهم العسكري بتعيين حاكم في الشّطّرة، ثم تلت عشر سنين من إدارة قوية هادئة - فترة هدوء حتمية بعد أن لاحظت القبائل جبروت أسيادهم وإرادتهم. ولكن يبدو الآن أنّ هذا الفاصل السّلمي سوف ينتهي عبر تأثير الزّمن

المتضائل وعبر عودة حكّامهم المطلّقين السّابقين، وهو انتهاك نظرت إليه القبائل باهتمام، وكانوا مهيين للاعتقاد بأنّ الحركة لم تكن جزءاً من السياسة الرّسمية، ولكن يسرها موظفون محلّيون كانوا أدوات طيعة حيث تكون الرّشوة باعشاً كافياً. أبطل تشريع عقاري جديد حقوقهم التّقادية الخاصّة، فكان ذلك مصدر الاعتراض العشائري، وما حدث هو أنّ الأتراك أنعموا على السّعدون بحقوق ملكية في مناطق كبيرة من الأرض العشائرية كتعويض على خضوعهم لسلطة الأتراك العليا: سند ملكية يقارب في التّطبيق العملي الملكية المطلقة في القانون الإنكليزي، وقد كانت حتى الآن «حقوق الملكية» و«الإيجار» مؤسّستين غريبتين عن العقل العشائري، ويفترض أنّ نظام الأرض المستأجرة المجرب الذي تلى، قد بلغ خبره مسامع العشائر فلا يتساءلون عنه، وكانت المنطقة في فترة العشرين سنة التّالية في حالة اضطراب أو تشنّج دائمين. إنّ الاستياء الزّراعي مصدر خصب للاضطراب في البلدان الزّراعية وبالتالي فقد تفاقمّت الخلافات بين أبناء المُنتفق، وكانت بلاء على قاضي الخلافات حول الأراضي الزّراعية! يوجد عبر الجدول من بيتي مقبرة صغيرة (موضوعة بشكل مشووم) تضم رفات ثلاثة أتراك كانوا قائممقاميّة أي حكاماً سابقين لي، لم يحوزوا على الرّضى المحلي، فلذلك ماتوا أثناء القيام بمهام عملهم لأسباب غير طبيعية.

بعد ذلك جاءت الحرب الكبرى، وهبّت العشائر للزّحف تحت راية الجهاد ضد جيشنا الغازي بتحريض متعصب من زعمائهم الدّينيين، وهم يؤمنون بأن قتالهم للكفار تنفيذ للإرادة الإلهية، وإذا سقطوا فسوف تنتقل أجسادهم إلى سدرة التّعيم السّماوي. مهما كان الزّعم بأن المقدرة القتالية للعرب تتصاعد عندما يكون الدّافع دينياً، وهماً أم حقيقة، فإنه يوجد دليل واه يظهر بأنه ليس للمتفق الجرأة لخوض معركة الشّعبية، ولكن في ذلك منفعة لنا: بمتابعة طريقنا في معارضة القوى المناوئة وانتحار القائد التّركي، هاجمت العشائر الأتراك المتقهقرين الذين كانوا رفاقهم السّابقين، وعادوا إلى قراهم مسلّحين بالبنادق الحديثة والدّخيرة الوفرة عوضاً عن البارود العربي الخام الذي ابتدأوا به.

أطلقهم تقدّم الجنرال تاونزند Townshend المدهش إلى المدائن Ctesiphon، فذهبوا عدواً إلى الناصرية لإطلاع الحكومة البريطانية ولكن سرعان ما انحسر مد الحظ معهم، فتبع ذلك تدهقنا إلى الكوت وحصارها، وقطعت تلك العشائر علاقاتها معنا واستعادت دون إبطاء مع الأتراك، وعادت الشّطرة ثانية لتكون المركز الرئيسي لممثلي الأتراك، واستمال هؤلاء عشائر الغراف وحرّضوهم ضد قوات الفُرات التي كانت هاجعة في الناصرية بواسطة الرّشاوى والهدايا، فسار سبعون ألف رجل من العشائر تحت قيادة قائدهم الرّهب الشّيخ خيَون Khaiyyun الغبيد⁽¹⁾، واشتبكوا بفرقة مهولة مع فرقنا في البطنيّة، وحدث قتال بالأيايدي ولم ينسحب العرب إلا بعد إصابتهم بخسائر تقدّر بمئة قتيل وأربعة وثمانين جريحاً وخمسة وثلاثين مفقوداً.

لم تنته معركة البطنيّة لصالحنا تماماً وأظهرت مدى حماس القتال عند عشائر الشّطرة. سُمح لهم بالهفوات أثناء العمليات الهجومية التي كنا نعدّها ضدهم، واستمروا لثلاث سنين هكذا دون تدخّل. منعت اجراءات الحصار المضروب حولهم الإمدادات من الوصول إلى العدوّ عبرهم، بينما كان النّاس يضربون، وقد جلب الحصار فوائد حرية ضخمة للمهريّين الحاذقين، وقدموا حوافز خفيّة لاستمرار الصّراع. ناهيك عن الأسلحة والدّخائر التي استفادت بواسطتها العشائر على أيدي حلفائهم.

ولكن عند سقوط بغداد في عام 1918 دخلوا ثانية وأعلنوا بصوت عال سعادتهم لنصر حكومة عادلة! كل القادة تقريباً، باستثناء واحد فقد بقي الشّيخ خيَون العبيد مصرّاً على عناده. بعد ذلك بفترة قصيرة (يونيو 1918) زار الشّطرة مجموعة صغيرة من الضّباط البريطانيّين لأول مرة، وبعد ستة أشهر نُقلت من سوق الشّيوخ لأصبح «السياسي» في الشّطرة.

(1) خيَون بن عبيد بن جبير بن عباس آل عبيد شيخ عشيرة العبودة، وأحد ساسة جنوب العراق، كان صاحب السّلطة الفعلية في مدينة الشّطرة، وكانت له مكانة عظيمة واشتهر بحسن البيان. (أحمد)

كان القائد في كل هذه الأحداث هو نفسه، الشيخ خيَّون شيخ العبودة، وهو رجل ذو ثروة خرافية وسلطة لا تُنازَع وشخصية قويّة مصمّمة، وجبروت في المعركة، سيطر على النهر لمُدّة خمس عشرة سنة وكان شوكة في الخاصرة للأتراك ولنا على حدّ سواء.



الفصل الثالث من المغامرة الثانية

ميراث الأتراك

كانت بلاد ما بين النهرين في الحرب وبعد الحرب، في نظر القانون الدولي لا تزال منطقة محتلة معادية، عند تعليق معاهدة السلام مع تركيا. لذلك كانت الإدارة البريطانية لها مشروطة، فهي كانت ذات خصائص عسكرية مؤقتة بشكل محتوم. فرض العرف الدولي بأن يواصل تطبيق القانون الجنائي الذي يعمل مؤخراً، بقدر ما ينسجم مع سلامة جيش الاحتلال. كان هذا القانون هو قانون العقوبات العثماني، قد أُسس على النظام النابوليوني الذي اعتبر الضباط البريطانيين الخبراء المخولين للرأي القضائي مفضلين في تركيا الأم، ولكنهم غير ملائمين بشكل محدد لبلاد ما بين النهرين الدنيا. فرض علينا القانون العسكري الالتزام بجمع العائدات الضريبية الاعتيادية التي يدفعها السكان والتي تنتهي معها مساهمة المسؤولين العثمانيين الذين أزيلت معهم معظم الملفات والتقارير.

تشوّهت بجدارة سمعة الإدارة العثمانية في بلاد ما بين النهرين في السنين الأخيرة الماضية حسب معظم المعايير الأوروبية. فقد كانت فاسدة وعاجزة وذوت البلاد تحت تأثيرها المتلف، وبدأ أن هدف الموظفين المميّز منها هو تحقيق المصلحة لأنفسهم، ويقال إنّه كانت تقام مزادات على الوظائف الكبيرة في القسطنطينية ويأتي المزايد الذي قدّم السعر الأعلى وحقية أوراقه تحت ذراعه كما يعلم الجميع ليستردّ استثماره، بالاضافة إلى تنمية رأسماله بشكل معقول أثناء فترة وظيفته. ولكن ليشبت البعد ويأمن ضد استدعائه كان عليه إشباع الشّهيات الأخرى في المقرّ الإمبراطوري

من فطيرة بلاد ما بين النهرين. كان على الرّيجي المحلي (التبغ) والأوقاف (الهبّات الدّينية) والسّنية (عقارات التّاج) وقسمي الدّيون الوطنيّة والجمارك العثمانية، عليها كلها أن تحوّل حصتها من الدّخل السنوي إلى الباب العالي، وقد قيل بأنّ المثل الأعلى للاستقامة الرّسمية الذي تجمّع في القمة الوظيفية قد نُفّذ عبر مراتب المستخدمين الحكوميين الأدنى الذين اعتبروا من ارتباطاتهم إمّا فاسدين أو مفسدين إن كانوا عرباً أو يهوداً أو أتراكاً على حدّ سواء.

في مثل هذه الظروف يندر توقع إمكانية ازدهار المصالح الإداريّة الدوليّة، وفي واقع الأمر فإنّ الأمن العام في القانون والنّظام ليس له وجود بشكل عملي خارج نطاق المدن، وتراوح درجة الإدارة المطبقة حسب شخصيّة المحليين وقدراتهم الخاصّة في تحوّلهم إلى مقترحات الدّفع التّجاري.

ساد في بلاد المُتَنَفِّق البدائية هذه ما يشبه الفوضى السّياسيّة باستثناء بلدة أو اثنتين، ولم يكن سكانها من الذين يستسلمون بسهولة على الرّغم من كونهم الآن يفلحون الأرض ولكنهم انحدروا من الأبناء المتمرّدين في الصّحراء، ونشأوا في إحدى الانفجارات البشريّة التي تدفّقت خارج جزيرة العرب المفعمة بالحويّة منذ زمن البابليين حتّى الآن. مهما كانت أسباب التّدقّق - الجفاف أو ضغط زيادة السّكان أو حماس التّحوّل إلى دين جديد - فقد حافظت العشائر على عقليتها بشكل جوهري في العادات وعقوبات صحراواتهم القديمة. من هنا كانت عادات الثّأر طبيعيّة ومحترمة في أدنى بلاد ما بين النّهرين التي عرفتها، وكانوا يعتبرون النّساء بمرتبة دُنيا من الخلق، ويقف الحق مع الذي يثبت قوته، والتمرّد مستوطن بينهم.

كانت عشائر المُتَنَفِّق أكثر قوة ونضالاً من أن تسمح للإدارة العثمانية بأكثر من موطن قدم غير ثابت، وسمح لها ذلك الاستمتاع بحياتها دون ضرائب أو تدخلات تقريباً. كان شيخ الغرّاف العشائري المنعزل قانوناً بحدّ ذاته وخطراً يتهدّد جيرانه الأفقر منه. والآن عاد ثنائية بعض الموظفين السّجّعان لتطبيق مبدأ الأتراك المفضل: فرّق تشدّد، ولكن نتيجة لم تستمرّ حتّى لو كان له تأثير مباشر. لم يكن هناك أمن للتّاجر ومالك

الأرض والموظف الرسمي، وما كان للإخوة الضعفاء إلا أن يبحثوا عنه بالانخراط تحت راية شيخ من أقطاب السلايين أو تزويده باستمرار بالهدايا والمملكات. كان عرينه محصناً بصفاف التهر أو في الأهوار ويرسل من هناك «شجعانه» ويحفظ أسطول كباشه للانطلاق نحو الخارج وللسلب.

لم تكن أنشئت بعد سكة حديد لتخدم أهداف التجارة بأمان، وكان لذلك على التاجر أن يدفع الفرض العشائري عند مروره (الخوة) وإلا فهو يُسلب ويتعرض لخطر الموت. لم يكن للأتراك المنشغلين بحروب البلقان لا القوة لإخضاع رؤوساء العصابات ولا الإرادة لتطويرهم بقضية القانون والنظام. كان نشاط الأتراك كما تُرجم في الحال، مبنياً على فكرة الحق للمتصر، وهذا بالطبع كان المبدأ الرئيسي للشيخ السلاب لذلك جمعهما مبدأ أخلاقي واحد. من هنا نشأ البيع الاعتباري لسندات ملكية المناطق العشائرية لملاك أرض متغيين، وأصحاب الطابو هؤلاء ashab tapu (الطابو هي سندات الملكية)، ينشدون «حكومة عادلة» في الوقت المحدد لانتزاع حقوقهم القانونية - مصدر خصب للظلم تجاه حزب أو آخر أو كليهما، ولذلك أيضاً فإن قاعات المحكمة التي أجريت في القانون التركي كانت بما يتوافق مع الشريعة السنية على الرغم من الحقيقة بأن نسبة سكان جنوب بغداد من العرب تكاد تكون مئة بالمئة، وتسعين بالمئة منهم من الشيعة.

كان العربي في مدينة بغداد وشمالها يرى الأمور بوجهة نظر مختلفة، كان سنياً، وإن لم يكن تركيا فهو أخ في الدين مع الأتراك وبهذا استفاد بشكل نسبي من الامتيازات لهيمنة السنة، واستلم التعليم التركي وكان على الأغلب يتطلع إلى خدمة الأتراك كمهنة له.

يجب أن تكون المزية السكانية المفردة في بلاد ما بين التهرين واضحة بشكل جوهري لتكوين تقدير عادل للحالة الداخلية في فترة الإدارة البريطانية، فقد وجد صدع اجتماعي وجغرافي وديني بين رجل المدينة المحلي ورجل القبيلة.

جُنّدت طبقة رجال الوظيفة الرسمية على الأغلب من بغداد ومدن الشمال، فاعتُبر

المتمرّدون ورجال القبائل الذين لا يدفعون الضرائب أعداء للدولة، وشاطروا برأيهم رأي التاجر وصاحب الأملاك رفيقهم ساكن المدينة بأن أبناء العشائر همجيّون معارضون عانوا على أيديهم أعمال تخريب خطيرة.

على صعيد آخر كان مذهب عشائر جنوب بغداد مقتصرأ على التشيع تقريباً، واعتبروا الموظفين الرّسميين وملّك الأرض أعداءً طبيعيين لحريتهم، وأن التاجر الذي يمرّ بأراضيهم هو خروف سمين أرسله الله لهم ليجزوه بسبب هرطقاته.

لم يكن الشيعة والسنة في تلك الأيام معنيين بالاختلافات النظرية، ولم يخلُ التعصّب والانفعال الشديدان في تلك البلاد المعتمدة من روح العداء، وربما تفاقمت العلاقات بين طائفتين في عدّة مستويات ثقافية بسبب صراعات المصالح الاقتصادية المزعومة وبسبب ميراث عثماني لسيطرة السنة التي تشبه علاقات الإنكليز المنشقين والانغليكان في زمن استعادة ستوارت.

المذهب الشيعي هو كيان المعارضة الكبير في الإسلام⁽¹⁾. وكان المتعصّبون للطائفة من رجال عشائر بلاد ما بين النهرين، بسبب طبيعة عقيدتهم الصّوفية وبسبب أمّيتهم قد صحوا لاتخاذ سياساتهم من تسلسلها الهرمي، حدث ذلك عندما أظهرت القسطنطينية مشاعر اللامبالاة التقليديّة بمقدّسات الشيعة في الأماكن المقدّسة، وبدرجة أكبر الآن تمتلئ يد القوّة غير المتعاطفة تلك بالجروح! تتألف هذه السلسلة من المجتهد *Mujtahid* وهو الرّئيس والحبر، على سبيل المثال والمجتهدين - الأساقفة وعلماء رجال الدين. مع ذلك، فإن الكهنوتية محرّمة في الإسلام في الحقيقة، لكن التناقض موجود في العشائر المقيمة على ضفّة النهر، لأنهم أكثر الناس خضوعاً لحكم الأولياء. تتمثل سلطة المجتهدين في المفهوم اللاهوتي بأنهم المفسرون للقانون الإلهي وأنّ

(1) والإباضية طائفة معارضة هامة، كانت في الأصل من المنشقين أو الخوارج، وينشطون الآن في عُمان وأقسام من شمال أفريقيا، وتعنى بالحكومة الدّينية ولكن الإمامة ليست وراثية ولا محصورة بشكل محدّد بأية عائلة، إن كانت آل النبي أو غيرها من العائلات، ولكنها انتخابية، ويمكن تعليق منصب الإمام لفترات طويلة في غياب المرشّح المناسب - من أجل ذلك أنكر الإباضيون الخليفتين عثمان وعليّ، وكانوا في الواقع يعترضون على هذا الأخير.

ذلك التفسير قد يتفاوت بالوحي بين وقت وآخر. والتفسير المقبولة عند أغلبية القسم الآخر من الإسلام هم السنة التقليديون ومن جانب آخر هم واحد من أربعة أنظمة تقليدية: الشافعي والحنبلي والمالكي والحنفي. وتلك الأنظمة قديمة جداً وتعّد بأنها ثابتة لا تتغير. وتعّد عتبات الشيعة المقدّسة في النّجف وكربلاء بمثابة فاتيكان العراق لدرجة أنها تمتلك مفاتيح الجّنة وجهنّم في نظر رجال العشائر، تعيش هنا المقدّسات الأعجمية التي تحفل بالكتب المقدّسة، وهم وحدهم يمكنهم تفسيرها، وهي كتب دوّنت بالمخطوطات العربية المقدّسة باللغة الأم في الفردوس الأعلى التي أوحى الله بها للإنسان!

عندما يذهب الحاج العشائري إلى كربلاء والنّجف، غالباً كل سنة، وإلى مدى أقرب إلى الكاظمية وسامراء للقيام بعبادته عند مقامات الأولياء، يضع نفسه تحت توجيه أحد هؤلاء الأولياء، ويصبح كريماً تحت المحفّزات الدّينية ويتّخذ في ذلك الوقت دوراً طريفاً غريباً لكائن مطيع مدعن.

تشمل عقيدة السنة والشيعة على حد سواء شهادة أن: «لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله» - ويضيف الشيعة: «وأنّ عليّاً وليّ الله»، ولكن نقطة الاختلاف اللاهوتي الرئيسية بين الطائفتين بغضّ النظر عن التفسيرات للقانون الإلهي الذي أشرت إليه، هي خلافة النبي. والخلافة بالنسبة للسنة هي قضية حيّة بينما عند الشيعة هي خلافة غائبة أو بالأحرى معلّقة، بينما يدعم السنة الخلافة المنتخبة. كان من يشغل هذا المركز هو رئيس أقوى قوة إسلامية موجودة في وقتها، لذلك بقي هذا الدور محصوراً بالسلطين العثمانيين لعدّة قرون. وهذا الموقف موروث عند الشيعي، فهو يملك الخلافة بالوراثة وهذه الخلافة محصورة باثني عشر إماماً، كان عليّ أولهم وأعظمهم - فهو اللبنة الأساسية في الصّرح، ويوجد رفاته مع الأئمة الأوائل الآخرين في العتبات المقدّسة في العراق. ولقد استتر الإمام الثاني عشر والأخير المهدي عندما كان صبيّاً في سرداب، حيث ما زال يعيش هناك، وعلى الرّغم من اختفائه عن عيون النّاس فهو سوف يأتي مرة ثانية ليقود الحرب على الكفار، لذلك فإن الثّورات الدّورية في البلدان

الشَّيعية يسبِّبها ظهور مُدَّعٍ على المشهد. وينكر السُّنَّة كلمة الإمام بهذا المعنى ولذلك يعتبرهم الشَّيعية منشقِّين عن العقيدة.

يؤيِّد مبدأ الإمامة الحكومة الدِّينية ويستثني قداسة آية قوة دنيوية أخرى، ويقدم هذا المبدأ مساندة لوجهة نظر قبائل جنوبي بغداد الذين كانت عقيدتهم الشَّيعية إيماناً حقيقياً بالنسبة لهم، فهبّوا في عصيان يهدف لأهداف مختلفة عن الرّغبة بالحاكم السُّنِّي والدّولة العربية البيروقراطية.

* * *

الفصل الرابع من المغامرة الثانية

أساليب بريطانية

كان عمل المنطقة السياسية هو الحكم، والأهداف الحكومية هي تهدئة القبائل وتعريفهم بالقانون والنظام عوضاً عن الفوضى المألوفة التي تعمهم في السابق. وعلى المنطقة السياسية إقامة العدل وجمع الضرائب وشراء المؤن للجيش وتنصيب المجلس البلدي، والتعاون مع الأقسام الأخرى - التعليم والسقاية والزراعة والأعمال العامة، إذا كانت تعمل وحيثما كانت تعمل.

كانت ضرورة التعريف بالقانون بين القبائل الفوضوية، بصرف النظر عن الاعتبارات الأخلاقية، هي مجال اهتمام عسكري بشكل واضح، كوسيلة لضمان أمن خطوط اتصالاتنا وللحفاظ على ذخيرتنا المحلية. فالنقل البحري والأحوال العالمية التالية للهدنة التي حرمت تجهيزات ما وراء البحار، أوجدت رغبة كبيرة جداً في إطعام الجيش في الميدان من الموارد المحلية قدر المستطاع. والغريب أن أكثر المناطق فوضى غالباً ما تكون أكثرها خصوبة. لاحظت أن الشطرة لم تشهد فرقة جند بريطانيين بهذا الكم أبداً، لذلك جاءت سلطتي من السمعة المنعكسة لانتصاراتنا المدوية التي دفعت الأتراك خارج البلاد ومن حسن سمعتنا في صدق التعامل.

كنت الإنكليزي الوحيد في منطقة، ربما يعيش فيها مئة وثلاثون ألف نسمة، وأقرب زميل لي يقيم في الناصرية على بعد أربعة وعشرين ميلاً في الشمال، وجدت وسيلة لمقابلتهم خلال فترة شهر أو ما يقارب، وكان التحدث باللغة العربية والتفكير باللهجة المحلية إجبارياً أيضاً بشكل طبيعي.

يستعين المرء بالعسكر المحليين لأجل القوة وكان لدي منهم ثلاثون. كان الشَّبانة *Shabana* كما ندعوه واحداً من أهل الله، رجل قبيلة جندناه بأنفسنا محلياً، جلب بندقيته الخاصّة وحصانه معه وانخرط في الرّيّ العسكري وتسربل بعباءة السّلطة، كانت مهمّاته في دوره وخارج دوره هي الرّسول والسّجّان والشّرطي والجندي، وقد أدّى كل أدواره بشكل جيد، كان شجاعاً جسوراً وهو في مجمله صاحب رائع ولو أن المرء تعلم ألا يستخدمه إذا أمكن في منطقته الخاصّة. إذ لديه هناك حسب طبيعة الأشياء، حزازات عليه أن يسوّيها، ومن غير المستحسن تعريضه لإغراء استغلال مركزه لتسوية عداواته الشّخصية. ولكنه كان دعامة قوة بعيداً عن قريته بعشرين ميلاً. انحدر من قبائل التّهر - وهم سلالة بتركية عقل غير سياسية - كان كفواً للولاء الشّخصي الهائل، وجاء الشَّبانة مع الوقت فتطوّر في البداية إلى جندي طوارئ ثم إلى مجنّد عربي أدّى في مقدرته على نحو رائع أثناء العصيان.

كانت الإدارة مخوّلة للدّعم الجوي في حالة وجود اضطراب خطير إلى جانب القوة الصّغيرة المؤلفة من القوم المحليين، ولكنني لم أجد ضرورة بين قبائل المُتَنَفِّق لطلب طائرة لأهداف تأديبية، كان العقاب بين فترة وأخرى ضرورياً بالطبع، وأتصوّر أنّي أعددت سجل إحصاء عندما دك اثني عشر برج قلعة لبني سعيد بواسطة الشَّبانة في حادثة واحدة - إجراء بدليس ظالماً نظراً لأنّ مالكيهم وقفوا إلى جانبي لمواجهة رجل عندما حدثت الاضطرابات.

علّمتني خبرتي بأنّ رجل القبيلة سهل الانقياد إذا عرف أجوبة لأسئلة لماذا وإلى أين للأشياء وإذا انصتنا إليه بصبر لفترة، قد يكون طولها لا يحتمل، ليكشف خبايا أحرزانه. كانت مهنتي أن أقضي أكثر من نصف شهري بالتّجوال بين القبائل التي تعرّفت عليهما بشكل شخصي. كنت أصطحب أربعة شيوخ (كنت أبدلهم) قادمين من قسم آخر في المنطقة فيكونون وسيلة تعاطف بالكلام والسمع.

أمّا عربي الغرّاف، مهما كان بدايئاً ومتسماً بالعنف فهو يتجاوب بالتّقارب الشّخصي. منح الأتراك الشّطرة رصيفاً عريضاً لعدة سنين ولكن حتى عندما كانوا يقودون

العجلة، كانت علاقتهم مع القبائل، هي كتلك العلاقة الرّسمية لقاضٍ سنيّ يقيم قانون الشّرع - وهو تصوّف لا يعترف بالجانب المعارض. وحيث أن القبائل كانت شيعية تقريباً بمجملها، لم يكن مفاجئاً مقاطعتهم لمحكمة الحكومة. وكما وجد قانون غير مدوّن في كل قبائل جزيرة العرب يعمل بين القوم المشتركين، فإنّ القاضي هنا هو شيخ القبيلة أو السّيد المحترم. والنتيجة بالإجمال مرضية لأنهم كانوا منسجمين مع فهم العدالة المحليّ أو أن لديهم رادعاً من عُرف قديم بدرجة من الدّرجات. أدركنا هذا النّظام وتبنيناه بأنفسنا في قانون التّراعات العشائرية برغم أنّ المرافق الذي حصل على المرتبة الثّانية جلب حكايات لمكتب أحدهم بأنّه لا يوجد عدالة إلا بين يدي حضرة الحاكم *Hadhrat al Hakim* - أي نفسه هو. تلك الالتماسات كانت غالباً عابثة، رغم أنها دائماً كذلك، لأنّ الظلم *dhulm* والاستبداد التّافه والمصلحة الشّخصية كانا عاملين ليسا بغائبين في علم نفس شيوخ التّهر الذين لا يملكون قوة عمالقة فقط ولكن أيضاً يستعملونها في دوائرهم إذا أرادوا الانتصار. كان الإجراء المتّخذ في معظم حالات القبائل تقريباً هو تسليمهم للمحكمة العشائرية التي أدعوها للانعقاد وأترأسها بنفسه، أو أغتیب عنها حسبما تكون القضية، ثم أحكم حسب قراراتها.

كان ذلك هو الأسلوب المتّفق عليه في إدارة العدالة العشائرية ومنح الرّضى برغم حصول حالة في بعض الأحيان تفرض فيها الاعتبار الإنسانية تدخل المرء أو بالأحرى يفرضها الإحساس التّوراني بالعدالة. أتذكر حادثة من هذا النّوع حصلت في سوق الشّيوخ، إذ جُلب شاب في السّابعة عشرة من العمر للمثول أمامنا متهم بقتل أمه، لم ينفِ التّهمة عن نفسه وشرح لنا طريقة حدوثها؛ اعترفت بأنها كانت حاملاً بطفل رغم أنّ أباه قد توفي منذ عدّة سنين، فكان العار الذي سيجلبه عليه أخٌ غير شرعي لا يحتمل إلا إذا استطاع التّكفير عنه، كان يحبّ أمّه واهتم بأن يحافظ على حياتها فجلب إحدى نساء القبيلة الحكيمات المسنّات، فحاولت بدورها أن تسبّب لها إسقاط الحمل، ولو أنها أفلحت لحافظ على حياة أمّه. وبما أنّ الأمور بقيت على حالها، لم يكن أمامه ما يفعله ليحافظ على اسمه دون أن يُلطّخ بالعار ويمكنه من الجلوس في

مُضيف العشيرة لشرب القهوة، إلا أن يقدم على هذه الخطوة، وقدم الخنجر المدمى الذي طعن به أمه بين نهديها عندما نامت، وقد أنجزت المحكمة القبلية القضية في غضون ساعة واحدة، ووجدوا القاتل قد تصرّف بما يمليه الشرف عليه وقدموا توصية بتبرئته. وجدت صعوبة في إمكانية إقناع الضمير القبلي بعدالة عقوبة الحكومة التي طبقت عليه في الحال. وقبل أن يطلق سراحه بستة أشهر أكتشفت فيه مزايا بستانني ممتاز فقد صعد طاقاته إلى الدوافع الخيرة في البيت السياسي وسوق الشيوخ حيث كنت أقيم، وما زالت حديقتي تزهر حتى هذا اليوم إحياءً لذكراه.

قمت بإدارة القانون الجنائي المطبق على غير القبليين في المدن بنفسني في غرفة المحكمة التركية القديمة في سراي الشرطة الرائع فعلاً. أبطل العمل بقانون العقوبات العثماني في النظام الأخير، واستخدمنا إجراءات مؤقتة لتنظيمات أكثر بساطة كانت قد استُنبت في بلوشستان في ظروف مشابهة لظروفنا. كانت محكمتي لقاض من الدرجة الثانية أثناء إقامتي المؤقتة السابقة في الشرطة، مع سلطات بالسجن لمدة تصل إلى ستة أشهر، ولكن مع الخبرة تقلدت منصباً بسلطات قاض من الدرجة الأولى ولمدة سنتين كأقصى حد، وكنا نواكب قضايانا باللغة العربية بالطبع - وهو إصلاح قوبل بالرضى، إذ أن القضايا في المحاكم أيام الأتراك كانت تركية يسمعها العموم عبر المترجمين.

أما الإصلاح الذي أعطى قبولاً أقل إلى حد كبير، فهي مؤسسة الدّخل الحكومي. كانت الضرائب ضرورية لعدة أسباب، فهي قانونية وتمثل تصرفاً ملموساً لخضوع القبائل، وسوف تساعد على إطعام جيشنا المحتل فتقلل من عبء جلب المؤن عبر البحار، وفيما بعد، سوف تمدنا بالطرق والوسائل لتمويل مشاريع التحسينات. اتخذ نظامنا المالي بشكل طبيعي شكل النظام التركي الذي اعتاد عليه الناس نظرياً، ولكن أثر نظامنا كان أكثر اتساقاً في أحداثه وأكثر فعالية في الأسلوب، وقد جرّدناه قدر استطاعتنا من فساد الماضي. أصبحت ممارسة الأتراك مزيجاً من الإجراءات تفاوتت فيها القيم الضريبية في كل منطقة حسب نسبة الميول المحليّة للخضوع أو المقاومة، فكانت بالمختصر انتهازية وتجارية في أهدافها ونهاياتها وبهذا كانت ترهق مناطق

معينة بالضريبة وتخفف الضريبة على مناطق أخرى، وتتنازل عنها في بعض المناطق. كانت الشطرة تنتمي إلى الفئة الأخيرة وبدأت خطتنا الضريبية في الواقع خطة ثورية.

لكنها كانت أسهل بالنسبة لنا مع عملية الخطط البناء، فقد أشرنا إلى عدم تحيز أهدافنا كما كان الأتراك يفعلون، كان الرّيع الحكومي في أيام ما قبل الحرب كما تبين للتوّ قد خُصّص جزئياً للخزائن الإمبراطورية في القسطنطينية ولم يتبقّ في أية حالة مال للتّحسينات المحليّة، فكانت البلاد تُستنزف بهذا الشكل. كانت أهدافنا مختلفة؛ كنا نأخذ بيد ولكن نعطي باليد الأخرى، بخطة علمية إنتاجية رسمت لمصلحة البلاد. أثمر عملنا في الشطرة حتى الآن البرق العام وخدمة الهاتف والطريق والمدرسة والصّيدلية وأعمالاً عامة هامة بالإضافة إلى مشروع الرّي الذي كان يُنفذ الآن.

بدأت الطّبيعة ناقمة على الشطرة، التي قدّر عليها الخراب بسبب امتلاء التّهر بالطّمي، لولا تدخل الانسان. توضع المدينة في تلة نهريّة لتشعب الغراف. وقد وقعت - مع الأسف! - على الشّعبة الخطأ في التّفرّع لأن توأمها قناة البدعة قد انصبّت فيها سنة بعد سنة مقادير متزايدة من الماء على حساب شط الشطرة. يتوجّب على مشروع سدّ البدعة أن يمتص كل ريع الشطرة كما تبين بوضوح للسكان المحليين، ورغم ذلك فقد انكبنا بأنفسنا دون حدود وبضغط محليّ بسيط - وكانت الفكرة من إبداعنا في الواقع. إذا كانت «حواس العربي في عينه» كما كان يكرّر دائماً فإن الجانب المالي للخطة لا يمكن إلا أن يترك فيه انطباعاً قوياً بأنّه عربون لنوايانا الحسنة، ومع ذلك فإنّ عقلية رجل القبيلة المتوسّط في تلك البلاد فردية مزمنة وغير قادرة على الارتقاء فوق المصالح الخاصّة له أو لوجوده الحاضر. فقد أزعجه استدعاؤنا له للعمل الإجباري رغم أننا كنا ندفع له أجوره. لم يكن العمل ما أزعجه ولكن أزعجه ما اسلّزّمه من غياب عن قريته وانفصاله عن بنت عيونها سوداء كان قد تزوّجها ولو كان غيابه لمُدّة ثلاثة أيام فقط.

العمل الإلزامي ضروري لمثل هذه المشاريع التّحسينية، إضافة إلى إجراءات التّقليل للتخلّص من المعالم السيئة للإدارة التّركية - وما قادت إليه من عدم كفاءة

وفساد وحماقة وأسوأ من ذلك كله الظلم - وتضمن تشديد السلطة، السلطة مهما كان نوعها نتجم بشكل مزعج على رجال قبائل بلاد ما بين النهرين.

لم يكن كافياً أن يصبح غنياً بشكل غير طبيعي نتيجة ارتباطه معنا، لأن ما يخفف تلك الحالة «استبدادنا» بمطالبته أن يسلم نسبة مئوية كضريبة دخل حتى ولو كانت نسبة قانونية من ثروة الحرب التي لم يكن يحلم بها ولم يسبق لها مثيل، فهتد أن يؤدي خدعة الكلب في الحكاية الخرافية، عندما حصل على العظمة فعلاً واشتهى ظلها في النهر.

كان التضييق بالسلطة مغيظاً بطريقة أخرى، فقد أشاع السلام الدائم الممل بين القبائل بدل الاضطراب المتواصل في البلاد. والسلام الإلزامي غير مناسب لطبيعة العقلية الحربية، ألم يتبع أسلافنا سياسة معاكسة ويحرّضوا شيخاً على شيخ آخر ويشجعوهما على القتال؟ أين كان احترامنا للتقاليد؟ وما زال سوء حظ آخر يجب أن يسدّد لحساب ممارستنا للسلطة الخارجية في تغييره لموازن القيم الإقطاعية بشكل محتوم، وقصه لأجنحة كل أولئك الشيوخ الأقوياء الذين استمتعوا مؤخراً بحرية مطلقة أبعدت أيام الجريمة والنهب وانعدام الأمن. كان الزعيم ينصب نفسه في ذلك الوقت كائناً من يكون بفضل قوة ساعده الأيمن وبراعته الشخصية، فلم يكن متوقعاً له أن يرحب بأن «ينقص» موقعه في عيون عالمه الشخصي، فهو لم يكن ممثلاً عشيرته الشعبي كما يمكن أن يفترض، بل على العكس كان في بعض الأحيان أفضل مكروه وأكثر رجل معيب في المنطقة⁽¹⁾.

وهكذا أصبحت الأمور اثناء فترة خدمتي الأولى في الشطرة، والرجل الوحيد الذي وجدت نفسي أتنازع معه هو الشيخ خيّن العبيد، الذي كان رجلاً صامتاً شكس الطباع، لا يظهر إلا في المناسبات، أعطى انطباع الغطرسة المتناهية. لا بد أن تهمة الأتراك والسعدون له صادقة - فهو غير أهل للثقة.



(1) الثقة كما يفهمها رجال القبائل ليست ممارسة واعتقاداً مساعدين بشكل واضح، فهي ليست أكثر من كونها إلهاماً أخلاقياً مثالياً. ووضعت بجرأة يتضمنها المبدأ السيء بأن الكذب على غير المؤمنين ليس خطيئة.

الفصل الخامس من المغامرة الثانية

قعقات المتمرد

أعدت قراءة البرقيات التي في يدي:

إلى طيران بغداد:

ستكون الطائرات في حالة تأهب في السماء لمدة يومين، بعد تقارير الضابط السياسي بأنه يأمل بتوقف قصف الصفران Sufran. ربما يكون من الضروري إرسالها إلى الناصرية، ومن هناك إلى الشطرة إذا طلب منهم أو عندما يطلب مساعد الضابط السياسي في الشطرة.

من اتصالات البصرة

إلى الضابط السياسي:

تفيد تقارير القيادة العامة G.H.Q بأن الغرينفلاي في طريقها إلى الكوت. لمعلوماتك أنت وتوماس....

وصلت غرينفلاي الساعة 1140. موظفو إدارة الأسلحة خمسة لـ B.O.R وتسعة لـ B.O.R أرسل عنها تقرير لإدارة الرشاشات.

من المفوض المدني

تصوّرت خطة القبض على الشيخ خيّن وإرساله إلى الناصرية أو إلى الكوت

لترحيله من المنطقة. ولكن المثل الذي يُضرب على صيد العصفور بوضع الملح على ذيله قد اتخذ منطقة الهائل القديم. كان الاعتقال في وضح النهار امرأ مستبعداً إذ يوجد الكثير من المتاعب المرتبطة بذلك.

مرّت أيام عديدة ولم تسنح الفرصة، استقبلت مكالمات وأجبت على مكالمات من أصدقاء قدماء وكنت أخرج على حصاني كل يوم إلى أماكني المفضلة وحول الرّيف المجاور لكي أرى المحاصيل الزراعيّة. يسهل تجديد المعرفة برجل العشائر وتهنئته المرحّبة تتدفق بوداعته المعهودة، هنا في الشّطرة كل شيء على ما يرام أو ربما على الأقل بدا كذلك. ولكن الحالة في القسم المجاور من جهة الغرب كان مختلفاً، وكان في الواقع يزداد خطره كل يوم، وكنت أتساءل كم سيمرّ من الوقت قبل أن يمتدّ الخطر إلى الشّطرة. وردت اليوم أخبار عن وجود اضطرابات في بغداد - ولكن التأثير المحلي كان ضعيفاً. وكانت الصّلة بين الشّطرة وبغداد غير جديدة بالاهتمام - لكن ما يهم هو العلاقة بين الشّطرة والديوانية.

عقدت العزم على القيام بجولة للتحقق من المشاعر في المقاطعة ولكي أزور بعض أصدقائي القدامى الذين يُعتبرون مركز قوة في البلاد. ساعد الفيضان زورقي ذا المحرك أن يأتي حتى باب البيت على سبيل المثال. يمكن السّفر في هذا الموسم بواسطة الزّورق في المناطق الشّرقية فحسب، لأنّ نهر البدعة يكون في الأوقات الأخرى من السّنة شبكة من الأقنية الضيّقة منضبطة لوجدها ببسر، ولكن في هذا الوقت يتدفّق النّهر إلى بحيرات دائمة التّمو تغمر بشكل مؤقت الرّيف المحيط. وفيما بعد، عندما ينحسر الفيضان تصبح الأرض الغرينية حقول أرزّ غنية. ولكني ملتزم بالمنطقة عبر هذه البحيرات وما خلفها - وهي بالمصادفة تميّز خط دجلة كما كان عندما اجتاحه العرب الغازون وانتزعوا الأرض من الفرس - إلى سهول البوسعيد Albu Sa'id الفيحاء. كانت تلك أبعد قسم من منطقتي، وهنا يمكن أن يعطيني بعض الدّلائل لطريقة هبوب الرّيح. عزمت على البحث عن أحد معارفي القدماء هو الشّيخ نايف.

كنا في الثّاني عشر من شهر يوليو عندما رسوت في الديوانية، واستبدلت زورقي

بالجِياد، ثم انطلقت في برودة مساء يوم مداري قاصداً خيام الشيخ. حرّض هذا الشيخ على القتل في نهاية فترة الموظف السابق - وانتقل لي هذا الميراث كي أسوي أموره. كانت قضية قبلية اعتيادية، فقد قتل أحد أبناء أخيه ابن أخيه الآخر لكي يستولي على أراضي الأخير، واتخذت إجراءات الدية المالية المعتادة التي تبلغ خمسة آلاف رويّة، وهي طريقة مقبولة عند القبائل، دعوت نايف ليرافقني في العودة إلى الشّطرة لمناقشة قضية الأرض. أربته هذه الفكرة ولكنه وافق بسبب تأكيدي له بأنه ليس لديّ نية لسجنه، انطلقنا ولكن لأننا كنا نتمهّل في سيرنا عبر السّهل باتجاه الديوانية، لمحت فرقة مؤلفة من واحد وعشرين رجلاً على جيادهم، هم حرس غير مدعّوين من رجال قبيلة نايف في جانب يبعد ما يقارب ميلاً، وتقدّموا بشكل مربّب باتجاه مواز. أدّرت عجلة فرقتي على الفور باتجاههم وقد أحزنتني معرفتهم، وسرنا مباشرة عبر مؤخرتهم لأقرب خيام حيث أعلنت بأنّي سوف أقضي الليلة في ذلك المكان. لم يحاول الشيخ الهرب ولا المحاولة لإنقاذه - ولم يتذمّر من أي شيء معاكس، في الواقع لم يكن اليوم يوم انتهاز الفرص. يجب تفادي المطاردات الاستفزازية.

عاد الشيخ نايف لرؤيتي في المضيف المنار بضوء الشّموع في وقت متأخّر من تلك الليلة. كان نادماً وتنصّل من كل مسؤولية لأفعال رجال قبيلته - قال إنهم الأتباع اللامسؤولون للرجل المقتول. فاستخدمت التّعقّل أكثر من الشّجاعة وقلت له بأنّي لن أخذه إلى الشّطرة في الغد إذا كانت الأوضاع المحليّة قد أخرجته، ولكني لم أستطع رؤية تحدّي قانون السّلاح أمام عيني، وأمرت بمصادرة الإحدى وعشرين بندقيّة المذبذبة. كان أحد عشر شخصاً من هؤلاء مستعدّين للمساعدة الفورية، وبعد أسبوع جاء الشيخ إلى الشّطرة وجلب معه العشرة الباقين. كانت الخدعة ناجحة، وبدأ العصيان على بعد ثمانين ميلاً إلى الغرب منّي وهبّت القبائل في السّماوة حيث لم يجروا السّياسي على الخروج إلى خارج حدوده الخاصّة، واقتلعت السّكة الحديدية القريبة وقُتل ناظر المحطة. لم تكن قد وصلت تلك الأخبار رجال القبيلة الذين غرّمهم البنادق بنجاح، ولكن نذر الاضطراب كانت تلوح في الأجواء، وعلى أيّة حالة سيكون

إظهار الضعف أو السماح للمحليين أن يعتقدوا بأنّ للحكومة ذيلًا بين قدميها حماقة، بغياب فرقة الجنود لمساندتي.

عدت إلى الشطّرة، وكانت أخبار العصيان في المنطقة المجاورة والاضطرابات في بغداد قد قرعت أجراسها في السّوق. ولكن بقي شيوخ العشائر ودودين كالسابق وجاؤوا للرؤيتي، وتمّت متابعة العمل بانسجام وافٍ. سألوني: «لماذا لم تعتقلوا المحرّضين؟ إنّ عددهم قليل، وإن لم تعتقلوهم فسوف يكبر عددهم، فأنتم لا يمكنكم الخوف، لقد هزمتهم الأتراك من قبل».

مهما كانت أسباب الأحداث في الأماكن الأخرى، فقد كان ثمة أمران اثنان واضحا في الأوضاع المحليّة: (1) لم توجد روح القوميّة، (2) لا يوجد تحالف بين المحليين وجيرانهم من القبائل في الفُرات الأوسط بهدف الإطاحة بالحكومة. تطلّبت الحالة إرسال رسول، وما كتبت في تلك الأيام المشؤومة من رمضان عام 1920 كان ما يلي:

يقدم هذا التقرير عوضاً عن المذكرة الشهريّة.

بعد أن أتممت ستة أسابيع من إقامتي في المنطقة، وقمت بجولة شاملة على القبائل، أشعر أنني أستطيع الآن أن أقدم تقديراً بسيطاً حول الحالة المحليّة. في البداية، وحسب قناعاتي فإنّ القلق، بشكل واسع هو زراعي وليس سياسي كسبب رئيسي. وجدت نشاطات للقوميين لا يستخفّ بخطورتها أحد ولكن تقديرهم يجب أن يكون على أرض آمنة تماماً. والعقول السياسيّة المكونة من أهل الفكر في المدينة لا تشكّل نسبة أكثر من خمسة بالمئة من السّكان. وأمّا عند العشائر فالقومية غير معروفة. والدّساتير التي شكّلت على أيّة خطوط تحرّرية لن تؤثر على الوضع المحلي بذرة واحدة، على الأقل نحو الأفضل. والسبب العميق للقلق هو معارضة الضرائب، ولا يحتمل وجود شك بأنّ الشيوخ الكبار سيرحبون بالعودة إلى الوضع السابق، وضع التّحرّر من السيطرة ودون ضرائب ولا أجرة أرض. تعلّم الشيوخ الصّغار العزف على النّغمة ذاتها

بالرغم من أن مصالحتهم معنا، ولم يحاولوا إخفاء الحقيقة عندما يتعدون عن إخوتهم الكبار، يستمتع أغلبية سكان المدن وبشكل خاص طبقة أصحاب الحوانيت بأمن الحياة والأمل غير المعروفة هنا والتي كانت سائدة قبل الوجود البريطاني ولكن على ضوء سياستنا المعلنة، بالانسحاب خلال يوم واحد فإنهم يجتنبون الإفصاح عن ميولهم الواضحة.

ينبع الاستياء عند القبائل من فرض الضرائب والخلاف في المدينة والخوف من التحويل على جدار مكسور. أصدقاؤنا مهّدون بالانسحاب البريطاني ويعرفون ماذا يعني هذا التهديد، وموقفهم المتملق لمضطهدهم الماضين والحاضرين عقلاني تماماً. توقعات رجل القبيلة ليست منفرة جداً، فتكهنه بنظام الدم وعودة الحق إلى القوي تكهن صحيح، ولكنه يعرف أن الضريبة وعائدات الأرض منكرتان على حد سواء تحت حماية خيّن.

يسيطر خيّن على الأوضاع، وهو أمكر من أن يقع بالشرك، وخير طريقة بديلة ولو كانت مرضية بنسبة أقل ولكن لا مناص منها لاستمرارنا، علينا دون تردد أن نعبث معه. وقد أكدت عليه بالحقيقة أنه على المدى الطويل سيخدم مصالحه الشخصية بشكل أفضل إذا أصبح خادماً مطيعاً للحكومة. يجب عدم التسيان أبداً أن رجلاً واحداً فقط هو القادر على هندسة ثورة في الغراف، هو خيّن العبيد. لا يمكن لمشكلة لم تحصل على تسّره ومساندته أن تمتدّ لأسبوع واحد، فقد قام بدور رئيسي في الاضطراب الأخير الذي حدث قبل وصولي تماماً، وأميل شخصياً إلى الرأي بأنه يؤمن بأنه الرجل الذي وضعت الحكومة عليه علامة ولذلك هو متلهّف للإصلاح، وقد جاء لرؤيتي في مناسبات كثيرة مؤخراً، وأعلن بأنه ينوي في المستقبل أن يكون في خدمة مخلصه للحكومة...

توافد علينا الأخبار يومياً، وقد دخل المنطقة للتو لاجئون بأعداد قليلة معظمهم من النساء والأطفال. وبما أن «حواس العربي في عينيه» فهو سوف يكتشف أن أجواء الغراف المنخفضة يقرّرها ساعدنا الأيمن في قمع الغليان على الحدود مع مرور

الزّمن. الحالة هنا هادئة ولكنها ليست طبيعية.

كانت الرّغبة مخلصّة بأن يكون تقدير الأوضاع دقيقاً، لأن خطأ واحد قد يكلف المخبر حياته في ضوء الأحداث الجارية عبر البلاد والتي ستتطوّر على الأغلب هنا.

مرّت الأيام، وقدّرت أنه لا يوجد تدهور في موقعي حتى الآن، ولا يوجد سبب للإنذار بالخطر، أصبحت والشّيخ خيّن أصدقاء بسرعة وندين بذلك للمحنة التي مرّ بها، كان يرغب بالذهاب إلى الحج وكان محبطاً، بينما كنت أنا أرغب بأمر أخرى مثله ولكن دون أن أصل إلى ما أريد، ولكن «تضافرت الأمور لتصبح أفضل» إذا كانت علاقتنا في الماضي قد توترت ربما بسبب أن كل منا ظنّ الآخر يشغل مركز الأحداث لكن لم يكن هناك شكوك أبداً في تعاملاتنا الشّخصية. في الحقيقة إنّي أطعمت صقوره عدة مرّات وأهديته بندقية صيد وتمتعت بضيافته، وكل ذلك في فترات منفصلة تخلّلت نصحي الرّسمي له. كان لدي دائماً في الحقيقة إعجاب خفي لخيّن كرجل لشيء واحد فيه، بسبب صراحته ولكن أكثر من أي شيء آخر لأنه كان المثال الأسمى لنوعيته.

أظهر علامات تدلّ على ميل غير عادي لي أثناء فترة إقامتي الثّانية في الشّطرة، وبدا أنه غير متأثر بشكل مناوئ في علاقاته مع الحكومة نتيجة للأحداث الخارجية التي تحدث وتعادي السّلطة المركزية، مثله كمثّل باقي الشيوخ في المنطقة. اعتاد على زيارتي في وقت الغسق، وسألني اليوم إن كان باستطاعته المجيء لجلسات أطول بعد العشاء فقد كان لديه أمر مهم يريد بحثه معي.

جاء، بقامة رجل مهيبة، متوسط العمر طوله ستة أقدام، بشرته داكنة ومعالمه مبهمّة، كانت لخيّن عينان منغوليتان بعض الشيء أسبغتاً عليه مظهر التّثري مع شاربيه الطويلين المتهدّلين⁽¹⁾.

قال بعد انتهائ الشّكليات: «أعزم الذهاب إلى مكّة، هلاً أعطيتني مروراً للوجهتين؟». تفكّرت بالأمر، كانت خطته تتضمّن التوجّه عبر الناصريّة أو البصرة، وفي المكانين

(1) انظر صورته التي أضفتها عقب المقدّمة. (أحمد)

يسهل اعتقاله، ولكن منحي له المرور كان يعادل «مواكبة آمنة من الحكومة»، واعتقاله وقتئذ سيكون غدراً مني به - وهي خيانة لا يمكن التفكير بها حتى بأخسّ المعايير، ولكن لفترض أننا لم نعتقله؟ يعدّ تأثير غيابه في الحج كتأثير ترحيله، وهنا تكمن الصّعوبة، إذ أن سلوك خيّون منذ وصولي كان نموذجياً، وعلى صعيد آخر، تغيّرت الحالة العامة في كل القسم المنخفض من بلاد ما بين النّهرين، وهي ما زالت تتغيّر، وقد أثبتت الشّطّرة قابلية المرور عبرها الذي كنا نخشاه في بغداد، وعلى الرّغم من ورود تقرير من الضّابط السّياسي في النّاصريّة بأنها يمكن أن تكون أول من يثور بالتمرد. احتلت الآن مركزاً مختلفاً في علاقتها مع الحالة العامة، ونتيجة لهذا فإنّ خطة الأمس أصبحت اليوم بالية. أجد خيّون الآن عاملَ حفظٍ للتوازن في الغرّاف الأدنى على أية حال، وحاولت تصوّر الوضع بغيابه ومع تغيّر مزاج الغرّاف إلى الأسوأ، فوصلت إلى نتيجة واحدة وهي إذا كان خيّون الرّجل الوحيد الذي يستطيع استنهاض القبائل، فهو أيضاً الرّجل الوحيد الذي يستطيع أن يمنع ثورتها.

نظر إليّ عبر المنضدة بينما كانت تجول في خاطري تلك الأفكار.

قال: «أبغى البدء بالمسير في يوم الإثنين».

اتخذتُ منهجاً جريئاً وصريحاً.

قلت له: «شيخ خيّون، سأخبرك بشيء. أنت مدرك لوجود قارب حربي في البدعة، طلبت أنا ذلك القارب بهدف اعتقالك وترحيلك».

بدت عليه سيماء الجدّيّة، وتخلّل الحديث توقّف مُربك.

«ولماذا تخبرني بذلك؟».

فقلت: «لأنك إذا شرعت بالذهاب إلى الحج فسوف يُقبض عليك وتُرحل خارج البلاد كسجين سياسي، وهذا ما زكّيته سابقاً وقد صادقت عليه الحكومة».

«ولكن لماذا تخبرني بذلك؟».

«لأنني أبغي مصلحتك، وأطلب بالمقابل صداقتك، فنحن نعيش في أوقات مضطربة، ويجب على الغراف أن تبقى موالية للحكومة».

رأى خيَّون أنه كان بإمكانه إلقاء القبض عليه وأنه كان يعتزم دخول الفخ بنفسه، وأنني كنت أحرره.

عندما تكلم نطق صوته بالامتنان وصافحني عربوناً للكلمة.

قال: «يا صاحب، كنا دوماً متناقضين، ومنذ هذه الليلة نحن صديقان، لا تخش من الغراف».

كان رجلاً متكئاً كل الوقت وأحسست بالثقة في صداقتنا التي تأسست من جديد. التحقْتُ في اليوم التالي بغيرينفلاي، وكنت متجهاً إلى أعلى النهر إلى قلعة سُكَّر لمقارنة ما دوَّنته من ملاحظات مع ملاحظات زميلي هناك. كانت غرينفلاي وقتئذ تتقدّم من الكوت متشوّقة للعودة إلى المياه العميقة في نهر دجلة، لأنّ الفيضانات كانت تتناقص، ونهر الحاي يتراجع ولن يكون لها ارتفاع عند سدّه أعمق من قدم أو ما يقارب القدم، ولا يمكن تأخير انسحابها في أية حال لبضعة أيام أخرى.

* * *

الفصل السادس من المغامرة الثانية

احتجاز الحصن

هل نستطيع تحاشي ثورة عشائرية عامة؟ يمكن أن يعتمد ذلك على قدرتنا على قطع بؤادر الاضطراب في بداياتها، التي حرّكت ملائمة قواتنا في الميدان.

كان النذير الأول غير مبشّر بالخير. فقد كانت دير الزور في نهاية الشتاء مسرحاً لتحديات مندفة للقوميين ضد احتلالنا، ودير الزور منطقة في الفرات الأعلى على الحدود بين بلاد ما بين النهرين وسوريا. كان تأثير انسحاب السلطات البريطانية هناك والإذعان المنبسط في حالة الشؤون التي أنكرت السلطات السورية مسؤوليتها عنها تأثيراً خبيثاً.

انتشرت الاضطرابات من هنا إلى الرميضة - التّحدّي الأول في الفرات الأدنى. كان ذلك امتحاناً قاسياً - للأسف! - ولم تقدّم السلطات هنا دعمها فاضطرت الحكومة إلى الجلاء. كان هذا في ضوء ضعفنا العسكري قرباناً لمبادئ الحرب، أصبح من الآن فصاعداً العصيان المتعذّر اجتنابه مثل كرة الثلج (إذا أمكن للعبارة أن تعبر عن تمرّد منتصف الصيف في السهول المدارية لبلاد ما بين النهرين) لا يمكن لشيء أن يكون قد بدا للتأثير العربي أكثر وضوحاً من أننا نفتقر للقوة أو الإرادة للحفاظ على أنفسنا.

لكن يجب أن تحافظ الشّطّرة على العلم مرفرفاً، كان ذلك سبب وجودي.

كنا في الأسبوع الأول من الاضطرابات، وكنت على وفاق تام مع شيوخي الخاصين، وشعرت بثقة خاصّة بالحالة المحلية. عرفتها جميعاً من احتكاكي القريب

بهم - عرفتهم في الواقع لمدة سنتين - وكنت أعول على إخلاصهم. ومع ذلك فإنه من الحماقة أن يغمض الغربي عينيه عن حقائق نفسية محدّدة، أعني بها، أنهم رجال ذوو مزاج سريع الاحتياج ومتشربون بعمق بالتزامهم لعقيدتهم الشيعية. الجهاد كان إحداها - الفضيلة وليست الضرورة بمحاربة الكفار، وهم لن يعارضوا الفتوى التي نادى بها لمدة طويلة، أو أن يتحدثوا ما يمليه عليهم قادتهم الدينيون في الأماكن المقدسة. كان مصدر خو في الرئيسي في ذلك الوقت كضابط بريطاني منفرد وكممثل للحكومة في منطقتي يكمن في الموجة الجارفة للحماس الديني. وختون جاء لتوه في نهاية يونيو معترضاً على توقيف رجل الدين المقدس في النجف، ابن الحاكم المجتهد الأكبر. يقول إن هذا الاعتقال - عرفت أنه يتحدث بالوكالة - تنظر إليه العشائر بحزن واستياء. وعلى الرغم من أن علاقاتنا الآن أقرب بكثير من السابق فإنني ما زلت أذكر بأن ختون كان رجلاً متديناً جداً بالمعنى العشائري للكلمة، وأن تعهّداته لي التي تمت بصدق، ممكن أن تكون مشروطة دائماً بمرسوم من المجتهد الأكبر، كبير رجال الدين في النجف.

كان واجبي أن أبقى لأطول مدة ممكنة في مناصبي وأستخدم كل ما أملكه من تأثير لمنع العشائر من الالتحاق بالثورة.

كانت الغراف مركز العاصفة في اتحاد المُنتفق الكونفدرالي، وإذا أعلنت العصيان فستكون هي الإشارة للعصيان العام في عشائر المُنتفق. قامت تلك بتقويض سكة الحديد من البصرة، التي كانت ما تزال سليمة حتى الناصرية وزودت أفضل وسيلة لتقدّم الجيش لإعادة احتلال المنطقة المتمردة، بينما تصل التعزيزات الضرورية من الهند. كانت حامية الناصرية غير كافية بشكل يرثى له في الوقت الحاضر وسوف تبقى كذلك لمدة شهرين، فهي تتألف فقط من ثلاثة فصائل من المشاة الهندية ومئتين من المجنّدين المحليين والشرطة. بينما يمكن لقبائل المُنتفق أن تمثل قوة معادية محتملة قوامها عشرون ألف بندقية.

بالإضافة إلى ذلك فإن الغراف تشكّل صلة الوصل بين الفرات ودجلة، وفي حالة

ردّتها فعلى الأرجح ستتشر الاضطرابات إلى قبائل دجلة حيث بقي التهر الوسيلة المتبقية للاتصالات والتموين بين البصرة وبغداد، ولذلك تولّت الشّطرة مركزاً تكتيكياً ذا أهمية بالغة، واستمرار بقائي هناك إلزامي كمبعوث سلام للمحافظة على مراقبة القبائل.

تفجّر العصيان في الواقع في المناطق المجاورة، كانت السّماوة التي تبعد ستين ميلاً إلى الغرب مطوّقة وقد اقتلعت سكة الحديد، وأخلت الرّميضة. كان العرب والبريطانيون في حرب، واندفع اللاجئون إلى الدّاخل، معظمهم من النّساء والأطفال، وانتشرت أخبار خسائر البريطانيين الذي بلغ عددهم مئة وخمسين قتيلاً وجريحاً كالنّار في الهشيم.

جلب الأسبوع الثّاني للاضطرابات تقاريرَ بنصر مظفر للعرب وهزيمة نكراء للبريطانيين على بعد ما يقارب مئة ميل من مسرح العمليات المجاورة. هاجم رجال القبائل طابوراً متحرّكاً يتألّف من كتيبة مشاة وفرقتي فرسان ومدفعية ميدانية - سمي برتل مانشستر فيما بعد - بشكل مباغت تحت جناح الظّلام قرب الحِلّة بعدد ساحق منهم وقد أصابوهم إصابات جسيمة. قُتل عشرون وجُرح ستون وفُقد ثلاثمئة وثمانية عشر، اعتبر نصفهم أسرى فيما بعد. لذلك كان العرب منشغلين على طرفي الفُرات الأوسط، وانتشرت نيران الثّورة الآن من الحِلّة والسّماوة إلى الدّاخل كانتشار النّار في الهشيم. كان علينا مواجهة الانسحاب من الدّيوانية بشكل مقيت وقد شقّ الرّتل طريقه وهو يحارب باتجاه الشّمال ممّا ترك تخومي الغربية مكشوفة تماماً، ولكن عشائر الشّطرة بقيت مخلصه، باستثناء مساعدتي العربي وهو الثّاني في القيادة قرّر بأن المكان غير صحّي نوعاً ما وغادرني، يبدو أنه قد أنذر بتنشط حركة الأسلحة من جديد، كانت البنادق الجيدة ووفرة الذّخيرة المتبقية من الحرب الكبرى كما بدا واضحاً سلعة ذات أهمية بشكل طبيعي في أوقات مثل هذه الأوقات.

الأسبوع الثالث:

بينما كانت تدور رحى حرب في بساتين التّخيل عند مياه بابل نشأت غمغمات جانبية من منطقة قلعة سُكّر في الشّمال، وكنت أتحدث مع زميلي هناك يومياً عبر الهاتف، ولكن الآن حدث شيء ما لخط الهاتف ولم يعد بالإمكان الاتصال به، وكان قد سجّل قبل ذلك احتمال وقوع العصيان في منطقته، وقدّر بأن خطط العشائر ستتلور خلال بضعة أيام وطلب تنفيذ استعراض للطائرات.

قُطعت الآن خطوط البرق وعلي إرسال تقرير لهم عن الطائرات التي عليهم الا يتوقعوا هبوطها المألوف في T المرصوف في قلعة سُكّر، يمكن المحافظة على طائرة واحدة قديمة من طراز R.E.8 وهي حربية جناحها المرتفع له فرع غريب، وتعتبر في الوقت الزّاهن غير آمنة بطبيعتها بشكل كافٍ للإنسان، هبطت في الشّطرة في البداية وطارت بي إلى أعلى التّهر في اليوم التّالي، لكننا لم نر أي شيء مُعادٍ أسفلنا على الأرض، ووجدت قلعة سُكّر على ما يرام، ثم عدنا إلى الشّطرة.

كانت الأيام تمرّ بالنسبة لي بشكل مثير، ورشحت إليّ الأخبار كل يوم مُحزنة يوماً ومنذرة ومفسدة يوماً آخر كان معظمها مشوّهاً من قبل حاملها وربما بعضها من اختراع محلّي. كانت البلدة متلهفة دوماً، وأصبحت الشّطرة بين الفينة والأخرى مذعورة ولكن تمكنت من الاستمرار، كانت تشدّ عضدي معرفتي بأنّ شيوخ العشائر وعلى رأسهم الشّيخ خيّن كانوا صخرة صلبة تدعمني ومستعدة للتّغلب على المستشارين المعادين. كانت الطائرات الاستطلاعية تمرّ كل بضعة أيام فوقنا، على ارتفاع آمن عادة، أي حسب مقاييس ذلك الزّمن على ارتفاع ألفي قدم، رغم أنني رأيت في ذلك الارتفاع ثقب الرّصاص في شراع أجنحتها ما زالت ماثلة من نيران العرب الأرضية. وكانت تدور فوق بيتي كل أسبوع طائرة بشكل أخفض من المعتاد كإشارة على وجود رسالة ستلقي بها إليّ، فيهرع رجل شرطة إلى مدرج الهبوط ويلتقط الحقيبة، بألوان علمها المشرقة، التي هبطت من السّماء وهي تهسهس.

ستكون رسالة مرحباً بها من المفوّض المدني - رسالة دورية بشكل عام إلينا نحن

الذين ما زلنا نحافظ على العلم مرفراً في المنطقة الخارجية للمُنتفق.

تقول هذه الرسالة: «برقيات اليومية لك حول الحالة هي كما أمل أن تكون كاملة بشكل مُرضٍ لمراسلتك بشكل وافي، الأحداث الأخيرة هي... أما السياسة التي أعتبرها ضرورية وأطلب منك أن تتبناها بما يتعلق بالشطرة وقلعة سُكر فهي أن يبقى مساعد الضباط السياسي في عمله طالما استطاع الحفاظ على الشيوخ المحليين أو على عدد كافٍ منهم إلى جانب الحكومة والنظام المنضبط، وإذا وجد أو عندما يجد أنه يتعذر الدفاع عن نفسه فسوف أبذل قصارى جهدي للتأكد من إرسال طائفة لإبعاده. سيكون من الأفضل لأجلك كإجراء وقائي، ألا تحتفظ بأوراق نقدية إلا قدر حاجتك وتحرق الفائض منها، على أن تحتفظ بسجل لرقم كل ورقة نقدية أحرقت.

يحتاج الأمر للوقت فقط قبل أن يعود المدّ لصالحنا، وأمل أن العشر دقائق من التماسك التي أشار إليها نابليون بأنها عامل الحسم في أية حملة عسكرية ستمكننا من المحافظة على مواقعنا في مناطق لم تتأثر بالقلاقل بعد».

في المقطع الأخير تشديد نموذجي للعزيمة، لا يوجد موظف في البلاد يمكنه ألا يستجيب لرئيس عظيم فعلاً، يستطيع أن يفرض احترامه والإخلاص له والإعجاب به. لم أتأثر للملاحظة المالية، لأنه ليس لدي أكثر من بضعة مئات من الروبيات وهي بالقطع التقديمية المعدنية أحتاجها للرُّسل والتفقات الطائفة، لم تصادفني مناسبة لرشا الشيوخ وخيّن بنفسه كان مشهوراً بغناه، ولم يربح قطعة نقد واحدة لا أثناء ولا بعد الإضرابات، وكذلك ولاء الشيوخ الباقين كان عفويّاً - ولم يتلقوا إلا مكافآت ولا وعوداً بالمكافآت.

الأسبوع الرابع:

أبرقت لتوي إلى الناصرية في الثامن والعشرين من يوليو:

«بالإشارة إلى برقيتكم السرية يوم البارحة، وتأكيداً لمخابراتي الهاتفية التي تبعتها، أعتقد أن الجلاء عن الغزاف الآن يعتبر سابقاً لأوانه. علينا الصمود بأيّ ثمن، وأنا مع

الرأي بأنه إن وُضعت طائفة تحت تصرّف في للاستعراض السلمي فإن مسألة الجلاء عن الشّطّرة لن تحتاج للظهور».

ومع ذلك فإن الحاجة للطائرة ملحة في مكان آخر، ولكن العيش في مشاهد مثيرة تستغرفنا جميعاً، فإن المرء يرى منطقته بشكل طبيعي وكأنها مركز قبة السماء التي سبحت حولها أقاليم الآخرين بشكل غامض.

كانت الناصريّة في هذه الأثناء تكتب إلى المفوض المدني C.C مع مصادر معلومات أخرى ما يلي:

«الشّطّرة منطقة خطر. لدى خيّن ولاء ظاهري ولكن الشّائعات تدور بأنه يعقد اجتماعات سرّية ويتحسّس طريقه مع مراعاة موقف قبائل الغرّاف. تفجّرت الخصومات منذ شهر، وقد لاحظ من يتمتّن لنا الخير كما لاحظ أعداؤنا مدى ضعفنا عسكرياً. كان السّلاح والدّخيرة يُشريان ويباعان بحريّة، وحمل السّلاح ملحوظ الآن أكثر في المناطق حيث بدأ مغتصبو الأراضي بتجهيز أبراجهم الحربية، والأعداء القدّامى يراقب بعضهم بعضاً وهم ينتظرون. وصلت أخبار الجلاء عن الدّيوانية إلى الشّطّرة حيث لم يظهر لذلك أثر بعد. أشعر بالتّفاؤل بأننا سوف نجتاز المرحلة الصّعبة إلى حين وصول اللّواء».

لم أؤيّد ما أشير به حول الشّطّرة، كانت توجد فرقة اعتيادية من الذّكور الشّباب الذين لا يمكن تلافهم، المتلهفين للعب دور في صناعة التّاريخ المحلّي، وانتشرت الشّائعات المفرطة عن الإجماعات السّرية، ولكني أعوّل على علاقتي الشّخصية مع القادة الشّيوخ لتفادي اليوم المشؤوم».

وردت اليوم أخبار مقلقة فعلاً من قلعة سُكّر المجاورة. وقع نظيري في كمين حينما كان عائداً بعد هبوط الظّلام من زيارة وديّة لقبيلة خارج المدينة مباشرة، ففتح النّار عليه ستة عرب يحتلّون نلّه nullah من مدى قصير ولحسن الحظ لم يصب أحد بسوء ولكن أصيب حصانان.

تم تدبير عرض بالطائرات كنا طلبناه في السابق، وزيارة تقوم بها مقاتلتا بريستول اثنتان من بغداد. كانت هاتان الطائرتان ستزودان بالوقود من الكوت وتحلقان فوق قلعة سُكّر، وتتوقفان في الشّطرة في محطة أولى. دفعهما الفضول لأن تنخفضا فوق قلعة سُكّر لارتفاع ألف قدم، لرؤية ما إذا كانت توجد بؤادر عدوانية، لم توجد تلك العلامات ولكن لفت انتباه إحدى الطائرتين فرقة شبّانة في المطار، فهبطت للاستعلام عن السّياسي بينما بقيت الطّائرة الأخرى تدور حولها في الجو.

لسوء الحظ انفصل محرّك الطّائرة التي هبطت أثناء إقلاعها على ارتفاع مئة قدم ولم تستطع العودة للهبوط ثانية، ثم هبطت اضطرارياً في «الوعر» وتحطّمت. جاء طيار الطّائرة الأخرى - دارسي غريغ D'Arcy Grieg الذي اكتسب شهرة كمرشح لكأس شندلر - بعد ذلك إلى الشّطرة وجلب لي أسماء لجنة پوفام Popham والأخبار المحزنة حول البريستول التي تحطّمت وشُطبت شطباً تاماً مع الأسف! - رغم أنه لحسن الحظ لم يصب الطّيار بسوء.

كانت يد الله هنا ثانية، كانت قلعة سُكّر تعاني من مواعظ مؤمن *mu'min*، وهو أحد رجال الدّين الأقل شأناً قد وصل مؤخراً ومعه تعليمات التمرّد المؤذي. وهكذا حيّته يد القدر وساد انطباع محلّي بالغ الشّؤم.

الأسبوع الخامس:

بالتزامن مع تلك الأحداث الباعثة على الأسى في قلعة سُكّر، هبّت قبائل السّماوة، وقطعوا النّهر على الطّوافات يستحثّهم محرّض يقال إنّ لديه تمويلات غامضة، كان يدفع جنيهاً ذهبياً عن كل عارضة تقتلع في سكة الحديد التي هاجمها في أدنى النّهر من المدينة. وجاء الآن دور النّاصريّة؛ لجأت فرق صغيرة عربية للتّصيّد في المدينة كل ليلة، وفي حادثة حاولوا السّطو على الأغلب لنهب السّوق أو لخلق جوّ من الخوف وانعدام الأمن، وقد تمكّنت فرقة بالفعل أن تقوم بالدّخول إلى بساتين التّخيل في

الضفة اليسرى، ولكنهم كانوا مغامرين متفرّقين غير ذوي أهمية وكانوا مشكلة لم تؤثر على الحامية المحليّة الصّغيرة أكثر ممّا ينبغي. سمعت بتلك الحوادث عبر الهاتف بعد حدوثها بيوم واحد - السّاعة السادسة مساءً هو الوقت الرّوتيني العام لتبادل أخبار النّاصريّة والشّطّرة - وبدأتُ أشعر بأنّ الشّطّرة كانت البقعة الوحيدة المسالمة. كانت النّاصريّة تطلب من بغداد الطّائرتين مع التّدهور التّدرّجي للحالة، ثم طلبت المزيد من الطّائرات. قالت إحدى البرقيات: «إذا أخفقنا في إرسال الطّائرات إلى قلعة سُكّر فإنني أشعر بأننا سوف نخليها، وإذا سقطت قلعة سُكّر فسيوجب على الشّطّرة أن تستسلم». «نحن لا نستطيع إرسال حتى طائرة واحدة يومياً إلى قلعة سُكّر» وجاء الجواب: «لدينا ما مجموعه خمس طائرات فقط بمتناول اليد في بغداد، وينبغي استخدامها في مكان آخر». وصلت بالفعل إحدى الطّائرات، جاءت إلى قلعة سُكّر لإجلاء الضّابط السّياسي المعاون A.P.O. وقد جلبت له رسالة من المفوض المدني بيد الطّيار تقول:

«لقد تسلّمت وبحث مع ضابط القيادة العام G.O.C المسؤول، رسالة X وبرقية Y. نقص الطّائرات جعل من المستحيل لنا إرسال طائرات بانتظام بأعداد كافية إلى الغراف. أية طائرات كتلك التي بحوزتنا يحتمل استعمالها بفعالية أكبر في مكان آخر، وسوف يصعب تحرّركم حتى عن طريق الجو إذا ساءت الأحوال في قلعة سُكّر، بينما وصول الأفواج الوشيك إلى النّاصريّة سوف يثبت الحالة بشكل كافٍ في الكوت والنّاصريّة على الأرجح.

لذلك وجّهني ضابط القيادة العام G.O.C المسؤول لأصدر تعليماتي لكم بالتّقدّم على الفور في هذه الطّائرة إلى النّاصريّة وانتظار أوامر أخرى هناك».

كره الضّابط السّياسي المعاون المغادرة ولكن الأمر كان نهائياً، ووجدت نفسي الآن معزولاً في الشّطّرة تقريباً في الهواء لأنّ المناطق المحيطة في الرّميضة والديوانية وقلعة سُكّر قد أخليت كلها وكانت السّماوة في مخاض حصار. ولم يفصلها عن الكوت في دجلة إلا كتيبة من العشائر المعادية.

ما زال شيوخى يأتون لزيارتي ولكنّ بعضهم فقد تفاؤله. يشعر المرء بأنّ لديهم إحساساً بانهم يتبعون الحصان الخطأ. وسألوا: أترانا نغادر البلاد؟ كان يوجد لأسئلتهم مبرّر. ولم تأتِ المتاعب منفردة، فقد صادف الجلاء عن قلعة سُكّر مع رسوّ غرينفلاي في الفُرات بين الناصريّة والسّماوة. هناك تُركت وعلى متنها الجميع. فقد تقرّر التّفهقر العسكري إلى أور والمجازفة التي تعتري الإفراج عنها كانت خطيرة لمواردنا العسكرية البسيطة الرّاهنة. وللأسف! لن نرى قائدها الشّهم وطاقمها بعد الآن أبداً، وقد لفّ الغموض نهايتهم ولكن اعتبر فقدان أيّ أثر لهم بانهم لم يُرحموا أبداً. قُطعت أسلاك البرق بعد ليلتين وعلى بعد ما يقارب ثمانية أميال تحت الشّطرة، وأزيلت عدّة أعمدة لها. جعلني ذلك بعيداً عن الاتصال مع الناصريّة إلا بواسطة السّاعي، والرّحلة في الاتجاهين كليهما مسافتها أربعة وعشرون ميلاً وتحتاج على الأقل ليومين لإتمامها، ويحسّ المرء بالنتيجة وكأنه قد انفصل عن العالم الخارجي. أفعمني شيوخى بسرور بالسّعاة، ومع ذلك كنت أضاعف نسخ كل الرّسائل المهمة. كان يساعدني في هذا صديقي القديم الحجّي ألمظ، هو رجل مخلص رفعته مؤخراً إلى مركز بارز في البلدية.

«أتذكر بوضوح مقابلي الأولى مع الحجّي الرّائع! لم أحلم وقتها بعلاقتنا في الوقت الحاضر. كان لقاؤنا بمناسبة تعييني الأصلي في الشّطرة، أخبرني خادمي وقت الإفطار بأنّ شخصاً مرموقاً قد جاء لزيارتي، فأشرت إليه أن يدخله إلى المكتب في الطّابق السّفلي إلى حين وصولي، ولكن فرّاشي عاد متهيجاً نوعاً ما واقترح عليّ بعصبية بأنه لن يكون في استقبال رجل محترم مثله في القسم الخاص بي أيّ تجاوز غير عادي، وهكذا اقتاد الحجّي إلى الأعلى، كان رجل مدينة ضخماً وبديناً، شاحباً ورقيقاً، له قامة رجل ضخمة بعباءة بنية اللون وعقال ثقيل من الصّوف، وعندما وقف ملاً المدخل. بدت خطوط الطّبيعة العادية منحرفة نوعاً ما، وسرعان ما أدركت بأنّ كتلة غريبة قد أخفيت تحت العباءة المتنفخة، وقفت لتحيتّه وعندئذ ألقي خطاب ترحيب وقال بأنه شعر بأنّ المناسبة تستدعي أن يسمعه فيها مشاعر أهل الشّطرة، كانت مشاعر

دافئة. والناس سعداء، لا بل باركهم وصولي! أمّا بالنسبة له فهو خادمي المتواضع، وجلب معه عربون تقدير واحترام- وبناء عليه أخرج من تحت ثنانيا عباءته المتعدّدة ساعة كبيرة مزخرفة من الرّخام، من نوع ساعات العرض التي تحتلّ موقعاً مركزياً على رفّ الموقد.

قلت: «كم هو لطف من فضيلتك» وأنا أومئ إليه بالجلوس «ولكنك ستقدّر بأنّ الحكومة التي أخدمها لا تسمح لي بقبول مثل هذه الهدايا القيّمة».

كنت مرتبكاً بالفعل لإثارتي «التّقدير والاحترام» في غضون أربع وعشرين ساعة من وصولي، وبشكل خاص لأنّ عيني لم تقع على الحجّي المظ من قبل- مع ذلك، ربما كانت هناك سابقة في أيام الأتراك لهذا التّهج. كان ردّ فعلي الأول هو السّخط من أن يكون قد ظنّ بأنّي أنقاد لهذا النوع من الأشياء، وأخشى أن ذلك قد ظهر عليّ.

قلت له: «يجب أن أخبرك كموظف بريطاني يا حجّي بأننا نشترى آية ساعات نحتاج لها، وأنا لا أستطيع قبول هديتك».

قال بشك: «لا تقبلها يا صاحب؟ إذن سيكون عاراً كبيراً عليّ، لا أستطيع إعادتها أبداً، وإذا لم تدعني أتركها هنا يتوجب عليّ أن أرميها عبر الشّرفة إلى الفناء في الأسفل وأهشمها إلى قطع».

اعترضت: «يا حجّي، أنا رجل سلام وأريد لنا أن نصبح أصدقاء، ولكن عليك أن تأخذ رخامك بعيداً عني».

قال بلهجة حاسمة: «مستحيل! إذا لم تأخذها يجب أن أحطّمها».

رددتُ بحجة معاكسة وأنا أنهض: «حجّي المظ لن تسبّب فوضى في فناء بيتي، وإذا ألقيتها فسوف أرغم كارهاً على رميك وراءها».

أعرب الحجّي الآن عن تغيّر رأيه، وقال إن لديه رغبة جامحة للسلام والاتفاق فوق كل الأشياء، وأعاد السّاعة الرّخامية بناء على ذلك، إلى ظل عباءته وهو يتراجع إلى مدخل الباب وتبسّم بكرامة مجروحة ورحل.

أدركت قيمة مبادرته بعد ذلك بأسبوع، عندما كان من ضمن مهمّاتي أن أبيع في المزاد العلني بعض ضرائب البلدية. كانت تلك المهمّات تكلف التجار الذين يتنافسون بمزايدة منتظمة. كان واجبي أن «أغلب» شتى المزارع وكان الحجّي المظ من أعند المزايدين، وقد حصل لتوّه على مزرعة حكومية، وكان يرغب بالحصول على أخرى وقد حصل عليها، تحت مطرقتي كما يقال. وسبب حصوله عليها لأنه قدّم أعلى سعر. ولم يقدّم لي أيّة ساعات رُخامية بعد ذلك أثناء خدمتي في الشّطرة.

بعد سنتين وفي أوقات الاضطرابات كان الحجّي المظ وفيّاً للصّميم، كان يجلب لي أخبار السّوق، وعن التّجمّعات وماذا كان يقال أو ماذا كان التفكير بهم وبنشطات بعض التّاقمين من الرّجال المتصلين بمقرّ التّمرد، وهم رجال جاهزون للثّورة عندما تسنح الفرصة، وعن اتفاق الرّأي الجماعي الذي بقي ودوداً بشكل ثابت، ولكن الأوضاع في الشّطرة لم تكن سارّة، إذ يجب إهمال معظم المعلومات تطبيقاً للتّظريّة بأنّ الهدف منها كان منح السّرور. أعادني ذلك إلى الاحتمالات المنطقية، فقد قلّل سقوط قلعة سُكر من حصصنا. هناك فرصة واحدة لإعادة شغلهم وهي إذا استطعت تحريك الغلاف باللقاءات التّيابية الودّية وأعدت احتلال المكان. طلبت أن يُرسل لي الكابتن هول الذي كان قائد فيلق هيئة جباية المُنتفِق بشكل طبيعي لأجل هذا الهدف. فكّرت أن بإمكانني التّحرّك إلى الأمام مع مئة من المؤيدين وأترك هول في الشّطرة للإبقاء على العلم مرفرفاً - على مبدأ أن الهجوم هو أفضل وسيلة للدّفاع - وبهذه الطّريقة أكبح انهيار حطّنا المتعثر. وفي الوقت نفسه جاء شيوخ قلعة سُكر وما يقارب مئة أو مئتين من الأتباع يحتشدون في الشّطرة، إشارة دلّت على وعود بنجاح خطتي. وأمّا الواقع كما اكتشفت في أحد الأيام فيما بعد، فهو أنّ قدومهم لم تكن فيه غايات وديّة وجاؤوا بطلب من أحد السّادة المحلّيين ذوي التّأثير الكبير بهدف مختلف جداً - وهو تدبير عمل مشترك مع عشائر الشّطرة لزحف جرى في النّاصريّة، ولو تحقق هذا الاتحاد لما استطاعت حاميتنا الصّغيرة تحمّل الهجوم العشائري ساعة واحدة. لعن خيّن تلك الخطة مع مديح ضعيف، وتعهّد بتقديم دعمه في حال سقوط النّاصريّة، فأعلنت العشائر موقفاً غير ملتزم فاخفقت المؤامرة.

الأسبوع السابع:

وصل هول، كان وجود رجل إنكليزي آخر في المكان مواساة كبيرة لي، فقد كان العيش بمفردي مُجهداً لي بدرجة كبيرة في الأسابيع الأخيرة، مع عصيان يلتهب في بلاد تبعد مئتي ميل في الشمال والتوقعات المقلقة لتطوّرات مفاجئة قد تحدث في أية لحظة في الشّطّرة نفسها، وكنت دون اتصالات هاتفية مع الناصرية والعالم الخارجي لما يقارب الأسبوع، وكان علي أن أعتد على الشّعة الذين ربما يبرهنون على عدم جدارتهم بالثقة.

كان أول واجب علينا هو فتح صناديق القنابل التي أرسلها هول بنفسه لي ممّوّه بصناديق البيرة في بداية الإضطرابات. كانت من أجل الإجراء الأخير اليأس، جهّزنا القنابل تحضيراً للطوارئ وتركناها تحت أسرة المخيم على السطح - ويا لها من شركاء سرير غير رومانسيّة!

بعد يومين حدث كمين لهول عند عودته من رحلة بالسيارة إلى الناصرية حاملاً تقريراً بتغيّر أوضاع الغرّاف وللكشف عن المخازن، أوقفت الشّاحنة فجأة عندما وصل الطريق إلى نهاية مسدودة في المكان الذي أزيل منه جسر فوق نلّه *nullah*، ووثب أمامه ثلاثون رجلاً كانوا قد أتمّوا تهديم الجسر، من مكان خفيّ وغطّوه هو والسائق بينادقهم. ولكن بفضل العناية الإلهية، كنت أرسلت شيخ خفاجة رئيسهم في العشيرة كمراقب خلف الشّاحنة فظهر لهم على الفور لتلافي وضع شنيع. أنشئ جسر بشكل مرتجل سريع وتابعت فرقة هول المسير، وجلب لي الشّيح إلى الشّطّرة رأس الفتنة بين المتمرّدين.

كان المحرّض في تلك المسألة أحد تجار الشّطّرة الثّانويين المعروف بسوء السمعة، أرسل رسائل في الليلة السابقة للحادثة إلى عناصر سيئة مشهورة بتمرّدها على القانون في خفاجة بأنباء تتحدث عن استيلاء خيّن على الشّطّرة وأنّ هول وأنا كنا أسيرين في أيدي العرب، وبناءً على ذلك أزال هؤلاء الشّجعان أعمدة البرق على مسافة خمسة أميال وهم يقومون الآن بضمّ جسر قناة الشّطّرة إلى حطب الوقود، وبمرور بضعة أيام أخرى قُطعت أسلاك الاتصال والطّرق المؤدية للشّطّرة، واقتصرت وسائل هروبنا - إذا

وصل الأمر إلى هذا الحد - على واسطة الطيران أو تحت جناح الظلام، ولكن الأمور لم تصل فعلياً إلى ذلك الوضع.

لم يكن التخريب المتقطع من هذا النوع يدق أجراس الإنذار بشكل كبير مثل العنصر الجديد الذي لاح الآن في الأفق، إذ ورد تقرير بأن ابن المُجتهد الأكبر السابق كان يدعو إلى الجهاد على بعد عشرين ميلاً في الشمال ويتقدّم باتجاه الشُّطرة، كان هذا الرّكن في العقيدة للأسف قد لاقى للتو نجاحاً كبيراً بمحاذاة امتداد نهر الفُرات، وكان وصوله إلى هنا أكثر توقع إقلاقاً. أُسكت أحد المؤمنين الذي جاء من قلعة سُكر إلى الشُّطرة قبل أسبوعين في مهمّة مشابهة، وأنا أدین بهذه المعارضة لتأثير الشَّيخ خيَّون، ولكن الزيارة التي أنذرنا بها اعتقدنا أنها من نوع آخر تماماً، فقد كان هذا المساعد شيخاً كبيراً في ذلك الوقت. وقد نُصّب شيخ دين جديد في النّجف لجعل التّشويش أكثر أرباكاً، وهو يمثل عاملاً لا يمكن التنبؤ به وإن يكن عاملاً حاسماً محلياً، وقد طلبت من بغداد القيام بالتحقيق عن موقفه فلم تقل سوى أنّه على الأغلب يميل إلى جانب المتطرّفين. وقد بدت إمارات التّردّد على الشَّيوخ الذين وقفوا معي وكانوا قوتي ودعمي. شعرت الآن بأنه لن يكون هناك غدر إذا انجرف هؤلاء الرّجال إلى المعسكر الآخر بسبب اعتبارات حفظ الذّات، فقد انخفض مدّ حظنا إلى أقصى درجة ولا توجد بشارات بأن جيشنا سوف يعيد إلينا مركزنا رغم أن وصوله في الواقع بات وشيكاً. لكن الشَّيوخ الذين ثبتوا معي كانوا مؤثّرين بما يكفي لتبرير استمرارى بالبقاء. كان من الأفضل لو أن العاصفة أنهكت نفسها حول الشُّطرة من أن تكون حرّة بقذف نفسها ضد النّاصريّة وحاميتها البائسة وسكتها الحديدية التي ما زالت غير محميّة.

الأسبوع الثامن:

انسحبت الحكومة تماماً من الفُرات الأوسط، وكانت العشائر هناك مهتاجة بالتّصر وكادت أخبار كل ذلك أن تخفق بتشجيع عناصر الفوضى المحليّة، وجاءت الآن القسّة الأخيرة بسقوط المخفر البريطاني في الخضر Khidhr على عتبات النّاصريّة تماماً. لا بدّ أن وقت الشُّطرة قد اقترب جداً.

ظهر الاستياء في قوتي، وكان المزارعون والشرطة يرهنون بنادقهم بثلاثين پاونداً للقطعة ضد سقوط الحكومة (مما يدل على رخاء العرب في ذلك الوقت). تأكد هذا في إحدى الليالي، عندما فر عشرة رجال بمتاعهم وحقائبهم بسب الإغراء القوي وعدم ظهور العقوبات، سرت مع هول إلى السراي في الصباح التالي وأدبنا الاستعراض العسكري، ثم جردنا العشرين الباقين من السلاح وعُدنا بالبنادق إلى بيتي، ثم وضعت القوة تحت إمرة خيون ووكلته بالنظام والقانون في البلدة - خطوة مؤسفة ولكن الحالة الخطيرة استدعت اتخاذها. كان يتظاهر مئتا شاب كل ليلة أمام بيتي، وعاد رجال القبائل إلى حمل السلاح، وكان المؤمنون يدخلون ويخرجون بينهم ويدعونهم إلى الجهاد، وانتشر إطلاق الرصاص طوال الليل داخل وخارج أسوار المدينة وأصبح عادة طبيعية.

توقفت عن امتلاك السلطة، أكّدت لي خيون الذي بقي مستشاري وصديقي أن الجميع سوف يحترمون علمي وشخصي طوال إقامتي في الشطرة، ولكن كان واضحاً بأن أي وجود كان مصدر إحراج متزايد لكل أصدقائي القدماء، ويمكن لعاصفة القوة المناوئة أن تزداد ضراوة في كل ساعة، وإذا انفجرت أو عندما تنفجر يمكن ألا يستطيع حلفائي مجابهتها. على أية حال، كانت فكرة بقائي تحت ظروف التطورات الأخيرة التي لا يمكن السيطرة عليها باتت غير محتملة لي.

تسارعت الأمور في وصولها إلى الذروة. وبعد يومين في الخامس والعشرين من أغسطس وصل رسول الجهاد - العالم الكبير الذي أشرت إليه للتو - وهو شخصية بارزة تشبه الولي، له لحية بيضاء وعمامة بنفس اللون بأبعاد كبيرة، كان يعظ الثوار في طريقه إلى أدنى الغراف، وعند وصوله هبت المدينة كلها لاستقباله، وحدثت مظاهرة كبيرة مع الأعلام خارج بيتي، وأطلقت العيارات النارية من أسطح البيوت لتحيته عند دخوله المدينة، وقيل إن شيوخاً معينين كانوا يريدون كتابة أوامر بما يمليه عليهم لاجتذاب القبائل.

بدا المكان أكثر حرارة من أن نستمر فيه مدة أطول، فقررت الرحيل إن أمكن ذلك،

أرسلت رسالة استغاثة بالسر إلى الناصرية لطلب الطائرات من بغداد ولكن كانت توجد صعوبة في هذه الوسيلة المتبقية للنجاة.

أولاً، يقع مهبط الطائرات على بعد ما يقارب النصف ميل في الجانب الآخر من النهر خلف أسوار المدينة، ومسيرنا هناك سيكون بين الحشد الذي يمكن أن يكون بينه متعصبون يتربصون بنا، ثانياً: إذا أسقط مثل هؤلاء الأشخاص الطائرة فإن الرد الجوي لن يكون موافقاً لهول ولي.

استدعيتُ خيَّون واستأمنتُه على خططي وشكرته على إخلاصه الذي لم يتغير للحكومة وأكدت له بأن القوم سوف يعبرون عن شكرهم بمرور الوقت لبصيرته بانقاذ الشُّطرة من حلق الجيش المنتقم الذي سيزحف قريباً عبر العراق، ويستعيد القانون والنظام ويعاقب المسيئين. واستأمنتُه على المكتب الذي كنت أسلمه له.

كنا في صباح يوم السابع والعشرين عندما تناهى إلى أسماعنا أصوات أزيز الطائرات البعيدة، كان صوتاً رَحِب به رجلان إنكليزيان. كان الواجب الفوري إزالة جميع أرتجة البنادق في البيت والصَّواعق من القنابل، وما كدنا ندفنها حتى جاء خيَّون وبصحبه كل فرقة الشيوخ المخلصين لي في الشُّطرة، حلَّقت الطائرتان حول بيتي عدَّة مرات على ارتفاع شاهق لملاحظة التعليمات التي صدرت لهما بالألا تهبطا إذا وجدتا علام العداوة، والمتابعة وقتنذ إلى الناصرية، لذلك لم يتسنَّ لنا إظهار أنفسنا لضيق الوقت.

ظهرتُ أنا وهول للعيان، وسرنا متبوعين بالشيوخ وحشد كبير من النَّاس، ثم مررنا بموكب مهيب بمحاذاة مقدِّمة النَّهر عبر قاعه الذي يجفّ الآن وتقدمنا إلى مهبط الطائرة خلفه، لم تكن هناك تظاهرات من أي نوع، أو إشارة ازدراء وإنما صمت وقار خيم على الجميع. كان ذلك باعثاً على الارتياح. هبطت إحدى الطائرتين وبقي الطيار في قمرة القيادة بحذر، وكانت مروحتها تدور باستعداد.

قلت: «لا يوجد خطر، عليك أن تنزل لأقدمك للشيوخ» كان ذلك تشجيعاً للطائرة الأخرى كي تهبط وتتبع الأولى، بعد أن كانت تحلق وهي تحوم حولنا تحسباً من الغدر.

توصّلت إلى أنه علي ألا أتسرع بالوداع، وبقينا خمس دقائق نتحدّث بمرح. كنت أتساءل إن كنت أوّدي مغادرتي لمنصبي بشكل سيئ وأنا أحسّ بأني استطعت أن أكون هادئاً أثناءه، ولكنني قرأت الرّسالة التي جلبها الطّيار من رئيسي في بغداد تقول:

«سترافق الرّسالة طائرتان لإجلائكم إلى الناصريّة، وعليكما مغادرة الشّطرة بواسطةهما، لا تغيير في الأوضاع التّابعة لإنجاز طلبكم بواسطة الضّابط السّياسي، لأنّ إجلائكما سيُنظّم من قبلي لتقسيم بقائكما، وهذا يجب أن تعتبراه أمراً نهائياً ومحدّداً لمغادرة الشّطرة».

ألقيت خطاباً صغيراً بالعرب المتجمّعين وقلت بأنّ علي العودة كحاكم لهم حالما يعمّ النظام والقانون الذي ربّما لن يتأخّر كثيراً، وفي غضون ذلك أسلّم زمام الأمور في المنصب للشّيخ خيّن.

كنت سأفي بوعودي لهم كما وفواهم بوعودهم لي.

ارتفع صوت المحرّكات وهي تتسارع وهبّت عصفه ريح متواصلة قبالة وجوهنا حين أسرع الطّائرة بجنون منطلقة في الجو.

انزلقت الطّائرة في التّهاية في مطار الناصريّة، وبينما كنت أهبّط من الطّائرة وسط الزّي المألوف للجنود البريطانيّين تلاشى عن ذهني مصدر القلق، وبعد ساعة وجدت نفسي أقف أمام خارطة وأشرح الأوضاع للقائد العام - لأنّ اللواء الذي انتظرناه طويلاً كان قد وصل. أصبحت ضابط المخابرات الأول في اللواء الرّابع والسّبعين، وعقب ذلك، عند قدوم المزيد من القوات أمسيّت ضابط المخابرات في القسم السّادس.

كان المدّ في طريق العودة، فقد استسلمت القبائل المتمرّدة وتلاشى العصيان في بلاد ما بين النّهرين، وبقيت قبائل المُنتَفِق ترمّم سمعة الثّورة الآثمة. وهم لم يثوروا علينا، ربما بسبب بعدهم النّسبي عن تأثير تعصّب المدن المقدّسة بشكل جزئي؛ وكانوا بالتّأكيد أقلّ جهة استفادت من نهر الذهب الذي تدقّق بشكل متراوح من خزينة المال البريطانيّة إلى أيدي التّاقمين عبر سوريا.

مرّت ستة أشهر، وعدتُ إلى الشّطّرة بمنصب «سياسي» الغرّاف - لأن المنطقة الإضافية لقلعة سُكر أضيفت إلى مهمّتي. بقيت هناك مدّة تسعة أشهر هي أسعد ستة أشهر في حياتي، وقسمت أوقات فراغي، أوقات فراغ ضابط بريطاني منفرد، بين صيد فريق الكلاب الطويلة، والانغماس في حماس هاو لعلم الآثار. وتمّ التخلّي عن السيوف العشائريّة ثانية لصالح شفرات المحراث، وارتأى شيوخى ألا أبقى دون فرقة من المجارييف للتّنقيب في المدينة المتهدّمة لأمة Umma قديمة.

ثم جاء اليوم الذي كان على فيه أن أغادر الشّطّرة الحبيبة. كنت قد نُقلت من مركزي. وفي مساء رحيلي دُعيت إلى حفلة في الحديقة، فوجدت المكان قد اكتظّ بالشيوخ، والوجهاء المحليين، كان اجتماعاً لوداعي.

قالوا لي عندما كنت ذاهباً «هناك شيء نريد أن نقدّمه لك، إنّه سيف. وهو السيف الذي قادنا إلى معركة البُطنية».

وبقي السيف من مقتنياتي الغالية على نفسي، فهو يذكّرني بالولاءات القديمة التي لا تُنسى.



المغامرة الثالثة

رحلات على متون الإبل
في سلطنة عُمان وما حولها



سلطان مسقط و عُمان سید تیمور بن فیصل بن تُرکی بن سعید

الفصل الأول من المغامرة الثالثة

رحلة طويلة مع السلطان

في الباطنة الشرقية

انطلقنا في ساعات الفجر الأولى من حدود القصر التي جرفها المد في مَسَقَط. جلس بصحبتي في مؤخرة القارب ولي العهد الفتى سيد سعيد⁽¹⁾، الذي كان في المنزل أثناء العطلة المدرسية من الكلية الرئيسية في أجمر Ajmer ولم يكن حماسه أقل من حماسي بخصوص المغامرة المرتقبة لرحلة الإبل ذات الثلاثمئة ميل.

مرّت الرحلة الأولى لمسافة أربعة أميال باتجاه الساحل إلى ملتقى الإبل بسرعة وسط ثروة اثنين من أقارب سيد سعيد المرحّة. تقدّم قاربنا الأبيض البهيج العائد للدولة نحو الأمام بفعل الضربات الثابتة لسته من البلوشيين Baluchis كما لو أنه متشوّق للهرب من كآبة المرفأ الصّخري.

رأينا الاسم «ديانا» عند خروجنا من الرّصيف الأجرد الغربي للمرفأ، كُتب بحروف جديدة بيضاء بقياس ستة أقدام، إلى جانب الألوان الثلاثة التي طُليت بأناقة مسجلة زيارة سفينة السلطان الحربية. ترك كل سفينة بطاقتها بهذا الشكل في مَسَقَط ليُشاهدتها الزائر أول ما يرى عند دخوله إلى الجون الذي تحفّ جدرانها بأسماء السفن.

انعطفنا لدى خروجنا إلى البحر المفتوح باتجاه جزيرة فحل Fahal ذات القمّة المستدقة والسّفوح المنحدرة، التي بدت وردية اللون في ضوء الصّباح. كان هناك تألّق في هواء مارس الصّباحي. امتدّت أمامنا صفحة البحر الملساء التي لم يشبها شيء

(1) هو سيد سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي البوسعيدي، أضحى بعد ذلك سابع سلاطين مسقط ووالد السلطان الحالي قابوس بن سعيد. (أحمد)

إلا في نهايتها لبضعة من الأشرطة البيضاء لقوارب صيد هزيلة هزتها بشدة التّسمات الرّقيقة. أشرقت إلى يسارنا في الخليج العميق بيوت مطرح Matrah البيضاء، تركزت تحت جدار من الجبال المتعرّجة التي تتوّجها الأبراج هنا وهناك بشكل جليّ - ذكرى لمحتلّ البرتغالي مغامر من القرن السادس عشر.

انتهى هذا المنظر لدى مرورنا تحت جُرف متعرّج يغوص من هنا بانحدار شديد في البحر، ليشكّل جُرفاً تحت الماء معطياً خليج عُمان عمقاً في المحيط على عكس الخليج العربي الضّحل. وظهر مقصدنا سيح المالح Sih'al Maleih بعد ساعة، وبانعطافنا داخل الخليج وصلنا الرّمال.

كانت «خوارة» المخلصة هناك مع اثني عشر ذلولاً من الإبل الأخرى، ولقد عرفني سنام «خوارة» لألف ميل. ولكن وأسفاه، عليّ أن أزيحها عن مجدها الجديد، فالأغطية المبهرجة التي زُيّنت بها لا تناسب عالم العمل اليومي. وفي هذه الأثناء تلمّس سيّد سعيد بندقيّة الصّيد الجديدة متأملاً استخدامها في صيد غزال أو أرنب وحشي ممّا تعدنا به القفار الممتدّة أماناً.

تحرّكنا عبر تموجات رملية، وبين تلال مستعرضة امتدّت رجوعاً إلى وجه قمة الجبل المتجهّم فوق الوطيّة Wataiyah. كانت المراعي الضّئيلة متوزّعة على بقع تتبع سقوط المطر أو الندى الكثيف، أمّا الآبار فلم توجد واحدة منها تبهج النّظر. ينصّ القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. ويأخذ الماء الأهمية القصوى لسكّان جزيرة العرب العاملين في الرّعي. ولو سألت أحدهم عن هذه البلد أو تلك فسيجيبك حتماً حسب مياهها. وبالتالي فإنّ مرافقنا البدوي الغريب وضع تلك العباب الرّملية المتموّجة نصب عينه السّوداء ذات النّظرة الحادّة، باحثاً عن بقعة رطبة أو أي مؤشر آخر.

قال سيف بن يعرب فجأة: هذا مكان للحفر من أجل الماء. بطريقة أشبه ما تكون بتحدّ عام وهو يشير إلى منخفض على مقربة منا. نظر مرافقه إلى الرّجل العجوز غير مصدّقين، قال أحدهم: «و لكن وإن وجد الماء هناك» وتابع سيف بعناد: «أليست هذه أرض الوطيّة، والماء فيها رديء؟» تابع بثقة وإيمان: «احفر هناك يوم الأربعاء، ولتكن السّاعة الرّابعة»

(أي في صدر نهارنا) وأشار بعصاه فوق كتفه الأيسر ليشير إلى موقع الشمس. «وتساءلون عن غدوبة الماء؟ الله الله» لا أستطيع أن أقول كم من رفقاء بدو سيف شاركوه اعتقاده باليوم والساعة المواتين للعثور على الماء العذب، ولكن البدو قوم يؤمنون بالخرافات، وسيف هو عالم فلك وسيّد في علم الرّمْل ويسندون إليه قوى غامضة.

و بعد فترة اعتلينا الهضبة التي تناثرت عليها أشجار السّنْط. وقد امتدّت في الأسفل بساتين الوطيّة الفسيحة الخضراء. ظهر بيت أبيض من خلال التّخيل في العمق، بقايا منخفضة من بيت سلطان سابق. وصل سلطان مَسْقَط هنا في الليل وكان الآن بانتظارنا. ظهر من الدّغل خطّ ممتدّ من خمسين رجلاً عربياً ملتجياً بشرتهم سمراء في أثواب بيضاء وتقدّموا نحونا هاتفين لإبطاء الخطى المحثوثة وفولاذ بنادقهم وأحزمتهم وخناجرهم تومض عن بُعد. كان في منتصفهم وإلى الأمام رجل متوسّط القامة ومتقدّم بالعمر، هيئته جليّة: إنه السّلطان لا أحد سواه. أنخنا إبلنا على بعد ثلاثين ياردة لترجّل ولتتقدّم سيراً على الأقدام نحو حاكم البلد، الذي تقدّم بدوره ليستقبلنا. هذه هي مراسم استقبال العرب البسيطة.

أخذ السّلطان في سؤالي عن الرّحلة الصّباحية وهو مفعم بأنسه المعتاد. سألني إن كانت التّرتيبات قد حازت على رضاي، ثم أخبرني وهو يشير بعصاه نحو عدد من المعسكرات عن التّركيبة القبليّة للمُضيف الذي سيصبحنا في مسح الأرض. ملأت إبلهم التّحيلة البستان بالحياة، بهائم ضخمة تتحرّك ببطء وتكاسل وهي تحدّق بالفراغ، محتلة ظلال أشجار السّنْط التي يفضّل أسيادها البدو الرّاحة تحتها، أو واقفة، مكبّلة الرّكب تقضم الأشواك الحادة التي تستطيع الوصول إليها برقابها الطويلة الممدودة نحو الأعلى. مُدّت سجادة كبيرة تحت أجمة غاف ghaf من أجل البرزة burza (الحشد)، حيث انطلقت أنا والسّلطان، يتبعنا البدو ليتحلّقوا في دائرة كبيرة على طول أطراف الظّل الفسيح. يجب أن تدور الفواكه (تمور أو نوع بسيط من الطّعام) وفنجان القهوة ومحرق البخور قبل أن يتفرّق الحشد إن كان لدى القادم الجديد أي منصب.

إنّ البرزة شأن في الصّباح وما بعد الظّهيرة والمساء. إنها الأسلوب الذي يبدي فيه

أي شخص من الشيوخ نعاءه، بالفعل، فإن البدوي يميل للحكم على سيده وسلطانه وفق هذا المعيار. أعيد توزيع فنجان القهوة، أعترف بأنها كانت بالنسبة لي عشرة من الدقائق أمضيتها في رهق شديد، إذ أن الأرجل الأوروبية الطويلة لم تكُ صُممت لوضع الجلوس، ذلك عدا عن الوقوف والجلوس لدى كل قادم جديد. احتجت ساقاي في بعض الأحيان من المسامير والإبر، أو الخدر المؤقت ضد طغيان وضعية نصف الجلوس ونصف الركوع التي يمضي البدوي جزءاً كبيراً من يومه بها. يستلقي بوركه الأيسر على الأرض وتنثني الرجل اليمنى بشكل عمودي عند الركبة، مشكلاً وضعية رمي توافق عليها تشكيلات الرماة، أما الذراع اليمنى فتتمدد معلقة فوقها. ويمسك ببندقيته بشكل عمودي باليد الأخرى وأخمصها على الأرض، أو قد يسندها بشكل مائل على كتفه الأيسر. أما عصاه الأكيذة فتأخذ نفس الوضعية، أو يسندها على خذه، وتخفي يده نهايتها المحيطة قليلاً. جلس هؤلاء البدو هناك لعشرة دقائق صامتين، لم يتكلم أحد إلا مجيباً بنعم أو لا رداً على ملاحظة مقتضبة توجه بها مضيفه إليه. وقف العبيد بانتظار للكلمة السحرية «قهوة»، مع التشديد على المقطع الصوتي التصفي والذي ليس له مبرر حرفي لأن يكون هناك كلمة ترسلهم مهرولين لطالبيها.

انتهت البرزة وتفرق الجميع ببطء كل حسب قبيلته، وقادني السلطان آخذاً بيدي إلى البيت الأبيض حيث كنا ننوي التحرك غداً.

تشابه بيوت الريف العربي كثيراً، حيث تفتقد الكثير من الإضافات والتزيينات من وجهة النظر الأوروبية، فهي تشابه مزيجاً من غرفة الرمي ونقطة خفر حدودية، لتلبي احتياجاتها تقريباً. التوافذ الزجاجية غير معروفة، وذلك مقبول في الطقس الحار جداً، ولم يخلُ الطوب المصنوع في الشمس من شكل من أشكال الزينة الداخلية بشكل إطار الجص البسيط، مرة أخرى في بلد تنتقد فيها الزخرفة بتزمت. تشترك تصاوير هيئة الإنسان أو وجهه أو المخلوقات مع الصور المنحوتة بكونها ضد الأمر الإلهي. هكذا قال النبي محمد كما فعل النبي موسى بتعاملهما مع مجتمع شبيه وعرق مماثل. وقد مررت أنا نفسي بموقف غير سار عندما حاولت أن أستعمل آلة التصوير.

كانت الغرفة العلوية التي اتخذتها لنفسى نموذجية. كانت التوافذ المنخفضة ذات المتاريس المربعة والقضبان الحديدية تحيط بالجهات الأربعة بمستوى الأرض، يعلو كل منها قوس مدبب كتيماً، ورف متصل بوشاح النافذة العلوي، نوع من الفجوة الجدارية حيث توجد عادة فناجين القهوة الجميلة وإبريق الماء ومحركة البخور (المبخرة). أما الأسقف العارية فهي سوداء من الدخان فالمداخل ليست معروفة في عُمان المدارية، ولكن الأرض اليوم مغطاة بالكامل بسجاد ذي ألوان مشرقة، لا بد أنها صودرت من الجوار لمناسبة ميمونة. تُزخرف الحائط أوتاد خشبية على ارتفاع رجل، وتتدلى منها ترسانة من البنادق نحو الأسفل، وسيوف مزدوجة الحدّ وأحزمة طلقات ومستوعبات البارود وخناجر لنا نحن الزّوار. لا شيء آخر في الغرفة دائم. أحضرت أغطية الإبل وتناثرت هنا وهناك، وفي الزاوية اليوم كومة من الفاكهة الطّازجة، تفاح كويتا Quetta apples وبرتقال بعقوبة Baqubah Oranges ولايم هندي الذي يأتي مع قارب البريد البريطاني الأسبوعي. وهي رفاهيات بعث بها شيخ ودود، فأعلنت رسالته التي ستسلم عن إرسال كيس من الزّمان وآخر من الجوز، من إنتاج داخل الجبل الأخضر.

تجمّعنا كلنا مع السّلطان، حاشية من سبعة أشخاص في غرفة واحدة، وانضمّ الآخرون بعد أن طرحوا عنهم أسلحتهم في أحاديث عابثة.

أطلق أحد العرب المستغربين سؤاله لي: «لماذا لم تتزوّج أيها الوزير؟» بعد أن أزالنا ألفتنا المفروضة الحواجز. وأقول المستغرب لأن كل العرب من هذه الطّبعة يتزوّجون، أو يزوّجهم والداهم لدى بلوغهم سنّ البلوغ. ويستطيعون الطّلاق دون عقوبة أو مضارّة - كل ذلك دون التأثير على سمعتهم أو على مسار حياتهم.

أسهبْتُ في الحديث عن الصّعوبات التي تقع على عاتق المسيحي وعلى وجه الخصوص من يؤدّي خدمته في الشّرق، كما أشرت إلى القناعة المريحة القائلة بأنّه ما من وقت متأخر بالنسبة للرّجل.

قال السّلطان: «آه»، وهو يعرف برغبتى الدّفينة، «حسناً، سوف أساعدك إن شاء الله في أحد هذه الأيام للتزوّج من تلك الأثيرة على قلبك: الرّبع الخالي. إن شاء الله».

قال معاونه الخاص خان بهادور: «إنها لعذراء بالفعل».

تمتعت لنفسي: «آمين».

أُعلنت ساعة قليلة منتصف النهار بتباطؤ الحديث وبمطمطة الأطراف، وبعد قليل كنا جميعاً مستغرقين في النوم.

ينام الأوروبيون في المشرق ما يتسنى لهم في العصر بعد الغذاء بشكل دائم تقريباً، بينما يؤمن عرب القبائل في هذه الأماكن بنوم منتصف النهار - وهو توقيت ربما نجم عن نهوضه الباكر في الفجر للصلاة.

كنت في حال من القلق عندما أتى عبدٌ ليعلن وجبة منتصف النهار. ارتدى صبحي بعد الوضوء والصلوات أحزمة خناجرهم - شيء كنت قد لاحظت أهميته لدى الطعام أو أي ظهور شبه علني - وانطلقنا إلى الطابق السفلي. وجدنا بأن الشيوخ الأقل أهمية كانوا قد دُعوا هنالك. وُضعت على الأرض على صفّ ثلاثة أطباق ضخمة من الهريس Haris، وهو عجّين من الطّحين وشرائح اللحم والدّهن، زيّنت بكوب من السّمن السّائح. أما للبقية فقد وضعت أطباق مشابهة ولكن أصغر حجماً من شرائح السّمك المقلي - (أي الكنعن⁽¹⁾ kan'ad (حوت الصّخر)، المفضل لدى السلطان، والذي أصرّ بأن كل أطباق السّمك الشّهيّة من جولته الأوروبية قد ذبلت قبل تحضيرها) - أطباق من اللحم، جهّزت على أسياخ صغيرة وكأنها مسخّنة، وأكوام من التّمّر. كانت هناك أطباق من الأجبان اللذيذة أيضاً، وقليل فقط، من إنتاج المراعي الفقيرة في عُمان، كما في فلسطين لا يمكن مقارنتها بالأهوار والمناطق النّهرية في العراق. وهكذا تجمّعنا حول هذه الأطباق لنشغل بأنفسنا أبو خمسة abu khamsa، أي نأكل بالأصابع - اليد اليمنى حتماً هنا كما في المشرق عموماً، ومع البسملة - بسم الله "B'ismillah"، المباركة.

فجأة تمّت ملاحظة غياب أحد الضّيوف المهمين. أمر السلطان: «أرسلوا بطلب

(1) صنف شهير ومرغوب من الأسماك في الخليج العربي، وهو من أنواع التّونة. (أحمد)

شيخ فلان»، فوصل المتأخر في الوقت المناسب لاستمرار الوجبة. لا يلتزم بالتّحيّة الأساسية «السلام عليكم» على الطّعام ولا يُسمح بالمصافحة.

يقول المتأخر: «كأنهم» *Ka'innahum* «كما هم».

و يأتي الرّد بنوع من التّحيّة: «وأنت منهم» *Wa anta minhum*.

تشنّجت السيّقان الأوروبية مع استمرار الوجبة. اندفعت اليد اليسرى المشدودة إلى جانبي فجأة، والتي ليس لها نفع آخر، تُسحب بخجل إلى الخلف. في مناسبة كهذه تكاد بقايا اللحم الملتصقة بالعظم بعناد أن تترك، عندما يمدّ جار رحيم يمينه ليمسك قطعة العظم بينما تُزال قطعة اللحم عنها - تيسّرت لي دائماً الفرصة أن أجلس بجانب المُضيف.

لا يستطيع المرء أن يعمل بسرعة البدوي، وهو مسلّح بتقنية الأصبع التامة، مع تنظيم هضمي بارز، فهو يستهلك من الطّعام غير الممضوغ ملء الفم أكثر ممّا يستطيع الأوروبي أن يمضغ في خمس دقائق. إنّ تناول الطّعام معه لشأن جدّي وسريع.

تساءل السّلطان: «الهواء من أين؟» *Al huwa min wayn?*، وباقتراب النهاية، تتراءى مواضع الحفر في جبل الأرزّ العظيم، مشيرة إلى موضع ذلك الحفّار الأفضل. أجاب أحدهم: «ريح غربيّة» وقفاه إلى جاره، وينفجر أصحاب الشّهية المتخمة بالقهقهة. أصبح التّجشؤ الآن مبالغاً به، لكنه لا يخرج عن حدود الأدب، ولا توجد لدى البدو طريقة أفضل لإيصال الإحساس إلى المُضيف بنوعية ضيافته.

ينهض الجميع قائلين «الحمد لله»، بمعنى الشّكر للطّعام، ويتقاطرون خارجاً بصمت. لا قانا على المدخل أنا والسّلطان خادم يحمل إبريقاً من الماء والصابون ومنشفة. ينجذب عموم الموجودين كالشّياه إلى حوض ماء كبير في منتصف المجمع ويؤدّون الوضوء هناك. يجمع العبيد بقايا الطّعام ويأخذونه إلى غرفهم المخصّصة «غير المرغوبة»، ولا تُرى أيّة امرأة في أي وقت، فأى امرئ يحطّ من قدر نفسه بتناوله الطّعام معها!

نادى خمسون صوت مؤمن: «الله أكبر» وردّد صدى صوت مئة آخرين بنفس شدة الصوت المرتفع: «الله أكبر». كان تكبير البدو هذا إشارة لركوبنا ورحيلنا. بعض المشاهد أكثر وقعا في النفس من عدد كبير من الرجال الركاب على الخيل في أجزاء الأرض الصامتة، وقررت أنا الأوروبي الوحيد بينهم، بينما أقف على ركابي وأنظر خلفي إلى الصف المحاذي للمسجد على حافة غابة التخيل بأننا شكلنا مشهداً مهيباً.

انضمّ إلينا ونحن ندخل وادي عدي Wadi Aadi مزيد من البدو من الجهتين، وهم يشدون اللجام، انتظروا ضمن مجموعات قبائلهم أماناً مباشرة بانتظار قدوم السلطان لتحيتته، «السلام عليكم سيدنا» وهكذا دواليك يتجهون نحو الخلف. لكن هذا الخنوع اللفظي لا يقابله فعلٌ مشابه، فحتى أفقر البدو مشغول بسلطة الله الفائقة المطلقة ويعتبر بأنه لا يوجد أي إنسان أعلى منه شأنًا وسيتكلم بحرية تامة تنبع من وعيه لذلك.

يمتد طريقنا عبر وادٍ مظلم قاحل وخالٍ تقريباً من الأشجار، لا يحّد من امتداد الأرض المحصنة إلا نتوءات بركانية هنا وهناك، تتوسّع إلى حيث توجد كثبان رملية عالية إلى اليمين. تظهر بقعة خضراء بعيداً إلى اليسار تحت التلال الوعرة التي تواجه البحر معلنة حدود بوشر. استمرّينا في المسير تجاهها مروراً بثلاثة حصون قديمة أعطاه البعد مظهر أنبيلاً. أطلق أولها القريب من الغابة مدفعه القديم لأداء التّشريفات. وانطلقت حلقة من الدخان الأزرق إلى ارتفاع كبير ثم تبعثرت في غيمة نزلت الوادي.

أتى شيخ علي والي بوشر لاستقبالنا. وهذا النائب المحلي للسلطان رجل في غاية النبل، ومن الغريب أنّه شقيق عدو السلطان والمستولي على داخل عُمان، الإمام الإباضي Ibadhi Imam الحالي. كانت ضيافة الشيخ علي دائماً كاملة وتسنى لي الآن أن أتمتع برفاهية غرفة بمفردي. ورغم أنني لا أحبّ الترتيبات الجماعية فإنّ علي الأوروبي المنمّق أن يتعلّم الكثير من بشر ولطف إخوته السُمر في جزيرة العرب الذين يؤمنون بالقضاء والقدر.

حانت ساعة التّوم بعد وجبتي الافطار والغداء الهائلتين، ورغم أن الشّمس كانت حارة جداً في كبد السّماء إلا أنني لم أستطع أن أقاوم إغراء الاستحمام في الينابيع

الحارّة التي اشتهرت بهما كل من بوشر وغلا، فهي غنيّة بالمعادن، بالكبريت على وجه الخصوص، وجذبت سمعتها أكثر من سلطان لرنجبار في الأيام الخوالي بسبب خواصها المانحة للصّحة لمسافة ألفي ميل عبر البحر ليستمتع بها. توجهت إلى بقعتي المفضلة، وهي مكان صغير تحيط به الجدران تحت شجرة إلى جانب المسجد الصّغير في بوشر. كنت قد سبحت هنا عدة مرات من قبل دون أن أتوقف عن التّساؤل كيف تعيش الأسماك الصّغيرة في هذه الحرارة. ولكن يبدو أنّ الماء قد أصبح أكثر برودة هذا العام، ولم أضطر أن أنزل الماء واضحاً أصبح قدمي يحذرٍ شديد لأتبعه بساقي برعب شديد لأجلس بحذر وبتدرّج قبل أن أغطس بشكل نهائي.

يقال بأنّ الشّيطان يسكن البقعة التي ينساب منها تيار حارّ من جنب الجبل، ومرضاً كان أم ضرراً فهو يكفي ليكون دليلاً على وجود الشّيطان. صادفني تعليق مثير للفضول عن هذا الموضوع في أحد الأيام حينما تتبعت التيار نحو مصدره في الأعلى لأجد أعطية عن طيب خاطر على صخرة مكوّنة من سلّة من التّمر وبعض البيض الطّازج.

امتطينا خيولنا ثانية قبل غروب الشّمس بساعتين، مغادرين بوشر عائدين قرب الوادي قليلاً لعبور قمة رملية على طول طريق جديدة مقترحة للسيارات، والتي ستكون الأولى من نوعها في بلد الإبل المتواضعة هذه.

كافأنا صعودنا إلى قمة الجبل الرّملية المرتفعة التي ينحدر سفحها البعيد باتجاه البحر بمنظر واضح الأهمية. تقع إلى الخلف واليمين الكتلة الأفوانية الدّاكنة الضّخمة التي ترتفع جروفها حول مسقط، وعلى بعد سبعة أميال دونها نحو يتي⁽¹⁾. وتمتدّ إلى الشّمال سلسلة جبال الحجر الكلسية النّبيلة لكنها باهتة في استمرار لطيف الانحناء. تتهاذى السّلسلة الحجرية بدءاً من هنا على السّاحل بشكل تدريجي إلى مسافة قصوى قدرها أربعون ميلاً عند نقطة تقارب خمسة وسبعين ميلاً شمالاً، ومن هناك تنحني

(1) يتي من أرباض مسقط، ومنذ عام 1960 اتخذت «مسقط» مسمّى «محافظة العاصمة» وشمل ذلك مدينة «مسقط» وقرية «سداب» مروراً ببلدان «يتي» و«قتب» و«حرامل» وانتهاء بقرية «السيفة». (أحمد)

بشكل متناظر نحو الخلف لتصل الساحل ثانية عند خطمة ملاحه Khutma malaha. محتضنة بذلك بينها وبين مياه خليج عُمان سهلاً هلالياً هو المقاطعة الرئسية لسلطنة مَسَقَط اليوم.

تتميّز الباطنة بطبيعة ثلاثية منتظمة على طول امتدادها العظيم. أولاها امتداد ساحل رملي ساطع يكاد يخلو من الصّخور، وثانيها غابة نخيل عظيمة هي إحدى أكبر ثلاث غابات في العالم، تسير مع الساحل باستمرار لمئة وخمسين ميلاً، بعمق ميلين أو ثلاثة في بعض المواضع، وثالثها القفار الحصوية الواسعة التي تمتدّ رجوعاً من غابة النّخيل إلى الجبال. تحفّ هذا السّهل المنبسط غابات أشجار السّنط العربي حيث تلتقي بالنّخيل، أما فيما تبقى من المناطق فهي مغطاة بشجيرات يقات عليها الجمل. وهذا السّهل ذو الشّمس الحارقة مكان اصطيد الغزال.

كانت رحلتي مع السّلطان تهدف إلى أن نعبر هذا الأقليم كثيف السّكان، نمر الآن عبر الشّواطئ الذّهبية وعبر المرافيء العربية الصّغيرة التي طالما ارتبطت بسندباد البحار، وعبر قرى صغيرة للصيد يغطس رجالها تحت البحار لجلب اللّآلئ الثّمينة، والآن نقطع غابة النّخيل الطّليّة، والآن نسير على طول السّهل الحارّ الذي يذهلنا ما وراؤه.

نزلنا من على قمة التّل إلى سهل السّنط في الأسفل وخبينا بمرح عند وصولنا إليه وبهذا انعطفنا باتجاه وادي الأبيض Wadi Ubaidha الضّحل. كان الهواء مفعماً برائحة البراعم الخضراء الفتية ونحن نتقدّم من خلال غابة السّنط. توقفنا عند أكثر المخيمات بهجة خلف بقعة من النّخيل تدعى الأبيض Ubaidha.

كان التّمّدّد على الرّمال النّاعمة بعد الظّهيرة المنعشة استرخاءً ساراً. وعند اقتراب موعد الصّلاة أصبح من الضّروري معرفة الوقت بدقّة، فالمؤمن يجب أن يكون دقيقاً في ملاحظة أوقات الصّلاة. يبدو أن ساعاتهم قد اختلفت، ورغم أنني لم أهتم كثيراً بالاجراءات فإنّ السّلطان أسند لي فجأة أمر الفصل في النزاع.

«ما هو الوقت ايها الوزير؟».

نظرت إلى السّاعة التي ضبطتها حسب الوقت العربي. رددت بشكل تقريبي: «تمام الثانية عشرة»، ملاحظة تمّت تحيتها بضحك عالٍ، فالشمس ما زالت تشع ساطعة فوق خط السّماء: فتمام الثانية عشرة العربية هي بالطّبع عندما يختفي خط الشمس الأعلى تحت الأفق. وتم تجاهل قراري فعلياً بالإجماع ولم يضطجع المؤمنون إلا بعد مضي اثنتي عشرة دقيقة، وضبطنا ساعاتنا جميعنا وفق ذلك.

إنّ نظام التوقيت العربي الذي يعتبر مغيب الشمس موافقاً للثانية عشرة هو من أكثر الترتيبات تعقيداً ومما يسبب الخطأ مقارنة بنظامنا الذي يقرّر الوقت حسب ساعة عبور الشمس خط الزوال، لأن ذلك يقتضي ضبط السّاعة كل مساء. وقد يكون المرء على المدّ البحري لعدم التّأكد منها. وهناك الكثير ليقال عن مراقبتهم للأشهر القمرية.

تأخّر الوقت مساءً دون أن يفي بوعد السّابق. ذهبت سماء الأمس المنيرة، حينما جعل بدر شوال القراءة ممكنة. كان القمر اليوم مغلفاً بطبقة كثيفة هزيلة وبغيوم رطبة ضبابية. ما زالت خيولنا فتية - فاصطحبنا سبعة معنا، لأن سيّد سعيد وأقاربه يفضلونها على الإبل من قبل، وقدم والي بوشر الذي انضمّ إلينا فرساً لم تساهم كثيراً في هدوء بقية الاسطبل، فتوجّب إعادها وربطها بشكل منفرد. كان هناك الكثير من الصّهيل والجواب عليه بحلول الليل، حتى فكّ أحد الخيول رباطه ولم يتم ربطه مجدداً إلا بعد أن احتاج على سائسه - في جزيرة العرب يبقى الجواد الفحل فحلاً.

امتطينا خيولنا باكراً في الصّباح بحلول الخامسة والنّصف وانطلقنا في سهل من الشّجيرات الصّغيرة وأشجار السنط، بقينا قريبين من البحر الذي تراءى من وراء قمة خفيفة. تبع ذلك سهلٌ خالٍ من الأشجار. انزلق أحد الخيول في أم السّبخة المالحة هذه، لكن فارسه قفز عائداً إلى مطيته التي ليس لها سرج رداً على تهكم رفقاءه الفرسان، واستمرّينا في الهضاب الرّمليّة لتتوقف في حدود حصن حيل⁽¹⁾ Hayil المهدّم.

تردّد صدى الله أكبر من زوايا المخيم الأربع، فقد توزّع رفاقنا البدو على مساحة

(1) تعرف القرية باسم حيل الغاف، وتقع في وادي الحيملي بولاية الرّسّاق ضمن منطقة الباطنة. (أحمد)

ميل وأكثر تحت أشجار السَّنط ذات الأوراق الغضة المنتشرة كثيراً هنا. وأُرسل عبيدنا فوراً إلى غابة التَّخيل من أجل إطعام الرِّجال والبهاائم، وسرعان ما أتت الحمير البنية تنوء تحت أحمال ثقيلة من الحطب ونبات البرسيم، وظهر الرِّعاة من كل مكان جازين الأغنام للذبح أو بحوزتهم أوعية الحليب والقشدة لدائرتنا رفيعة الشَّان.

أتت نذر الطَّقس الجيد في الليلة الماضية على شكل ريح فجائية، من الشَّمال، ثارت مع حمولة من الرَّمْل. كان ذلك عذاباً لعيوننا وأنوفنا وآذاننا، وقد دُفنت سروجنا وأخفت تماماً سلسلة الجبال العظيمة التي كانت تطلُّ علينا منذ لحظات قليلة من مكان مجيد بعيد على علوِّ عشرة آلاف قدم تقريباً.

أتانا الفرج قبيل ساعتين من الغروب حينما امتطينا صهوات جيانا واتجهنا إلى غابة التَّخيل التي حجبت عنا ضراوة العاصفة الرَّملية. كانت هنا خطوط من الأوراق الخضراء تحت تعريشات طبيعية من التَّخيل المحيط. تناسقت أودية الشَّاء الحمراء والصَّفراء مع أحواض الزَّعفران المشرقة. وتبعثها حقول من البطيخ والبرسيم تحت التَّخيل الكثيف. كان المشهد يرقى إلى رتبة الزَّخرفة.

منحت شجرة لوز كبيرة بأوراقها الخضراء الزَّاهية والحمراء الظِّل للإنسان والحيوان، وإلى جانبها وجدت فسحة فيها بئر تمنح الحياة لكل هذا. أمَّا البناء الضَّخم الذي يئن فوقها فهو من أحد سمات غابة التَّخيل، فهو يتكرَّر بين كل مئتي أو ثلاثمئة نخلة. ينحني جذعا نخلتين مشقوقين على زاوية ستين درجة ليحملا عرناساً من خشب الميموزا وعجلة من الخشب الخام منظرها جميل، وكلاهما من الصَّنْع المحلي. تعلِّق العجلة الكبيرة فوق فم البئر المفتوح ويمرَّر فوق حافته حبل يحمل دلو الماء، أمَّا نهاية الحبل الأخرى فتربط إلى ثور. تنحدر حفرة بميلان خفيف من قاعدة إطار البئر يتناسب طولها مع عمق البئر. وبهذا الشَّكل يرتفع دلو الماء بفعل الثَّور - عادة ما يكون من نوع البراهميني المحدث brahminee - الذي ينزل إلى الحفرة، وبوصوله إلى المستوى الأرضي يفرغ الدُّلو محتوياته بشكل آلي في الخزان السَّطحي الذي يروي الحديقة. ويرجع الثَّور إلى أعلى الحفرة يعود الدُّلو إلى البئر ثانية، ويستمرّ الإجراء.

يصيح الأوروبي الذي أتعبه صوت الأنين والعنين: «زيتوا هذا الشيء البائس»، لكن المالك له وجهة نظر أخرى، فلكل بئر نغمة وبإمكانه من الطرف البعيد لحديقته أن يعرف بذلك إن كان كل شيء يعمل جيداً بمفرده. إن النغمات المختلفة من العديد من الآبار التي تعمل في وقت واحد ليست بموسيقية أبداً. فالصوت الناتج يماثل مجموعة غريبة من الآلات الوترية، فيبدو بأن التشيلو يبتهج دائماً بإغراق الكمانات المتوسطة والصغيرة، فيكون المجموع نوعاً من أوركسترا تضبط النغمات.

بخروجنا من الأجمة بعد أربعين دقيقة أتينا على وادٍ حصوي القعر يتصل بالبحر، واحد من سبع بطحات bathas بين الغبرة والمنومة Ghubra and Manuma، فتحات وادي سمائل Sama'il التي يشكّل كلّ منها دلتا. قطعنا واحداً راكداً منها بشكل قطري باقترابنا من قرية السّيب Sib. يقع منزل والي مطرح الرّيفي منفرداً وراء الأجمة، وهو زميلي في المجلس المأسوف عليه. وقف صفّ من العرب بأثوابهم البيضاء في السّهل المكشوف أمامه وهم يهتفون، مسندين البنادق إلى أوراكهم ليرسلوا غيمة من عجاج أبيض تتبعها فرقة مكبوتة لنار البهجة بينما دوى مدفع بعيد للتّرحيب.

تجعل أسراب البعوض السّميكة بطينها المرعب سطح المنزل العالي المكان الوحيد حيث يمكن التّوم فيه، فانسحبنا إلى هناك بعد طعام العشاء.

لم يكن السّلطان في مزاج للتّوم، فأمضى مع حاشيته ساعة في لعبة بدت لي بأنها تستخدم الذاكرة والمزيد من الشّعرك أكثر ممّا يملك معظم الأوروبيين. يروي «أ» السّطر الأول من أي قصيدة يعرفها، ويجب أن يتابع «ب» بعده بشرط أن يكون الحرف الأول هو آخر حرف في سطر «أ». ويفعل «ج» الشيء ذاته آخذاً دليله من «ب» ووهكذا دواليك حتى يخسر أحدهم.

يمكن تشبيه السّيب بأنّها برايتون Brighton الخاصة بمسقط، حيث يرتادها سكان العاصمة بشكل جماعي تقريباً في شهور الصّيف. وتوجد هجرة جماعية في هذا الوقت لسكان مدن جنوب شرق الجزيرة إلى آجام النّخيل، وحتى العامل غير الماهر يتجوّل لمدة ثلاثة أشهر دون أي مصدر واضح لتأمين احتياجاته. الحياة البسيطة هنا

فعلاً، يأتي المرء وليس معه سوى بساط من الحصير، ويدخل في حديقة نخل لم يره مالكة قط من قبل، ولكنه يدرك حقّه القديم بالظل من قبل أن تُقسم ملكية التّمور. ولا يفكر أحد برده خائباً، كلّ ما يريده هو حفنة من التّمور والماء من بئر سخيّة. ولكن لا يمكنه على سبيل المثال أن يأخذ من الأشجار فذلك يعتبر سرقة. فهو يأخذ من التّمور التي سقطت على الأرض، وهي حق مشروع له دون الحاجة للسؤال، ويمكن له أن يأخذ المزيد إن أهله إمكانياته الحرفية لذلك التي قد يرغب بها أو لا يرغب مالك الحديقة، هو نوع من المبادئ التي طبّقها أنا نفسي سرّاً على العديد من أوركيدات سومرست المزهرة، وكنا ندعوها ضمان القطف Picksuring.

يبدو أنّ وقوف تجار مَسَقَط للاستثمار في حديقة من السّيب هو عادة قديمة - بغضّ النظر عن حالة الرّوح التي تتأتّى مع ملكية عقار أرض أو لكونها مسكناً صيفياً لعائلته. كانت النتيجة جيدة - فعلى الأقل لم تخصّص الحدائق كلها للأغراض التجارية، ووضع فيها مالكوها الرّجال الذين عبروا البحار إلى العراق أو الهند أو زنجبار نباتات وزهور صادفوها أثناء ترحالهم. تتكوّن هذه الحدائق من أغصان استوائية متشابكة. تعطي الطّبيعة الماء وتتركّ لتعمل على طريقتها. يعبق الهواء بروائح الياسمين والحنة والورود، ويبدو على أشجار الفاكهة ذوات الفروع الدّانية بأوراقها وثمارها كأنها لم تعرف سكّين المقلّم قط.

ولقد علمنا يا للأسف بأننا يجب أن نؤجل أملنا بثمار البابايا اليبانة إلى موسم آخر، فجعلتنا نذهب أنا وسيد سعيد إلى طرف الحديقة حيث تظهر هذه الأشجار الهيفاء الطويلة، وكذلك ثمار المانغو التي يعد محصولها هذه السّنة بالوفرة.

ثم رأينا شجرة جوز هند من البعيد ووسرعان ما جعلنا البستاني الأسود يتسلّق جذعها الناعم، عمل استطاع اتمامه دون مساعدة باستخدام حبل عادي يستخدمه قاطف التّمور. وسرعان ما أرسلت السّكين اللامعة التي في حزامه ستاً من الكتل البنيّة لترتطم بالأرض. أمانا الآن مشكلة استخلاص الجوزة فالغلاف اللّيفي سميك جداً ومتشابك (الأمر الجيّد إن أردنا الحصول على جوز الهند المجفف)، فهو لا يستسلم

بسهولة لضربات الخنجر. هذا مصدر تحدّي في أرض عطشى. ما أن يحترّر الغلاف، تكفي عدّة ضربات أفقية من الخنجر لإزالة لحائه البنيّ، وتشير حلقة بيضاء إلى الماء الذي سيقطر منه السائل من ثقبه بلطف، ثمرة جوز الهند اللينة ممثلة بالسائل اللذيذ حتى حافتها، ولحمها طري ومطواع عندما يكون طازجاً أيضاً مثل البطيخ فيمكن أن يؤكل بالملعقة.

ولكن أين غابات ظفار الكبيرة؟ فلا يوجد هنا في السّيب إلا أقلّ من نص درزن من رياض أشجار جوز الهند، وخيالات بالغريف! ولا تستطيع الباطنة أكملها أن تفتخر بوجود مئة أجمة.

تم قتل أفعى في أحد أحواض البرسيم الليلة الفائتة، لا يمكن للأفاعي المحليّة أن تكون سامّة جداً، وكما يجد المرء فإنّ تبعات عضّة الأفعى تؤدّي أحياناً إلى قراءة الآيات الكريمة. على كل حال فهي مخلوقات كريهة توجد في الجوار، ويسلك المرء الطريق الصّخرية العارية التي تتاخم مجاري الماء برعب. ليست بساتين السّيب مخصّصة للتّخيل فقط، إذ تزهّر فيها كل أنواع أشجار الفاكهة وخصوصاً عائلة اللايم والليمون بورقها الأخضر اللاذع، وشجرة المانغو جميلة المنظر وكثيفة الأوراق أيضاً، وتكثر الجواثا والسّفرجل والموز الكبير أيضاً، وتنمو تحت ظلالها الوارفة البطاطا الحلوة والباذنجان واللوبياء والبصل والكوسا وأشباهها من ثمار الأرض. وإن أتى المرء بعد شهرين فإنّ المُضيف سوف يقدّم العنب والمشمش والدّراق الرّحيقاني والرّمّان. تُجلب هذه المنتوجات من سفوح الجبل الأخضر ذات الطّقس الأكثر اعتدالاً على بعد ثمانين ميلاً باتجاه الدّاخل.

خرجت أنا وسيد سعيد من البستان في وقت البرزة الصّباحية. هنا وكما في بقية السّلطنة حيث توجد الحصون ومجالس الحكومة نجد وطيدة مرتفعة بعض الشّيء على طرف الحائط في المدخل مع أخرى موازية على بعد عدّة أقدام لتحديد مكان البرزة. يصادف المرء هنا فقط وفي هذه المراسم حياة البدو الاجتماعيّة، ما يقابل المجلس الأوروبي الفسيح إن جاز التّعبير، رغم أنّ هذه المقاعد الطّينية قد تم فرشها

جيداً بالسَّجاد والوسائد. لفت شيخٌ كهل انتباهي إلى ولد يجلس في التَّهية المقابلة، قال: «كان لجَدِّ هذا الولد لحية تصل إلى ركبتيه، هكذا يقضي العرف بالآ تقص. في بعض الأحيان يمكن له أن يقسمها إلى نصفين ويلقَّها فوق رأسه، كما الوشاح ليعقدها في الأعلى. من المخجل فعلاً أن تقصَّ لحيته و«بغمزة من عينه» عندما أراد المغازلة قيل إنَّه وضعها تحت مقدِّمة قميصه». هذه الممانعة من العرب لقصَّ اللحي مثيرة للفضول. ولا أدري إن كانت لتسهيل الأمور في يوم القيامة كما يدَّعي البعض، ولكن تُقلِّم الأظافر حتماً دون أي شك. ولا يتم حرق الشَّعر المتساقط من قبل نسائهم، وإن لم يدفنوه فقد يصادف المرء خصلاً ملفوفة تبرز من شقوق جدران الحدائق القديمة.

تقدِّم ملتمس بانياني ليشتكى على الحكومة المحليَّة، لكن البرزة كانت قد انقضت واقتربت ساعة الإفطار، فأرشدته السُّلطان إلى أن يأتي ويعرض قضيتَه عليَّ فيما بعد. إنَّ إدارة هذه البلدات الصَّغيرة بدائية للغاية، قلبية عملياً. فيوفر الوالي أو الحاكم عدالة مبنية على الاجتهاد الشَّخصي بمساعدة القاضي بالشَّرع المطهَّر، مع عدد من الجنود الذين يؤلِّفون الهيئة العامة. أما شكوى البانياني، وهو الوحيد من هذه الطائفة في المكان، فقد ألقت الضَّوء بشكل مثير للفضول على نظام الشَّركة الفظَّة ولكن القديم. يوكل أمن الممتلكات في الليل لخفر ليليين، ثلاثة من أبناء قبيلة بني رواحة المشاغبيين، في حال حدوث سرقة فهي عن طريق نظام الحراريس *Hararis* هذا - نظام معروف في الأماكن النَّائية من الشَّرق الأوسط - فالحراريس أنفسهم هم المسؤولون عن التَّعويض.

ألزمت ذات مرة بأن أتقلَّد منصب موظف سياسي في جنوب بلاد الرافدين، بضغط الرأْي العام بعد استفاد كل وسيلة أخرى لتعيين رئيس لهؤلاء الحراس الليليين هو اللِّص اللَّدود عينه، الذي أمضى سنين عديدة من حياته في أقبية تُركية صُمِّمت للحد من ضرباته الخطيرة الأقل نجاحاً.

تبَيَّن هنا في السَّيب بأنَّ رئيس الحراريس سديري *Sudairi* قد ذهب قبل أربعة شهور إلى منزل البانياني ذات صباح حاملاً خبراً سيئاً بأنَّ متجر البانياني في السُّوق قد

سُرق أثناء الليل. توجه البانياني المذعور إلى الوالي وحاول أن يوضح له بأنها نهاية العالم أو تكاد تكون. شكّل الوالي والبانياني والرئيس المشاغب ثلاثي تحقيق وذهبوا إلى مكان السرقة. وجدوا أنّ المتجر قد ضُرب بالبنادق، وتم الدّخول إليه عن طريق متجر آخر لا يجدي تخريبه أي نفع. وكان الوالي، الذي سيتقاضى راتبه في نهاية الشهر على أية حال وقد تناول وجبة إفطار مرضية في صباح ذلك اليوم، كان يميل إلى اعتبار رحمة الله الأبدية بتعمّق، ولكنه لم يكن مفيداً فيما عدا ذلك في تلك السّاعة المبكرة، في حين رأى المدّعي بأن كسر الباب وتحطيم جدار من الطّوب والسرقة من متجرين قد استلزم الرّجال والوقت والضّجيج، لدرجة أنّ الحارريس لا يمكن أن يكونوا غير عارفين كما قالوا.

إن لم يكن خبراء بصمات الأصابع مزدهرين في رمال جزيرة العرب، فإنّ متقّي الأثر على الرّمّل له هنا ذلك الدور. هو ركن من أركان المجتمع، يدعى بالقفّار *Qaffar* ويتمتع بسمعة محلّية طيّبة، ويحصل على راتب شهري. إنه هنا العبقرى الذي يستطيع التعرف على كل كائن حي بمجرد التحديق في الأرض، فالناس تمشي دون حذاء. وهكذا حصل، فقد أعلن القفّار بأنّ اللصوص لم يكونوا إلا الحراس الليلين أنفسهم الذين أرسلوا ثلاثتهم إلى حصن الجلالى في مَسْقَط، وما زالوا هناك في غياب المحكمة المحلّية.

يعود سبب زيارة البانياني لي في هذا الصّباح المبارك إلى موضوع ذي شقّين. أولاً لمناقشة طلبه خمسمئة رويّة لتعويض قيمة البضائع المسروقة والمتلفة. وحسب خبرتي فقد وجدت بأن مئة وخمسين رويّة تمثل تقيماً أكثر عدلاً، وأقرّ قبل أن تنتهي المقابلة بأنّ هذا المبلغ الأخير يمثّل مبلغاً كبيراً ومرغوباً. ثانياً اشتكى من زيف العدالة التي كان القفّار مسؤولاً عنها بشكل سلبي، فبينما كانت هناك آثار خمس خطوات كان عدد السّجناء ثلاثة فقط، وقد عرف البانياني بحدسه من هما الاثنان الآخران، وهو لا يدّعي بمعرفته بالتّففى. وقد اتّضح بأنّ المتهمين كانا اثنين من دائنيه قساة القلب القدماء!

كانت السّاعة العاشرة بالتوقيت العربي هي السّاعة المعتادة للخروج من المعسكر. ماَرَيْن بعتبة المنزل، توقّف السلطان، وتمتم بصوت خفيض ما قد يكون مقطّعاً من قصيدة. تكلفت السّؤال عن معناها وقد تملّكني الفضول إلى حدّ كبير. كان الجواب مع ابتسامة: «وما الفائدة؟ فأنت لست بمؤمن، ولكن سأكتبها لك في وقت آخر، إنها آية من القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ونحن نؤمن بأنّ الذي يتلوها عند مغادرته أيّ مكان فإنّ الله سيعيده إليه».

أنا صياح البدو الذين امتطوا للتو جيادهم: «الله أكبر، الله أكبر»، وبمضيّنا قدماً أتت كل قبيلة أمامنا وجهاً لوجه، شدّت اللجام وبحركة العصا المميّزة باتجاه السلطان مقدّمين التّحيّة المألوفة: «سَلام، سِلْم» *Salaam, Silaum*. ولكن يلفظ البدوي «سلام» بنبرة صوت عالية غريبة على المقطع الثّاني: «سِلوم» الذي يذكر من عاش سابقاً في فلسطين بالكلمة العبرية «شَلوم» التي يتردّد صداها يومياً في شوارع القدس⁽¹⁾.

أشار السلطان: «أسرع في الأمام». تم استلام الأمر وتم تمريره إلى الأمام بالتّتابع، بحيث انطلق الصّف الأمامي بسرعة خلال وقت قصير، وتكيف من في الخلف بدورهم. إنّ هذه السرعة من خمسة إلى ستة أميال بالسّاعة هي الأكثر اقتصاديّة بالنّسبة للدّابة، وإذا كان السّرج مريحاً والركوب جيداً فإنها ستكون مرضية جداً للركاب. انطلق البدو الذين أسعدهم الأمر منشدين بما يتوافق مع الخطوة بأصواتهم العالية والخشنة.

تحركنا اليوم من خلال أجمة السّنط اللطيفة حيث تحدّ اشجار النّخيل أطراف السّهل، على عكس جولة البارحة من خلال قلب أجمة النّخيل تعلونا الأغصان

(1) ملاحظة نبهة من المؤلّف، ولها ارتباط وثيق بأصول ما يسمّى اللغات السّامية الشرقيّة. فزمرّة اللغات الكنعانيّة (ومنها العبريّة) تعود أصولها إلى اليمن، ومن يتّبع خط الهجرة إلى الشّمال عن طريق جنوب شرقي جزيرة العرب (عُمان) وشرقيّها (أرض الإمارات الحاليّة والخليج) يلاحظ وحدة لغويّة متميّزة، ضمت: الكنعانيّة، العبريّة، الأكاديّة، الآشوريّة، البابليّة، الكلدانيّة، ثم الكنعانيّة الفينيقيّة والكنعانيّة الفلسطينيّة. وتشابه هذه اللغات القديمة ما زال جليّاً في بقاياها المحكيّة حتى اليوم. فعلى سبيل المثال: مفردة سلام في الآراميّة الكلدانيّة (ووليدتها السّريانيّة): شلومو. (أحمد)

الشائكة التي تضطر المرء كي ينحني وهو على ظهر دابته ليتجنبها، والتي يتخذها البدو علفاً مثالياً للإبل، أما بالنسبة للتاجر البانياني واللواتي فهي مصدر رزق حين تُقطع وتصدّر كخشب للمواقد إلى البحرين وديّ وجنوب فارس. وغالباً ما يبقى قطع الأجمة أو عدمه موضع خلاف بين مصالح متضاربة.

مررنا على طريقنا بمختلف القرى المبنية بسعف النخيل، وبحصون طينية قديمة مهجورة مع مسجدها المرافق. كان المسجد الإباضي Ibadhi متميّزاً بعدم وجود مئذنة له يمكن الحديث عنها، ورغم أنه قد أصبح مهجوراً فإنّ إزالة أي من التجهيزات الدّاخلية أو الأبواب أو المفروشات التي قاومت التّلف بمرور الزّمن تعتبر تديساً حتى ولو كان لها ضرورة في مسجد جديد. انتقد السّultan بالتّالي قصراً قام البتّانون بتشييده له، ببناء ما هو دائم في موقع مؤقت. فلا يوجد نظرياً رهبانية في الاسلام، ولكن للمفارقة فإنّ المؤمنين هم أكثر أشخاص يسيطر عليهم رجال الدّين. فسلطة المطوّع العالم (قائد ديني) في هذه المنطقة المتخلّفة والأمية تظهر بشكل طبيعي بشكل واسع. ورغم تزمّت الإباضيّة والكثير من صفاتها الشّكلية التي تشابه الوهابية⁽¹⁾، فإنّ لها تحفّظاتها الخاصّة بخصوص قدسية المسجد. حقيقةً، فالبناء أقلّ من عادي ولا ترتفع فوقه مئذنة وأيّة محاولة لتجميل داخله خطيئة فادحة، ويقول المطوّعون بأن أحجاره وطوبه لها قدسية حقيقية. قال أحد المرافقين إلى جانبي: «هل ترى هذا المسجد وضيعاً وكثيباً، لكننا تعلمنا بأن أعيننا لا ترى استمرار القطب الهائل من القدسية من أساساته حتى السّموات السّبعة».

وأخيراً هنا وادي المنومة Manuma المتميّز بشجر الغاف Ghaf العملاق. منخفض بسيط لقاع وادٍ نظيف وضّاء على مقربة من البحر تحدّه أشجار نخيل منتصبة جاعلة الأرض مكاناً ممتازاً للتّخييم.

قال لي السّultan عندما انتهت صلاة المغرب: «ما رأيك بعشاء من المشوى

(1) يستخدم الكتاب الغربيون تعبيراً مغلوطاً هو: الوهابيّة، والصحيح أن اسمها: دعوة الإصلاح السّلفي. (أحمد)

«mushuwa»؟ فأجبت بالعربية ما يعني «مخطط رائع» رغم أنني كنت لأستمع أكثر ما استمتع بوعاء مليء من حليب الجمل تلك الأمسية فقد كنت متعباً جداً. فقد حرمني التفتيش الصباحي في السَّيب متبوعاً بجولة بعد الظهر من قيلولة منتصف النهار، والآن لا بدّ أن الشاة التي ستذبح ستأتي من بعد ميل وذبحها وتحضيرها وبعد ذلك إجراءات الشوي التي تأخذ وقتاً، كل ذلك يعني الانتظار وقتاً طويلاً لن أستطيع أن أتحمّله بمرح. ولكن سمعت في الصباح التالي عن كل مزايا الوقعة. المشوى هو شواؤنا ذاته، لكن لم تصل سفايد الشواء بعد إلى الأجزاء البعيدة من جزيرة العرب، وما تزال تستخدم طريقة الكومة المسخّنة من الانقراض التي كانت معروفة حسب اعتقادي لأسلافنا في العصر الحجري، ومن الجيد أن أستطيع مشاهدتها. لكن حتى الحجارة هنا كانت مطلوبة وكان على البدو المرافقين لنا اللجوء إلى تجهيز آخر. تم حفر حفرة ضحلة متطاوله بعرض ما يقارب ثمانية عشر إنشاً إلى قدمين وأشعل الخشب فيها ووضع الحطب السّميك حتى استحال إلى رماد ساخن، وأصبحت الحفرة سريعاً تنفث أنفاس الفرن. أخذ البدو بتعرية سعف النّخيل بسكاكينهم بالطول لتتوضع بشكل مستعرض على الحفرة وأدخلت قطع اللحم في النهايات المدبّبة وعُلّقت صفوف منها فوق الجمر الملتهب لصنع الكباب، ذلك الطبق الشهي.

تناقصت أعداد اشجار السنط والشجيرات الصغيرة مع تقدّمنا في الغد، رغم أنّ بشائر براعم خُضرة الرّبيع الجديدة قد أبهجّت القلب. حجبت طبيعة التربة الرّملية هنا حفراً مخفية جعلت اثنين من البدو معنا يسقطون من فوق رؤوس جمالهم المهرولة. موقف ليس بالمتع عندما تكون البندقية متدلّية بحكم العادة بشكل رخو تحت الكتف وبذلك فهي عرضة لتزلق عن الظهر أثناء السقوط.

ولكن تبع ذلك شيء أسوأ. جلب انتباهي صراخ مسعور من بدوي عجوز راجل كان يقف بعيداً إلى اليمين، وبالتّمعّن في النّظر أكثر رأيت جملة، وهو جمل ذكر غضبان، وقد أمسك يد الرّجل العجوز ومعصمه بأسنانه كما لو كانت ملزمة. ربما مرّت عدة ثوان والرّتل بأكمله مستغرق في المنظر قبل أن يتوقف. رفع الجمل بدن

العجوز وأمسكه معلقاً في الهواء بينما انزلق البدو عن إبلهم وانهالوا ضرباً بعصيهم على رأس الحيوان. أرخى الأخير مسكته وسقط البدوي كومة منهارة على الأرض، ويده تنزف بغزارة وذراعه معلق يترنح. استمر البدو بضرب الجمل المتوحش الذي أزيد فمه بشكل متميز وهو يرغو ولسانه الأحمر يتورم، ولكن إلحاح مالكه الرجل العجوز جعلهم يتوقفون في الوقت المناسب، ثم امتطاه ثانية مفسحاً المجال أمامنا لنستمر في المسير.

لم يتضح سبب هذا الفوران. ربما زادت حصّة الجمل الضخمة من البرسيم والتّم من روحه العدوانية، إذ لا يستطيع أيّ بدوي تأمين رفاهية يومية لمطيته كهذه. إن كثرة الطّعام أو زيادة الإطعام قد تكون مميتة للإبل، فإذا اسثير الحيوان المستألف فإنه لن يعرف متى يتوقف وسيعاني. أمّا البرّي وغير المستألف فيدير أنفه بتكبر لأي شيء جديد لم يألفه في الاقتيات من حشائش الصحراء. أمّا جنس المعتدي الحالي فقد قدّم نظرية جديدة. إنّ ذكور الإبل أكثر شراسة من إناثها، رغم أنّ كليهما في هذا الفصل منضبط بمثالية، وعندما تسير في مجموعات كما كنا حينها، مع كثير من التّصادم والاهتزاز يحبّد التعامل معها بالكثير من الصّبر. إنّ أية فكرة لضبط الصّف غير واردة عند البدوي، وتعادل «الابقاء على نصف طول حصان بين الأرتال» وتملؤه بالسخرية والمرح.

يستخدم ذكر الجمل في عُمان لنقل البضائع، ويختار البدو ركوب الإناث لحركتها الألف. عكس ما وجدت من الأفكار في جنوب بلوشستان، ففي بعثات صيد الوعل هناك يمتطى الذّكر عموماً بسبب الاعتقاد بأن ركوب الأنثى يتعارض مع صفاتها التّوالدية. لا يوجد هذا العرف هنا في عُمان حيث تربي بعض أجود الإبل في جزيرة العرب ربما. فعلاً يوجد في أي وقت نحو مئتي رأس إبل بحوزتنا، وبالكاد تكون نصف دزينة منها من الذّكور. وبينما تُنرى النّاقة بعد سنتها الرّابعة كل سنة تالية فإنّ واحداً من خمسين جملاً يبدو مسموحاً له بإشباع غرائزه التكاثرية، يوجد دائماً في الرّيف جمل ذو صفات ممتازة دون البقية، ويأتي البدو مالكو التّوق من البعيد في الوقت الحرج

لطلب خدماته. وعداوة الجمل للإنسان في وقت كهذا عادية جداً، وأذكر من سنة أو ستين في ظفار بدوياً قد هوجم بشراسة فتهشمت عظام ذراعه الأمامية ممّا جعل طرفه يذوي بكامله.

أرسلنا بطلب الرّجل المسكين ضحيّة مشهد الصّباح لقلقنا عليه حالما خيّمنا، فجاء وهو يمسك ذراعه المصابة. كانت على ظهر يده ومعصمه علامات سنّين عميقين، برز منها لحم أحمر سُلخ عنه الجلد، وما زالت اليد السّمراء ملطخة بسواد دمها الذي جفّ. (إن فكرة انتقال السّفلس نتيجة عضّة الجمل والتي سمعتها في بعض المجتمعات الأوروبية هي فكرة مرفوضة تماماً بين المحليّين). حرّك الرّجل أصابعه وبثقة الأمل أعلن بأن لا عظام مكسورة. قال بتسليم «من الله» (أي بمشيئة الله)، وذهب دون تذكّر إلى قريته في اليوم التّالي لعلاج محلّي، وكانت تلك آخر مرة أراه فيها.

إنّ حصن بركاء بناء مهيب له خلفية تاريخية عظيمة، مهيب لكنه من البعد يبدو آيلاً للسّقوط بسبب القدم وغير قابل للإصلاح، كما المدافع الصّدئة القديمة التي تتناثر حوله. كانت بركاء قد أثارت طمع ابن سعود لكونها المركز الطّبيعي لإقليم الباطنة، أرسل الغازي النّجدي حشوده الوهابية إلى هناك في بداية القرن الماضي وإلى هنا إلى هذا الحصن بعينه. أتى الوصي والمطالب بالعرش سعيد وكان صبيّاً، أعظم سلطان عرفته البلاد، الذي استدرج عمّه وذبحه، وبذلك خلفه على العرش. وما زال التّقليد منذ قرن أن يحكم هذا المكان فردٌ جليل من العائلة الحاكمة⁽¹⁾.

(1) بوحد حصن بهي في الفُليج يقع تحت الحجر، مواجهة مع بركاء وكان يستخدم كغرفة رماية من قبل السّلاطين السّابقين. بناه سلطان بن حمّد، الحاكم الثّاني من العائلة الحاليّة، الذي عاش في أواخر القرن الثّامن عشر. وجدته بحالة جيّدة أكثر من حصون الباطنة، ربما لكون أساساته تركزت إلى صخر كلسي صلب عوضاً عن الرّمّل. وبالقرب منه وادي معاول (Ma'awil) الهام (عذراً بالغريّف فالاسم معوى ma'wah غير معروف في جوار صُحار) حيث تمرّ القوافل من وإلى مرفئها بركاء. ويصيب فلجها الجفاف مرات واعتاد سكانها الدّهاب إلى الجبال حيث ينبع ويقولون:

«أعطنا الماء! أعطنا الماء! لدينا جثمان! لدينا ضيف! أعطنا الماء!».

وصلنا هنا في الأمسية السابقة، وبعبورنا أكمة التّخيل أصبح الشّاطئ على بعد ميل شرقاً. وبذلك يتبع مسارنا على طول السّاحل الأصفر. كان مشهداً لا ينسى، بأقدام إبلنا تغسلها موجات الماء وبدونا الذين انسابت أغطية رؤوسهم مع التّسيم وهم يصرخون بأعلى صيحات الحرب. ورسى مركبان صغيران بسلام قرب الشّاطئ، تعطي حداثتهما العالية المزخرفة وسواريهما الأمامية الغربية منظراً خرافياً أو تجعلهما يبدوان وكأنهما أتيا فوراً من مرفأ إلبايبث أو مرفأ من العصور الوسطى.

ترجّلنا لنشغل سبلات *Sablas* كبيرة، وهي أكواخ كبيرة من شعر الإبل نُصبت قبالة البحر وفُرشت بالسّجاد الكثيف لاستقبالنا. قاطعت صرخة المجذومين الذين أتوا إلى الشّاطئ يستجدوننا تفكيرنا بأنّ السّبلّة أفضل من الخيمة بسبب تهويتها وحمايتها من الشّمس، والجُذام معروف على طول هذا السّاحل. والجدرى مستوطن أيضاً - وقد عُزلت عدّة حالات في الحدائق القريبة. أتى والي بركاء، الرّجل العجوز الوقور، وبصحبته واليا المصنعة *Musana'a* والسّويق *Suwaiq* وهما ولايتان للحكومة، اللذان وصلا مؤخراً وجلسا أمامنا على الفور بالإضافة إلى بعض التّباء المحليين لتقديم سلاماتهم *salaams* للسّultan. كان السّultan يسليهم بقصّة رحلته إلى إنكلترا وعجائبها، رغم أنني رجفت بتأثير فكرة أنّ كل سكان البلد القديمة من المذهب الإباضي، هم متدينون محافظون ومن المحتمل لذلك أن يشكّوا ببلاد الكفرة.

قاطعت افكاري قهقهة صدرت عن السّultan؟

قال سموّه بطريقة ليسترعي انتباهي: «هلال، لقد تناول هلال للتو الحلوى *halwa* الدّبة (راحة الحلقوم)، ولكنه يأبى أن يغسل يديه من الإبريق أو أن يشاركنا قهوتنا». سألت مستغرباً: «لماذا؟».

«لأنّ كلّاً من الإبريق ومصبّب القهوة أو انٍ من الفضة» - كانا بالفعل من القطع المزخرفة الفاخرة - «وبوجود المتشدّدين بالدين بيننا فإنّ استخدام أواني الفضة والذهب محرّم».

ربما بدا ذلك لمعظم الحاضرين نوعاً من إظهار ثبوت العقيدة في مناسبة كهذه، ولكنني عبّرت عن تقديري للإخلاص للمثل العليا، بينما لم يكن لديّ أنا وازع كهذا. يُمنع الذكر الإباضي من الاستخدام الشخصي للذهب أو الفضة أو لبس الحرير على أسس دينية، لكن يتساهل العديدون من بين المؤمنين في فناعاتهم بسنّ مذهب ويتهج الجميع بتزيين بنادقهم وسيوفهم وخناجرهم بالمعادن الثمينة. وقد لاحظت بأنّ هلالاً المتزمت نفسه قد ارتدى خاتماً من الفضة وخنجراً مقبضه فضّي دون أي وخز ظاهر لضميره. عجيبة هي أفكاره كما ستظهر المحادثة. وكان الآن دور الوالي العجوز ليضحك من قلبه. فكّرت: «هلو، ماذا يزعج الوالي؟» وأنا أنظر لأسمع أحد أفراد حاشية السلطان يبالغ في سرده لأسفاره في الخارج، عن الجمال الاستفزازي الذي صادفه. فقد كان معنى «خطيئة الجسد» كامل الزّيف قد جعل ملامح التّظاهر بالتّقوى هذه حميدة، والتي حملت على تعبير متعصّب بارد تجاه فكرة «خطيئة الفضة».

عزمنا على أن نطلق أبكر من المعتاد ذلك العصر لنصل المصنعة مع الغروب، وكان الشّاطىء مفعماً بالتّحضيرات المتشوقة. فهنا عاد البدو يحدون أسراباً من الإبل بعد السّقاية، وهناك شدّ آخرون حزاماً أو تأكدوا من سروجهم مرة أخيرة. تردّدت صرخات: «فلاح! فلاح! جواد!» (تهياًوا) من الجميع، ولكن أتى فارس يعدو حاملاً حزمة من البرقيات في السّاعة المقرّرة لتتحرك. وقعت التّرجمة على عاتقي، وحاجبي المعقود أو إشارة فاضحة كهذه جعلت السلطان يقف على قدميه. كان هناك وضع جدّي قد تطوّر بالفعل في جزء آخر من منطقة سلطنة سموه. فقد كانت غوادر Gwador (جواذر) على ساحل مكران Makran مشهداً للاضطرابات. قالت البرقية إنّ مسجداً للسّنة قد تم تدنيسه بقذارة بشرية. ويشبه البلوشيون الذين تعود إليهم ملكيّة المسجد باللّواتيين أتباع آغا خان، وكانوا قد قاموا بالهجوم على مصلى الأخير الذي لا يعدّونه مسلماً على الإطلاق. وتم الإبلاغ عن تصعيد أحداث شغب، وقُتل رجل وجرح آخر. يقال بأنّ الإرهاب قد تمكّن من البلدة وطلبت مساعدة فورية.

رفعت نظري، والسلطان ينتظرني أن أتكلّم والانزعاج بادٍ عليه بوضوح. تم توصيل

الاستخبارات. هل علينا أن نلغي رحلتنا على الإبل؟ هل علينا أن نرسل القوات من بيت الفلج؟ هل عليّ أن أعود أنا وأتابع إلى غوادري؟ ومقابل هذا كله كان مركب الدولة الحربي تحت الصيانة في بومباي، ومركب البريد يقوم برحلة كل أسبوعين. فكّرنا وأرسلنا الأوامر أخيراً إلى ممثلي الحكومة في مسقط ومكران مع رسالة مطمئنة إلى مجلس الآغا خان في كراتشي، وقرّرنا التوقف هذه الليلة وانتظار أخبار المستجّدات قبل التسرع بالتحرّك في الاتجاهين كليهما.

* * *



ديار آل سعد



تاجر مع بعض عبده



خليج مسقط، وتبدو قلعة الجلالي



وقفة في الباطنة

الفصل الثاني من المغامرة الثالثة

رحلة بالبرّ مع السلطان في الباطنة الغربية

كنا ما نزال في بركاء Barkah عند الفجر، ولكن لطفت صدمة أخبار الأمس نيتنا بالتكيف، وقد وصلت الآن في صدر النهار دفعة من البرقيات أدت إلى التخلّص من الهواجس. كانت أخبار الأمس أكثر الأخبار إزعاجاً على ضوء أخبار اليوم، كان الموقف تحت السيطرة، وقد أمكن التعامل معه بواسطة السلطة المنتدبة ولم تعد تنذر باحتمال التخلّي عن جولتنا، استطعنا أن نرتاح أثناء حرارة النهار ثم نتابع مجدداً رحلتنا على السّروج باتجاه الشمال.

سارت رحلتنا بمحاذاة الشاطئ باتجاه جزيرة السّوادي Suwadi الوردية، كانت الشمس تسطع في وجوهنا طوال بعد الظهر، وكان الظل المغاير في بساتين التّخيل مستساغاً. تكسّرت الأمواج وهي تهسهس على الساحل وشقّت الإبل طريقها فيه وهي تطلق رشقات الماء بابتهاج، وعندما مررنا خلف الجزيرة وجدنا بساتين التّخيل قد انحسرت لتترك واجهة متداخلة لمسافة ميل أو اثنين، يوجد عند حافتها رابية صغيرة تشبه القبر غُرس فيها ما يقارب اثنتي عشرة عصا رفرفت عليها رايات حمراء وبيضاء. قال رئيس عجوز ذو عمامة بيضاء بين الحاشية: «ما هذا الشّيء الغريب؟».

كان الجواب: «مقام رجل دين، اعتاد الصّيادون على زيارته وتزيينه بهذا الشّكل، وجلب هدايا بسيطة من الطّحين والتمر».

فأجابه ساخرًا: «هل صاروا من الهندوس؟ لأن الظلّ في الرّمزية يصبح جوهرًا في

عقول كهذه العقول» - ذلك كان موقفه، لأنّ المفهوم التّوحيدي الخالص هو الرّكن الرّئيسي في العقيدة الإباضية كما في الوهابية⁽¹⁾، وهنا يوجد تحدّي شيعي أو شافعي.

يوجد مرفأ كهفي عند الشّاطئ خلف الجزيرة حيث كان يقف مركب داو وعدّة مراكب صيد، هنا الملاذ الوحيد في شواطئ الباطنة المكشوفة حيث يمكن البحث عن ملجأ من العواصف الشّمالية الشرقية في أشهر الشّتاء.

بينما كانت الجمال تتمرّع في الرّمال النّاعمة، صرفنا النّظر عن محاولة قطع الانعطاف الواسع الذي سبّبه السّاحل هنا. جعل امتداد البحر المتألّئ الأحمّر الأرجواني من الصّدقات الصّغيرة بلونه ممراً مثالياً للجمال إلى جانبه، وامتدّ فوقه شريط ساحلي مزين بعدد لا يحصى من قلاع السّلطعون، مصغّرات من الرّمّل الأصمّ عن برج آيفل ارتفعت بعمليات الثّقب التي قامت بها تلك السّلطعونات البيضاء الصّغيرة، يضطرب بها الشّاطئ هنا عادة عندما تركض بهذا الاتجاه وذاك بسرعة كبيرة وتندفع بهوّر في البحر، لتلتقاها موجة كبيرة متكسّرة تخفيها عن الأنظار. توجد أنواع متعدّدة من الأصداغ ذات التّوءات ملقّية في كل مكان بطريقة غير منتظمة في حافة زبد البحر الموزّع، ولكنه جثم عندما لاح جيش الجمال الكبير وأرعد فوقه. لجأت خمسة عشر من طيور البشروس إلى الطّيران بخفة ولحق بها اثنان من الزّراغ الزّرعي الأسود الذي عاش حياته حتى شاخ بنفور فطري من الإزعاج. لحقت الثّوارس و«ديك البحر» أحمر السّاقين بالزّراغ مشكّلة صفّاً طويلاً فوق البحر. يخبرنا النّظر عن قرب عن ريش طيور متألّقى يشبه البط.

كانت الشّمس تنحدر تدريجياً وبدا السّاحل من بعيد يأخذ شكل منتجع إنكليزي على الشّاطئ في الصّيف، فيه مئتا سابح وسيم أو أكثر. تبين أنهم نساء وأطفال من أهالي الصّيادين - البلوشيين والزّدجاليين ومعظمهم من العبيد، يخوضون في الماء ليجمعوا وجبة المساء من «الدّوك» *dauk* وهو محار أبيض صغير. لم يربكهم وجودنا

(1) يستخدم الكتاب الغربيون تعبيراً مغلوّطاً هو: الوهابية، والصّحيح أن اسمها: دعوة الإصلاح السّلفي. ومذهب هذه الدّعوة هو الحنبلي، وليس هناك مذهب يدعى بالوهابي. (أحمد)

وتابعت الشابات بزياراتهن المجعدة، ولكن عندما مررنا رأينا في ذلك الضوء الوردي أثوابهن الملتصقة تظهر قوالب عدة أجساد فتية مكتنزة بشكل رائع.

غاصت الشمس حمراء في ركام ضبابي، وكسفت بشكل أوضح الجبال المظلمة - ربما جبال الحجر Hajar في الشميلية Shamailiyah البعيدة - بهت في البداية البحر ذو اللون الأزرق المتألق إلى اللون الفضي، وبعد ذلك اتخذ لون الرصاصي الرّاكّد، وتحول لون أشعة مراكب الصيد ببطء من اللون الوردي إلى السّواد. وحتى أصوات البدو هذأها الليل المهيّب، وحين شارفنا على مدينة المصنعة Musana'a القديمة حيناً وميض المدفع البعيد فرفع أصواتهم بصيحة الله أكبر. وتلاّأت السّماء بنجومها عند بزوغ القمر خلفنا، فحول بقع المياه حالاً إلى مرايا فضية بقيت في منخفضات السّاحل أو في أودية الوادي. كان في الحقيقة منظراً ساحراً، أن تنظر من فوق الجمال وهي تهرول فترى كوكب الزّهرة معكوساً يسير في مساره باستقامة ليسبقك وهو يثب من بركة إلى بركة أو يبحر بصفاء عبر البحيرات الضّحلة.

قال السّلطان في اليوم التّالي عندما جلسنا في البرزة الظّليلة تحت الأبراج المهدامة في مرفأ مصنعة: «كم من الرّجال ضحّوا في سبيل تلك الأشجار والحجارة، بالفعل إنّ الوقت يغيّر قيمة كل الأشياء».

لم تكن ساعات الصّباح الباكر مناسبة للمداولات الفلسفية، وكان سيقاطعها في كل الأحوال ثلاثة من قبيلة العوامر، وصلوا حديثاً وجئوا أمام جلالته بتوسّل وتذلّل. كان ذلك يحدث كل يوم. عندما يبلغ مسامعهم نبأ وصول الحاكم يأتي كل رجل من طول البلاد وعرضها - لا يهتم إن كانوا من رعاياه أم لا - يأتون لتقديم ولائهم والتمتع بالهبات الملكية في واقع الأمر. لبدو العوامر دون باقي القبائل باتفاق الرّأي سمعة خاصّة، تقع مناطق تجوالهم بالمصادفة خلف حدود السّلطان. إنهم يتّسمون بالشّراسة في إغاراتهم، وأغلب ضحاياهم من حَصَر عُمان، مكانهم مفضّل على صحبتهم. كان الطّلب البسيط لهؤلاء النّواب الثلاثة أن يريهم الوالي «سبّلتهم» *sabla* معسكرهم المؤقت ولكنها في الحقيقة كانت إيماة ليرى الجميع بأنهم يتمتّعون الآن بالرّعاية الملكية.

التفت السلطان نحوي بعد أن أن نظر في البداية إلى البدو الجائسين ومن ثم إلى صديقنا المنجّم العجوز سيف بن يعرب، وقال لي: «يا وزير، كان يوجد نزاع بين هؤلاء الرّجال».

سألته بسرعة نوعاً ما: «من كان الغالب؟».

جاء تعليق بصوت خفيض: «خَلَّ دثار السّرج على الفرس الكُमित» - وهو مثل عُمانى يرادف مثلنا الإنكليزي الشائع: «دع الكلاب الرّاقدة ترقد».

غيّر وصول أولئك المتخلفين بشكل كامل طبيعة موكبنا camelcade الذي كان بدوياً بشخصه مشتقاً من العناصر الرّعوية في بني عمر Umr والمقابل Muqabil من الحجر الأزرق البعيد. يعود الفضل لأمثال هؤلاء الرّجال في عدم توقف ديار الباطنة من أن تكون موضع الإعجاب الرّائع، فهي تمثّل لهم الثروة الواسعة التي لا يمكن حصرها.

يعجّ السّهل الهلالي بالرّجال، الذي هو هنا جزيرة العرب، تغسل سواحله مياه خليج عُمان في الحقيقة. يتضمّن سكانه مئتي ألف يتضمّن العرب بشكل رئيسي، ومستعربي الخليج، من البلوش والزّدجال مع كثير من العناصر الرّنجيّة من المحمّيات القديمة بأفريقيا الشّرقيّة، وخليط من كل تلك العناصر بكل النّسب.

يمكن للمرء أن يعيش بثلاث طرق، فإمّا ان يكون صياداً أو فلاح نخيل أو راعياً (البدو). الأخير أفقرهم وهو أكثرهم كبرياء. يعتبر البدوي نفسه ملح الأرض لنقاء دمه كوطني المولد، وتعتبر الرّعاة عنده عملاً وضيعاً وصيد السّمك والإبحار وضاعة لا توصف، لذلك من العبث لصاحب تلك المهنة حتى لو كان غنياً أن يطمح بطلب يد ابنة البدوي. يعيش البدوي هنا على الحليب مثل نظيره في أيّ مكان بشكل كامل تقريباً، أما اللحم والأرز فهما غذاء الغني، يمكن أن يحصل عليه مرّة كل شهر، إذا كان دائماً، رغم أنه غير غريب عن خبز القمح، لأنّ جبال الحجر المجاورة تزرع القمح بوفرة. والبدوي قانع برعي الجمال والقطعان - التي تكون من الماعز الأسود والبتي

بشكل رئيسي، لأن الماعز الأبيض المؤلف نادر الوجود في عُمان - ويُسهَم البدوي بالسمن للمخزون العام إلا إذا أخذ بعين الاعتبار التصدير، لأن حميره وجماله هي التي تقوم بتشكيل القوافل في البلاد. مسكنه الوحيد ظلال الأكاسيا ولا تُعرف هنا خيمة شعر الجمال، يعيش حياة بساطة تامة وهُدوء ولكن مع اليقظة، والبندقية جاهزة دوماً في يده فهو يرتاب بكل دخيل ولا يعتبر أيّ رجل نظيراً له.

يعود مصطلح إكثيوفاجي Ichthyophagi (المقتاتون بالسّمك) إلى جاره المتّضع الذي يجول البحر بالسفن، ويُستعمل في هذه الأيام بكثرة كما كان يستعمل في عصر سترابو، ومما يثير الفضول بشكل كبير هو أنّ الذين يصطادون غالباً ما يستوردون السّمك مؤخراً بشكل نسبي من ساحل مكران. غنائمهم الرئيسية من الزوج المتنافر سمك القرش والسردين - سمك القرش لأجل زعائفه وذيله الذي يستحق سعراً أعلى من ثمن شريحة لحم البقر الإنكليزي في أسواق الصّين؛ ويصدّر السّردين على الأغلب إلى الهند، من أجل أحقر الغايات في الزراعة. ويؤكل لحم سمك القرش الزّنج الأحمر (كما أدري لشقوتي) طازجاً على السّاحل ومملّحاً للبيع في الدّاخل. وللسّردين استخدامات محلّية، فهو سماد البساتين وطعام للانسان وعلف والثيران والجمال. وليست السّلاحف والحوث مجهولين، ولكن الصّياد لا يبحث عنهما رغم أن بيض السّلاحف الذي يبدو بالميّات في الحفرة الرّمليّة الواحدة، مرغوب في موسمه عندما يذهب الصّياد بعيداً إلى سواحل الجزر المنخفضة للتّقيب عن تلك البيوض الصّالحة للأكل، ويتحايل على حرارة الشّمس وإلا حوّلتها الطّبيعة إلى مزيد من السّلاحف.

يلازم الرّجال صيدهم في الصّباح والمساء بشكل رئيسي، ومثلهم مثل كل الباقيين أبناء هذه المناخات يرتاحون وقت الظّهيرة. وحين يمرّ المرء يرى كتلاً من مختلف أنواع المراكب وعدد الصّيد مسحوبة إلى الشّاطئ: الشّاشة وزنبيل الأملود ومهد القارب، وشباك وأففاص مبدعة لأوعية السّرطان البحري التي عندنا. هنا صيّاد إذا أمكن إقناعه ليبحر بك نحو قاع المرجان المفضّل لديه، فيشير إلى شقائق التّعمان

البحرية المميّزة وحيوانات المنطقة الرّائعة الأخرى لأعماق البحر، ولن يعود الزّائر بالتّأكيد دون الدّلفين والحيتار والكنعد seerfish والبركودة وسمك الثّن.

ولكن البلد تستمدّ من أعمال مزارعي الثّمور كهذه الثّروة هو المعتاد، رغم أنّ هؤلاء المزارعين من الأقلّيّة عددياً. لا بدّ أن عدد نخيل الباطنة التي لا تنتهي يربو على عدّة ملايين وهي من أفضل الأنواع المنتجة، ترسل عبر البحار وتعود أثمانها إلى هذه الشّواطئ بالأرز والقهوة والشّكر والتّوابل من الهند وشرق أفريقية وعيّنات من البضائع من اليابان ومانشستر. لم يؤثّر نقص هطول الأمطار في الدّاخل بالعقد الأخير على الباطنة حتى الآن، حيث يوجد ما يكفي من المياه الصّافية تحت بضعة أقدام من سطح الأرض وضمن رمية حجر من البحر، ويعمل على تلك الآبار عشرات الآلاف من الثيران يومياً. تظلّ دواليب الماء ترسل ضجيج أنينها يوماً بعد يوم، ومنذ طلوع نجمة الصّباح حتى بعد ساعتين من الغروب، ومجدّداً منذ ساعة صلاة العصر حتى الغسق.

يبدو كل ذلك تبديداً للموارد يبعث على الأسى للغربي، بولعه بمحرّكات الزّيّت الخام والمضخات النّابذة ومعدّل التدفق في الثّانية cusecs. يقول الغربي: «تخلّص من الثيران وتلك الدّواليب القديمة وحدّث عملك، وهاك! ستضاعف المحصول وتطوّر مستوى الحياة وتحظى بثروة» هذا على الأرجح صحيح ولكن إن كان التّغيير مرغوباً، من يعلم؟ زيادة الإنتاج هي شعار الغربي، وتوجّه المجتمعات الصّناعية المتقدّمة وذات التّعداد السّكاني العالي إلى الرّفاهية البشريّة، ولكن في الأماكن التي تختلف فيها مستويات الحياة، هل يوجد ذات الحاجة الملحة للتّصنيع؟ إن كان الغربيون قانعين بمضخّاتهم النّابذة أكثر من أهل البساتين البسطاء بدواليب مياههم، فهم يحتالون لإخفاء الحقيقة، وإذا كان مشفقاً فهو يبدو إشفافاً مبدّداً. ربما يوجد هنا أجسام تغذيتها وكسوتها رديّتان - بالاختصار مستوى معيشة منخفض - ولكن هنا أيضاً توجد قناعة دينية لم تتعرّض حتى الآن إلى الانفجارات الباردة للشّك الغربي التي تبدو أنها وصيفة التّقدم دون أن يهلك الإنسان من الجوع.

مع دوران السنة فإن طرائق الإنسان السّوية تتشوّش لبضعة أشهر، فإذا مرّ أحد في شهر يونيو أو يوليو يشهد تدفق موجتي هجرة بشريتين، وإذا مرّ بعد بضعة أشهر أخرى تكون تلك الموجة في انحسار. الآن موسم صيد اللؤلؤ وقت تدفق الرّجال باتجاه الشّمال نحو ضفاف اللؤلؤ في السّاحل المتصالح Trucial Coast على بعد مئة ميل. في الواقع يذهب الرّجال والبحارة للغوص، ومن يرتفع ويهبط بهم إلى الأعماق ربما يكون إمّا بستانياً أو أحياناً بدوياً قد التحق بأسطول اللؤلؤ لهذا الموسم في وقت الشّياط المحموم. تعجّ بالغواصين المحتملين سطوح الدّار والبدن وأنواع أخرى من كل نوع من المراكب، وتكون قد انطلقت للتو من هذه المرافئ ومرّت بهذه السّواحل كلها حتى من سُقطرى النّائية، وتكون الباطنة الآن قد جرّدت نفسها من الجمال أيضاً، لتحمل حصّتها من الآلاف العديدة لهذه الهجرة الواسعة. يؤخذ حتى رجل الدّين فعندما ينبثق الغوّاصون من البحر ويشتكون من آلام الرّأس أو الجسم يُنسب السّبب إلى الجنّ (الإيمان بهم شائع)، فيكون دور رجل الدّين أن يقرأ فوق الضّحية مقاطع مناسبة من الآيات المطهرة.

الآن أيضاً موسم نضج الثّمور ومناسبة هجرة أخرى، الهجرة إلى بساتين التّخيل. لا تنتقل الجماهير المحليّة برمتها فقط ولكن تأتي من السّاحل المتصالح البعيد أيضاً، وجيش من النّساء المنقّبات المكتسيات بكسوة حسنة من العباءة السّوداء مع الذّهب يرتحلن الآن إلى الجنوب نحو الباطنة مع القوافل العائدة للإقامة المؤقتة في وقت غياب أزواجهن في سواحل اللؤلؤ. وبعد ثلاثة أشهر من الآن سوف تتوقف هذه العملية، ممّا يدل على أن حصاد اللؤلؤ والتمر قد تم.

اليوم هو أول يوم لم نمضيه على السّروج منذ انطلقنا، يتنزّه السّلطان على السّاحل بتمهّل بأثوابه البيضاء يتبعه حارسه الشّخصي، بينما قضيتُ ساعة مبهجة أقرأ لپالغريّف النّاقد الكبير، اليهودي اليسوعي الإنكليزي الذي سافر في جزيرة العرب وتحطّمت سفينته بعيداً عن هذا السّاحل في ستة وسبعين. ارتفع القمر كفانوس ضخّم صيني أصفر فوق البحر، ووضع حداً لقراءتي. أغلقت كتابي مع شعور يغمرني بأنّ رواية

بالغريّف ربّما الأكثر فتنة في كافّة عالم أدب رحلات جزيرة العرب، زخرت بما يهّم حتى منطقة عُمان بتفاصيل غير دقيقة، ولكن الصّورة التي قدّمها لنا كانت فنيّة بالفعل، كانت وسيلة بالغريّف تماثل أسلوب الفرشاة ولوحة الألوان إن جاز لنا التّعبير، وليس آلة التّصوير.

لفت انتباهنا فجأة صوت صبي يغني، فأمر السّلطان الذي كان قد عاد بأن يُستدعى لتسلّطنا، تبّين أنّه عبد بلوشي صغير بعمر سبعة أو ثمانية سنين، مسكين جدّاً ولكنه يتألّق بالذكاء المحلّي وقد وُهب صوتاً جميلاً. تحلّقنا في السّاحل تحت ضوء القمر وجثا المغني في وسط الدّائرة، وأغدق علينا قلبه الصّغير بسيل من الألحان. نشيد ديني على وزن النّبط Nabat العربي القديم (تلفظ الكلمات بشكل عامي إلى مدى تخفيف نغمة الحرف الصّوتي الأخير)، حكى عن الأفعال الباسلة، رغم أنّه طويل جدّاً لكنه أوردفه بواحد آخر، ثم واحداً آخر.

سأله السّلطان: «هل تحفظ تُحوريب *tahawrib*؟»، فقدّم لنا الطّفل بترحاب ترنيمة مرحة عن الفارس.

سألت معجباً بمقدرة ذاكرته الفدّة: «كيف يتذكّر ذلك كلّ؟».

كان الجواب: «إنّه فونوغراف بشري، حفظها من المقاتلين الجوّالين».

قدّم الآن طبقاً من الثّمر للمسليّ الصّغير الذي التهمه بنهم، بينما كان البدو في المكان يلهون كالصّبية ويتعجّبون عندما كان أحد مجموعتنا يلعب بمصباحه الكهربائي في المكان.

انتهت الفترة الفاصلة، وطلبت نشيد البحارة، فأسرّع الولد بغناء أغنية المركب المرحّة، رغم أن سرعتها تقطع أنفاس أبرع رجل جداف، إلا أنّ ألوان موضوعها محلّيّة: قتال بين سمك أبو منقار والخبّار.

العملة الفضيّة الشّائعة في عُمان هي دولار ماريّا تيريزا⁽¹⁾ لعام 1780، وُضع

(1) انظر صورته التي أضفتها في نهاية المقدّمة. (أحمد)

دولار منه في اليد السّمراء الصّغيرة، مع مقدار وافر من الثّمر في اليد الأخرى وأُرسل الصّبي باتجاه بيته. صحت مع أشعة الفجر الأولى على لحن أغاني الليلة الماضية، وعرفت بأنّ الولد قد عاد ليجمع روث الجمال ويقوم ببيعها لبعض أصحاب البساتين المحليين، فقابلته هبات الإحسان الملكي ثانية.

ملأت الجو صيحات: «جواد! جواد» (إلى متون جيا دكم) وأطلقت مدافع الحصن طلقات تحيّة الوداع، وصلصل جيش كبير من الرّجال والبهايم مجدّداً بمرح بمحاذاة الشّاطئ. ملأت الانطباعات اللافتة للنظر الصّورة الذهنية العابرة عن هذا الكيان المتحرّك في مزاياه الظّاهرة بنشاط حين سار قرب جزء منه بشكل عام، ففي بعض الأحيان تتشابك آلاف من أرجل الجمال الطويلة الخشبية غير المحدّدة، أو ربما مكوك متوتّر للأعنة والبنادق المدلّاة على الأكتاف بشكل أفقي، أو البدو بذاتهم، ينحنون خلف الأسنمة - رجال سمر عنيّفون صغار مرنون لهم رقاب طويلة تشبه الأعمدة المنصوبة على أكتاف مربّعة مسطحة، ورؤوس صغيرة محدّدة، ملتحين وربما بشكل متفنن، أو صورة بحر من الأسنمة المتلاطمة، أو رقاب جمال طويلة متوجّجة برؤوس ضخمة تبدو من الخلف كلها عيون وجباه تمايل بلطف في هذه المسافة، مقارنة بالأجسام التي يتمنون إليها والتي تهول دون إتقان.

كان البحر أزرق شفافاً، ورفرفت الأشربة الساكنة بتوانٍ في الهواء الهادئ - تغاير مفاجئ للبحر الهائج المُزبد في الأمس عندما نفخت الرّيح أشربة كل أنواع المراكب، وذهبت تندفع في البحر كأنها في حماسة النّصر. اكتسى الشّاطئ هنا بالأصداف، ولاحظت هنا لأول مرة بروزات سلسلة صخرية تدخل في البحر، بينما ارتفعت على الجانب الآخر الضّفاف الخضراء مغطاة بنبات الجولق حيث ترعى بضعة خراف، وتتقلب الفراشات البنية وتلعب.

ودام Wudam قرية صيد نموذجية ترجّلت فيها لتفحصها، تلك على الأقل أهمّيّتها المحدّدة هنا، يخصّص الاسم لبساتين التّخيل الخلفية ولقرى ليست قرى صيد أبعد، هو نظام غريب للتسمية شائع في كل منطقة آل سَعد، التي توقفت فيها الآن، وهي

تتألف ربما من مئة كوخ من سعف النّخيل، وفي مرتفع قريب يوجد المسجد الذي لا بدّ من وجوده، يلمع مظهره الخارجي الإسمتي في أشعة شمس الصّباح. كان سكان القرية يهجرونها من قبل في هذه السّاعة، وقد رصّع الأفق البعيد مركبهم الصّغير حيث توجد أدوات سارية الهدف، تتألف من ثلاثة جذوع نخل لتجفيف شبكات الصّيد، وانتصب اثنان من الموازين العملاقة البدائية قبالة كومة أخشاب. مركب مهممل أحيل للإهمال وبُعثر على الشّاطئ بعد طول استعمال. هنا مركب ربما كان في زمانه فخر عين سوداء لقروي عجوز، لو تمكّن من النّهوض لأخبرنا كم شاهداً معاً العديد من الصّراعات مع سمك القرش في منفذ غير آمن.

كبنا اللجام خارج مدينة عربية في السّويق من أجل سباق الإبل التّمهيدي. ليس الجري بالجمل مفخرة سهلة، إذ تضاف معارضته إلى إعاقته الطّبيعية لعرقوبه البقري وحجمه الأخرق، ولكنه واجب بين البدو لأجل الوفود الجديدة التي خرجوا للترحيب بها، فيظهر القروي حماسة جملة وبراعته بامتطائه. انطلق جملان معاً في حلبة السّباق المستقيمة، وأحد المتسابقين بحسب رواية المشرف، قد مدّ عصاه نحو كتفي الآخر، وهو ينحني إلى الخلف بشكل أفقي تقريباً فوق قسم جملة الخلفي ليظهر قوته الشّديدة وعيون المعجبين مشدودة إليه - كما يشاهد المرء أعمال المهرة التي لا تضاهي، التي يقامر عليها المرء بتواضع في تجمّعات السّباق، ببصر حادّ وتوجّه كامل.

يتصدّر السّلطان هذه الاحتفالات في بعض المناسبات، واليوم سلّم سيفه لي، كعادته ليدلّل على أهمية المناسبة. ذهب بعيداً يصحبه ابنه بطريقة مستحسنة، يتبعه وداع بدوي بفواصل مناسبة، حوّلت رأس جملي بعيداً للحظة لتجنّب الشّمس المحرقة التي كانت خلفي، وهي سبب الحمى المؤكّد، عندما سمعت فجأة احتياجاً، وعندما التفتُ رأيت بعيداً صغيراً وقائده قد وقعا بعنف في الرّمال، وصرخ بدوي مهتاج عند مرفقي: «انكسر! انكسر!» وترجل اثنان عشر آخرين بسرعة وانقذوا من جانب لآخر حيث انبطح الجمل الصّغير ومزّروا أيديهم عليه بسيماء عالم التّشريح المتمرّس، ولم يُصب راكبه بأذى لحسن الحظ.

قال لي سيّد سعيد بعد فترة: «كُسرَت مقدمته القصيرة تحت الكتف، ويجب أن يُذبح».

أضاف شيخ: «عظمة ساق الجمل سريعة الانكسار مثل الغزال، ومن المحال تجييرها». ثم دَوّت مدافع المرفأ القديم في السّويق تحيّةً لِقُدومنا (لم يكن يوجد منها عندما كان السّندباد يأتي في رحلاته إلى المصنعة المجاورة)، دون أن تكثرث بالمأساة الصّغيرة على الشّاطئ، وكان عشاؤنا ذلك اليوم لحم جمل.

تبع التّجمع إفطارٌ شهيّ، وأثبت التّجمّع أنه كان مسلياً للغاية، بعد جلوس السّلطان ببرهة دخل رجل أحنّت ظهره السّنون، تقدّم وجثا أمامه، بدا مظهره أنّه ذو شأن، مثل منصب الأسقف، رأسه كبير وفكّه ضخّم بعينين زرقاوين، وشكل أنفه يرتبط دوماً بالمقدرة على القيادة. عزّزت نظرتي إليه عن كُثب انطباعي الأول، وأضيف إلى مظهره البارع رنين صوته وعمقه الاستثنائيان، إلا أنّ سلوكه كان دمثاً ومتعقلاً. حلّ ببطء عقدة في زاوية غطاء رأسه وبسط حزمة أوراق، وبدا من طريقة رفعها إلى عينيه كأنه أعمى تقريباً، تحرّكت بي مشاعر الشّفقة والإعجاب.

قال السّلطان: «ما هي قضيتك؟».

جاء الجواب: «لقد عُشّشت بإرث عبدي».

قال السّلطان وهو ينحني إلى الأمام ليرى المُلتمس عن كُثب، وتبسّم عندما تعرّف عليه: «عبدك!، أخبرنا سالفتك».

بدأ العجوز كلامه بنغمة منخفضة مقنعة، ولكنه بعد أن تابع ازداد مزاجه غضباً وتهدّج صوته. أقحم السّلطان أسئلته مرتين ولكن العجوز استمرّ دون أن يبالي، حتى جأر بصوته وكأنّ كل الجمع المؤلف من مئتي عربي كان أطرش، وكذلك كأن أذن العدالة قد صُمّت.

التفت إلّيّ سموه في ذروة استمتاعه بطيش الرّجل، وهمس بأنه لا يمكن أن يكون أحداً آخر من أبناء آدم غير كرم تاجر العبيد سيّئ السمعة، الذي يبيع ويشتري البلوشيين:

كَرَّم الذي قضى ثلاث مدد طويلة في سجن حصن الجلالي في مَسْقَط، بسبب نشاطاته المشبّهة. على السّلطة أن تصغي لمظلّمة المدّعي في جمهور تُخضع ديانته العبودية للقانون الشّرعي.

سأله السّلطان: «ما هي فتواك الشّرعيّة في هذه المسألة؟ على أيّ مذهب أنت؟» لأنّ ذلك يحمل اختلافاً طفيفاً. البلوش في بلادهم بشكل عام من المذهب الحنفي، ولكن ليس يندر أن يتّبعوا المذهب الشافعي إذا كانوا مقيمين في عُمان، وقد يحمل القانون الشّرعي كما هو الحال بين المذاهب الاسلاميّة أحياناً اتجاهات متعارضة بشكل طفيف، وهكذا، ففي الإباضية ديانة الدّولة لا يحقّ للعبد أن يطلق زوجته العبدّة كما هو الحال في طوائف محدّدة في السّنة التّقليدية، ويخوّل السيّد الذي زوّجه بهذه المزيّة. ولكن يبدو أنّ الشّرع قد أجمع في حكمه في كون العبد ملكيّة لا يسمح له أن يورث هو نفسه حسب قوانين الاسلام المألوفة في الإرث، بمعنى آخر، لا تستطيع زوجة العبد وأبناؤه أن يرثوا ممتلكاته عند موته - بل تعود هذه لسيّده الذي يكون هو الوارث الوحيد. يبدو ادّعاء الملتمس منطقيّاً تماماً، لذلك حسب الشّرع الإسلامي المطهّر يشترط أن يكون العبد له عند الموت، ولكن صبر السّلطان قد نفذ وشعر المرء بأن تعاطفه قد تحوّل إلى الجانب الآخر.

همس لي شيخ كان يجلس بجواري بمرح: «هذا الشّخص كان دوماً يملك مزرعة بشر، وعاش من تربية العبيد كما يربي الرّجال الآخرون الجياد».

خاطب السّلطان الرّجل العجوز ثانية: «أخبرني يا كَرَم، كم عبداً مرّ من تحت يديك؟». جاء جواب غير منكر: «والله لا أكثر من مئة رأس» وكأنّ المتحدّث كان يشير إلى الماشية.

«متى بعت عبداً آخر مرة؟».

«أشهد الله بأنّي لم أبع أو اشتري منذ عشرين سنة».

قال السّلطان: «كفى، سوف أعطيك قراراً في رحلة عودتي».

تمت كرم بحزن بينما كان يتلمس طريقه إلى مكانه في الحلقة: «ليس الآن؟ إذن قد انتهيت، فانا أفقد بصري بسرعة، وهذا هو الجواب الذي اعطيته» ولف وثيقة شهادته ثانية في زاوية غطاء رأسه وقذفه إلى مكانه المعتاد فوق كتفيه.

كانت رمية رحيله: «أستطيع الانتظار لمدة عشرين يوماً، ثم أذهب إلى بلوشستان». كان إسفين بلاد آل سعد هذا في وسط الباطنة سيئ السمعة دوماً بسبب نشاطاته في التعامل بالعبيد. وقد استفاد من موقعه المقابل لمكران، أرض الصيد السعيدة للعبيد الصغار للساحل المتصالح، وبالنتيجة ثارت بشكل طبيعي ضد العلاقة بمسقط، وقد وضعت وفقاً لها تحت المعاهدتين البريطانيتين لعام 1845 و 1873 لقمع تجارة العبيد.

يمكن أن يسمح للمرء أن يشير إلى أن العبودية العائلية في جزيرة العرب ليست العبودية التي تجعل دم المصلحين الاجتماعيين في القرن العشرين يجمد في عروقهم دون محاولة تبرير مثل هذه المؤسسة اللاإنسانية بأي شكل من الأشكال. ليس فيها سياط وعقارب، فيها شيء مشترك مع عدم الرحمة وقسوة ثورتنا الصناعية أو عبودية مستعمرة السكر. العبودية في جزيرة العرب برمتها عبودية عائلية - أنا لا أتحدث عن صيد اللؤلؤ. العبد هو خادم الأسرة، هو مساعد الطاهي وصانع القهوة للقبيلة وحارس سيده الشخصي، لا يتلقى أجوراً على عمله هذا، ذلك حقيقي ولذلك يتجنب رعب التساؤل من أين تأتي أجور الأسبوع القادم. وهو يستمتع بالأمن من انتهاء المدة لكونه جزءاً من الأسرة، وهو يأكل بشكل جيد بشكل عام ويكتسي كسوة جيدة، ويجد له سيده زوجة جارية قبل بلوغه العشرين من العمر. يكون نصيبه بين الأسياد المستنيرين ربما أفضل بالمقارنة مع أولئك العمال غير النظاميين في ثورتنا الصناعية المستنيرة. تحضّ تشريعات النبي على الرحمة بالعبيد، والعبيد - عبيد العائلة الذين أتحدث عنهم - إن لم يعملوا كما ينبغي فهم يجعلون من أنفسهم بغيضين في هذه الأيام ويدفعون السيد للتخلص منهم بسرور، رغم أنه قد ورد بالفعل إساءة استعمال النظام في الماضي وشوهد أطفال صغار يُبعدون عن أحضان أمهاتهم ليباعوا بأعلى سعر في المزاد في بلاد بعيدة دون أمل في اللقاء ثانية.

ولكن العبيد عند العرب هم طبقة دون حقوق البتّة، وإن كان للعبد مهارة سوف يرقّيه سيّده إلى أعلى مرتبة ويكافئه ويعتقه. يروي بُرتون في كتابه «رحلة إلى المدينة ومكّة» بأنّ صاحب المقام الرّفع باشا القافلة الشّاميّة التي قطع بواسطتها طريقه إلى دمشق كان عبداً ابن عبد، وأرسل ابن سعود عبداً ليكون حاكماً في الجوف المجاور كما أنذكر في الوقت الذي كنت أخدم فيه في شرق الأردن، وهنا في عُمان كان القائد العام في قوة السّلطان الأخيرة عبداً وفي الواقع حاكماً لمنطقتين وهو القوة الفعلية وراء العرش.

العربي ديموقراطي في عاداته الاجتماعية، وأرستقراطي في قلبه لأنّ تبجيله للماضي يجعله كذلك، ولكنه يعوّل أهميّة كبيرة على نسبه ويتّبع مبدأ موروثاً في حكمه العشائري، ومواقفه نحو العبد الخاضعة حتى الآن، هي في التّوجه الذي أبرزته في الأمثلة الثلاثة التي أوردتها.

كان وقت العصر ينقضي ببطء، بينما كان الرّتل يشق طريقه الملتوي عبر بساتين التّخيل باتجاه قرية البطحاء⁽¹⁾ Batha، حيث دُعينا بضيافة الشّيخ المخلص القوي من قبيلة آل سعد، واسمه هلال. انعطفنا نحو مغرب الشّمس بينما خرجنا بعد أكثر من

(1) كنت سلكْتُ هذا الطّريق ذاته في زيارة سابقة بصحبة ولي العهد ومالكها سيّد حمد بن إبراهيم ابن الإمام عزّان، بالمسير ركباً عبر سهل حزم، ويوجد حصن وواحة تحت الجبال على بعد عدّة أميال قبل الرّستاق العاصمة القديمة للبلاد. كان الحصن في الحزم من أنبل التّصنّب التّذكارية التي رأيته في جنوب شرق جزيرة العرب. يعود تاريخه إلى نهاية أئمّة اليعاربة، ويشاطر بير عين ونزوى السّمعة بكونها إحدى أرقى ثلاثة حصون في عُمان. والحصن بناء فخم بالفعل ترك جهود البرتغاليين في قوته وحجمه في مَسَقَط متخلّفة بمسافة طويلة رغم أنه كان يحتاج جمال حطوط الهرنغاليين الخارجي. يتم الدّخول إليه عن طريق مدخل مزين بأروع زينة (مجموعة خيول نحاسية كأنها لغايات دفاعية ضد الفيلة) مع نقش جاء من سوريات في أيام سيف بن سلطان. يمتدّ الفلج *falaj* في أسفله وكأنه بنظام طبيعي. يذكرني داخله بأقسام من قلعة صليبي صلاح الدّين في الكرك (في شرق الأردن) رغم أنه بتصميم أصغر بكثير. بنيت الجدران التي تبلغ سماكتها في بعض الأماكن ستة أقدام من حجارة منحوتة محلياً مع الاسمنت، تزخرف القسم الدّاخلي فيه الغرف العالية والممرّات، وتصل إلى طوابقها العليا عن طريق أربع مجموعات من درجات مصنوعة من الحجارة المتقلقلة إلى جانب درج سرّي يجري على أحد جدرانها الضّخمة.

نصف ساعة من الجانب البعيد لنخيل التمر، وأدى بنا إلى وقفة قريبة قصف مدفع قديم يُلقم بالفوهة مقابلنا، وسيل مألوف من رصاص الترحيب. دلت ضربات الطبول البطيئة ووميض بعيد للفلاذ على رقصة السيف. تباعد القرويون إلى الجوانب بينما كنا نتقدم قليلاً نحو الفتحة ليشكلوا رواقاً لعرض ركوبنا الجمال. صاح راشد العجوز سيد احتفالات هذه المناسبات البلوشي بالبدو المرافقين لنا الذين بدوا كأنهم أحجموا الآن: «ها خابورة، هيا بني عمر»، فكان الجواب: «ها نحن جئنا» وانطلق بسرعة البرق اثنان من البدو في سباق في سحابة من الغبار في الطريق المستقيم، اندفعت القوائم الخلفية للبهائم المؤنثة الضخمة في طريقة التسر الناشر وكأنها تظهر بشكل لا يمكن اللبس فيه بأن الله لم يخلقها للجري.

في النهاية ترجل مضيفنا ليقود ذلول السلطان بنفسه، وتقدمنا جميعاً إلى فسحة مفروشة بمرح بالسجاد، للجلوس تحت انظار العامة من أجل الحلوى (راحة الحلقوم التركية) والقهوة التقليدية التي لا مفر منها. كان حصن الشيخ أمامنا وقد تخططت سطوحه وكل نوافذه بالنساء بثيابهن السوداء ولكنهن غير مبرقات وكان المسجد وراءنا، فسيحاً ولكنه من الطين المتواضع، وحولنا دور النخيل لكنه في الوقت الحاضر تفشى بحشود القرويين المندفعة، وهؤلاء معظمهم من الزوج الذين كانوا مجموعة بمظهر رقيق كل رجل وشاب قد تسلىح حتى أسنانه، مما يعذر الغريب على الفكرة القاسية التي تجعله يعاف إجباره على الاعتماد على رحمتهم في وقت الشدة بعقولهم سريعة الارتفاع وتعصبهم الديني. قام على خدمتنا أربعة عبيد يتباهون بدشد اشاتهم البنية الجديدة لأجل المناسبة، ولزم رجلان لحمل أطباق الحلوى الفخارية الضخمة الموضوعة فوق حصيرة بينهما، يتطلب أكلها حسب التقاليد استعمال إصبعين مع الإبهام بادخالهما في كتلة الحلوى الهلامية التي تكون في بعض الأحيان حارة أتت من عند الطباخ مباشرة، ومُرر الطبق حول الجمع، تبعه حوض من الماء يفرك الواحد منا أصابعه الدبقة فيه دون أن يتساءل عن النيف وثلاثين في الصف يحتمل أنهم قد فركوا أصابعهم فيه.

صرخ أحدهم عندما كنا على وشك الانسحاب: «عقرب! عقرب!»، وكشف

مشعلي الكهربائي شيئاً أسوأ، أبو شبك Abu shabak باهت يشبه السرطان البحري
قتلناه على الفور.

* * *

أيقظني صرير أدوات سوارى البر قبل توهج السماء بضوء النهار، فخرجت من
فراشي عندما حيّا المؤذن الفجر الأول من الجامع:

«الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله» -
وهكذا كنا راكبين نحو أسفل الوادي المحفوف بالتخيل باتجاه البحر.

قلت للشيخ هلال في طريقة التقديم لموضوع يشك بليافته: «الله يجلّ قدرك⁽¹⁾،
هل لديك زطوط Zutis؟».

ضحك الشيخ وقال: «لا بالله ليس لدي واحد في كل ديرة آل سعد».

الزطوط Zatut طائفة غريبة من الغجر، وهم أكثر الأجناس اتّضاعاً في عُمان،
أصلهم غير معروف يندرجون في طبقة أدنى من العبيد لا يمكنهم التزاوج خارج
أنفسهم. يزعم رجال القبائل مكوّتهم الطويل في أماكنهم ويدفعوهم للرحيل وبذلك
قُدّر عليهم الترحال. لديهم عمل مميز خاص بهم: الختان. ومن المستغرب أنه على
الرغم من أن تلك العادة الدينية تستدعي تطهير الصبيان بعمر ست سنوات والبنات
بعمر عشر سنوات، فإنّ أداء هذه الشعيرة هي مهمة وضيعة لا يمكن لأحد القيام بها إلا
الرجل الزطّي أو المرأة الزطّية حسب الحالة.

تابع الشيخ: «إذا جاؤوا عندنا، يسمح لهم المكوث ثلاثة أيام لا أكثر».

(1) هذا التعبير أو حتى الأكثر شيوعاً منه «حاشاك»، «الله يعزّك» يستعمل بشكل ثابت في حوار
البدو قبل كلمة تشرح موضوعاً منحطاً - لافتراض إطرأ الشخص المخاطب بأن الله قد منحه
صفة أرفع. وهكذا فكلمة «كلب» و«خنزير» و«بقرة» و«امراة» و«زوجة» و«ابنة» و«بنت»
و«يهودي» و«بانياني» وأحياناً «مسيحي» يجب أن تصدرها تلكم التعابير. ولكن البدو يستنون
«الحصان» و«الجمل» دون نفاق.

سألته: «ولكن ماذا بشأن الذين يعيشون بشكل دائم في مطرح؟».

قال الشيخ: «الله يحفظك! أهل مطرح يمكنهم أن يسرّوا انفسهم، ولكن بالنسبة لنا والله! ديانتنا لا تسمح حتى باتخاذ نسائهم سرّيات رغم أنني أشهد الله بأن لديهم بعض الخدمات المستقيمات الرائعات».

والحلاقون من الزّطوط Zatul أيضاً، وفاصدو الدّم، وبائعو المزاد العلني والحدّادون، ورغم أنها تسميات منحة اجتماعياً فهم يتقاسمونها مع البلوش والبياسرة Biyasara.

البياسرة أيضاً طائفة بشرية غريبة في المجتمع العُماني، وهي أيضاً من أصل غير معروف. تعني الكلمة حرفياً «نصف الطّائفة» ولكنها بمفردها غير مناسبة في منطقة فيها تحريف عرقي كبير، إذ لا يسمح للذكر البيسري أن يتزوج خارج الطّائفة وهي عادة لا بدّ أنها حافظت بشكل كبير على نقاء العرق. ومع ذلك يتزوج العرب من بناتهم بحرية فالبيسرّيات ببيضاوات بشكل عام، ورغم أنه يُنظر إليهن بازدراء ولكن ليس إلى نشاطهن مثل نشاطات الزّطوط المحصورة بالأعمال الوضيعة، لوجود البياسرة في مراكز موثوقة وربما يكونون رجالاً ذوي رتب وأملاك.

قال لي الشيخ علي الخليلي: «أليس الشيخ راشد العزيز القاضي الرّئيس وقاضي القضاة بيسرياً، وزميلك في مجلس الدّولة من أكثر رجال عُمان كلها علماً».

سألته: «من أين هؤلاء البياسرة؟».

أجابني: «الله العليم، ربما كانوا أسرى عند العرب منذ قديم الزّمان، ولكن لأنهم مسلمين لم يستعبدوا كما يحدث للسّجناء غير المسلمين في الحرب».



تابعنا رحلتنا على طول الشّاطئ حيث توقفت المراكب ورُفعت عليها الأعلام من أجل مرورنا. ربضت أربعة مراكب داو في عرض البحر وآخر كان في الطّريق، وهو توماستر twomaster كبير شابه منظر شراعه المثلث شكل أجنحة الفراشة بشكل جزئي من إحدى الزّوايا.

وصلنا الضيَّان Dhiyan في السَّاعة التَّاسعة قبل الظَّهر، كان مضيفنا السَّاحر الشَّيخ خالد، هو شيخ مسنَّ محترم ما كان سيقع عليه عتب بعد أن فقد إحدى عينيه في معركة على الرَّغم من أن انفراد العين الأخرى لم يجعله جذاباً. ولكن حسب عادة تلك البلاد يمكن أن يتطفل خادم في المناسبات للاعتراض حتى على شيخه مضيفنا نفسه. يصدّم المرء أيضاً بالجانب الآخر من الصُّورة - الدُّور المقلق للقادة في تلك المجتمعات البدائية. الشَّيخ العربي نادراً ما يكون له خصوصية، ولا توجد له ساعات محدَّدة للعمل في اليوم عندما يبحث رجاله عن العدالة كما يحدث في المحكمة، فهو ضحيَّة الزَّيارات في أخرج الأوقات، ولا يهم إن كان يسير في الصُّباح أو الظَّهر أو المساء أو عندما يكون ضيفاً على وجبة طعام، طالما أنه ظاهر للعيان وخارج بيته فللرَّجال الحق بأن ينصت إليهم.

افتتح المدَّعي كلامه: «حباب»، واستعمال هذه الكلمة يدلُّ على أن المدَّعي عبد أوزطي أو بيسري.

«طيب، ما القضية؟».

«يدين لي الشَّيخ بمال الدَّية، حباب، وعندما أطلب بمستحقاتي لا أتلقى إلا الضَّرب!».

ليس القرآن عند المؤمنين كالعهد الجديد فقط ولكن أيضاً كتاب سفر اللاويين، فهو يتضمَّن تشريع القانون المدني الذي استنبط علماء الدِّين منه الشَّرع ومن التَّقاليد وتجارب العصور، أو الشَّرع المقدَّس الذي يحكم القانون في جزيرة العرب الحضريَّة. يعاقب على الجريمة نظرياً الاقتصاص القانوني lex talionis، العين بالعين والسِّن بالسِّن، رغم أنَّ التَّطبيق نادراً ما ينفَّذ. والسُّلطان، في الواقع، قطع يد لصٍّ قبل الآن، اليد الآثمة، وكما علمت أن أحكام العاهل الوهابي⁽¹⁾ ابن سعود يحكمها المبدأ ذاته، ولكن بالنسبة للقتل، فإنَّ العقوبة القصوى التي تطلَّبها هذا القانون في عُمان نادراً ما

(1) ذكرنا أنَّ الوهابية تعبير مغلوط، والصَّحيح أن اسمها: دعوة الإصلاح السِّلفي. (أحمد)

تفرضها السلطة الشرعية، رغم أنه كثيراً ما يأتي الثأر بشكل غير مباشر نتيجة لها. ينتج عن استعمال الشرع عقوبات دفع الدية بدل القتل، ويتفاوت هذا تبعاً لمحلية الطوائف والقضاة. يكفر القاتل هنا عن جريمته بدفع مبلغ ألف ومئتي روبيّة لأقارب ضحيته (ما يقارب تسعين جنيهاً أسترلينياً)، وعند الشيعة ثمانمئة وعند السنة والإباضية أربعمئة. أتذكر أنّ عند عرب الأهوار في بلاد ما بين النهرين قد تكون المرأة بدل مال دية الدّم، فالقاتل ليس نادراً ما يُجبر على التخلي عن أخته لتصبح زوجة أقرب الأنساب، وغالباً ما تعاني أوقاتاً تعيسة بسبب ذلك. يتيح الشرع أيضاً التعويض عن الإصابات التي ليست بالضرورة مميتة رغم أنه قد لا يُقبل كلّ قاضٍ كمخمن، وطبيعة الادعاء الحالي في الواقع من هذه النوعية.

تابع العبد: «ضربني فلان وفلان» (وسمّي رجلاً من قبيلة الشيخ خالد) «فذهبت والتمست عند القاضي فأجاز لي عشرة دولارات». «ألم تُدفع لك؟».

«لا، حباب! وعندما ادّعت عند الشيخ لمساعدتي أمر بجُلدي. ذهبت ثانية إلى العليم فأجاز لي تسعين دولاراً بسبب هذا الضرر الثاني، إليك قرار القاضي» وسلمه العبد الرّاكع بكتلي يديه كما يتصرّف مع الأعلى منه مقاماً، كانت قصاصة ورق زيتية المظهر، ورغم ذلك غالية عليه «يا حباب! أنا لم أنل العدالة بل تلقّيت الأذى».

قال السلطان لحلقة العرب المحليين الذين سمعوا الشهود: «يا أهل الدّار! هل هذا القاضي الشيخ سيف عالم حقيقي بالشرع وهل هو مقبول عندكم كشخص قادر على تقييم الإرش؟» مال دية القتل للإصابة الجسدية.

كانت هناك متممة بالموافقة.

«فليكن معلوماً بأنّ مستحقات هذا العبد يجب أن تحترم، أين الشيخ علي؟ أين سيف بن يعرب؟» أضاف وهو يبحث عن عضوين رئيسيين في القضية، واختتم سموه عندما أتيا: «هيا، خذا هذا العبد إلى مضيفنا وأعلماه بقرارنا».

وهكذا، تسلّم العبد مستحقاته، ثم وُتِّخ الشيخ وأُعلم بأن استمرار مثل هذه الأفعال تقلق الضمير الملكي، وعليه أن يكفّ عن أمثال تلك الأعمال في المستقبل.

كانت هذه الحديقة تقع فوق شاطئ ضيان Dhiyan، فيها ظلال أشجار المانغو وارفة ولكنها مع ذلك حارة بشكل بغيض. جاء وقت قيلولة منتصف النهار في الوقت المناسب بسبب النعيق الدائم للغربان رمادية الظهر، التي تجثم على رؤوس الجمال وتظهرها غير مبالية بإشباع شهيتها الحيوانية والنباتية معاً، وطنين التحل الذي يستطلع كل زاوية في سبّلتي *sabla*. أعتقد أنها انجذبت بفعل راسب الشراب شديد الحلاوة على سلال التمر الذي اعتقد أنه تُخزّن في الجوار من أجل علف الجمال، وأدين بذلك لزيارة الفراشات، تلك المخلوقات السوداء المخملية مع علامات دوائر بيضاء رائعة ومخلوقات صغيرة مألوفة أخرى ذات لون أحمر قرميدي. قضت جيانا نهارها بتحريك ذيولها الطويلة برشاقة بعدم اكتراث تام بالذباب المغيظ والجمال الكثيبة منتصبه وهي تجترّ برضى وقد مدّت رقابها الطويلة على الأرض باسترخاء تام. جلس البدو المسلّحون بجماعات بتراخ تحت ظل شجرة اللوز الذي لا يضاهاى، بالتّباين مع البستانيّين برأسيهما المقلّنين وجسديهما العاريين اللذين كانا يتحرّكان برشاقة في تأدية أعمالهما في الجوار.

جثم كوخ البلد المتواضع في زاوية الحديقة، وهو البيت النموذجي للصّياد والبستاني على حدّ سواء. تركيبته رائعة، صنع بكامله من أجزاء شجرة النّخيل، دعامات زواياه وعوارضها من جذوع الشّجر المشطور، وجدرانه وسقفه من سعف النّخيل المخطّطة، والباب ربما من السعف المحاك أيضاً وفيه نافذة أو اثنتان في تشكيلات خفيفة مشبّكة من المواد ذاتها، كامل الشّيء خفيف على نحو عريض ومتحرّك، يكلف صنعه مئة دولار ويؤمّن حماية مثالية من الشّمس دون كبح الرّياح الباردة التي يحبّذ المرء هبوبها. في كل بيت ثلاثة أو أربعة غرف، يدعى العريش إذا كان عليه سقف مسطّح، وإذا كان سقفاً مائلاً يدعى *gargin* أو خيمة. وهو بناء بسيط جداً ورشيق من بضعة أوتاد ومن القش وحصير غير مزخرف. وتلك البيوت إذا كان شاغلها عربياً ستكون بنوعية عُمانية

قوية، وإن كان بلوشيًّا فظًّا سميناً *samin* ومن صنع يديه يكون من القصب الخام الذي جُلب إلى المكان في مركبه من مكران Makran موطنه القديم.

ظهرت امرأة مبرقة في رداء أحمر فضفاض، تحمل طفلها وقد باعد بين قدميه على وركها، ذهبت بعيداً نحو حلقة الأباريق الفخارية التي دلت على البدي *bididi* (فتحة نزع الماء). كان يلعب هنا أطفالٌ تشع عيونهم بالمرح، البنات الأكبر قد أثقلتهم الحلي الفضية، وبينهن ابنة الشيخ ربما، كان يحيط بعنقها قرص قلادة ذهبية ضخمة، مزين بنقوش عربية لأسماء الله الحسنى التسعة والتسعين.

عدنا ثانية إلى صهواتنا، يمتد أمامنا شريط الرمال الذهبي الطويل بين أسوار خضراء من النخيل اللانهائي وبحر رصين بلون أنقى أحجار الجمشت الكريمة. وفجأة ظهرت من البحر نصف كتلة سوداء لامعة على بعد طول كيلين من الشاطئ، تريت برهة ثم ارتمت عائدة مع رشقة ماء جبارة، غاصت لبضعة دقائق ثم عادت وظهرت لتكرر الأداء. تلا ذلك احتياج كبير، حامت مئات طيور النورس وهي تزق وتنتظر لتنفص على انبثاق الحيوان الغريب الذي يلازمه فوج من السردين يقفز دون جدوى لتفادي فكّه المفترس. كان حوت عنبر صغير، كنت سأراه ثانية في الغد لأنه يتتاب هذا المكان بانتظام.

وهكذا تقدّمنا إلى الخابورة Khabura، قدمت باكراً لانتزاع الإسفنج، ولكي أطوف لأرى ترتيبات حمام الوالي. كان يوجد جرن من اختراع عربي، وضع بارتفاع الكتف، يعطي من مصرف صغير سيلاً هزياً مضحكاً، يجب أن يدور المرء تحته برجل واحدة على لوح حجري زلق، إذا استطاع المرء أن يحصل على أي نوع من الحمام أصلاً.

كاد يكتمل شروق الشمس في سماء صفراء ضاربة للحمرة عندما عدت إلى سبلي *sabla* على الشاطئ، كان هناك مئة صياد يسحبون شبكة مشتركة الملكية، كانت تشير إلى مسافة امتدادها فليئات عائمة بعيدة في البحر، وعندما أطبقت جدران سجنها إلى الداخل وثب عدد وافر من السردين الفضّي الذي يومض تحت الشمس بجنون إلى خارج الماء بحثاً عن الحرّية، لتلتقطه سحابات طيور البحر المنقضة التي تلت

الصّراخ، وعلى التّقيّض، رمى صياد وحيد على البعد شبكته اليدوية الدّائرية بملل من فوق مقدّمة زورقه الصّغير.

قال السّلطان في طريقه إلى تحيّة الصّباح: «تعال لأعرّفك على طعام شهّي جديد» كان خادم قد وصل للتوّ يحمل طبقاً من قصب السّكر المقطوع حديثاً، كان يقدم عصياً صغيرة ولم يكن منظرها بعيد الشّبه عن الكرّفس. كانت الطّريقة أن تقضمه لتستخلص ما وجدته أنا حلاوة مغثية، ثم ترمي الفضالة مثل طريقة من يمضغ العلكة. اكتفيت بمقدار ضئيل، حيث أن العصا الأولى حملت آثار لطخة دم من لثتي التي لم تعتد على مقارنة الخشب الأصمّ.

جعلت المراكب ذات مظهر العصور الوسطى منظر الشّوارع بمنتصف النّهار زاهياً يشبه المهرجانات، وهي ترفع أعلام مَسْقَط الحمراء، ولكن عندما حلّ الظّلام لم يظهر أيّ نور للمراكب، وصل هذا الأمر الطّارئ بين البحّارة العرب إلى الاستغناء عن المصباح الأمامي والمصباح الجانبي في البحر - العرب ماهرون بالطّرق الأخرى وهم بحّارة شجعان - يسافرون إلى ملابار وشرق أفريقيا والبحر الأحمر دون معونة سوى من بوصلة ضعيفة ومن نجوم السّماء اللامعة وغريزتهم الشّخصية النّامية - وهذا هو سبب دائم لقلق رجالنا التّجار الذين يبحرون في هذه المياه.

قال لي السّلطان بينما كانت ناقة صغيرة تمرّ: «يوجد هنا شيء ممتع لك، لقد فقدت صغيرها الأوّل منذ شهرين، والرّضاعة الطّبيعية تحتاج ملاطفة كثيرة وتربيتاً، ولكنها تعتبر هذا الغلام البدوي ابنها، هي! يا خالد! هات ناقتك إلى هنا!».

أطاع خالد وامتثل لطلب آخر وابتعد عن النّاقة إلى الوراء. نظرت حولها كما لو بغريزة أُمومتها وأرغت ثم تبعته.

قال السّلطان: «لنشرب بعض الحليب» وهو يعرف ولعي به، تتطلّب استجابة النّاقة على مضض بضعة دقائق لأيّ حلاب آخر، ولكنها اشتمّت خالداً فجادت بحليبها بسهولة.

يوجد خمسون سلالة أو بيتاً من الجمال العُمانية الصّغيرة الأنيقة ولكن القويّة، وكان السّلطان يعتزم الشّراء، لذلك هرول أمامنا ما يقارب اثنا عشر جملاً، قال وهو يفكّر بصوت عالٍ وهو يلقي نظرة عليها خبير: «من بنات سَمْحة» جاءت في البداية ولكنها صرفت باقتضاب: «رأسها مسطّح أكثر من اللازم»، جاءت بعدها بهائم جميلة المنظر من بنات العروق بنقاط تامة، ولكن عنان حلقة الأنف الخزامة Khizam'a الخفيف المحفوظ على قِمة رأسها ينم عن مزاج صعب المراس، وعندما تلت الثالثة قال: «أنظر إلى هذه، أليست رائعة في مقدّماتها؟ ولكن انظر إلى قوائمها الخلفية!».

نظرت ولكن أعترف بأنّي لم أجد فيها شائبة كما بدت الجمال كلها متشابهة لي في تناقص حجمها التّدرجيّ البائس بعيداً إلى الوراء. قال لي السّلطان وهو يشير بعيداً إلى انحدار بين عظمتين بارزتين: «هناك! هذا عيب شائع، ولكنه خطير. انتبه للأثنى التي لم تكتسب هناك بعد الولادة».

قاطعنا إنشاد فرقة جمال تتقدّم نحونا، ووقف كل بدونا مشكّكين صفّاً لاستقبالها بالنّشيد المألوف للترّحيب وبرقصة السّيف. تبيّن أنه الشّيخ غصن من بني عمر الذي كنا ننتظر حضوره. كان التّزاع الدّموي بين بني عمر والحواسنة القبيلة التي كان مستوطنوها في هذا الجوار قد تحرّروا من جديد، وكان توقف فرقنا قد صادف ضرورة إنهاء السّلطان الهدنة المؤقّته بينهما وتحقيق السّلام.

قال لي سموّه: «لا يوجد صعوبات لإفشاء السّلام هنا الآن، إذ تعب الجانبان كلاهما تماماً بعد شهرين من الخوف المتبادل وإراقة الدّماء. إنهما في مزاج مسالم ولكن نار الكره سوف تشتعل ثانية بسبب أحد الأشخاص المتهورّين من قبيلة واحدة بينهما أو من القبيلتين في الليلة التي تتبع التّهار في غضون سنة أو اثنتين وربما قبل ذلك».

علّقت قائلاً: «هذا نزاع موروث بالطّبع».

«إنه واحد من عدّة نزاعات موروثّة يعود أصلها إلى عصور غامضة، فهناك شرخ

عميق بين قبائل عُمان يقسمهما إلى فرقتين، إنها القصة القديمة القديمة بين الغفاري ضدّ الهناوي»⁽¹⁾.

تابع السلطان: «أنظر، النزاع الكامن أبداً، بين بني بو علي وبني بو حسن، وبين بني ياس ونعيم، وبين بني جابر وبني رواحة، وبين بني... ألم تسمع بأنّ نساء بني جابر يبيكين إذا قُتل رجالهن على يدي أحد غير أيدي بني رواحة؟».

ارتفع صوي البدو عندنا إلى أقصاه عندما توقفت الفرقة المقبلة على بعد بضعة مئات الياردات عن الشاطئ لتتهياً لاستعراض جمالها؛ وفي لحظة أخرى، مرّ بدوي صغير كان يجلس بشكل جيد على القسم الخلفي لدابته الخرقاء العنيفة ومرّ فجأة أمامنا وهو يسير بتناقل - لأنّ كل رجل يمتطي جملة خلف السنام في جنوب شرق جزيرة العرب متميّزاً بممارسته عن نجد والحجاز - نقل ذراع عنانه إلى الخلف بشكل جيد، ورأسه العاري متوازن بفخامة.

انتهت صلاة العشاء، وتجمّعنا لقراءة الشعراء المعتادة في المساء، كان المتنبي الأول دائماً في الطلب، في الواقع يبدو أنّ لديه مكانة خاصة به، والشعراء الآخرون أقلّ درجة منه بكثير، ولكن الليلة سيُستبدل شعر المتنبي بأناشيد ركيكة لقادم جديد ليس إلا شاعر البلاط المهزّج.

كان الشاعر بلوشياً مألوفاً بشكل تام يشبه كالتّمثال، ولكن في اللحظة التي فتح بها فمه المثلث أو كشر، وكان قناعه بها سيد عدّة أقنعة، لم يتكلّف المرح قليل من مشاهديه، علاوة على ذلك، لم يكن الشاعر مهزّج بلاط مهذباً بشكل خاص. كانت مفرداته قريبة من مفردات بيلينغز غايت Billingsgate، وعمق مخيلته وحدّتها منحت أجنحة لكلّماته.

(1) كل القبائل في جنوب جزيرة العرب إما أن تكون من الغفاري أو الهناوي، ويبدو أن تاريخ هذين المسمّيين يعود بشكل سطحي إلى صراع ذي علاقة بسلالة حاكمة على الخلافة في عُمان في مطلع القرن الثامن عشر، ولكنهما بأهمية أعمق بكثير من هذا، لأن لقب الهناوي بشكل عام يتوافق مع قبائل منحدرّة من قحطان. ولقب الغفاري يطابق المعدّي والتّزاري. ولذلك فأساس الانقسام، إلى حدّ ما، هو عنصري.

بعد تبادل المزاح البهيج طرد شكسبير العرب وطلب من الشاعر أن يدوزن.

قال أحد المتحمسين: «هاتِ أغنية شعبية».

أكره الشاعر بشيء بدا متواضعاً جداً، أوحى لي إيماءات الممثل وصوته الجذاب في الواقع بأنها ربما احتوت على فكرة حلم الحب الصّغير الرئيسيّة، ولكن حين تنالت الأشعار وتغيّر الأداء، مع ضحكات الجمهور المكتومة ونظراتهم الجانبية ليروا كيف يكون ردّ الفعل المثير، تبين أن في المكونات خدعة خليعة محدّدة.

«كفانا من هذه! قدّم لنا كذا وكذا» وكنت قد بدأت بالتثاؤب فاعتذرت وتنحيت قبل أن يأتي الشاعر إلى نهاية أدواره.

* * *

حان صباح مغادرتنا الخابورة، خيم سديم كثيف مثل الغطاء فوق البحر بينما أصبح مخيمنا في هرج ومرج حين كان قرص الشّمس يشرق. بدت جمالنا بليدة بشكل غير طبيعي وكان يربو عددها على ثلاثمئة، وكأنها عرفت بدهاء بالسّير الطّويل الذي ينتظرها إلى صحم Saham، بينما على نقيضها تحرّكت الجياد حول أرسان رؤوسها بخفّة لتطرح عنها أثر ندى الليل الكثيف - تلك ماشية جسورة، إن كانت تربيتها قد تركت شيئاً مطلوباً آخر، لأنها لم تعتد على دثار ضد ندى الليل أو لظلّ يقبها شمس الظّهيرة المحرقة.

انتهى الآن مؤتمر السّلام والاعترافات والعهد والأيدي المصقّفة للمناظرين وقد غطتها أيدي صانع السّلام خلال إعلان الصّيغة المهيبة، والتّعويضات المتبادلة، كل ذلك انتهى، ووئبنا ثانية إلى السّروج، رفع البدو المرافقين لنا أصواتهم بنداء «الله أكبر» وتابعنا رحلتنا إلى الشّمال.

دوّى المدفع القديم بتحيته عند مرورنا بحصن قصبيّة السّلطان Qusbiyat as Sultan، كان هو وحصن الحكومة مع ناظره تذكّاراً للعظمة السّابقة، ردّت ما وراءهما بصدى وابل طلقات البنادق قرينا الصّيد الكبيرتان ديل آل عبد السّلام وقرية ديل آل بريك.

تلك الطَّلقات هي أكثر ما يخيف من الممارسات. فكل قروي مسلح، وفي مناسبات كهذه يسرّه أن يستعرض سلاحه وينهمك في لهو معربد لرقصة الحرب، ويلوّح ببندقيته حول رأسه بحماس شديد وإصبعه على الزناد ويزيد بانشاده احتياجه إلى الجنون المؤقت، وكلما اقترب موضوع اهتمامه يطلق بندقيته في أي اتجاه صادف أنّها موجّهة إليه في تلك اللحظة. تحدث الحوادث ولا يوجد دليل مقنع يوشك أن يكشف إذا كانت «الحوادث» وقعت «حوادث» بالفعل، لم يكن أقلّ من إصابة والد الإمام الحالي إصابة قتلته - نوع من رئيس أساقفة كانتبري على الأقل - في الحواسنة Hawasinah أو في الترحيب عندما كان يرافق السلطان فيصل في جولة مشابهة لجولتنا، وكان نتيجتها أن أمضى صديقي الماجد القديم ذو العين الواحدة الشيخ سيف ستين تكفيريتين في حصن الجلاي. ولكن «المحنة من ضرورات الحلاوة» كما علّق لي بمناسبة هذا الأحداث، أفلم يدخل وثنيّاً وسكّيراً، وعاد للظهور مجيداً قراءة القرآن الكريم شفويّاً ومتقناً لتقنية السجود التعبدي اللذين لم يسبقه لهما أحد؟ قال ذلك وهو يستشهد بمثل عربي: «الخير بطن الشر» ليحسم القضية.

كانت صحم في أجواء احتفالية، أثبت حاكمها سيّد سيف الشاب الكريم ذو وزن العشرين حجراً⁽¹⁾ بأنه مضيف مثالي، وكان توقفنا بمجمله لبضعة ساعات قصيرة جداً، رغم أنه كان لا بدّ من الاستمرار إلى مجاز Majaz للتأكد من الوصول إلى صُحار في باكورة الصّباح التّالي، قبل أن تفرض الشّمس وجودها.

ها نحن أولاء في صُحار أخيراً، تلك المدينة التاريخيّة القديمة، واحدة من سبعة مراكز شهيرة للدّيانة الجديدة للرّسول محمّد، كان التّمتع في زمانه بفضل مسجد الجمعة، والتّمتع اليوم بحصنها الكبير القصبة Qusba، الذي يقف خلف البحر ويرتفع برج شرفته فوق بستان التّخيل، ويرفرف علم السّلطان بإحكام فوقه، وحين اقتربنا ارتفع دويّ مدافعه وترافق بسحابات بيضاء متنفخة من الدّخان المتجدّد الذي انطلق عبر الشّاطئ من منصّة

(1) الحجر Stone مقياس بريطاني لوزن البشر، يعادل 14 پاونداً أو ما يقارب 6.35 كيلوغراماً.
(أحمد)

المدفع في الأسفل. وقفت هنا كتلة من أثواب بيضاء لأشخاص مرّحين تحوّلوا لتقديم البيعة لسيدهم السلطان، وهؤلاء يندفعون إلى الأمام عند نزولنا للمصافحة أو لينحنوا ويقبّلوا ظهر اليد الملكية أو ليرفعوها إلى فمهم وعينهم، تبعت ذلك البرزة التي لا مفرّ منها، ثم تشريفات الحلوى الهلامية والقهوة والبخور. جاء الملتمسون بشكل إفرادي للجثوّ أمام مجلس العدالة الأعلى بهمومهم الصّغيرة المكبوتة التي استحوذت عليهم بالكامل، يحرصون على ألا تمرّ الساعة الأولى دون أن يسطوها له، وعند نهوض السلطان تراجع أولئك المساكين إلى الورااء كلّ إلى مكانه، وعند ذلك وضع أحدهم الذي كان صاحب حانوت إحدى يديه فوق الأخرى أمامه.

قال السلطان: «ما معنى ذلك؟».

أجاب الرّجل: «كياسة وإجلال لسيدنا».

كان الجواب: «أستغفر الله، ألا تميّز بين الخالق والمخلوق؟». وتحوّل إليّ، وكان بريئاً من إساءة الرّجل وهو يبحث عن التّنوير، ثم شرح السلطان: «تلك الوضعيّة هي موقف السّنة في الصّلاة، لا سمح الله أن يتقدّم إليّ رجل بنفس الشكل».

كان أول يوم في صُحار يوم راحة احتاجتها أجسامنا بعد المكوث في السّروج مسافة مئة وعشرين ميلاً، وكانت تعني متعتين فوريّتين: متع التّغايير، في البداية - لأنّي كنت طوال الوقت أعيش على طعام البدو بطريقة البدو في الأكل من طبق مشاع - وجبة معدّة بشكل نظيف على منضدة وأطباق بيضاء صحّية المظهر، وخبز غير مخمّر مشرب بالسّمّن الفاخر ومجموعة من يخنة الدّجاج والبيض المقلّي وفطيرة الموز المقلّية والسّباغيتي وشرائح الجبنة القشدية - الأخيرة مصنّعة محلياً من انقى حليب ماعز، مملّحة بشكل طفيف لتمنح النّكهة حسب ذوقنا، ومنقّرة مثل جبن الغروير - كانت بمجملها وجبة لذيدة. ثانياً، حمّام تنظيف ساخن وحلاقة، وتغيير يجدد مجموعة الأدوات.

ذهب السلطان عند المساء لجولة في السّيارة، وبرفته الشّاعر مهرّج البلاط. أخرجت بندقيتي للتسكّع حول البستان القريب على أمل العثور على الحجل - لا

تعرف الباطنة إلا السي سي see-see- وعدت عند توقف سيارة السلطان تماماً، عند غروب الشمس تقريباً.

قال السلطان بابتهاج: «أنظر! ايها الوزير» حين كان عبدٌ خلف السيارة يحمل حزمة ثياب ثم شرح: «أخذت الشاعر معي، ولكن في طريق العودة أقنعت أن يتعزى ويسبح في حوض الحديقة (خزان). فتجهّز على مسافة دون ارتياب، حسب خطتي، فجمعت ثيابه وغادرت بالسيارة بعيداً، وأجبر الشاعر على العودة سيراً مسافة ميلين وهو عارٍ تماماً».

أجبت وأنا أشارك معه بالضحك: «شيء جيد أن الظلام بدأ بالهبوط».

مرّت ساعة، ولم يظهر للشاعر أثر، فأرسل عبيدٌ للحديقة لكي يستكشفوا الجوار، وعادوا بنفس قصة اختفائه التام.

أرخصي الليل سدوله، وتجمّعت حلقة المتنبّي بالدقة المعهودة في سطح الطابق الأول من الفناء الداخلي. وبعد نصف ساعة ظهر عقرب من فتحة في الجدار الذي كنا نجلس تجاهه، فتوجّب علينا التوقف لقتله ممّا أوحى لنا بتغيير الكاتب. اقترح وقُدّم كتاب لمجموعة أمثال عربيّة عُمانية للدكتور جاياكار Jayakar.

يقول احد الأمثال: «تعلّمُها من وجه الذئب»، نظرتُ إلى الأعلى بلسان حال يقول: «لم أفهمها» وأعدّتها بصوت عالٍ بالعربية: «تعلّمُها من وجه الذئب» أقرّ بأنّي لست أعقلها. بناء على ذلك قال السلطان بأنه سوف يسرد لنا الحكاية وسأفهمها حينئذٍ. حكايات الحيوانات كثيرة جداً بين العرب ويحبّونها جداً.

«ذات مرة كان يوجد أسد وذئب وثعلب تجمّعوا حول ثور ميّت، فقال الأسد للذئب: اقسمه أنت بيننا».

قال الذئب: «حسنٌ جداً» وبدأ بقطع الفخذين والأقسام الرئيسيّة من الثور لنفسه وأعطى القائمتين الأماميتين والرأس للأسد وقال: ما تبقى يمكن للثعلب أن يأخذه! ثار سخط الأسد لحصته البائسة فسدّد إلى وجه الذئب لطمّة مدوّة، وجمع كل الحصص في كومة واحدة وتوجّه إلى الثعلب وقال له: «والآن أنت اقسّمها بيننا»، أذعن الثعلب

لذلك، وتقدّم فوضع الأفخاذ والأجزاء الرئيسية للأسد ووضع لنفسه الرأس والقوائم الأمامية، وما تبقى من الكرش والسواقط الداخلية أعطاها للذئب.

«دُهِش الأسد بإنصاف القسمة والإحساس الرائع بالعدالة الذي أبداه الثعلب، فالتفت إلى الثعلب باستحسان معجب وقال:

«أين تعلّمت هذه الحكمة؟».

فقال الثعلب للأسد: «من وجه الذئب».

حال انتهاء الحكاية بدّدت هدوء الليل صرخة تصمّ الأذان قادمة من الشاطئ. قفزنا جميعاً.

قال الجميع معاً وهم يضحكون: «الشاعر!»، وسرعان ما جاء الشاعر عارياً تماماً يملؤه الغيظ وهو يتماسك على الدرجات، يضرب حوله بعصاة كلما ظهر عبداً مزعج يقرّعه بأنه مخزٍ، ولم يستطع رفع عينه في وجوه الرجال ثانية - أضاف راكب بأنه تجنّب مصدر خزيه بالخوض في الماء حتى عمق خصره على طول ميلين أو أكثر من الشاطئ. سخر العبيد وأقسم المهرّج على الانتقام.

كان مدخل الشريك هذا غير لائق على مسرح شغله مؤخراً الممتلئ التقليدي، ولوّح السلطان الآن للمهرّج العاري ليدخل إلى غرفة قريبة ليرتدي ملابسه. لم يكن هناك ثياب بالطّبع، فصدرت بعدها تضرّعات مرتعشة قابلتها تهديدات واصلت تسليتنا نحن في الخارج، ولكنها لم تُثر الخجل. فجأة، تأرجح المكان كله بالمرح حين أعلن المهرّج منتصراً بأنه قد اقترف أمراً بغيضاً في الشّقة الملكية.

مرّت ساعتان قبل أن يكفّ اللسان الوقح عن القدح، وآخر ما سمعته وأنا أكاد أغفو، وكان حميداً نسبياً، ملاحظة موجهة لعبد متهمّ: «هيا اخرج، يا ابن اللّيمة».





واحة العوهي



ساحل الباطنة - قرية نموذجية



بيت نموذجي مصنوع من سعف التّخيل

الفصل الثالث من المغامرة الثالثة

وقفة - رحلة على ظهر الجمل

عبر شبه جزيرة عُمان

عبر عُمان! تلك كانت أماننا فرصة سارة الآن، حيث أنّ الذلول «خوارة» قد دفعت بي إلى قافلة أصدقائي القدماء بني كعب والمقابيل Muqabil، وتركت الآن الشاطئ لاقتحام بستان التخيل في صحار، وبمجاملة من قائد السفينة لوپين H.M.S. *Lupin* الذي سافرت معه من مسقط، وقد أرسل إشارة «حظاً سعيداً» وأبحر في عباب البحر. كان الطريق أماننا درباً غير مطروق، إذ أن السير برسي كوكس وصموئيل زويمر⁽¹⁾ هما الوحيدان بين الرجال البيض الذين أتموا الرحلة من قبل.

أدركني شيخ عجوز، وقد أمسك بيده رسالة، رسالة غير موجهة لي ولكنه استلمها من رئيس في الساحل المتصالح⁽²⁾، أوحى لي تصرفه المتكتم بأنها ليست نذير خير. قال لي: «اقرأ هذه، ومن يصمت فهو حكيم».

(1) صموئيل مارينوس زويمر (1867-1952 م) مبشر أميركي من أصل هولندي، ورحالة وباحث. عُيّن مبشراً في البصرة والبحرين ومسقط وأماكن أخرى من الجزيرة بين 1891-1895 م، ففشلت مهمته فشلاً ذريعاً. نشر 45 كتاباً، أهمها عن جزيرة العرب: *Topsy Turvy Land* (عام 1902 م)، وكتابه الآخر: *Zigzag Journeys in the Camel Country* (صدر 1911). وله أيضاً مقالة هامة جداً يصف فيها رحلاته إلى عُمان وساحل الإمارات، وبها أقدم صور معروفة لقصر الحصن في أبوظبي (عام 1902). وكنا نشرنا في هذه السلسلة كتابه المذكور أعلاه: «رحلات متعرجة في بلاد الإبل». (أحمد)

(2) الساحل المتصالح Trucial Coast هو التسمية القديمة لساحل الإمارات العربية المتحدة ما قبل قيام دولة الاتحاد في عام 1971. (أحمد)

قرأت:

«بعد السّلامات، ورحمة الله وبركاته، عاد شقيقي للتّو وقد أخبرني عن طبيعة المعاملة التي تلقّاها منكم. أتمنّى ألا تقوموا بإيذاء المسلمين ولكن أن تفعلوا ما يرضيهم ويرضي الله. يحتمل قدوم النّصارى (أي المسيحيين) وأن يطلبوا منكم ما يجلب نتائج وخيمة عليكم وعلينا. أنصحكم قبل حدوث شيء، وأنتمس منكم المحافظة على شرف العرب وكرامتهم. لا تتخذوا بالمكاسب الدّنيوية التي لا تدوم، يقال النّار ولا العار... وكذلك أبلغ الشّيخ فلان إذا استدعي... لا تطلع أحداً على هذه. أكتب لك لأنّي أعرف أنك الوحيد الذي يؤمن على السّر. «نصرٌ من الله وفتحٌ قريب. سلامات».

أعدت الرّسالة لصاحبها بضحكة متكلّفة، لأنّي شعرت للتّو بأن رحلتي في البر الدّاخلي سوف لن تكون على الإطلاق «طريقاً محفوفاً بالورود»، ضيافة العرب بالطّبع مضرب المثل ولكن ضيافة هذا الجزء من جزيرة العرب ليست كذلك. التّواحي البعيدة والثّائية من جزيرة العرب ليست فقط غير مضيافة ولكّنها أيضاً عدوانية بشدّة. الإنسان هنا معزول؛ يمتعض من التّطفل، ويرتاب به ويخشاه. يستشعر الخطر بسهولة أيضاً، واحسرتاه! لقد سبقتنّي أنباء زيارتي. وعندما يواجه البدو غريباً غير مُعلن عنه سوف يكون متعاطفاً في أغلب الأحيان، لأنّه ليس أمراً واقعاً بالفعل وإنّما «إرادة الله»؟ ولكن اعتماد المسافر على أسلوب مغالى فيه في تقدّمه هو أسلوب غير آمن البتّة. على المرء أن يتذكر بأنّ ابن البرّ يعتبر أنّ لديه مطلق الحق في أن يضع رصاصة في أحداً ما، ويستولي على جملة بأريح ضمير في العالم، ويعزو ذلك أيضاً إلى إرادة الله.

قطعنا بطحاء صلّان *batha of Sallan* الرّحبة، وتحولنا الآن عبر ميدان من الأكاسيا البرية، حيث شارك غزال وحيد في البعد منظرنا الذي أجفله مع عدد لا يحصى من القيق الأزرق والحمام الذي طار من شجرة إلى شجرة في القرب. كانت أماننا واحة العوهي Auhi الكثيفة بالتّخيل، فتوقفنا فيها أثناء الليل قرب مسجد سُني يتاخم السّهل. قدّم الشّيخ أحمد، وهو عجوز كريم لكنه الآن يبدو ذاوياً من الكبر، لنا

طبقاً جذاباً من المانغو الطّازج الصّغير- لأنّ الموسم كان منتصف مايو. اختفى البدو بأنفسهم في الحداثق بتعمّد وقح، وسرعان ما نَمّ صوت انتزاع الأغصان والارتطام الخفيف للفاكهة السّاقطة بأنهم كانوا يعاملون وصيّتنا الثّامنة بطيش. لأيديهم سطوة هؤلاء العشائريون من بني كعب، رجال متهوّنون من وراء التّلال- كانت بيئتهم شمال الظّاهرة Dhahirah خلف جبال الحجر Hajar الزّرقاء أماننا. كانوا رجالاً لم أتحمّل الاستمرار معهم في المراحل الأولى، ورأيت أني على وشك أن أئتمنهم على نفسي. أليسوا من بني كعب، حقاً، الذين أئمتُّ ارتباطهم غير المستقر بالدّولة منذ سنة فقط، عندما تفاقمت فعاليتهم بالإغارة على مدينة شناس Shinas، أخذوا معهم عبيدين وباعوهما في ساحل اللؤلؤ وكأنّ ذلك لم يكفهم، فعادوا ليصبغوا المكان باللون الأحمر بإحراق سياج حديقة أولئك الذين رغبوا بإرهابهم أكثر! انهم تابعون جسورون، تحوّلوا مؤخراً لتغيير طبيعتهم، عندما نظرت حول وجوههم الصّفيقة أكرهت على الابتسام والتّعجب عن ماهيّة النّزعة الشّريرة الجديدة التي تضطرم في قلوبهم الشّجاعة.

لُمتُ عُبيداً العجوز، الرّعيم بينهم على أخلاقهم موضع الشّك تلك.

قال: «ماذا إذن يفعل المرء يا صاحب، عندما يصيب الله بلاده بالقحط، وليس لديه شيء ليقدمه لضيفه؟».

كانت هنا بحق أحجية، ولكن من المبكر جداً لي أن أنسى أحفاد البدو بليلة واحدة أمضيتهما في الباطنة بحثاً عن الطّعام، والماشية، نعم والأطفال الصّغار للعبيد المعتقدين، وما رأيته قبل وقت قصير جداً في وجوه النّاس المستقرّين البسطاء المسالمين. ولكن لا بدّ أن يضيق الهمجيون ذرعاً عندما يحلّ بهم الجوع وبنادقهم في أيديهم.

لكن ما زالوا كالقرصان الذي يمشي دون إحجام على لوح الخشب، فيواجه الرّجل في هذه الحالة الحياتية عقوبته بمرح. داخل الذاكرة الحيّة خطّط أحد أشجع شيوخ بني كعب الثّانويين المتمرّدين لضربة غير متوقعة لكنه وقع بيد الدّولة في صُحار. كان قد نُصّب هناك والٍ جبار من أصل خلاسي، لذلك فكّر الوالي أنه من الممتع أن يجعل

سجينة عبرة لمن يعتبر، فقام بحلاقة جانب من شعر رأسه وحاجب واحد من حاجبيه ونصف شاربه، حلق له نصف لحيته يا للعار والسَّار! وقُدِّم عبدان للاعتداء على الشَّيخ الضَّحِيَّة في العلن وقد وضع على جحش واقتيد عبر الشَّوارع ثم أطلق سراحه. فعاد إلى قبيلة ساخطة تخلى عنها الشَّرف، فألقيت البنادق في الهواء بذعر وأقسموا بكل أنواع النَّار. ولكن الوالي جابه في الماضي ما هو أصعب بكثير من هذا، ورأت فيه قبيلة بني كعب المعادية الكبيرة القوية أعظم حاكم على وجه الأرض. لذلك تبدَّد غضب بني كعب الشَّدِيد في الهواء. ثم تلت هدنة لمدَّة شهر، ولكن الحدث اعتمل في صدر القبيلة حتى وفاة الوالي الذي قدَّر الله له أن تكون بعد سنة.

كانت جبال الحجر الزَّرقاء الخالدة كأنها تدلّ على مكان الصَّدع الحاصل من ممَر أخضر سوف يمكننا من المرور، وقفت حورة برغة Haura Burgha، القمَّة الوردية المخروطة عبر السَّهل مثل حارس مثالي وسط سفوح التلال المنحدرة. ولقد عاش الثَّعلب في هذا السَّهل الفسيح الحار مع الغزال والحمار الوحشي وسط السَّراب الذي تلاعب بالخيال.

توقفنا للرَّاحة هنا كتمهيد للعبور على بروز قرب آثار مسجد قديم، تبعت الأذان صفوف المؤمنين المنحنية وصلاتهم المتواضعة الخاشعة. أظهرت الأيدي المعقودة وصوت أمين المرتفع بأنَّ المصلِّين من السُّنَّة التقليديين، لأننا خلفنا الإباضيين وراءنا في الجنوب ولم نرهم ثانية في هذه المناطق من السَّيميلية Shamailiyah والظَّاهرة Dhahirah. عند آخر أمين من المصلِّين تمكَّن من سماع نعيق الغربان رمادية الظَّهر التي لا تعدّ ولا تحصى وصوت حفيف أوراق شجر المانغو والخيرير المبهج لمياه الفلج. حدّقت الجمال أحياناً بالأشواك المتجمّعة بفرح وقد قيّدت قوائمها الأمامية تحت ركبتها كي لا تضلّ، وتبعت راعية صغيرة قطيعها الأسود الذي قفز فوق قناة الفلج بقربتها الجلدية التي تزوّد بمائها طوال النَّهار، كان منظرًا رعوياً مبهجاً.

من تصوّر حينئذ بأن هذا المكان كان مسرحاً لمشاهد كثيرة من المعارك؟ ورغم ذلك فهو قد شهد وقع أقدام الجيوش الفارسية وتوهج بومضات رماحهم وقسيّهم

وسهامهم، ولقد ردّد صدى صيحات النصّر لأتباع الدّين الجديد بعد خمسمئة عام، كما جاء الوهايّون⁽¹⁾ قبل مئة عام لينشروا مذهبهم في بقعة الرّمّاح.

أعلن المرافقون بأننا وصلنا «فلج السّوق»، حين توقفنا بعد ساعة ونصف من الرّكوب في سطح أسحم غير مستخدم هو كلّ ما تبقى من مستوطنة قديمة. لفت انتباهي بالقرب قمّة تلة قائمة فسألت: «ما هذه؟» وأنا أشير إلى سلسلة أكوام من الحجارة الصّغيرة حدّدت قمّة المتن الذي تقع على يسارنا.

أجابوا: «آه! إنها «بيت الجهل» (بيوت الجاهليّة ما قبل الإسلام، أي الفترة الزّمنية التي سبقت الإسلام).

انحدرنا لتسلق ونستكشف. أظهر المشهد من قمّة المتن صفّ سفوح التّلال المحتشدة وعليها تلك البقايا الأثرية. يتألّف بيت الجهل من رابية مدوّرة بنيت من حجارة بركانية دائرية غير مُحكمة، لانتحاج التّثبيت لأنّ حجمها كبير، ارتفاعه أربعة أقدام بقياس بين ثمانية إلى عشرة أو حتى اثني عشر قدماً وقد سُقف منتصفه في بعض الأحيان، يبلغ سُمك الجدار ما يقارب القدمين، وُسّع في أحد محاوره وترك تجويف حجارة للمدخل لا تستوعب أكثر من رجل منبطح.

فكّرتُ ملياً: «بيوت أيام الجاهلية!» ما هو نوع الأقزام التي عاشت فيها حينئذ! كلا؛ لم تكن تلك بيوتاً. ومع ذلك لا بدّ أنها تنحدر من عصور قديمة غامضة، وإلا لكانت المراجع قد حفظت تفسيراً معقولاً. كما لم تكن أيضاً وظيفتها حربية كما يظهر لأنها لم تشرف على منظر حقل محدّد، كانت واجهتها داخلية دائماً إلى جانب المنظر الخارجي لنفس قمّة المتن، وكانت متقاربة جداً من بعضها، وفي بعض الأحيان فُتح بعضها باتجاه بعض. آخر وجهة نظر غير معقولة تمكّنت من تكوينها بأن تلك البيوت ربما كانت ذات أهميّة دينية لما بعد الموت، وربما كانت نماذج أصليّة لأبراج الصّمت Towers of Silence. مع ذلك ربما كانت مثل هذه النّظرية صعبة التّوافق مع أعدادها

(1) يستخدم الكتاب الغربيون تعبيراً مغلوّطاً هو: الوهايّّة، والصحيح أن اسمها: دعوة الإصلاح السّلفي. (أحمد)

الضخمة، وقد لاحظت بأن محورها الداخلي الطويل ليس فيه توجه عام⁽¹⁾.
تركزت الجمال قرب نظام سقاية فلج قديم، وكالعادة وقعت صخرة داخل إحدى
فتحات الدخول السوداء فأظهرتها جافة.

قلت: «حسناً سالم، من بنى أفلاج الماء القديمة تلك؟» وأنا أتحوّل نحو شيخ عجوز
بدين من المقابيل Muqabil، لم تكن هيئة سالم بأيّة حال هيئة بدوي، ومع ذلك علي
أن أنوّه إلى بدانته لألفت الانتباه للتعارض مع التحافة الشاملة الثابتة لمرافقيه البدو.

قال سالم دون تردد: «الباني؟ لِمَ، سليمان بن داود.
»ولكن بالتأكيد لم يعش الملك سليمان في هذه الأجزاء، انظر إلى العمل المتضمّن
فيها، إنه عمل القرون العديدة».

قال سالم وكأنّه يأسف لإنكاري: «الله يسلمك النبي سليمان جاء إلى هنا على
بساط ولد على جناح الرّيح».

«إذن ماهو نمط الرّجال الذين عملوا في تلك المجاري المائية، هل هم عرب ام
فرس أم من؟».

أجاب سالم: «ليحفظك الله، ليسوا رجالاً مثلك ومثلي أبداً ولكنهم جان؛ أشهد
على أنهم أيضاً من خلق الله».

«وهل يوجد جان اليوم، سالم، هل رأيتهم في حياتك؟».

«طبعاً هم موجودون يا صاحب، ولكن لا يملك كل الرّجال عيوناً تراهم، يعيشون
في الأرض وفي الهواء، وليس لأحد غير المطوّع (قادة دينيين) سلطة عليهم، ولكن
النبي سليمان سلام الله عليه كان سيّدهم».

(1) بقية هذا النوع منتشرة بشكل واسع في كل مناطق عُمان، وكل منطقة تطلق عليها اسماً مختلفاً،
ففي صُحار هي بيت الجهل، وفي وادي اسماعيل هي عقة Uga أو رجام الجهل rijjam al Ja-
، وفي حجر هي بومة buma بالمفرد وبالجمع بوام buam، وفي جعلان هي عقوق الجهل
Uquq al Jahal.

كانت تلك الأفلاج التي استفسرت عنها أقيّة تحت الأرض من تشييد قديم. لا بدّ أنها تطلبت عملاً جباراً في شق أنفاقها التي تمتدّ في بعض الأحيان إلى ما يقارب خمسة عشر ميلاً. ربما تكون منابع الينابيع في الجبال على عمق ثلاثين فامه fathoms تحت سطح الأرض، وفتحاتها التي تمتدّ بفواصل متكرّرة على امتداد مجراها، تتدرّج بقلّة العمق مع هبوط الأفلاج إلى الأسفل حتى تصبح بالتدريج عند السطح في السهل، حيث تنشأ الواحات. كانت العوهي Auhi مثل هذا وكذلك فلج السّوق. ملأت الأفلاج كل السهل في الجوار. غالباً يوجد مئة منها، رغم أنّ معظمها قد جفّ عبر القرون الطويلة، واسم الدّاوديات المشتق من داود الذي أطلق بشكل عام على منطقتها سوف يظهر ليرمي ظلاله على عرف قديم لِسبط داود القديم من بني إسرائيل في شمالي عُمان.

وصلنا إلى حورة حصن Haura Husn وهي هضبة جزيرة شديدة الانحدار تشرف على وادٍ ضيق أسفلها، تنقص ثلاثة أميال عن قِمّة حورة برغة Haura Burgha السّحرية، عزّجتْ لتسلّقها وأنفخّص الآثار التي تتوّجها بقايا الرّكام المتداعي لحصن قديم. ما زال يقف فيها قوس منخفض التّسنين، وآثار عدّة أبراج دائرية وحوض مربع - يفترض أنّه خزان ماء - نُحت من الصّخر الأصمّ، ودار غير مدعّم أحاط بالمنطقة، وليس أكثر، لم تبق حجرة واحدة مكسية مزينة لتشهد على فن أو مهارة من بناها. إذا كانت هذه عاصمة نواب الملك الفارسي في عصور ما قبل الإسلام كما اقترح مايلز مستنداً لمراجع محلية - فلا يعتبر Jamsetjerd شيئاً بالمقارنة بتلك الآثار الباقية من نفس القرون التي أتذكرها في الأخيضر Ukhaidhir في الصّحراء الواقعة غربي التّجف في أوّسط الفُرات، وفي المُشّي Umm Shita في مؤاب عبر الأردن.

جاء هنا عمرو بن بن العاص رسولاً شخصياً من النّبي ليزدجرد الشّهير في التّاريخ العربي، ليدعو عُمان إلى الإسلام، وكانت هناك شجرة التّمر الهندي قرب الحصن في صُحار التي تقول الأسطورة أنّه كان ينام تحتها القائد المستقبلي، هو الذي قُدّر له أن يحمل السّيف المسلول للذّين الجديد عبر سوريا ومصر، وليزرع علم الإسلام التّاهض فوق ركام المسيحية المتداعية في القرن السّابع.

وهنا أيضاً رويت القصة عن المبعوث الشاب الذي صادف يهودياً على قمة جبل، لأنّ التاريخ المحلي يحدّد مكان بني اسرائيل بحذاء تلك السفوح الغربيّة من جبال الحجر بمسافة مسير يومين شرق حورة برغة Haura Burgha. وكان اليهودي عالماً رحّالة زار اليمن ويعرف مكة جيداً.

استعلم منه قائلاً: «كيف العاص بن وائل؟» دون أن يعرف بعد بأنّ العاص هو والد الشاب الغريب نفسه، «وما آلت إليه حال الوليد بن المغيرة؟» - يسأل عن والد الذي سيصبح بعد وقت قصير «سيف الله» - «وأنت تقول بأنّ الرّجل محمّد بن هاشم من قريش يفوق هذين؟ بلا ريب إذن وحقاً أنجب العرب ابناً عظيماً».

ولكن عمرواً لا تخدعه الكلمات المعسولة. فقد قدّر عليه تنفيذ واجب ديني لازم، فأجاب اليهودي العجوز: «الآن يجب عليك إمّا أن تعتنق الدّين الجديد أو تدفع لي الجزية المفروضة على غير المؤمنين، وإلا لن يكون أمامنا إلا اللّجوء إلى السيّف».

كان اليهودي صادقاً فقال إنّّه لن يتخلّى عن دين آبائه ولكنه سيدفع الجزية. وفعل ذلك، وبذلك استمرّ أبناؤه وأبناء أبنائه في العيش في البلاد، وتشهد على ذلك مقبرة اليهود في صُحار. ولم يتركوا البلاد إلا بعد أن أجذبت وجاعوا فيها. وقد توجه ما بقي منهم نحو البحرين وبغداد المُنعمتين منذ فترة ضمن الذاكرة الحيّة.

خلّفنا وراءنا السّهل الحصبائي المنبسط، ووصلنا المنحدرات الجبلية الشّاهقة، ونحن نقطع الآن عشرين ميلاً من سلسلة جبال ترتفع ثلاثة آلاف قدم وأكثر، انثالت جمالنا في هذه القفار الصّخرية، وكانت ستحملنا إلى الأمام وباتجاه الأعلى. تلك الطّيات المعقدة لسلسلة جبال الحجر هي عوائق باستثناء مكان وادي الجبل الذي تتعرّج خطوطه إلى السّهل في الأسفل، ولا توجد إلا سبعة أو ثمانية من مثل هذه الممرّات الضيّقة في طول جبال الحجر الهائلة⁽¹⁾، ووادي جرّي هو أدناها على الإطلاق فتح هنا أمامنا وميز توقفنا في الليل.

(1) بقية أسماء ممرّات الوديان الرّئيسية تلك التي توصل الدّاخل بالباطنة هي بالتّسلسل من الجنوب إلى الشّمال: سمائل، ومعاول Ma'awil، الحواسنة، بني عمر Bani 'Umr، عاهن Ahin، جرّي Jizzi، حتّا Hatta، القور Qaur، حام Ham، وهي تنفتح إلى السّهل وكل واحد ينقسم إلى عدة

كان الوقت منتصف الليل وقد بدأت تخدم نيران المخيم التي تمددت أجساد البدو النائمين حولها، وفجأة عكّر صفو السكون صوت ضعيف أتى من جهة الوادي. وبلغت مسامعنا ترنمة ساحرة إلى حدّ كبير - ليست كالنبرة التي تعدو بسرعة مسير النهار وتكون ممّلة بسبب تقيدها داخل نطاق الخمس الموسيقي الثانوي، يوجد فرق بسيط في نغمة منتصف الليل هذه، بدا كأنه نحيب ارتجاف طويل الأمد استمرّ لعدة دقائق، حمل أول مقطع من بيت شعر، وتبعه سيل من الكلمات، لكل واحدة فاصل جزئي ينحدر في السلم الموسيقي.

كانت أغنية القافلة، موضوع تلك الوتّة *Wanna* كما تُسمّى، لتطمين الرّيف المحيط بعدم طواف غارة عدوّ في الجوار، وربما أكثر من ذلك لتقوية صاحب القافلة نفسه في تلك الساعة المعتمة، عندما تخرج - حفظكم الله - الجان والعفاريت.

حشنا المسير في الصّباح في عمق الوادي، ولكني تلكأت في المؤخرة قرب المليّنة Millaiyinah، للبحث عن لقية أثرية، متبعاً قدوة بدائية لتطبيق المبدأ القائل بأن الماء يجد مجراه الخاص، فهنا بالتأكيد، كان يجب أن يبدأ القدماء ببناء جسور أقنية متقنة - آخر سلالة فارسية طُردت في مطلع القرن الثامن عشر - ونظام الأقنية هو نظام مكان تدقق المياه على طول ضفة بارتفاع خمسة وعشرين قدماً إلى الأعلى تمرّ عبر طريق القناة إلى الأسفل عبر دعامة مبنية، ومن هناك تحت قعر وادي شعبة الحصن Shahabat al Hisn، وأيضاً أعلى دعامة مماثلة في الجانب الآخر، لتواصل في ارتفاع مماثل على الضّفة النّائية.

التحقت بالركب في برج الشّخيري Burj as Shukhairi الحصن الصّغير في قاع الوادي الذي يشير إلى حدود دولة مَسْقَط. سأكون متطفلاً أبعد منه، ولكن حتى هنا

قيعان ضحلة وتستمرّ بهذا الشّكل حتى تصل إلى البحر. وقيعان تلك الوديان في السّهل جافة دوماً باستثناء يوم أو يومين بعد هطول الأمطار عندما تفيض. وكل واحد له اسم مختلف متميّز عن وادي الجبل الرّئيسي، ويسمّى المكان الذي تخرق فيه بساتين التّخيل لتصل إلى البحر البطحات bathas.

عندما نزلت كنت سأسمع همهمة ترحيب وابل الطلقات الذي كان ذا صفة مُربية، فالرصاصات قد أزت قريباً جداً من فوق رؤوس بعض أفراد فرقنا ممّا أجبرهم على التّرجل اعتقاداً منهم بأنّ الحذر هو أفضل ما في الشّجاعة. كان قيّم الحصن هنا ذا شخصية غامضة - شخص غامض حدّد مستقبل الشّخصيات الغامضة الأخرى قبل انقضاء السّنة - وأنهى مؤخراً شهري سجن في حصن الجلاي لقبوله رشاوى لتشجيعه مرور عبيد وجمال سلبوا في غارة من الباطنة.

قال: «يستحيل أن تستمرّ يا صاحب الفضيلة، الوادي الذي أمامك مُعادي» - ولوّح برسالة من شيخ قبيلة الشّوامس التي انتشرت في رأس الوادي بالصفة المعادية المميّزة التي أخذها من ذلك المصدر، لقد منع الشّيوخ حمدان أي تقدّم في المستقبل دون موافقته المسبقة، ولكنه دخل علينا في زيارتي التّالية استجابة لرسولي، وبعد محادثة صادقة وجدته سهل الانقياد بشكل كاف، ولكن سهولة انقياده قد تكشّفت عن أسي ملتهب، ولا عجب، فإنّه في أيام ماضية كانت قبيلته مصدر إزعاج للسلطة، ووقع هو ووالده بيد السّلطة. فرّ حمدان ولكنّ والده لم يظهر بعدها لأن الرّجل المسكين قد قُذِف في بئر، والأموات لا يروون الحكايا.

جربنا ببطء في اليوم التّالي، وبلغنا وادي شومش Shumash الضّيق المتعرّج الذي لا يمكن للطّبيعة أن تصمّم مكمناً أفضل منه. توقف الرّكب فجأة إذ سُمعت صرخات متهيجّة في المقدمة، من رجال الشّيوخ حمدان الذين ترّجلوا وجروا إلى جانبنا وفجأة انقضّوا أمامنا وتسلقوا قمّة مرتفع صغير ولقّموا بنادقهم وأحاطوا بنا. تبعت ذلك بضعة دقائق من الارتباك ثم تقدّمت أنا وشيوخهم إلى الأمام لتحقيق من المشكلة ونعيد لهم الطّمأنينة، شرح لي الشّيوخ فيما بعد أنّ هدف عدوانهم كان رجلاً عربياً محدّداً في مجموعتي، ولكنني أظنّ بأنّي تبيّنت مزاحاً سمجاً هدف لإضعاف تصميمي على المواصلّة قدماً، وبالتالي فقد تأخّر وصولنا إلى حيل Hail إلى ما بعد غروب الشّمس بوقت غير قليل.

لا يوجد نهر واحد في كل شبه جزيرة العرب إذا تكلمنا بشكل محدّد، ولكن

يوجد ما يضاهي التهر. يوجد في الامتدادات العليا من الممر الضيق نبع مياه دائم، ينشأ منه جدول كريستالي ضحل بعرض عشرين قدماً يتلوى - باستثناء الوقت الذي يسيل فيضانه بشكل جبار عند هطول أمطار فصل الشتاء - من جانب لآخر فوق القاع المحصى الخشن الذي يمتد مئة يارد عبر الوادي. وترتفع على الجانبين تلال ضخمة ينبثق من خلالها تدفق ينضم للمجرى الرئيسي.

تنتشر هنا وهناك في الوادي صخور ضخمة مدوّرة في رقاع رملية أو حصوية - فئات الصّخور التي حملتها الفيضانات - وأزهار شاحبة من الدّفل الوافر مع نبات الأشقر ashkar، بلون رمادي ضارب للأرجواني لا بدّ من وجوده وهي شجيرة ساقّة للإنسان ولكن عندما تصادف في السّهول زهرتها الأرجوانية الصّغيرة تكون شائعة مع طير السّكر sugar-bird والغزال.

هنا أيضاً يلتقي فلج الجبل، بنظام مختلف عن نظام الأفنية في السّهل. فهو ينفذ خارج القاع الرئيسي على قناة سطحية بانحدار لطيف على طول جانب ضفة الوادي، ترتفع في بعض الأحيان فوق قاع الوادي حين يشتدّ انحداره وبذلك يسمح في فواصل حيث اكتسب علواً برّي الجاذبية، والتربة الخفيفة كافية فتنشأ بساتين التمر والقرى في منحدرات التلال. منحت أصوات خرير المياه لطفاً للمصاطب المدرّجة التي تذكرنا بفلسطين وبخليط اللون والرائحة للنباتات التي نمت تحت ظلال التّخيل، وعبق في الليل أريج رائحة مختلطة لأشجار الرّمان والمانغو والليمون، وأبقى صوت الضّفدع الأمريكي وصرار الليل الجو في همهمة دائمة.

اهتاجت قرية حيل⁽¹⁾ Hail إحدى قرى تلك التلال بقدومنا. والتمس شيوخها مقابلة على الفور ولكن تأخر الوقت وكنت أشعر بإجهد شديد. وفي الغد تم تداول سريع بينهم وبين شيخ فرقتي، لأنّ حيل قد بلغتها تعليمات باعتراضنا من قبل شيخ البريمي Baraimi من التّعيم Na'im. (وكنت قد أرسلت مبعوثاً أثناء الليل إلى البريمي) كان

(1) تعرف القرية باسم حيل الغاف، وتقع في وادي الحيملي بولاية الرّستاق ضمن منطقة الباطنة.
(أحمد)

على القرويين الودودين في أعماقهم الانصياع للظرف القاهر، ممّا يعطيهم مسوغاً لمعارضة الإجابة على رسلي.

لكن لم أكن أنوي البقاء، وفي الصّباح التّالي تابعتنا التّقدّم خارج الوادي الرّئيسي باتجاه وادي عيلة Ubailah الرّافد، ووصلنا من هناك إلى نجد، الممرّ على الحدّ الفاصل Divide حيث اضطررت للتّخيم لأن العرب المرافقين لي رفضوا التّقدم باتجاه مستوطنة التّعيم حتى تُرسل لنا دعوة مقنعة. ركبت الآن مع أحد البدو الشّبان وقد نفذ صبري، وتسلقنا تلة صغيرة رأينا من فوقها مسافة بعيدة من المدينة المطلوبة المنحدرة في مبيض الرّمل الأحمر قرب الجبل ذي القمة المنحدرة الحادّة - جبل حفيت Hafit.

سألت بينما كنا نمرّ عند بعض الحفر في الصّخر الأحمر: «ما هذه الحفريات؟»
أجاب البدوي: «الله أعلم!».

«يقول النّاس إنّ الوثنيين كانوا يحفرون من أجل المعدن في أيام الجاهلية».

فكرت بانها ربما تكون منجم نحاس قديم، لأنّ جبال الحجر معروفة بتلك الأعمال على مسافة مسير عدة أيام نحو الجنوب، وربما - من يعلم؟ - قد تكون هذه الأراضي معروفة لدى الفرس باسم مزون Mazun وكانت في أزمنة أبعد من ذلك معروفة باسم أرض مَجان Magan حيث كان السّومريون يحصلون على النّحاس - نحاس أوانيهم وأدواتهم قبل أربعة آلاف سنة وأكثر، التي تميّز متاحف أوروبا والعالم الجديد⁽¹⁾.

جاء الآن مبعوثي إلى البريمي وهم يعدّون، عرفت من سيماهم بأنّ الأمر كلّه لا يشرّ بالخير، ترجّلوا وسلّموني رسالة موقّعة من الشّيخ الشّاب، جاء فيها:

(1) أضفى هذا الاكتشاف لونا على النّظرية التي تقول بأنّه وُجد أنّ النّحاس السّومري يضمّ نسبة مئويّة من النيكل، وأظهر تحليل الخامات المجلوبة بالتّالي من آسيا الصّغرى وغربي بلاد فارس وسيناء وعمّان، وهي المصادر المحتملّة للمخزون السّومري، بأنّ نحاس عمّان هو الوحيد الذي يحتوي على نسبة مساوية من النيكل.

«السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فهمنّا الرّسالة التي أرسلت بيد الشّيخ علي والشّيخ حمدان، لم يكن الوالي (أبو سندان) موجوداً في المكان... ولكن رآها بدوره ولم يوافق على ما ورد فيها... فقد كتبت لنا فجأة بهذا الطّلب. ليس لدينا علم به. تعدّ تلك الأماكن أمانة بيد الله وأيدينا. وهي إزعاج لنا من قبلكم. تلك الأماكن هي ضمن ديرة ابن سعود. ومن الأسلم والأفضل لك أن تعود من حيث جئت. نحن نخشى من فتح باب الاضطراب. الذي يعلم بالأمر التي لم تظهر وأعطاك هذه الصّلاحيّة لم يكن صريحاً معك. تلك الأماكن تنتمي للحمودة ومن بعدهم لابن سعود. هذا كل ما يلزم أن يقال. سلامات. مؤرّخة في الثّالث عشر من ذي القعدة».

كان معسكري في حالة هيجان قبل أن أتمّ قراءة الرّسالة، فلم تضيّع الفرقة العائدة من بريمي الوقت في إفشاء نسخة الإنذار في استقبالهم العدواني لرفاقهم البدو، وبوصول بعثة من وهابيّ نجد وبالجوّ المشحون بالحرب. لقد رأوا الدّم، وعرضت لهم في الحقيقة حالة مستجدة في الظّاهرة Dhahirah، فقد انتشرت الأخبار في الظّاهرة عن زيارة جامع الضّرائب من ابن جلوي Jaluwi، نائب ابن سعود في الأحساء Hasa، وكان عدد من قبائل الظّاهرة يدفع الضّريبة - وهو مسلك تناولته الشّائعات بأنهم أُجبروا على القيام به بدوافع ذرائعية وكانوا قد قاموا به خلال العشر سنين الأخيرة.

إنّ مبدأ «لا نظام ضريبي دون بيان» يعني فكرة أنك تدفع قيمة ولكن يجب أن تأخذ مقابلها ضبط الأمن والصّرف الصّحي - ذلك هو التّصوّر الأوروبي. أمّا في مجتمعات شبه الجزيرة البدائية فلا يشغل المرء تفكيره بالفوائد الإيجابية التي ينالها مقابل مدفوعاته. فهو مكلف بالدفع حسب الشّرع الديني، وللحاكم حقّ مقدّس بالتّعثر من كل الأرباح - الزّكاة أو العشر، إنه تطبيق «أعط ما لقيصر لقيصر» دون أيّة مجادلات إنفعالية مراوغة لتقرّر من هو قيصر. يقوم قيصر بهذا بنفسه، ويكون المعيار في مجتمع واقعي يؤمن بالقضاء والقدر فيما إذا كان المبتزّ لديه القوة لبيتزّ أو يمكنه عمل شيء أسوأ، وإذا حدث ذلك، إذن فإنّ إرادة الله قد صرّحت عن نفسها، وفي الضّمير القبلي قدرة الآخر لممارسة الضّغط عبر القبائل المجاورة بحيلة بسيطة وهي ضمان أو

تحريم ثمار الإغارة وهو عامل الحسم في دفع الزكاة والكثير من التصرفات الأخرى. إنه مكافأة مضمونة ولا يدل على الإطلاق على اعتراف بسلطة عليا اختيارية أو دائمة، رغم الولاء الكلامي الكاذب في الوقت الحاضر، وعندما مرّ الشّبح، وقابلته بعد سنة، وقابلت كاتب الرّسالة الرّزينة، أظهر الكثير من المرح.

عدت فقرأت الرّسالة مرة ثانية، كانت الحقيقة المُرّة تتضح للعيان، فقبائل الظّاهرة لم تكن في مزاج لتسمح لي بالمرور، وكانت الجماعة المرافقة لي من بني كعب تراوغ لأنّ مواجهة جامعي الضّرائب الذي يشغلون بالنّسبة له منصباً ثانوياً موضع حسد، ومن يمكنه التّكهن بالعقوبات الغامضة للتّخلف عن دفعها؟

والنتيجة الفورية الآن وأنا أقف محبطاً في الممرّ الذي سفّته الشّمس، وشيخهم الذي علّقت عليه آمالي يتوسّل إلي أن اتخلّى عن الرّحلة وأعود إلى صُحار، بينما لقّم رجاله المهتاجون بنادقهم واحتشدوا في أعلى التّلال ليحصّنوها من التّعيمين القادمين في أثرنا. لم أكن أخشى الاحتمال الأخير رغم أنّي سمعت بقلب حزين عن الوالي أبو سندان كفيل شيخ التّعيم الشّاب والشيخ بذاته - الذي صادف أنّه كان عبداً، بأنه حصّن الآبار في خروص Khurus بالأوتاد كيلا أتقدّم.

بدت الطّريق عبر البريمي في نفس التّخم الذي وصلت إليه مغلقة، ولكن منحني الرّاحة تفكيرى بأنّ الظّاهرة في التّهاية هي منطقة مترامية الأطراف وبلدة التّيعمي مجاورة لها، ولكن يا للأسف، حتى بنو كعب في مزاجهم الحالي قد أغلقوا أبوابهم رغم التزامهم بمرافقتنا إلى هذا الحدّ، ورغم الإخلاص الودّي لي من قبل الشّيوخ نفسه.

لم يكن حتى الآن موقف الشّيوخ بإخلاصه الودّي كافياً لاستمرارى في جزيرة العرب، رغم أنها ربما تكون نصف المعركة، فأتباعه الذين لم يكونوا عمياً أو ضعفاء اعتادوا أن يقولوا أي والله، ويركضوا بعيداً لتنفيذ أمر الموظّف العثماني. لا بدّ هنا أن يكون لدى الرّوح القبليّة الاستقلالية التي لا تقهر فهمّ لزعيم سياسي ديموقراطي الذي أتصور أنه يفضّل له أن يصون نفسه بجعل إجماع الرّأي العام رأيه الشّخصي.

لم آتِ كل تلك المسافة لأعود أدراجي الآن، تقع منطقة الشوامس للشيخ الكبير حمدان في خاصرنا، ففكرت لماذا لا أعرج إلى هناك؟ ولكن روح حمدان الجبانة قد تأثرت بهذا الانطباع في طالعنا المشؤوم وتركنا خارج قريته لليلة كاملة. لم نسر بهمة مثبطة حتى قدوم الصّباح التّالي إلى قطنة Kitnah مثل الفئران التي تشارف على الغرق.

قطنة! القرية النموذجية هنا - هي حيل الثّانية.

كان مألوفاً لديّ فيها قاع الوادي الحصوي، وبساتين التّخيل التي تشرف عليها من المنحدرات العالية، والجداول الرّقراقة والتّباتات المتدرّجة، وأكواخ القرويين المملدة، وحصن شيخها المليّس بالكلس، والمسجد الذي يرتفع وقد احتجب وراءها. لكن النّساء المبرّقات اللّاتي يشبهن أخواتهن في الباطنة لسن متهيبات من الحديث مع أحد، والأطفال يقتربون للتّحديق دون وجل داخل خيمة أحدهم، باستثناء الفتيات الصّغيرات كنّ خجالات - هن مخلوقات جذّابة بسرور (عن بُعد) ببشرتهن الزّيتونية وعيونهن اللوزية الكبيرة وكتلة كثيفة من الشّعر الملتفّ الأسود باستثناء جديلة صغيرة خلف الرّأس.

يعمل الرّجال بشكل عام تحت ظلال التّخيل عراة حتى منتصفهم، وأجسادهم المنذبّة بادية للعيان، آثار ندوب الحديد الحامي - الدّواء الشّامل، ففي جزيرة العرب التّائية عن المدن لا يوجد أطباء ويُعهد بالعلم للخبرة الطّويلة. لا يُعرف مشرط الجراح كما هو متوقع، ولكن لديهم معرفة خارقة بالهيكل العظمي. يعالجون معظم أمراض البدن بواسطة عصير الأعشاب والكيّ - وبخاصة الكيّ. قليل من الرّجال لا تظهر عليهم علامة الحديد المحمّى على منطقة الطّحال، لأنّ البعوض كثير والملايا منتشرة، وندبة أخرى تبدو في قاعدة الجمجمة خلف الرّأس - يدّعون بأنه علاج ناجع للدّماغ الشرّقية. إنّ هؤلاء النّاس أبناء الطّبيعة واحتياجاتهم قليلة بدائية. متحفّظون في البداية وفجأة يتراخون ويتعرّفون على العالم الصّخيم في الخارج. ولكن احتياجاتهم الفورية تجاوزت كل الاعتبار الأخرى التي يمكن تلخيصها بكلمتين: الذّخيرة الحربيّة والعقارات المثيرة للشّهوة. وهم أيضاً مكّدون وقحون لأيّ شي يروونه.

لاحظت البرزة المألوفة في الصّباح والمساء، عندما اجتمع شيوخهم الذين كانوا زعماءهم وبضعة قرويين حول خيمتي من أجل الفواله⁽¹⁾ والقهوة وتبادل التّحيات والأخبار المحليّة. إنّ تمرير فنجان القهوة له أهميّة قصوى لدى البدو، يغطي سيل القهوة الهزيل بشكل طريف فعر الفنجان المميّز بالكاد وهو قوي وخالٍ من الحليب والسّكر، وهذا يبدو طقساً مهيباً. إذا قدم البدوي الجائع يُرَحَّب به وتقدّم له بضع تمرات وفنجان قهوة، فيعتبر هذه المعاملة معاملة محترمة. وإذا ذبحت العجل السّمين بدلا عن ذلك وقدّمت له الأرزّ وهو أفخر طعام في مخيلته ولكن في الوقت ذاته لا تقدّم له فنجان القهوة، فسيعتبر ذلك إهانة له. التّهجّم أيضاً، حسب تلك القوانين غير المتعمّدة بترك الشّيخ ينتظر في العلن، لأنّ المرء قد يستنتج بانه يتسوّّل (يحتمل ألا يكون المرء خاطئاً) فمن المهم بالنّسبة له أن يكون موقفه جيداً مع الحكومة، ويمكن أن يوثقه في أي حال من الأحوال بنشر قصة استقباله المشرف.

مرّت الأيام وباتت قطنة مصدر إزعاج، ليس لأنّ درجة الحرارة التي بلغت مئة وخمس عشرة درجة في الظّل، ولا لأنّ لدى المرء جمالاً تأكل رؤوسها، أكثر ممّا يمكن أن يتمنّى، ولكن كان بسبب عدم الثّقة بالوضع، وصعوبة ضمان إمكانية التّحرّك إلى الأمام.

* * *

صحوت في صباح أحد الأيام متنكّداً ومضطرباً أكثر من المألوف، لأنّ إعاقة البرميين أثقلت قلبي، وانقلبت على المرافقين لي وصبّت عليهم التّقذ بشكل غير منصف لأنّ لهم إصبعاً في تلك الفطيرة.

نظر رجل مسنّ من المقابيل كان في الزّاوية إلى الأعلى بسعادة وقال: «اللّحم يناله فاعل السّحر أمّا اللّعنات فعلى المطيطوة *mutaituwa*» (إقحام لأغنية محليّة) - وهذا

(1) الفواله في لهجة عُمان والإمارات العربيّة تعني ضيافة خفيفة من الطّعام تقدّم للضيف، سنذكرها أدناه في الفصل الرّابع من المغامرة الثالثة. (أحمد)

مثل عُمانى⁽¹⁾ يحتاج للشرح، فهو يستند إلى اعتقاد محلي منتشر بشكل واسع بالسحر. يشتهر بامتلاك قوة عند أناس محددين، خاصة أزواج كبار بالسن تمكنهم من تحويل أنفسهم إلى حيوانات، وبقدرتهم أن يخفوا الإنسان. ويُعتقد أنّ أصحاب هذه القدرة يتجمعون في أماكن معينة للقيام بتضحيات بشرية وإقامة ولاءم على ضحاياهم، ويقوم طير المطيطة البرى بالغناء في ذلك الوقت وبذلك يجلب لنفسه البرية اللعنات.

كان العربي القديم نموذجاً لهذا النوع لحبه لسلالته لأنها تقلب الأمور بواسطة اقتباسات ملائمة. يمكن تمييز بدوي جبال الحجر بسهولة بواسطة القشورة *qushura* المتدلّية من حزامه فوق خنجره - وهي شريط جلدي رقيق بلون فاتح يرتديه مثل خفّ ليتغلّب على أطراف الصّخور الحادة.

سألت: «حسناً حمود، من الذي يطلق التعويذات السحرية هنا؟».

ضحك حمود: «لن تجد السحر الأسود في هذا الوادي، الحمد لله».

صرخ أحدهم طالباً الماء ودارت طاسة الماء، كان كل واحد يبصق قليلاً من الماء على الأرض قبل ان يشرب باستثناء أول واحد. فكرت: «إنها بقايا اعتقاد من الإراقة التكريمية للإله» ولكن لا أحد من الجالسين حولي يعرف أي مغزي أبعد من العادة المتبعة، ومع ذلك فإن الإيمان بالخرافات شائع. ينسب الرّجال مرضهم في بعض الأحيان لزيارة من أحد الجان الذين يسكنون في المكان، فإذا استطاعوا علاجه يجب ان تذهب امرأة كبيرة في السن إلى المكان وتضع قرباناً هناك - دجاجة ربما، أو طحينا أو بيضاً وتوقد ناراً صغيرة مع البخور.

(1) صيغة هذا المثل بلهجة العُمانيّة: «اللحم حال السحر والدعوة على المطيطة»، أي أن اللحم يأكله السحرة ولكن اللعنة تحلّ على طائر المطيطة. فإنّ عدداً كبيراً من الناس يؤمنون بوجود السحر والسحرة، ويعتقدون أنه سبب للمرض والوفاة في معظم الأحوال. كما يعتقدون أنّ السّاحر يستخدم ثلاثة من الحيوانات، هي: الضبع والثعلب والمطيطة أي البومة، وهي تقوم بدور التّذير، وبالتالي فإنّ الأصوات التي تطلقها تثير تشاؤم الناس فيقولون: عظمة تشب في بلعومك. كما أنّ عويل بعض الحيوانات يعتبر نذير شرّ كنعيق الغراب. (أحمد)

يصبح المرء فيلسوفاً من الصبر! وهو خاصية جوهرية في رحلة جزيرة العرب، تشجعت من فكرة أن قبل ثلاثين سنة قبل الآن في هذا البلد عُمان، جلس السير برسي كوكس Percy Cox على عتبة رجل مدة ستة أسابيع قبل أن يحصل على الإذن بالدخول. وقطنة لم تعرفني إلا منذ أسبوعين فقط. والتتبع، فإنّ قلب العقل البدوي قد توصل إلى رؤية النجوم وقد اصطفت هكذا في مساراتها، لأنّ الغد يلوح ثانية بمشهد مثير للمسير إلى الأمام.

انطينا الصّهوات ثانية عبر عُمان، ومشينا مجدداً باتجاه الشمال إلى محضة Mahadha، موئل قبيلة بني كعب. في البداية يقع الخط الفاصل في الشمال الغربي، ويتوقف وراءه الانحدار الشديد لوجه السلسلة الثانوية الذي يديه منحدر الوجه البحري في جبال الحجر إلى الباطنة. وتوحي وعورته ولونه القاتم بالتعرية الجوية، مررنا قربه في الليل وكانت السماء المقمرة تبدي قبالتها حدوداً رائعة.

كان مستجمع الأمطار الآن في جهة الغرب، ووديان ما وراء الجبال - باستثناء وادي السميني Samaini الذي يصل نهايته إلى البحر في عجمان - كانت مجرد مجاري نهر ضحلة جافة تتلاشى وحدها في الصحراء الرملية في الجنوب الغربي.

توجد هنا منخفضات واسعة السطح، تغضنت بالعدد الكبير للمجاري المائية وانتصبت فيها أشجار السمر samr الأكاسيا، انفتحت أوراقها الخشنة إلى الخارج مثل المروحة - وكأنها عازمة على جمع أكبر قدر ممكن من الندى لأنها خدعت بطقس غير ماطر. يوجد هنا مكان معروف باستيلاد الجمال، ويتجول فيه أيضاً عدد من الحيوانات البرية، الحمار الوحشي والوعل ذو القرن القصير - رغم انه يفضل الجبال على الجنوب - والفهد الذي يأخذ ضريبة سنوية من الجمال. خداع الفهد ممتع فهو يتسلق أشجار الأدغال ويربض على أغصانها العليا منتظراً أول ضوء الفجر عندما يمدّ الجمل رقبتة ليصل إلى العلف الريان في القمة فيصبح ضحية سهلة، يقفز الفهد فجأة على رأسه ويطره بقوة إلى الأرض ويقوم بعمله المختصر عليه. قتلنا في إحدى الليالي أفعى طولها ثلاثة أقدام في المخيم، مخلوق سام تعجّ به الجبال. والبدو يأكلون

الثعلب والقنفذ، ولكنني لم أر أياً منهما في جنوبي جزيرة العرب.

تمتد الآن أمامنا وسط البلاد الجبلية واحة مَحَضَة Mahadha، بحصنها الواقع على حافة بستان التّخيل المواجه للسهل الأجرد. قدّم لنا قرع الطّبول وعَرَضَة السّيف استقبالاً مبهجاً، وخلال إقامتنا مدّة أربعة أيام لم يتوقف قرع الطّبول، على العكس من عادة عُمان الأصلية Oman Proper، وحتى في مدن الباطنة حيث الولاة المتقشّفون يفرضون تحريم الإباضية للموسيقى إلا لأهداف حربية واحتفالية.

كان يجب أداء رقصة السّيف مع العزوة azwa أو نشيد المعركة. اصطفّ القرويون المسلّحون حتى الرّؤوس بمجملهم مع البنادق، والسّيوف والخناجر والأعلام، اصطفّوا في صفّين متقابلين، ثم يتقدّم صف على إيقاع الطّبول ويتراجع الصفّ المقابل له بشكل متوافق وهم يلوّحون بأنصال سيوفهم ويرمون بنادقهم الملقّمة في الهواء، ثم يلتقطونها ثانية ويطلقونها. وبعد ما يقارب اثنتي عشرة خطوة في نفس الاتجاه يقومون بالحركة المعاكسة، وأجسامهم تتمايل مع كل خطوة إلى الأمام، ومع كل خطوة معاكسة ينفذونها ليقوموا بخطوة إضافية، بنظام الخطوة الحربيّة الغربيّة تتبعه زغردة النّساء لترافق رقصهم من قسمهن بعد دقائق من بدئها، ثم يلتفّ نهاية الصفّ إلى الدّاخل فجأة ويشكّلون دائرة، يتقدم إلى منتصفها محارب شجاع قديم ويبدأ بإنشاد العزوة - يحمل بيده سيفه المسلول فيلمع بحركة خاطفة من رسغه بأشعة الشّمس المدارية. يدور في داخل الدّائرة التي هدأت الآن إلا من تمايل لطيف بنفس الخطى الرّشيقة وينظرون في عيون الرّجل الذي يمرّ بهم، وهو يرفع صوته بمدايح الحرب وأمجاد القبيلة، فيجيبه الجمع بنداء المحاربين. وبينما كان ذلك يحدث، أخذني الشّيخ⁽¹⁾ من ذراعي وقادني إلى حجرة محدّدة في الحصن.

(1) قُدّر للشّيخ سالم مضيبي أن يُقتل بعد سنتين، قتله شقيقه معاضد، وكان الدّافع للقتل المشيخة على قبيلة بني كعب التي كسبها القتال، قُتل سالم وهو يتهيأ للصّلاة في ساحة مسجد مَحَضَة، قُتل هو وأصيب ابنه الذي كان إلى جانبه إصابة قاتلة، هرب ابناؤه الباقيين وسوف يعيشون الآن للثّار. هذا هو القانون الدّموي، قتل الأخ هو أسلوب مألوف للخلافة مكرّس لمن يسبق في عدّة قبائل عُمانية، وبشكل بارز في بني علي (ينقل Yunqil)، إنّه مقدّر!

بدأ الشيخ سالم بتدخين غليونهِ الفخّاري، أو بالأحرى أخذ منه نفساً طويلاً، ثم وضعه جانباً كما هو الأسلوب بجزيرة العرب، فاجأني ذلك التصرّف إذ كنت أظنّه وهابياً. في الواقع، مع ذلك فإن قبيلة النّعيم وحدها في الظّاهرة وبعض العناصر من الناس في الشّارقة في تلك الأجزاء يُدعون بالاسم أخوة التّجدين في الدّين، وحتى ذلك الوقت فإنّ مذهب الأزارقة Azarka عملياً يسمح لهم بالتّدخين. وبقيّة بدو الظّاهرة بمجملهم سُنة تقليديّون باستثناء إباضية الدّروع Ibadhi Daru.

سألت الشيخ سالم: «لكن بالتأكيد لا يزرع التّبغ في أراضيكم شيخ سالم؟».

أجاب: «لا، إنه لأمر متواتر غريب، فقد مُنع التّبغ عندما قدم الوهابيون⁽¹⁾ وبدّدوا البلاد. ما زال الخوف ردعاً موروثاً» وقد عاش الجوّ⁽²⁾ Jau، كما يدعى التّصف الشمالي من الظّاهرة تحت تهديد متقطّع لمُدّة مئة وعشرين سنة وأكثر، رغم أنّه لم تحدث محاولة غزو نجدية منذ تسلّحت القبائل بالبنادق، ولكن بدلاً من ذلك، حدثت زيارات مؤقتة لجامع الضّرائب في بعض المناسبات في السنين الأخيرة. قال الشيخ: «أهل الغرب (يدعون التّجدين بذلك عموماً في عُمان) جاؤوا في البداية منذ أربعة أجيال، واستسلم ميناء الصّحراء البدوي لسبعمة من فرسانهم، وباستسلامهم رضخ النّعيم (بريمي) فوراً، وبعد عشر سنين أذعن لهم السّلطان العظيم سعيد بن سلطان في مَسْقَط، ودفعت عُمان خمسة وأربعين ألف دولار إتاوة سنوية. ولكن الغزو المصري لنجد من البحر الأحمر تحت قيادة محمّد علي أحلّ فترة راحة لمُدّة أربعين سنة. ثم عادوا مجدداً ونظّموا أنفسهم في الشّارقة Sharjah. كان ذلك قبل سبعين سنة، ما زال رجال بينا يذكرون ذلك، وكان هذا الحصن بيدهم وأخذوا جدّي بالسّلاسل إلى نجد، وهناك اعتنق مذهبهم الصّارم وأصبح من رجال الدّين، في الواقع سمحوا له بالعودة ولكنّه خلال سنة انضمّ إلى الثّوار المنتصرين الذين حرّروا هذه المنطقة من رجالهم. ومنذ ذلك الوقت لم يعرف بنو كعب سيادتهم المطلقة».

(1) ذكرنا أنّ الوهابيّة تعبير مغلوّط، والصّحيح أنّ اسمها: دعوة الإصلاح السّلفي. (أحمد)

(2) يُعرف باسم: أرض الجوّ. (أحمد)

قلت وأنا مستغرق بالتفكير: «آه، الموسيقى الرائعة للطبول البعيدة!».

قال الشيخ سليم بطريقة يغيّر بها الحديث: «غداً إن شاء الله، سيتسلّق علي برفقتك إلى قمة جبل محضة».

كان علي بدوياً درمكياً Daramqi منتصب القامة، له خصل مضمفورة تدلّت على كنفه ولكنه أساء التصرف كما بدا، لأنه قتل ابن عمه أثناء شهر رمضان المبارك وكان بالتّيجة يعيش مكتئباً في كنف قبيلة أخرى.

ينتصب جبل مَحْضَة Mahadha فوق قرية على ارتفاع سبعمئة قدم كاملة، وتطلّب منا ما يقارب الساعتين لتسلّقه في الصّباح التّالي، ولكننا كوفئنا برؤية المنظر من قمته الذي يرتفع ثلاثة آلاف وأربعمئة قدم عن سطح البحر. وعلى الرّغم من السّديم فقد التّمتعت حصون البريمي والجزي⁽¹⁾ Jimi في الشّمس، وأجاب علي على تساؤلاتي بالإشارة إلى منطقة العقّادات⁽²⁾ Uqdat القريبة منها. يقع في الشّمال الغربي سهل مهم، وتمتدّ إلى الغرب رمال ذهبية لتصل إلى خط الأفق.

هبطنا من الجبل وكان اليوم هو يوم رحيلنا المحدّد، يقع مسارنا عبر تلك الرّمال الذّهبية التي انحدرت من ارتفاع ألف وخمسمئة قدم بعيداً إلى مستوى البحر في السّاحل المتصالح. هذه الرّمال على مسافة ستين ميل من هنا هي نتوء الرّبع الخالي

(1) يكتبها المؤلّف بالميم Jimi بينما يفترض أنه يعني قلعة وادي الجزي القديمة. (أحمد)
(2) شغل موقع وطبيعة عقّادات عقول المستكشفين العرب لسنين طويلة - واستطعت الآن أن أحسم ذلك الخلاف، فقد أشار ويلستد إلى جبل عقّادات في عام 1820 على أنه سلسلة جبال تقع في جنوبي البريمي في عام 1885 وأعلن بأن عقّادات ويلستد كانت أسطورية. وأمّا صموئيل زويمر الذي قام برحلة بعد ذلك بعشرين سنة فقد تتبّع المراجع الأقدم ووضع الاسم في الخارطة. وقام السّيربرسي كوكس برحلة بعد سنة أو سنتين من رحلة زويمر فقد تبع مايلز، ولكنه جازف بالقول بأن الاسم ربما يستعمله العرب المحليون مرادفاً لجبل حَفِيت Hafit. وفي الواقع فإنّ عقّدة لا توجد على شكل سلسلة جبلية ولكن كمقاطعة، غابة من السّنط في الحجارة الرّمليّة. وتوجد منطقتان مختلفتان من تلك المناطق: عقّادات الحافي وعقّادات البريمي. وكلمة Uqda تعني «عقّدة» ويمكن أن تضمّن معنى الأغصان المتشابكة للأكاسيا (السّنط) التي هي هنا نبات مميز للمنطقة.

الماحل الذي يمتدّ دون أن يستكشفه أحد (وهذا مغيظ) باتجاه الجنوب حتى يصل تقريباً إلى تخم المحيط الهندي⁽¹⁾. تمرّ رحلتنا بالقرب من جبل Faijah، وهو تمّوج رملي أحمر على ارتفاع ثلاثين قدم، لطفته شجيرات قزمة، ونمى في المنخفضات عدد من أشجار غاف ghaf الأكاسيا، جذوعها غليظة وملتوية على مرّ السنين، وشعرت بالإحباط لأنني لم أسمع الرّمال التي تغني⁽²⁾.

هنا لا يوجد من كائنات سوى بني قتب ذوي الجداول المصفورة، وهم أكثر بدائية من أخوتهم المقيمين في بداية الرحلة، ويمكن تمييزهم من الجوارب التي يرتدونها لأجل الحرارة العالية للرّمال ويتوسّعون بوجود غير ثابت مع جمالهم وقطعانهم. هذا إلا إذا اعتبرنا زواحف الرّمال الصّغيرة التي تهرب لتختفي في الكثبان الرّمليّة الرّخوة عند اقتراب أي احد منها تاركة وراءها أثاراً جميلة في الرّمل حيث ذهبت. وقفز عند أقدامنا أرنب برّي ارتخت أذناه إلى الخلف وصُرع بشكل نظيف - ضربة موفقة - من بدوي استعمل رصاصة دُمْدُم dum-dum. تنوع وحشي يستعمل بشكل عام من حزام الخرطوش في فرقتي الخاصّة. كانت أمسيات يونيو غير بهيجة بسبب النّدى الكثيف، وكان الماء يُسحب من بئر جفر الحليس Jifr al Halais من عمق عشرين قامة، وكان مُراً كالحنظل.

إنها أراضٍ مجدبة، رافقني مؤخراً شيخ العوامر الذي قال بأنه سوف لن يغيّر وجوده الجائع العطشان بالاضافة إلى حرّيته مقابل ترف الحياة وقيودها، ولكن حدود المجاعة تجعل الرّجل همجياً، وقد سرد لي قصّة تلقي الضّوء على ذلك.

رأى بدوي عربياً على قارعة الطّريق يحمل حزمة صغيرة على كتفه، وكان البدوي يتصوّر جوعاً، فتخيّل أنّ في الحزمة نقوداً أو أي شيء ثمين آخر، فرفع البدوي بندقيته

(1) كان لي الشرف أن أستطلع جنوب الربع الخالي بعد ثلاث سنين، انظر: «رحلة عبر الربع الخالي، صحراء جنوبي جزيرة العرب» التي نقلت إلى الجمعية الجغرافية الملكية.

(2) انظر «حكايات الرّحلات» لكرزون Tales of Travel من أجل بحث مطول عن هذه الظاهرة الطّبيعية في جزيرة العرب في كتاب آخر.

وصوبها إليه وأرداه قتيلاً، وهرع لفتح الحزمة فلم يجد فيها كنزاً على الإطلاق بل وجد فيها نوى تمر فقط، كان القتل يريد به علماً لبقرته، فأضناه الأسى ليس لأنه أراق دم بريئ ولكن ندماً لأنه خسر طلقة كاملة من ذخيرة سلاحه.



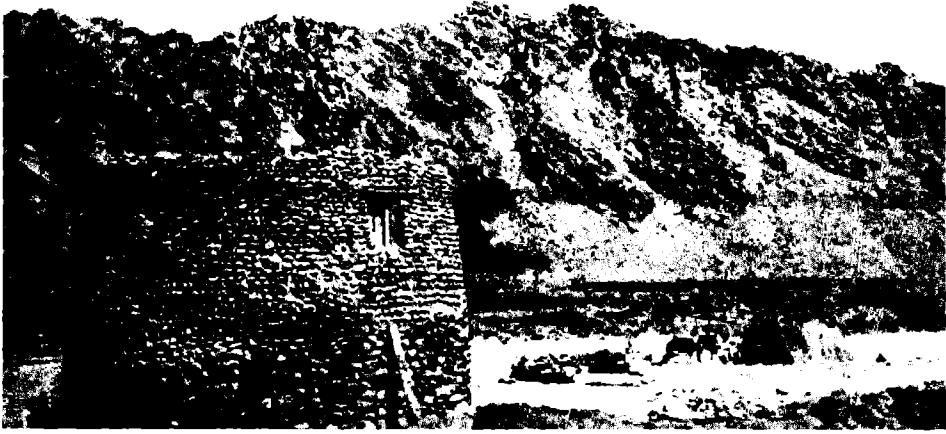
تتاخم أبراج الشارقة الهزيلة خط الأفق المنخفض الآن، في منظر بدا يشبه المنارات في إطار البحر. وعندما تقدّمتنا من المدينة في الصّباح الباكر خرج موكب فرسان لاستقبالنا، وأطلق برج الشيخ مدفع الترحيب. وصلنا لنرى أنّ نار العداء قد اتقدت، إذ أخفق شيخ سابق بهجوم على خليفته في منصبه، فاحتفل الأخير بنصره بغرس أميال محمّاة حتى التّوهج في عيون ستة سجناء سيئي الحظ، فقتلت العملية أحدهم وسيّبت العمى للباقيين مدى الحياة، حدث كل ذلك قبل ستة أيام من وصولنا⁽¹⁾.

ترجّلتُ على شاطئ الشارقة في حرارة شديدة من قبل ظهر أحد أيام شهر يونيو، لقد قطعنا شبه الجزيرة وخلفْتُ ورائي صحار على مسافة مسير اثنين وعشرين يوماً.

كانت إحدى سفن صاحب الجلالة H.M. جديدة تماماً كما لو أنها في استعراض في سبيتهد Spithead تريض على الشاطئ، وفي غضون عشرة دقائق تذوّقت طعم الرّفاهية من المراوح الكهربائية وآخر أخبار المباريات ووسائل الرّاحة في جناح الضّباط.



(1) لم تكن قراءاتي في وقفات رحلتي بشكل غير عادي حول هؤلاء الناس، قال الشير جون مالكوم الذي كان في تلك الأنحاء منذ مئة سنة: «شغلهم الشاغل القرصنة ومسرتهم البطش، إنهم عُتاة».



برج مراقبة في وادي جزري



على درب الرحلة في منطقة الحاجر



بيت الجهل، من المعالم الأثرية في عُمان



نساء من بني قتب

الفصل الرابع من المغامرة الثالثة في الطريق مع السلطان بمنطقة الشّمْيلية

صُحار هي ثاني مدينة سياسية في السّلطنة، ولقد أشاد الجغرافيون العرب الأوائل بغنى هذا الميناء البحري وأهميته قبل أن يسمع أحد بمسقط، وكانت سوقاً للفرس القدماء في البلاد، وكانوا من الزرداشتيّة⁽¹⁾ Zoroastrians الذين جاءهم إنذار أخير مع طليعة الجيوش العربيّة التي تحركت بأرواحها لطردهم: «دع عنك كُفرك وآمن بالله ورسوله». وصُحار كانت العاصمة بنفسها، وكانت مكان كل مُطالب بالعرش منذ تأسيس نفسه حين قسمت البلاد في ولائها، وكانت مكاناً سرّياً لكل جريمة متسمة بالتفاق وسوء النّية توحىها الطّموحات الى عرش.

يوجد سرداب أسفل الشّرفة المحصّنة الضّخمة تضمّنت بقايا جريمة سيّد ثويني، الذي كان سلطاناً أيام رحلة بالغريث. فبينما كان الحاكم نائماً في غرفة أعلى الدّرج، جثا ابنه سالم على بعد ياردات منه وقد صوّب البندقية ذات الفتيل المهلكة إلى قلبه، ولم يكن الضّمير العام يعيق القاتل عقب ذلك عن النّجاح في اعتلاء العرش والحكم مدّة سنتين حتى يقوم من يطالب به.

ولكن صُحار اليوم ليست إلا ظلاً لما كانت عليه، تلاشى فيها حتى مجد غروب الشّمس الذي رآه بالغريث، ربما تحوّل إلى مشهد وردي منذ ستين سنة. تخلّى ميناء السّلطنة في الظّاهرة هذا عن معظم تجارته إلى دبيّ مركز اللؤلؤ الفتّي الذي كان يزدهر ومرّت عليه سنين عجاف في الحقيقة.

(1) أي المجوس بالتعبير العربي، نقلاً عن العبارة اليونانيّة: O Mágos. (أحمد)

رافقت السلطان في برودة المساء المتأخر برحلة على طول الشاطئ خلف الدّعامّة الشماليّة الشرقيّة المتداعية في سور المدينة القديم من أجل مراسم البرزة.

«من خيرك علينا سيدنا» كانت هذه الصّيغة تتردّد بينما ينهض موكب البدو من الحلقة واحداً تلو الآخر يأتي ويجثو ويتلفظ بالصّيغة وينسحب لبضع خطوات إلى الوراء للعودة إلى مكانه. هذه هي العادة، تبدو لعين الأوروبي طلباً للمال بلا حياء، ويسمّيها البدو رخصة بعد أن يستمتعوا بالضيافة مع جمالهم، والمتلقي في أشكال المجتمعات الأخرى غير المجتمعات البدائية نادراً ما يدرك أن خدماته يمكن أن تقابل بتقدير أقل ممّا يتوقع، لا يتوانى عن التذمر العلني بأنّ المكافأة صغيرة وتكاليفه متعدّدة. وأما بالنسبة للبقية فإن البرزة تعوّقه بصمت كتيب باستثناء مُدّع شرعي أو اثنين وباستثناء فنان القهوة.

تجولنا في طريق العودة حول حافة الخندق المائي الذي يطوّق أسوار المدينة القديمة، ودخلنا في مؤخرة صُحار عبر سلّم ترابي - شعريّة تحصين في قديم الزّمان - عبر بوابة كانت ذات مرة عريضة حيث مازل يقف عمودان بسيطان ولكن غير ذلك كان كومة بناء قريميدي بشع. كانت مزيّة صُحار المعمارية في آجرّات مربعة صغيرة مسطّحة مشوية، لا توجد في أي مكان آخر من الباطنة ولا يُصنع الآن المزيد منها، وتُنسب صناعتها بشكل عام لليهود.

تفتّت الآن سور المدينة وقد طوّق جناح البوّابة وامتدّ بطريقة غير منتظمة، ودعاماته الهزيلة أيضاً مصنوعة كلها من هذا البناء القريميدي الصّغير الباهت. يقع الطّريق الذي يخترق المدينة فوق ربوة على الجانب الغربي من الحصن - فوق تل، وربما يكون موقع حصن أقدم منه رغم أن البناء الحالي الذي يفتّت لا بدّ أن يكون قديماً جداً لأنّ جدرانها تنمّ عن ثلاثة عهود مختلفة، ونقوش المدخل السّطحية على البوّابة تقدّم أسماء وتواريخ تعود إلى المجدّد لطف الله في عام 1211 هجرية. إنه مكان إقامة الحاكم سيّد حمد في مركز القيادة الحكومي، وهو شقيق السلطان الذي يعتبر شخصية عظيمة في البلاد وهو مضيف فاتن. تفرّقت هنا وهناك بيوت أقدم مبنية بالآجرّ المشوي، ولكن غالبية السّكان اليوم يعيشون في عرائشهم المتواضعة التي سُتّرت عن عيون العامّة بواسطة ممرّات ضيّقة

من جدران طينية مرتفعة تمرّ بينها، أو بواسطة طرق مشجرة بالتّخيل.

هبت ريح شديدة وانتشرت تحت السّماء الزّرقاء حزم مغطّاة من الغيوم البيضاء. كنت أجلس على السّطح قبل غروب الشّمس بنصف ساعة. سطعت الغيوم المتجمّعة تحت الشّمس الغاربة بوميض ذهبي رائع وظهرت في منتصف السّماء الغربية ظاهرة طبيعية غريبة من أكثر الظّواهر جمالاً، فقد تحوّلت غيمة طويلة بيضاء فجأة إلى أوبال مثالي من نور نجمي يشغل ربما نصف منطقة الشّمس الظّاهرة، تتعلّق به إلى الأعلى على مسافة شبر نحو الجنوب. كانت ألوانه مشرقة في البداية وخبا لونه الأحمر والأزرق والأخضر بالتدرّج وتغيّر، وبعد مرور عشرة دقائق، ابتلعت الغيوم فاختفى ولم يعد يُرى. غربت الشّمس في لون قرمزي مذهّب ومَرّت ساعة بهذا الشّكل بينما كانت التّخيل تتحول إلى ريشات سوداء خفيفة مقابل صفحة السّماء المتلألئة بالنّجوم.

استدعي مبروك مجدّداً ليقدم تقريراً عن الأحداث الجارية. عليّ أن أشرح بأنّ مبروكاً كان العبد القهوجي، وجزّارنا اثناء المسير، وقد اشتكى في ذلك الصّباح من وثء رسغه، عزي في البداية لرفعه دلوّاً ثقيلاً طوال الليل. كان يزن اثنين وعشرين حجراً، وبالمصادفة كان أثيراً جداً لدى السّلطان، وإذا أراد الضّيف أن يتسلّى برقصة العبيد في القصر في مَسَقَط، كان يُقدّم مبروك ذو الحجم الفيلّي ليضفي حرفة للرّقص وكان قد أتقن خطوات يعود تاريخها إلى سنين كان فيها أكثر نحولاً.

قال السّلطان بينما كان يتقدّم الأسود الضّخم: «حسنأ مبروك، كيف ذراعك؟».

«أفضل حباب» ورفع العبد ذراعاً متورّمة، هي بطبيعتها ضخمة ولكنها الآن بحجم أربعة أذرع ويد منهكة قد تورّمت بنسبة مساوية مرعبة.

قال السّلطان: «تبدو المعالجة خاطئة، يجب عليك الذّهاب إلى مَسَقَط وتدع الطّبيب يعيد العظمة إلى مكانها».

توسّل الرّجل: «لا، لا، لا، ليس فيها شيء (هذا خوف العبد المألوف من مبضع الجراح) ستكون على ما يرام في غضون يوم أو يومين، لا أريد الذّهاب إلى مَسَقَط،

دعني أتلقى علاجاً بتلاوة القرآن».

«ماذا فعلت لها غير ذلك؟».

«كمادات، حباب. بياض البيض وورق السدر *sidr* (التَّبَقُّ) والملح».

أراد العبد أن يعود ثانية في ذلك المساء

«طيب مبروك، ماذا هنالك؟».

قال مبروك: «آه يا سيدي، أخبرني خادمك سيف بن يعرب الذي يقرأ النجوم، بأنها ليست وثأة إنها عين حسودة».

«وماذا بعد؟».

«القراءة فقط سوف تنفع».

قال السلطان: «تعال، هذا هو التشخيص فعليك إذن إجراء العلاج، ولكنني أفضل الرجل الذي ذهب إلى مَسْقَط».

كان مبروك عنيداً، انصرف هو وسيف المعارض لقراءة من الآيات الكريمة، وفضائلها الشافية:

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم،

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾.

سورة الأحزاب

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾

سورة القلم

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

التفتُ إلى الشيخ القريب مني: «هل تؤمن بإصابة العين الحسودة؟».

فقال: «نعم أو من بها، وكذلك كل رجل حاضر يؤمن بها، هل تتذكر الجمل في الخابورة؟ حسناً كنت أنظر إلى خطواته بإعجاب عندما وقع».

هنا كان إقراراً لخاصية محدّدة في الإعجاب هي أن الذي يملك العين الحسودة كان ببساطة يُعجب وليس بنيتّه الأذى.

عاد الآن سيف، يدلي بعدد من الأمثلة كي لا يهزم، صادق على صدقها ببلادة الجمع الساذج. يبدو أنه يسافر مع مرافق وأرادوا اللحم. فاستلّ مرافقه سكينه وذهب لمطاردة معزة وحيدة في طريقهم، لكن العنزة وثبت إلى شجرة كما لو أنّ القدر أراد لها الهرب، كان مرافقه سيئ السمعة يملك عيناً صائبة، فما عليه إلا أن ينظر إلى الكائن بإعجاب ليتشقلب إلى الأسفل إلى مكان السكين بالضبط⁽¹⁾.

جاء إليّ سيف في الصّباح التّالي فسألته كيف عرف بأنّ مبروك كان ضحية العين اللامة.

أجاب سيف: «قرأت في الرّمل، فعرفت بأنها امرأة بيضاء البشرة مررنا بها في الطريق».

(1) كان المُعتقد ينتشر زمن الحرب في العراق كما أذكر انتشاراً واسعاً. وكان يُعتقد بقوة التأثير الخاصة للفيروز في إبعاد الشر. قليل من الرّجال والنساء والأطفال لم يكن يمتلك خاتماً من الفيروز أو أية حلية أخرى منه، وتقريباً كل خان يظهر قطعة صغيرة زرقاء من الفخار ملصقة بالملاط الخشن فوق المدخل لإيمانهم الساذج بفعاليتها في طرد الشر.

استغرقت بالتفكير بنظرية الإعجاب، وبما يتعلّق بمبروك الأسود الضخم،
وتعجّبت أي نوع من العجائز تلك الشّمطاء يمكن أن تكون.

أشرف سيف الآن على حل خيوط لغز الكون لي، إذ كان علم الجغرافيا له وحده
بين كل هؤلاء العرب، بدأ؛ استنتجت بسرعة علم سيف، فهو لا يعلّق وزناً محدّداً على
خط العرض الاستوائي، والمبدأ الذي يعتمد عليه هو خط الاستواء الطولي الذي يمر
عبر الرّوم Rum (القسطنطينية) والإسكندرية ومكّة: توجد أرض مجهولة غرب خط
الاستواء وفي شرقها ديرة *diras* الأتراك، وأهل فارس (بلاد فارس) والعرب والهنود،
محور الكون على سبيل المثال وموطن المؤمنين الحقيقيين.

انكشفت كل الأسرار، وبقي سرّ واحد: «أين السّدّ الحديدي للإسكندر ذي
القرنين؟» مشكلة مغیظة بالفعل! تهرّبت بالتّظاهر بفهمي المحدود.

تحولت من علم لعلم آخر وسألت: «على من تعوّل أكثر، على النّجوم أم على
الرّمّل؟».

«النجوم، الله يسلمك، تخبرنا أقلّ ولكنها تؤثر تأثيراً مباشراً، أما الرّمّل فهو يجيب
على الأسئلة فقط».

قلت: «ولكن تعال ياسيف ماذا عن ذراع مبارك؟ لأن الرّجال يقولون بأنها ليست
العين اللامة ولا الدّلّو ايضاً ولكنها لدغة أفعى!».

أجاب الضّارب بالنّجم الملكي: «الله العليم» دون شبهة بعدم الارتياح.

وبقي سيف أفضل من يقرأ الشعراء حتى الآن. لديه إحساس تاريخي وأسلوب
مسرحي، أنا متأكّد بأنه كان يمكن أن يجلب له الثّروة لو كانت هوليود معلمه
الخاص وليست صُحار. كنا ننتظر بفارغ الصّبر قراءته التي تتلو العشاء في كل مساء
على السّطح، يتبعها غرائب الشّاعر المهزّج، وتختتم بقصائد معينة للمتنبّي لاستعادة
الجرس المتزن. فهو ليس مجرد إنشاد للقصائد، فالشّعر العربي التقليدي ينقل عادة
كأنشودة، ولكن حالياً يغتنى هذا الشّكل من القصائد الغنائية بالتّحديد.

كانت الجوقة تتبع كل بيتين، وكان لدي فضول يدفعني ان أسجل ثلاثة من هذه المردادات *Murdad* التي كانت عكس أناشيد حذاء الجمال خاضعة للعلامات الموسيقية الأوروبية.

سقط ندى كثيف في تلك الليلة، ولكن أيقظني صوت المؤذن لصلاة الفجر ولم توقظني أغنية سريري المبلّلة، فنهضت لأرى النّخيل حول البيت وقد غلّفها السّديم، وكان النّداء للقهوة من الغرفة الدّاخلية يدلّ على انتهاء تلاوة الفجر للقرآن، وهو استعراض صباحي يتوجّب أن تحضره جميع حاشية السّلطان، فالتحقت بالمجموعة عند الختام. ظهر السّديم من خلال المدخل المفتوح معلقاً وكأنه ستارة رقيقة من الثّليج المتساقط تحوّل كل شيء تنظر إليه من خلالها إلى اللون الأبيض الحليبي، علّق السّلطان قائلاً: «طقس موسمي نموذجي لجنوبي جزيرة العرب، يدوم حاله في ظُفار ثلاثة أشهر ونصف في الصّيف، سوف ينبت بساط أخضر».

دخل رسول في هذه اللحظة، قال للسّلطان: «سيدنا، خادمك الشّيخ عبيد يرسل السّلام ولا يريد المزيد من زيت القنّدس بعد كل ذلك».

نظر إليه سموّه الذي كان يسافر دوماً ومعه الأسيرين وعقارات من نوع أكثر تفجّراً وقال: «لم لا؟ لقد طلب القليل عند وصوله البارحة».

«يقول خادمك بأنّ أحد المطوّعة (قِيم ديني) سيكتب عبر كتفيه من الآيات (آيات قرآنية) وهو يفضّل هذا العلاج». (وصل الشّيخ ببطن متصلّب وصداع استمرّ معه لمُدّة يومين).

هكذا كان دستور الصّيدلة المقدّس العُماني.

في هذه الأثناء جلس مبروك العبد صانع القهوة في أسفل الدّرج يمرّض ذراعه. نظرت إلى المسكين الذي يئنّ عندما خرجت لجولة الرّكوب الصّباحية، تغيّرت معالجته ثلاث مرات خلال أسبوع واحد، لأنّ المرهم والقراءة قد غرّزا بعلاج جديد. بدت ذراعه وكأنّها غُمست في صندوق طحين - باستثناء أنها كانت موضع مهرجان

لكل الذباب في الجوار - يدين ذلك المنظر لعلاج العظم الأبيض للسمهور *sambhur* الهندي مع القليل من بياض البيض، يخزن عظم الغلب *adhm al ghulb* هذا، كما يدعى، في كل سوق محلية، ويعد استعمال مسحوقه مخصصاً للتورمات والوثثات.

كنت أنا والسلطان على السطح نستمتع ببرودة نسيم المساء في الليلة السابقة لرحيلي، عندما ظهر عبد يحمل أول قطعة توت طازجة في الموسم. كان منظره منعشاً في كوزه الكبير من الأوراق المتشابكة الخضراء - لتي تشبه ورق التبن - تجعل المرء يشفق لتوت العليق الإنكليزي. كان هلال قمر ذي القعدة فوقنا في السماء الشاحبة، يتبع مسار الشمس التي غربت قبل قليل بتوافق ساحر مع الزهرة المتألقة ووميض مجموعة نجوم الثريا الصغيرة الحارسة إلى الأعلى قليلاً. تقهقر البحر ليعرض توسعاً فسيحاً من الشاطئ الضحل حيث يقول بعض الناس بأن صُحار كانت تقبع هناك ذات مرة. سيتحدث الصيادون عن قمر التخيل وأساسات البيوت التي تقع على عمق ثلاث قامات في وقت الفيضان على بعد أربعة كابلات طولية بعيداً عن الشاطئ، ولكن السلطان يشكك بهذه النظرية، قال وهو يشير إلى رابية صغيرة شمال المدينة: «هناك، كانت صُحار القديمة».

حان وقت النوم، لا قراءة اليوم في الليل كي لا تتعارض مع البدء باكراً صباح الغد. أشرق الصباح، وسرعان ما تلهف الشاطئ للبدو والجمال وارتفع ضجيج المخيم النشط.

سألت عن مبروك الذي ستركه هنا: «حسنًا، كيف صرت هذا الصباح؟».

أجاب والأنين يطن كلماته: «أسهل، فخامتكم، قرأ على ذراعي سيّد محمّد بن هلال».

استفهمت قائلاً: «قراءة ثانية؟ من والي شناس؟» لأنّ الفعالية من قراءة الأتقياء، ومحمّد كان، واحسرتاه، ردئ السمعة بسبب هفواته في قدسيّة الصلاة والصوم.

تجرّأ بالقول أحد المتفرّجين المتلهّين: «آه! قراءة غير دينية، اشتهر محمّد بعلاج لدغات الأفعى».

جاء السّاحر لرؤيتي قبل الرّحيل فسألته: «من أين لك وكيف لك مثل هذه الطّاقات يا محمّد؟».

«والله يا صاحب، في الحقيقة سوف أخبرك، رغم أنني لا أفسّي السّر لغيرك، فقد دفعت أربعين دولاراً فضياً لأحصل عليها من شيخ في طيوي Tiwi».

«إذن ماهي الصّيغة؟» فكتب لي بلفظه العربي تلك الرّطانة:

حرمكي؟ برمكي؟

أخرج من الجرح

(اسم المصاب) ابن (اسم الام)

من العظم إلى الدّم

من الدّم إلى اللّحم

من اللّحم إلى الجلد

من الجلد إلى الشّعر

من الشّعر إلى التّراب

سلطان أحمد

«لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم».

خلط غريب بين الوثنية في البداية وبين الإسلام في النهاية، ولكن لماذا أسم الأم وليس أسم الأب؟

تطوّع بالقول: «إن كان المريض مفرط الحرج من ذكر اسم أمه في الصّورة يكفي «ابن حواء»، ثم أضاف: «ولكن يوجد طقس أيضاً. يجب أن آخذ ليمونة وأقطعها من منتصفها دون أن أفصلها تماماً وأبقّيها متصلة بالقشرة فقط، ثم أفتحها إلى أقصى حدّ أستطيع وأقرأ عليها الصّيغة سبع مرات ثم أغلقها وأعصرها بحيث يتداخل عصيرها

بين التّصفين ويختلط، ثم بعد ذلك أقطعها نصفين وأعطي نصفها للمريض ليشرب عصيرها وأخذ النّصف الآخر وأدلكه بالطّرف المريض باتجاه الأسفل سبع مرات - يجب أن يكون التّدليك باتجاه الأسفل دائماً وليس إلى الأعلى البتّة. إذا عولج ضحية لدغة الأفعى بهذا العلاج سيّقيّاً على الفور وربما يخرج قسم كبير من السّم إلى الخارج. العلاج مؤكّد مهما كانت اللدغة، لقد عالجت الكثير وأشهد بأنّ الأفاعي كانت سامة».

هنا يمكن لمحمّد تارك الصّلاة أن يكون عقلانياً، فهو يحتقر طائفة الزّار ومع ذلك فيإيمانه لا يتزعزع بقواه الخرافية السّقيمة التي يشهد عليها عدد من هؤلاء المجتمعين. جاءنا خبر وفاة مبروك في غضون أسبوع.

قال السّلطان: «قسّمته، كل شيء مقدّر، لكلّ منا يوم وساعة مكتوبة له ولا مهرب منها. لا حول ولا قوة إلا بالله».



امتدّ طريق الشّميلية أمامنا إلى الشّمال، وجدت نفسي في سرج غريب لأن «خوارة» كانت تعرج قليلاً - لماذا لست أدري. ولكن الشّيخ دحبه Shaikh Dahba صديقي القديم من قبيلة العوامر كان متوفراً مع حديد الوسم الحامي، وما لم يعرفه دحبه فيما يتعلق بالجمال الذي هو عالمه الخاص، فهو يعتبره لا يستحق المعرفة، وكان يطبّق علاج الكيّ بشكل واسع للجمال المريضة إلى جانب وسمهم القبلي (علامات مميزة) كما يطبّق على البشر، وكان بالتأكيد يطبق السّفع السّطحي لناقة دحبه عند أكتافها فيؤدّي المهمة وبعد يومين تكون جاهزة للركوب ثانية.

منحت ظلال بساتين التّخيل مكاناً لبطحاء صالان الرّملية العريضة batha of Sallan. امتدّ البحر بعيداً هنا تحت أشعة الشّمس المشرقة من جهة ومن جهة أخرى ارتفعت جبال الحجر الزّرقاء الباهتة وراء السّهل المحرق الأصفر. ثم عدنا ثانية للتّخيل الذي أصبح الآن أكثر نحولاً كلما تطرّفنا نحو الدّاخل بالتدرّج عبر ممّرات

ترابية تتجول فيها الأبقار بلا هدف أو تُقتاد الحمير المحملة أمام أصحابها المساكين،
ذاهبين غادين في أمورهم التافهة. جاء الآن امتداد عريض لسهل ملحى عندما كنا نمرّ
خلف متن حرمول الرّملّي باتجاه بساتين النّخل في لوى Liwa - وهو سهل خالٍ من
الشّجر ولكنه زاخر بالصفصاف ذي الأغصان النّحيلة، حيث نظرت إلينا الجمال وهي
ترعى وراقبتنا بثبات. كانت بهائم ضخمة غير متحرّكة يمكن للمرء أن يتخيّلها كأنها
نحتت من الصّخر الأصمّ.

قال سيف وهو يركب إلى جانبي: «لوى، تلك الرّكيزة القديمة المتداعية هي عمل
جدّي علي بن حمدون، لوى هذه من بعض ذراري صُحّار القديمة» ثم تابع: «كان لها
اسم قبل أن تنطق شفاه النّاس كلمة شناص».

ما زالت لوى اليوم مستقرّ الوالي، رغم أنها ليست إلا قرية بساتين نخيل على بعد
بضعة أميال وراء البحر. أعاققت تقدّمنا الآن أكثر الطّبول والسّيوف البرّاقة وطلقات
البنادق والحشود المتمايلة المُنشدة، حتى يترجّل السّلطان ويقدم الاحترام للسّكان
المساكين، لذلك جلسنا عند بوابة الحصن، مقعد العدالة من أجل خطابات التّرحيب،
والفواله⁽¹⁾ Fuwala والالتماسات والمزيد من الخطابات التّرحيبية. أتى بدويان
راكبين، وبعد ذلك بوقت قليل سمعت بأن أحدهما كان أعمى.

قلت للسّلطان: «أعمى؟ غير معقول، كيف إذن استطاع تدبر ركوب جملة؟».

أجابني سموّه: «يركب؟ بل يستطيع بالأحرى العدو به».

(1) الفواله في لهجة عُمان والإمارات العربيّة تعني وجبة طعام خفيفة تقدّم للضيف، فإذا حضر
ضيف بصورة مفاجئة قدّم له صاحب الدّار ما تيسر حينها من طعام، ويقال له معتذراً: (هذا الفال
وقافية العقال)، ومعنى ذلك: أنّ هذه (الفواله) وما يعقبها هي الكرامة لك. أي هذا قليل بحقك،
لأنّ كرامتك ومنزلتك تستوجب تهيئة ذبيحة ومائدة عامرة. بينما في أيام رمضان المقصود
بالفواله وجبة الإفطار الرّئيسية، حيث يسدّ الصّائم رمقه بالقليل من الطّعام كالتمرّ واللّبن عند
سماعه صوت المؤذن، فإذا صلّى قام إلى مائدة (الفواله) التي تحفل بما لذّ وطاب من الطّعام.
(أحمد)

«ربما نشأ هذان الجملان مع بعضهما، ولن يفارق أحدهما الآخر، لطالما وجد رفيقه معه فليس من الصعب أن يستمرَّ الرَّجل الأعمى بالتّقدّم».

هنا أقحم الوالي نفسه وقال: «إذن ماذا عن عبد الرّحمن من الرّيايسة؟».

قال السّلطان: «والله صحيح!» وهو يتبسم.

سألت: «من هو هذا الشّهم؟».

يبدو أنّ عبد الرّحمن كان سارق جمال شهير وهو ابن شجاع محترم لقبيلة الرّيايسة⁽¹⁾. ولكن إغاراته في منطقة الشّميلية أصبحت إرهاباً لذلك نُصب له فخ، وقُبض عليه في إحدى الليالي الرّائعة، سوف تعاني القبيلة بسبب تلك الزّيارة الليلية التي استعمل فيها أسلوب انتقام جديد تماماً، في هذه الأقسام الفاسدة.

قال الشّيخ: «فليأتني أحدكم بسكين مطواة حادة».

«ضعها في النّار أحمد، واجعلها حارّة متوهّجة. والآن اقبض الشّجاع وثبته».

قفز أربعة من رجال القبيلة لتلبية سيدهم، وبينما أمسك الضّحية القوي بينهم وفتح أجفانه، قام الآخر بسحب النّصل المتوهّج بالحرارة من النّار وأقحمه في بؤبؤ عين المتعوس.

أعيد عبد الرّحمن بهذا الشّكل إلى قبيلته وقد فقد بصره مدى الحياة.

قال الوالي: «ولكن هل تظن بأن ذلك قد شفاه من سرقة الجمال؟»، «كلا، والله!

كلا! بعد سنتين في ليلة ليلاء أخذت القبيلة ذاتها عشرة جمال. وقد قام عبد الرّحمن برد الزّيارة - الله عليم - كان هو نفسه وابنه اللّصين، ما زال عبد الرّحمن حياً يرزق، بفضل الله، وهو عجوز الآن»⁽²⁾.

(1) الرّيايسة من قبائل عُمان، والنّسبة إليهم: الرّيسي، وتغيورتهم: القدح. (أحمد)

(2) لدى قبيلة الرّيايسة هذه نظام إرث فريد، فهم لا يورثون نساءهم - وهو يعارض تماماً نظام الإرث الشّرعي الذي يطبّق بشكل شامل في جزيرة العرب، تراث البنت بموجبه نصف حصّة الولد والأرملة الثّمن من الممتلكات. يقول النّاس بأنّ الرّيايسة من أصل بلوشي أيضاً، فكيف تسمّى قبيلة عربية أبناءها شانبه Shanba وما شابه؟

تركنا الممرات المورقة التي تمرّ قرب نبار Nabar - وهو مكان يؤمّه الشافعيّة، وبه مقام الشيخ مسعود عالم الدّين، ولكنه بناء بسيط بدائي لا يقارن البتّة مع مقامات طائفة الشيعة ذات القباب الخضراء في العراق. سرنا قدماً في الفرجات المظلمة في بستان النّخيل وغابات الأكاسيا التي امتدت إلى مسافة ميل باتجاه الجبال المجاورة. إنها أراضي متنزّهات فسيحة، انتشر فيها في البعد بساط أصفر يفترض أن يكون عشب الحودان، ولكن تبين بأنها أعشاب الهَرَم harm. جثمت أكلة النّحل التحيلة بذبولها الطويلة الخضراء على الأغصان العالية، وطيور الشّقراق ذوات اللون الأزرق المشرق تطير بأجنحتها القوية من شجرة إلى شجرة، والهُدُود ذو العرف الجميل وحنجرته البنية البيضاء وجناحيه المخططين الذي يفتن منظره عندما يفرّ تتبعه أليفته، يقول العرب بأنّه الطائر الذي حمل أخبار ملكة سبأ إلى سليمان.

وصلنا إلى شناصر عند امتداد السّهل الملحي الخالي من التّباتات، بحصنها المتواضع القديم الذي ينتصب كثيباً عبر القفار. يصبح هذا السّهل صفحة ماء في المدّ الرّبيعي عند الاعتدال الرّبيعي، وفي الأيام العادية أيضاً ينكشف الشّاطئ المزوّد برغوف لطيفة أمام المدينة بمسافة نصف ميل تقريباً، عندما ينحسر المدّ، ويصبح هوراً مؤقتاً مع الفيضان ويتغطى بالسّكن حتى الحافة تقريباً في وقت ارتفاع المياه.

لكن يقيم هنا الوالي محمّد بن هلال، بطل عدة معارك، هو رجل فاضل رغم علاجه لدغة الأفعى. كانت مآثره الأخيرة هي السير نحو قرية مسلّحة تائرة دون مساعدة وإلقاء القبض على شيخها السّابق. كان أكثر رجل متيقظ رأيته في حياتي ممّا سبب له الأرق لالتزامه بالضمير الحي، وفي المعسكر إذا صحّا أحد في السّاعات المبكرة ونظر حوله يرى دوماً توهج غليونه الفخاري القديم. يقال بأنّ مسير محمّد خارج خيمته في الليل يقدّم مسوغاً لمعظم الرّجال الآخرين الذين لديهم أسباب أقل أهمية، إلى البقاء نائمين مدّة أطول.

من المؤكد أنّ رجال قبيلتي بني كعب وبني قتب كانوا في الماضي يزحفون من جبالهم إلى الأدنى ويأخذون مكوساً من القرويين الذين كانوا في رخاء نسبي قد فكروا

مرتين وقللوا مطالبهم منذ قدوم هذه الشخصية القوية. يمكن تقسيم البشر في هذه البيئة البدائية إلى فئتين، ينتمي محمد بشكل مؤكد لفئة الناس التي يفضل المرء أن يتعامل معها في الأوقات الصعبة⁽¹⁾.

خُصِّصَت غرفة في الحصن للسلطان وحاشيته، فخيم البدو المرافقون لنا في السهل تحت الأسوار القديمة، وبسبب وسائل الراحة المحدودة اضطرت لمشاركة سموه غرفة الحارس في فناء الحصن، ونمنا هناك بقدر ما سمحت لنا رطوبة التدي الكثيف. استطعت الآن ملاحظة مرافقي أثناء صلاته التي كان دائم الحرص عليها بشكل كبير.

صلاة المسلمين لها قواعد محدّدة بالطّبع، نزل الأمر بها في القرآن، بأن تصلّى خمس مرات في اليوم في الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء بعد المغرب بساعة ونصف. تتميز الطوائف بشكليات مثل وضعية الذراعين أثناء الصلاة، وإدراج كلمة آمين التي هي ليست في أصلها، وطبيعة الطقوس المعدلة عند الزحف. وغسل اليدين والقدمين ضروري قبل الصلاة، ويجب غسل الجسم بأكمله بعد الاتصال الجنسي - وإلا كانت الصلاة باطلة.

سألته: «ما هو هدف وضع قصبة أمام سجادة الصلاة؟».

أجاب رفيقي الملك: «تلك، لحماية المصلّي من الانقطاع في بعض الاحتمالات».

سألت: «كيف؟».

(1) كان واجبي للأسف أن أخلع محمد عن الولاية بعد سنين، فقد اغتصب مخصّصاتي المالية، لأن سلطة الموت والحياة كانت محصورة بالسلطان فقط. أثناء غيابه في مجلس الوزراء اعتبر محمد نفسه ملائماً لتنفيذ إعدام دون المراجعة، بأسلوب يستحق الشجب بكل معنى الكلمة. كان الضحية سارق جمال مشهور تملّص من الوقوع في الأسر، وكان آخر عمل صفيق له أن اقتحم حصن الوالي في الليل وحاول إبعاد طفل من بين ذراعي أمه ليأخذه بعيداً ويبيعه عبداً. ربط الرالي اللص أمام مدفع برتغالي قديم ملقّم وبطنه يواجه فوهته، وقام بنفسه بإشعال فرضة الإطلاق فتمزّق المسكين إرباً.

«كما تعرف يمكننا أن نصلي فقط ونحن نواجه المدينة المنورة⁽¹⁾، حيث دُفن رسولنا. ولكن إذا مرّ أحد من أمامنا ضمن أربعين خطوة يجب أن نعيد الصلاة من أولها، لأن الصلاة انقطعت. وتطبق تلك إذا جاء أي شيء غير طاهر ضمن مدى ذراع، مثل الكلب والمرأة أثناء حيضها، أو رجل لم يتطهر من الجنابة الكبرى. هذه القصة إذن هي رمز لتلك الخطوات الأربعين التي إذا وُضعت هكذا تحمي صلاتي».

علّقت: «كان عدّة بدو عند السفر يستعملون بنادقهم».

أجاب: «الشّيعية يعلّون على حجر صغير يأتون به من مدينتهم المقدّسة كربلاء ويحملونه معهم ويدّعون بانه يحمل قدسيّة تراب الجنة».

سألته: «كيف يتدبّر البدو أمر وضوئهم في رمال الصحراء الخالية من الماء؟».

«هكذا» - وضرب التراب ثلاثة مرات براحتي يديه المبسوطين ومسح بهما على وجهه ولحيته واحدة تلو الأخرى، ثم ضرب على التراب ثانية ومسّد ساعديه بالتعاقب: «وهذا كل ما في الأمر».

* * *

سرنا مرة ثانية عبر بساتين النخل التي شمخت فوق الشاطئ. زُرع التّبع تحت ظلالها لمسافات واسعة وكان في هذه المرحلة مثل الخسّ العملاق، انتشر إلى الخارج على الجانبين، لأن الشّميلية منطقة إنتاج غزير للتّبغ في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب. بينما يتزوّد مدخّنو دبي والبحرين بحاجاتهم ومتطلباتهم نصف المحظورة من الظّاهرة وهابية التعاليم، وكل حاجاتهم المحرّمة من عُمان الإباحية.

ولكن الأفيون الفارسي والقنب الهندي، وهو مُستخلص أسوأ بكثير، يستخدمان إلى حدود معينة في الأماكن التي ورد ذكرها أخيراً بهدف تخفيف معاناة الرّجال وإضعاف عقولهم. والكحول غير معروف عند الجميع باستثناء حفنة من سكان المدن المتصلين بالهند، ولم أر حتى الآن عربياً سكراناً على الإطلاق، فدينه يحرم الكحول

(1) كذا يرد في الأصل، وهو خطأ بالطبع، لعلة من سوء ذاكرة المؤلف. (أحمد)

لعلمه بالتأكيد بأنه ذو مزاج متطرّف في سرعة الاهتياج، ويحمل سلاحه المميت معه باستمرار.

بينما كنا نعدو ونحن نشد هنا وهناك عبر الممرّات المعطّرة كانت تهبّ علينا نفحات من الرّيف الإنكليزي، مررنا بضفاف منخفضة من أجسام الأكاسيا رائعة المنظر، والوشيع البري يتعاكس مع الخضرة التي أخفت نصفه في الزوايا المجهولة، وشخص ريفي أخرج أو اثنان، وأغصان المعورة *ma'awarah* الخضراء السّامة للنظر والتي يجفل منها الرّجال والعسبق *asbaq* المشابه لها. وتشكيلة من التّين الشوكي، الصّبار الذي يطلق العرب عليه اسم نخل الجن، وشجرة العقرب الشّبيهة بالسّرخس، والبذور القرنية التي يتزود الصّبيان منها بالبيدق في ألعابهم في الرّمل، والمريمية الخضراء الأشجرة *ashkhara* - كل ذلك معروض بشكل واضح.

كنا قد وصلنا إلى ميناء التّبغ الجديد في أبو بكرة. نظّمت الواقيات المألوفة مواجهة للبحر لاستقبالنا وسط عدد لا يحصى من القوارب المسحوبة فوق العلامة القصيرة على طول الشّاطئ المنحدر. يميّز هذا المكان الصّغير بمزّة غريبة، فهو يبدو قد وُحّد بنفسه ممثلي كل نحلة إسلامية مهمّة. كان التّجار من بلاد فارس إما شافعيين أو شيعة، والبلوشيّون هنا أحناف، وزمر الظّاهرة مثلوا المالكية والحنبلية، وفي بعض الأحيان العُمانيّون يمثلون الإباضية. يقدّم الالتقاء الحرّ الكامل الملاحظ في استعمال المساجد، ليس هنا فقط ولكن في كل البلاد درساً بالتّسامح يجب على العالم المسيحي أن يتعلّمه إذا كان يريد اتّباع روح المؤسّس.

شارف الليل على الهبوط، ووصل البحر إلى بعد عدة خطوات عنا. كان إغراء السّباحة في البحر شديداً برغم وجود سمك القرش في تلك المياه ولكنه لا يحبّ المياه الضّحلة على الشّاطئ، ويبدو أنّ الأجسام السّمراء لا تثير شهيتّه - على الأقل أجسام الغوّاصين على ضفاف اللؤلؤ والصّيادين على طول ساحل الباطنة الذين لا يخشون استخدام المياه الزّاحرة بسمك القرش. وهكذا جعلنا درزناً من العبيد يسبحون بعيداً بصيحاتهم المرحّة ليشتكّلوا لنا حلقة بحيرة سباحة اجتذبتنا للتّساقط

مطلقين رشقات في مياهها. كان دفء الماء رائعاً في تلك الليلة المتلألئة بالنجوم والوميض الفوسفوري الذي خرج مع أحد أثواب السباحة المزينة باللمع. استعراض سباحة أصبح عاماً من الآن فصاعداً، رغم أنّ بدو الفرقة المرافقة الآتين من الداخل لم ينغمسوا فيه لاعتقادهم بأن السباحة تسبب شهراً من الحمى.

تحركنا في اليوم التالي بحذاء الشاطئ إلى المرير Murair حيث انتهت غيضة نخيل الساحل الكبير والجبال تقترب دائماً في الجهة اليسرى. يمكن السلطان هنا مع المجموعة الرئيسية أما أنا فقد تقدّمت إلى الأمام مع وليّ العهد الصغير وعدد من البدو لاستطلاع خطمة ملاحه Khutma Malaha، حيث تتأرجح جبال الحجر لتواجه الساحل وتضع حداً للسهل الهلالي الكبير الذي اخترقناه في قدومنا، وتصبح علامة للحدود الأمامية مع عُمان المحايدة. يستمرّ امتداد جبال الحجر الرئيسي في الواقع حتى يخترق الساحل على مسافة أقل قليلاً من خورفكان، وهي حدود أمامية قديمة في الشمال ولكن هنا في الخطمة ينتهي رعان بجروف عالية تخرج من السلسلة وتبرز نفسها في السهل بزوايا قائمة في شاطئ البحر، الذي لا يبعد إلا ما يقارب ستمئة يارد.

انطلاقاً من هذه النقطة إلى دبا Daba، توجد ديرة القواسم Qawasim، وهي فرع من قبيلة ساحل اللؤلؤ الذي تخلص من ولاء الحكومة الإباضية في القرن الثامن عشر، ونالت هذه الحدود المتطورة في أيام القرصنة من سيّد سعيد بن سلطان نفسه. تبدأ ثمانية منطقة السلطنة في دبا عند رؤوس الجبال مانحة الود المتداخل طبيعة دهليز القواسم. كانت مدينتا كلباء والفجيرة الصغيرتان فيها تخضعان فيما مضى للشارقة ورأس الخيمة بالتتالي، ولكنهما الآن مستقلتان عملياً وكانتا تقتتلان قبل وصولنا تماماً حول نزاع قديم، وقد جاء شيوخهما مؤخراً للالتحاق بفرقة السلطان بهدف دعوته لحلّ النزاع بينهما. كنّا نسير إلى هناك، واقتضت الضرورة مغادرة شيخ كلباء أثناء الليل ليسبقنا إلى مدينته ويهتئ لاستقبالنا.

تسلّقت مع سيّد سعيد الخطمة ونظرنا إلى الأسفل إلى المستنقع الطيني الأسود الذي يتاخم خط الشاطئ. مكان اشتهر بالعبيد الذين يأتون إليه ليحتطبوا لأسيادهم

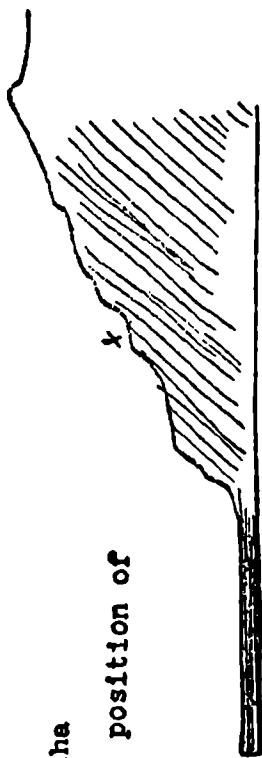
في القرى الحضريّة، فينقّص عليهم بدو الظاهرة الذين يسعدهم التّرصّد لهذا الهدف، ويحملون غنيمتهم إلى أسواق ساحل اللؤلؤ.

حقّقْتُ اكتشافاً هنا، في واجهة صخرة مكسورة أبعادها ستة أقدام بأربع بثلاثة كانت تقع بمنتصف الطّريق إلى الخطمة، لاحظت وجود بعض الكتابات، كانت سطحية ومنعزلة ولم أجد غيرها، رغم أننا تابعنا البحث - فظننت أنها ربما تكون بفعل خنجر أحد البدو في وقت مؤتمّر رسم الحدود منذ مئة وعشرين سنة، تعاصر الحجارة الصّغيرة المخلخلة في السّور الذي يبدأ من أسفلها، ويمتدّ إلى الخارج نحو البحر لمسافة ما يقارب خمسين يارداً لتشكيل الحدود. دفعني فضولي لتسجيلها، ثم صادفتُ فيما بعد سجلاً لنقوش سبّئية اكتشفها ضباط شركة الهند الشّرقية في سفينة المساحة بالينوروس عام 1834 في حصن الغراب Hasan al Ghorab في حضر موت، وتحت أحد النّقوش تصميم غريب ذكرني بتلك الخربشات في الخطمة⁽¹⁾.

(1) كذا رأيت فيما بعد بعض نقوش الصّخور المشابهة في بساطتها في وادي غاف، في وادي القور Qaur، على بعد ركوب ساعتين من أبو بقرة Abu Baqara. يبدو أن تلك هي صور التّماذج الأولى للجمال التي تُركب، ولكن أحد الصّخور المصقولة الحمراء المنقوشة بهذا الشّكل تحمل كلمات: «لا إله إلا الله محمّد رسول الله» بحروف مزوّاة تقترب من الخط الكوفي.

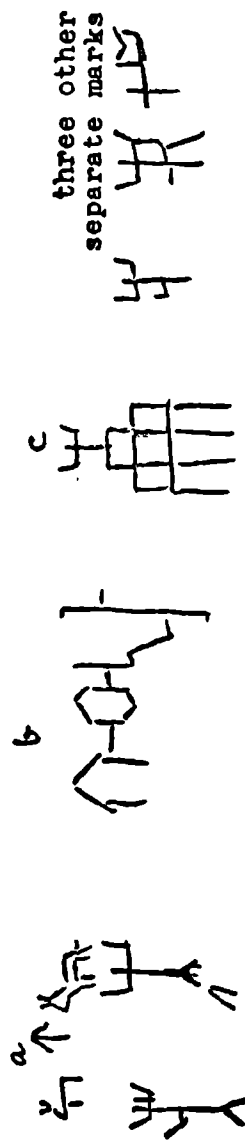
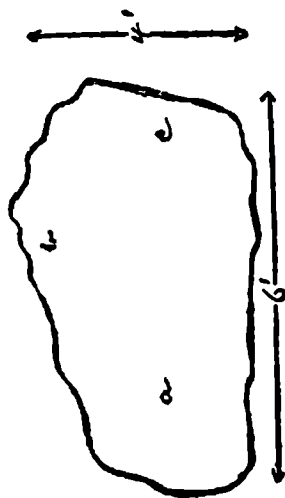
Khutma Malaha

x indicates position of boulder.



Boulder

letters indicate position of scrolling



KHUTMA MALAHA SCROLLINGS

نقوش خطمة الملاحة

أصبحنا في إقليم القواسم بعد أن توجهنا إلى الشمال خارج نطاق سلطة مَسَقَط. عرّجنا في سهل مرصع بالشجيرات الخفيضة والأكاسيا، ووجدنا مخيماً مبهجاً على بعد يقارب ثلاثة أميال خلف خور كلباء، في نقطة تقع إلى الجنوب من كلباء ذاتها. وهو مكان يمكن إدراكه بضعف من خطوط التخيل المتناوبة مع فجوات البحر الأزرق والسرّاب المغشى. جذبت الانتباه لنفسها طيور قبرة متّوجة بعُرف وهي تستحم بالزّمل، مخلوقات لا صوت تغريد لها، وصوت qa-ta'ing طائر الطيهوج الرّملي الذّاهل بسبب العطش، قد جاء على شكل سحب تتزايد ممّا يدل على ندرة المياه في الجوار.

كان يوجد بئر واحد فقط في الواقع لمسافة عدة أميال وهو الآن وسطنا، جاءت نساء من الجوار لسحب الماء. تفرّقت جمهرة البدو المرافقين على شكل مجموعات منفصلة حول المكان، ينتظرون بفارغ الصّبر ملء قراهم بالماء. قام أحد الأشخاص الذي لم يطق ترقّب رحلات دلو الماء الوحيد بالإمساك فجأة بحبل الدّلو واختفى في غيابات الماء الحبرية وكان يظنّ بأنه قد توقف لفترة طويلة وقربته الفارغة تحت ذراعه. وصل القاع وملأ قربته وبدأ الآن بالصّراخ طالباً سحبه إلى الأعلى. فما كان من المرأة في الأعلى إلا أن قالت له «لا» وسرعان ما ضحك كل من في المخيم ضحكة مكبوتة للموقع السّخيف الذي وضع البدوي نفسه فيه.

صاح به البدوي الذي يرفع الذّراع من الأعلى وهو يضحك: «أصعد بنفس الطّريقة التي نزلت بها، حمدان!».

لم يُسحب حمدان حتى وافق أن يعطي مياهه للمرأة التي كانت تنتظر الرّحيل، على أن يأخذ حصّته من الماء مع جميع الآخرين. حيّوا ظهوره بصيحة «الله أكبر» التّهكّمية التي كانت ترفعها مجموعة بعد الأخرى من جماعات القبائل في المخيم الضّاحك. لكن لم يقع اللوم على الفعل الذي قام به، فهو دافع فطري يمكن فهمه تماماً، وأنا أراه تعقياً مشوّقاً على حرب البقاء القاسية التي لا بدّ أن يؤجّجها أبناء الصّحراء مع بيئتهم وما تتضمّنهن مقولة: «حصّة الشّيطان هي الأخيرة».

لم يكن هناك شيء يسترعي الانتباه في كلباء Kalba نفسها التي كانت في سلام مع كل المدن الأخرى على طول شاطئ جزيرة العرب باستثناء الاستحكامات على طول الجانب الشمالي وأبراج المراقبة في بستان النخيل المجاور، وهي أدلة على أعمال حديثة مع رجال الفجيرة. كانت الحدود مثار النزاع، وتطمح الفجيرة بأن مكان كلباء في هذا الجوار يدخل ضمن أسوارها الأربعة رغم أنهما كانتا قانعتين بترتيبات الحدود الغربية بينهما في الشمال، حيث كان إقليم الشاطئ الخاص بهما يتناوب مثل رقعة الشطرنج، خورفكان وضدنة Zadna، وهما قريتا صيد صغيرتان زريتان تنتميان لكلباء من توسع ساحل الفجيرة الصخري القاحل وحتى دبا.

وماضي خورفكان ضبابي، لأن نطاق مرفئه الفسيح الوادع في هذه الأيام كان في الماضي ملجأ القراصنة⁽¹⁾، وقد أغارت عليه بعثة سلاح البحرية البريطانية بقيادة السير سيدني سميث Sydney Smith في أيام شركة شرق الهند، وأحرقت أسطول القراصنة وجعلت القراصنة ينطلقون إلى معقلهم في أعلى الجبل، كانت تلك أيام الشجاعة عندما كان يتوجب على سفينة التاجر أن تتسلح بشكل جيد إذا رغبت بالإبحار في هذه البحار. لأن تلك السواحل كانت تعج ببحارة القواسم Qawasim بحرفتهم السهلة السريعة، كانوا يستكشفون بدن السفينة ويفحصونها بدقة وينقضون عليها بغارتهم العاصفة. تم الاستيلاء على الكثير من الغنائم الغنية ودفعت العديد من السفن القانونية ثمناً من الدّم والذهب لعلها تمر في مناسباتها المرخصة، فكرة غريبة! دفعت سلطتنا في الهند منذ أربعة أجيال للأخذ بعين الاعتبار وسائل شراء حصانة من امتناع الصيادين المتواضعين غير المسيئين.

(1) تهمة القرصنة التي روج لها الأوروبيون تسمية مغلوطة وجائرة. فلم يكن أهل الخليج قراصنة، ولم يكن السلب والتهب صنعتهم، بل أثارت حفيظتهم نشاطات الإنكليز، فراحوا يدافعون عن مياهم ويستهدفون مراكب الإنكليز فعُدّوهم قراصنة. وخير دراسة لتفنيد هذا الادعاء هي أطروحة الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم إمارة الشارقة بعنوان : «أسطورة القرصنة العربية في الخليج» (بالإنكليزية) :

Al-Qasbi, S.M.: *The Myth of Arab Piracy in the Gulf*, London, 1986.

تركنا كلباء بعد الظهر واتجهنا إلى وادي الرّاس Wadi ar Ras، الحدود التّاريخية للمجادلين والآن سبب الحرب، وتوقفنا لقضاء الليلة هناك. وصلنا الفجيرة في اليوم التّالي وصعدنا وسط الرّيف المهشّم غير المشوق الواقع خلف السّهل الذي يمتدّ إلى البحر. تختلف مزيج الفجيرة عن مزيج قرية الباطنة في أنها تتراجع إلى الخلف قبالة الجبال. كانت مساحتها المفتوحة وتوقها غير العادي بمساكن الطّين ملحوظين أيضاً.

وقف حصن الشّيخ القديم بسموّ جدير بالاحترام، وكان في حالة راكدة مؤسفة، قبل ستة شهور فقط من توجيه اهتمام سفن صاحب الجلالة إليه. في ذلك الوقت استدعي الشّيخ «أمير البحر» ليتنازل عن عبدة بلوشية صغيرة كان قد حصل عليها مؤخراً. فكّرت المرأة ملياً بمكانتها الحاليّة التي ارتفعت في بيت المشيخة مقارنة بحريّتها القاحلة في الماضي، وأثارها التّخلي عن إعجاب سيدها الرّجولي بها فقرّرت بأنّها لن تستبدل متعها الجديدة وتعود لحياتها السّابقة. وكان رأي الشّيخ يميل إلى هذا الرّأي فأجاب الطّلب بأنّ العبدة قد توفيت، ولم يوافق على القدوم إلى السّفينة وبحث الأمر أو أية وسيلة أخرى. بدا شيخ الفجيرة الكبير وحيداً ربّما، بين شيوخ السّاحل باستثناء جيرانه الشّحوح، معرّضين للقيام بزيارات أو لإظهار إذعان للسلطة من أي نوع، لذلك لمّا أخطرت السّفينة بإخلاء قريته حيث أن معاهدة العبيد ترفض الاعتراف بالحصانة، كان ردّ السّفينة بمدافعها ولجأ الشّيخ وقرويوه بأنفسهم إلى الجبال إلى أن تنكشف الغمة عن قريتهم.

لذلك كان لي الشّرف كرجل إنكليزي أن أجد نفسي ضيفاً على الشّيخ بعد القصف مباشرة ولم يحرجه أبداً أن يأخذني بكل روح رياضية إلى حصنه وإلى البرج الذي كان قد قُصف بشكل كبير ولم يبدُ أنه يحمل أيّة ضغينة على الإطلاق. تبعه أربعة أبناء نشأوا تنشئة حسنة، كانوا أشرف عائلة قابلتها في تلك المناطق، كانوا يتبعونه على مسافة وراءه، وكان الرّئيس الرّجولي المسنّ بعمر الثّامنة والسّبعين، يعطي انطباعاً بأنّه متطرّف بحساسه بجنون العظمة، ائتمني بالقول أنه سوف يزفّ إلى زوجته الرّابعة والعشرين في تلك السّنة، رغم أنّي أعتقد بأنّ الفتاة البلوشية المغناج «المتوفاة» ما زالت قريبة ومستعدّة لإشعال غليون الرّجل العجوز.

أتى مؤتمر السلام ثماره، ووضع السلطان ختمه على المعاهدة التي بموجبها تعيش
الفجيرة وكلباء بتفاهم في المستقبل. كانت المناسبة تحتاج وليمة، وتسابقت جمال
البدو الذين كانوا بحاجة لذريعة للاحتفال وإقامة المهرجان.

وقع فجأة أحد البدو المنهمكين بسقطة خطيرة، لأنّ جملة الصغير غير المدرب
خدعه في خطواته بخدعة جمال قاتلة بالانطلاق في اتجاه واحد ثم الانعطاف إلى
الجهة الأخرى، فوقع بلا حراك - ظننته قد مات. هرع إلى جانبه رفاقه القريبون منه،
لقد صُعق وتكدّم وكُسرت عظمة الترقوة - هذا كل شيء. تمتم الجميع: «الحمد لله».
كان علاج الحادث غير مألوف يستحق المشاهدة. حُفرت بسرعة حفرة بطول ستة
أقدام على عجل مثل قبر غير عميق وأدخلت فيه نار لتدفئته ثم أخرجت منه ثانية، ثم
فرشت بأوراق المريمية الكبيرة من الأشجار ashkhar، ثم أدخل البدوي نفسه ورأسه
فوق مستوى الأرض، ووضع المزيد من الأوراق فوقه وبقي لفترة على هذا الحال.

غادرنا في اليوم التالي للعودة إلى خور كلباء، لذلك لم يتسنّ لي أن أعرف النتيجة
للعلاج، ولكنني قابلت الرجل بعد ذلك بعام وهو يركب جملة ذاته وأخبرني متبسّماً
بأنّ مفصل عظم ترقوته كان كل ما تأذى منه في تلك الحادثة.

اتجهنا من خور كلباء إلى خطمة الملاحه، لأنه تقرّر أن نزور قبيلة الوشاحات
Wushaihat الجبلية فوق شناس، كنا في غضون ساعتين قد اخترقنا تلالاً مكشوفة
متكسرة بأشجار خفيضة وأشجار أكاسيا مقزمة تمتدّ إلى وادي القور Qaur الضحل
الذي كانت على سفحه المقابل قرية أسود Aswad، لم نر طيراً يبهج طريقنا أو نسمع
تغريده، ولكن رأينا بضعة طيور قطا ويمام كانت قانعة بواحة الفلج الدّاوية، واخترقنا
في الصّباح التالي بلدة أكثر انحداراً بعزلة مماثلة، إلا أن الأكاسيا كانت فيها أطول
وتناهت إلينا أصوات المياه والقرويين من وراء التلال.

لفت السلطان انتباهي أثناء ركوبنا في الطريق إلى أحد البدو الذين التحقوا بنا. كان
يتدلّى من سرجه رأس جمل ورقبته، قد حُشي ليبدو حيّاً إلا أنّ العينين محدقتان ميتتان
- منظر شنيع بمجمله.

شرح سموه: «يحمل البدو مثل هذا البؤ bau لتسهيل إدرار الحليب».

قال البدوي الذي اقترب في ذلك الوقت ليريني إياه: «صحيح، فقدت ناقتي ولدها منذ عدة أشهر وهذا هو بؤها bau، الذي أضعه قرب أنفها لتشم رائحته عندما أحلبها فتخدع وتجود بحليبها».

وصلنا الآن إلى قرية عجيب Ajib مقرّ شيخ الوشاحات. توجد هنا عند مدخل المستوطنة حقول التبغ البهيجة التي تؤدي إلى بساتين التّخيل التي تغطي الضّفاف المنحدرة فوق وادي حتّا Hatta، وهو جناح طويل مكشوف في الهضبة يتوّجه حصن وجامع يطلّان ببهجة على الوادي البركاني في الأسفل. انتصبت مظلاتنا المصنوعة من القصب فوق سطح الجدول المتدفّق الذي يجري نصف مسافة الأرض المفتوحة من بستان نخيل إلى آخر، يوجد في مجراه حوض كبير بعمق خمسة أقدام، سرعان ما نظّف وملئ بماء التّبغ البارد. فأنعشت نفسي بالسّباحة.

استيقظت وولي العهد عند بزوغ الفجر للذهاب بعيداً في زيارة لأحد حدود الولاية المحدّدة ببرج الوجاجة Wujaja الصّغير، يبعد عن الوادي الملتوي ميلين ونصف، هو مكان رائع لبرج مراقبة، فالجروف العالية قريبة من المدخل الضيق، وتعيق كتلة صخرية كبيرة الوهد الصّغير بمياهه الجبلية وتترك ممراً ضيقاً تحت الشّرفة المفرّجة لمرور رجل وبهيمة. مدخل هذا البرج الجبلي صّغير وُضع على نحو مميّز على ارتفاع عشرة خطوات عن الأرض ويمكن دخوله عن طريق حبل يسحبه المُدافع بعد أن يصعد. أمضينا ساعة في الاستماع لرواية هجوم لأصدقائي بني كعب على موقع منذ خمس وعشرين سنة، وفي مراقبة النشاطات الجماعية لفرس النبي الأكثر براءة.

حان وقت رحيلنا عن عجيب ووجدنا أنفسنا على الصّهوات مرة ثانية، كان مبهجاً في البداية منظر الحدائق المدرّجة الخضراء تحت أشجار التّخيل الشّاهقة التي كست المنحدرات في الجانب الأيسر فوقنا بينما كنا نمرّ في الوادي السّحيق. بين الفينة والأخرى تقحم نخلة بطول استثنائي نفسها فوق التّخيل المجاور وتختلف عنه إذ لا تتدلى منها الثّمار المتجمّعة تحت سعفها المفرّخ، فأشجار التّخيل مذكّرة ومؤنثة،

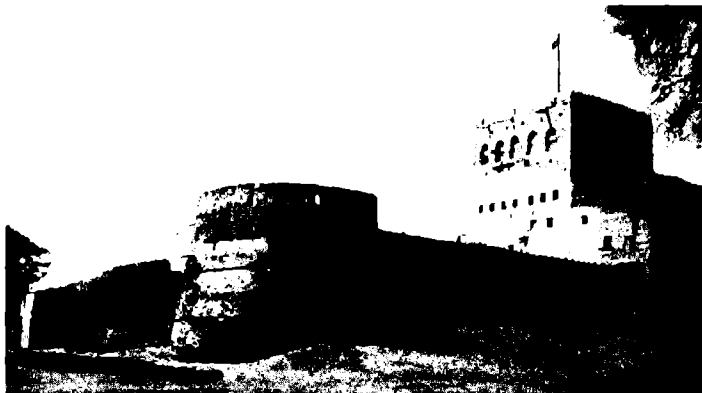
وتوجد أربع أو ست مذكرة بشكل وسطي في كل حديقة فيها ما يقارب مئتين أو ثلاثمئة شجرة مؤنثة. ولكن عمليات النحل والطبيعة لا تفيد، إذ يجب أن يتم تلقيح الثمار الفتية في الموسم المناسب بشكل صناعي من طلع الذكر، ويمضي البستاني أيامه وهو يتسلق كل نخلة على حدة.

بعد أن تركنا قاع الوادي بعدة أميال صعدنا إلى الضفة الحمراء المحصاة، رصعت تموجاته القاسية بشجيرات الصدف *sidad* التي يحبها الجمل والبدوي على حد سواء، ومن هناك هبطنا إلى السهل باتجاه البحر، حيث بات المسير أنعم وفقد الوادي وعورته وتفرع إلى عدد من المواضع المصقولة الضحلة المميزة. ثم سرنا من هناك نحو بستان النخل الساحلي ومن ثم باتجاه دوي مدافع حصن شناصر الأبعد.

أنازت ومضات نيران البنادق عتمة الليل لأنّ بنادق ماريتيني هنري - Martini Henry المصنعة محلياً تخلف وراءها ذبلاً متوهجاً وتجعل الانفجار مثل المفرقة أيضاً، والأسوأ من ذلك رائحة تشبه التّن. ولا أنصح بطريقة أفضل منها تكشف مكان حاملها لعدوّه في الليل. سألني بدوي يركب إلى جانبي: «ولكن ماذا تستطيع أن تفعل إذا كانت الذخيرة الأوروبية تكلف رويّة واحدة لكل ثلاث طلقات في دبيّ أو أبوظبي، في حين تستطيع أن تشتري عشرة من النوع المحلي بنفس المبلغ إذا تمكنت من جلب غلاف الخراطيش الفارغة»، لذلك يرى المرء البدو ينقضّون مثل طير الغاق على إطلاق نار الفرّح.

وهكذا، نعود لنقتفي آثار دربنا إلى صُحار، حينما كان يقبل شهر يونيو وكل ما كان يعني في خطّ العرض ذاك: الحرارة المدارية والوهج. وصل السلطان بحرارة مرتفعة قليلاً، ومعظم فرقتنا تشكو من شيء أو آخر، بينما أنا الأوروبي - الشكر لله - قد نجوت من سرج الجمل كما نجوت من أشياء أكثر، ونجوت حتى من الصّداق.





قلعة صُحار



مجلس سلام كلباء والفُجيرة



في ظاهر الساحل المتصالح



مجموعة من بدو بني كعب



عند بئر ماء في ديرة بني قتب

الفصل الخامس من المغامرة الثالثة

الارتحال نحو الديار في الجنوب

نحو مَسْقَط! لا بدّ أنّ الآية قد ومضت في قلوب المؤمنين:
﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

صاح آخر البدو الذين وصلوا إلى المخيم حين ترجّلوا عند غروب الشمس تحت شجرة سدر، ولكن الأفعى اختفت قبل أن أتمكن من الوصول إلى المكان.

يوجد هنا قُصير Qusair وهي واحة نخيل صغيرة ليس فيها أكثر من اثني عشر قروياً يعملون في حقول قصب الشُّكّر، تقع تحت جبال الحجر خلف صحم، لأننا كنا نأخذ خطأً آخر من البلاد. يوحى إليك الحصن بأنه قد مرّ عليه أيام أفضل من هذه في الواقع، لأنّ أبوابه وسقفه المقنطر يعطي انطباعاً عن فترة قديمة أفضل من كثير من حصون الباطنة. يمرّ من تحته فليج رشيق تعجّ مياهه بالسّمك الصّغير الذي بدّد رغبتنا بالانغماس فيه بعد التّركوب الحارّ المزعج.

استيقظت والسّلمان قبل شروق الشّمس مع بضعة أفراد من شكاريّة⁽¹⁾ shikaris بني عمر وجملين، وانطلقنا مع بنادقنا عبر الأشجار الخفيضة، بعد أن مررنا بقريّة مهذّمة بوقت قصير نزل ثعلب ينسلّ خلصة على بعد طلقة بندقيّة فأجفل الغزلان منه، وكانت هدفنا الحقيقي، وبدأت هنا وهي تسير كل ثلاثة أو أربعة معاً، مقارنة بالعشرين

(1) الشّكاريّة هم الصّيادون، أصلها عبارة أعجميّة (شِكار) تعني الصّيد، دخلت العديد من اللهجات المحكيّة في البلدان العربيّة. (أحمد)

والخمسـة وعشرين رأساً التي كنا نقابلها في وسط جزيرة العرب الجنوبي. يعود ذلك على ما أظن لأنّ المحلّيين كانوا يطلقون عليهم من أجل كسب الرّزق. كان ذلك الصّباح عقيماً، وكنا عائدين عن طريق فلج الصّحامي Falaj Sahami، حيث يأتي القطا إلى الماء، وحين توقفنا نصف ساعة فوق الغدير، أسقطت بندقيـة واحدة تسعة أزواج من القطا وثلاث يمامات. كان صباحاً حارّاً، وكانت مياه الفلج حارّة لا تبعث على الارتياح.

انتظر عودتي في الحصن موظف جمارك ملحق اسمه لا يليق به، عيسى Good Jesus، وقام بواجبه، فودّعنا قصير وانطلقنا عبر سهل الخابورة الصّخري.

علا هتاف تهكمي: «الله اكبر» حين انزلق بدوي بجمله وركض وجثيا عند أجمة، أطلق النّار ولم يصب الهدف - وهو غزال، فذُعر وذهب يعدو مسرعاً فوق الشّجيرات المنخفضة، بخفّة ورشاقة وتناسق.

دعا السّلطان في الخابورة لانعقاد المجلس، لوضع اللّمسات الأخيرة على السّلام بين القبائل، فأرسلت بطلب شيخين متمرّدين أنهكهما القيد الحديدي لفترة طويلة بسبب جرائمهما القديمة. كان مثواهـما ينهار في زنزانه السّجن، مثل باقي الحصن. لم تكن الجدران الطّينية معدّة لتصمد أمام مرور القرون فوق الرّمال، على غرار باقي كل الحصون في الباطنة، فارتبت بالحكمة من إنفاق المزيد من المال على مظهرها الخارجـي المتغصّن. ناخت جمالنا في الخارج بنموذج سلوك يضعون فيه الفك على الوجنة حول جبل من البرسيم، يأكل أحدها من الآخر بتسامح وقور يخزي جنس الجياد والكلاب. وتجمّعت فوق رؤوسها وظهورها غربان تستمتع، إنّه استمتاع متبادل برفتـهما بعضهما مع الآخر.

أصبحنا الآن في مسيرنا فرقة متناقصة جداً، فقد تلقى العديد من البدو رخصتهم (أذن الرّحيل) وقد غادرونا وهم يباركون السّلطان واليوم الذي ولدته فيه أمّه.

هبط الظّلام في وادي ضيان Wadi Dhiyan وهو وادٍ غير محدّد المعالم وبدأ عدد

من نيران المخيم يهزم حلقة الليل، وكانت السماء مغمّية في أقسام منها وتحلّقت حول القمر الفتي حلقة منذرة بالسوء وأنبأتنا بصباح مشبع بالرطوبة.

قال السلطان: «هل يتوجب علينا استدعاء المبخر ليبدّد الضباب؟».

بدرت من السيد محمود ملاحظة تتعالى: «الله اكبر» بلهجة حاسمة.

تدلّى سديم أبيض في الوادي حيث خرج في الغد من الوادي مضيئاً أشكلاً شبيحياً. أشرقت الشمس بمجرد بريق في البداية ولكن قبل تزايد عظمتها كان الضباب قد تبدّد. وكان المسير في هذه الأثناء بارداً على امتداد حرف النخيل حيث تصاعدت أعمدة صغيرة من الدخان الأزرق من المساكن المنخفضة. أعلنت قرعات الطبول مع وقعات خطى رقصة السيف وصولنا إلى خضراء، وهي قرية حديقة على الطرف الداخلي في الغيضة على بعد ميلين ربما من قرية صيد تحمل نفس الاسم. كنا سنستمع ثانية بضيافة العالم القديم لصديقنا ذي العين الواحدة الشيخ خالد.

تكوّن العشاء من مقادير وافرة من كومات الأرز والكثير من لحم الماعز، قدّمت الذبيحة كاملة بالطّبع - الرأس والعين وكل شيء - وقد أضيفت لها التوابل بكثرة وطُبخت بكل لا مبالاة البدو بالبراعة، فأكلت ما يكفي ليعبد عني الجوع. لحم الماعز في عُمان هو اللحم الرئيسي، وهو يعدّ أعلى من الخروف النادر. لحم البقر اسوأ لحم ثالث، رغم عدم وجود نقص بالبقر ولو أنهم يقتاتون بالسّمك.

قال الشيخ للسلطان: «الخير خيرك يا سيدي»، عندما شكره على أطباق البطّيح وطاسات حليب الماعز الذي قدمه - وهو التظير العربي «لتصيرة» المسيحي الصباحية.

«لا تقل ذلك يا خالد! الخير ليس من المخلوق بل الخير من الخالق».

أقرّ بأنني فكرت بأن هذه سخرية قاسية على خالد الذي كان يقوم بمظاهر الحفاوة والتّكريم على أفضل وجه. ثم قدّمت القهوة، كان القهوجي يتجول في المكان بمصّب القهوة بيد وستة فناجين دون مقبضها المألوف لكي تسمح بتدخلها فوق بعضها باليد الأخرى، وكانت تتناوب بين الجمع لتوفير الوقت. ولكن اليوم وجد نقص كبير في

الفناجين، اثنان فقط في الواقع. توجد عادةً في البلاد، أن يُستبعد الفنجان الأول الذي شرب السلطان منه - دليل التَّميَّز لأنه لا يستطيع أحد أن يشرب منه. هنا مشكلة ظريفة لأن الوقت المستغرق في تمرير الفنجان من يد ليد حول مئة رجل أو يزيد سيكون طويلاً جداً. قال السلطان بهدوء: «اجلس» للرجل الذي أسرع لأخذ الفنجان الملكي بعيداً عن المجلس. كانت لحظة مخرجة لخالد لأنَّ عمال بيته ليسوا بالمستوى الجيد وقد ذوى الشيخ الكبير بينما دار الفنجانان في المكان دون تأخير.

عادت لذاكرتي ممارسات قبائل بلاد ما بين النهرين أثناء الحرب. لا يشرب ابن القبيلة الشيعي هناك بعد أحد، من منطلق ديني بأن الفنجان قد تنجس من شفاه الكافر، دون حمل ضغينة أو القيام بفعل ظاهر غير ضروري. كنت دائماً أراقب بتسلية حذرة لأرى خفة يد القهوجي وهو يدس فنجاني في أسفل مجموعة الفناجين، ولكن لا يقابل المسيحي هنا في عُمان مثل هذا التعصّب عند الإباحيين.

دخل أحد شيوخ آل سَعد الآن.

قال بطريقة بطيئة مشدداً على الكلمات: «السَّلام عليكم» مع حركته المميّزة في تدوير عصاه الممدودة حول المجلس.

همس شيخ لآخر: «لا تسأل عن ابنه، فهو غائب في دُبَيّ مع عبد جديد أو اثنين، يجعل زيارته مفيدة بلا ريب».

تناخم غابة الأكاسيا في منطقة آل سَعد حقول البرسيم الأخضر والبطيخ، وممرات ظليلة وقرى محصنة أسرعنا عندها، ووصلنا إلى وادي قصيم Wadi Qasim، وهي حدود منطقة آل سَعد حيث كنا سنرتاح أثناء الظّهيرة. قُدِّم لنا طبق الحلوى التُّركيّة الفخاري الكبير الذي حمّله رجلان معاً، والقهوة والبطيخ الطّازج اللذيذ، فأوينا إلى سَبلات *sabla* سَعف النّخيل متعشين لقيولة منتصف اليوم.

ظهر هنا كَرَم البلوشي، كَرَم الضّرير تاجر المئة عبد الذي عاد من أجل قرار أخير لحاشيته الأفريقية المتعددة المزعومة. لا يمكن لكَرَم إلا أن يكون واحداً ضمن فريق

كبير من المكرانيين الحاضرين، لأنّ الكثيرين كانوا يرتدون الودار *wudar* (كساء يستعمل بطّانية في الليل) فوق الكتفين، وتلك عادة مميّزة في ثياب المكرانيين في هذا القسم من جزيرة العرب والشّحوح *Shihuh* وأهل الحضرة *Ahl al Hadra*.

التحق بنا هنا أيضاً ثلاثة بلحي صفراء - ليست اللّحي المصبوغة بالحناء في بغداد حيث تدلّ اللحية البيضاء على الحكمة، بالتأكيد هي تفوّق تميّز به الرّسول! - ولكن تشكيلة لون الكناري المدرّجة لأسباب منطقية. ثبت أنهم من بدو الشّيخ محمّد من قبيلة بني بو حسن في جعلان، واثنان من أتباعهم، جاؤوا عن طريق الشّرقية وجلبوا رسائل للسلطان من زعيم الدّاخل الشّيخ عيسى بن صالح. ليست لحاهم مبقعة بالأصفر فقط، ولكن وجوههم أيضاً، ممّا أسبغ عليهم مظهر اليرقان، وكأنهم كانوا يريدون إتمام خطّة اللون فكانت ثيابهم ملطّخة أيضاً. يدعى هذا الصّبغ بالورس *wars* وهو نبات ينتج في اليمن ويصنع منه عجينة بخلطه بزيت السّمسم، ويعتبر نفساً بمعايير جزيرة العرب الفقيرة. ينتشر استعماله في جعلان والشّرقية وإلى حدّ أدنى في جبال مناطق الظّاهرة وفي هذه المناطق، ويمكن تداول فنجان من الورس في مناسبات الأعياد مع فنجان القهوة بحيث يستطيع المجتمعون أن يدهنوا أنفسهم. يدعى من اعتاد على استعماله بفائدته الصّحية أثناء هبوب الرّياح الحارة - لمنع جفاف الجلد وتشقّقه.

كان حاكم بركاء العجوز العزيز حاضراً هنا، كانت مشاعره الدّينية تستغرق كل جملة في كلامه، فهو يبدأ بـ «من فضل الله». جاء بأخبار عن مأساة صغيرة شهدتها التّرحيب بنا، لأنّ قِيم حصن المصنعة نظر أسفل برميل مدفعه في أسوأ لحظة ممكنة وكان معطلاً. المسكين! تمزق كل جانب وجهه وأصبح دماً خالصاً وحالة إحدى عينيه غير مؤكّدة فهو لم يستطع فتحها بعد. أدهشني هذا الحادث الذي يندر وقوعه، لأنّ مدافع التّرحيب العربيّة بشكل عام قديمة الطّراز تلقّم من فوهتها والعرب يقومون بدكّ الشّحنة الجديدة من البارود دون مبالاة قبل تنظيف الفضالة من الشّحنة الأخيرة وينسبون النتيجة للقدر.

نحن في الطّريق إلى السّيب *Sib* وبساتينها الغنّاء للتمتع بالتّرف الجزئي في بيت

والي مَطَرَح ولسماع الأنعام المتنافرة لرافعة الماء ثنائية العجلة مرة أخرى.

ولكننا لن نترث هنا، فغادرنا في اليوم التالي لنطوف حول شريط النّخيل حتى نهايته في حيل Hayil حيث اعتاد المسكين مبروك العجوز أن يجهّز العشاء بمهارة كبيرة. انطلقنا من هذا المكان عبر الشّجيرات الملحية إلى الشّاطئ حيث تلالأت رفاع تجفيف السّردين تحت الشّمس مع فريق من الصّيادين يتأملون شباكهم. يمتدّ أمامنا الآن اندفاع جميل من الشّاطئ الوردية ينتهي في رعن يتجه نحو فحل Fahl القديم الوحيد في بحره، وتربض مَسْقَط مختبئة وراء القمم الشاهقة السوداء. كانت بمحاذاتها قريتا غبرة Ghubra والأبيض Ubaidha المعزولتان، فتحولنا إلى الدّاخل وتبعثرنا فوق التّلال الرّمليّة باتجاه مخيم الخوير الذي تحفّ به أشجار السّدر (شجر النّبق).

ظهرت شخصية متنافرة في صباح البرزة، بدوي من حضرموت من قبيلة كَرَب Karab، له وجه أسود عريض، ومنديل مهلهل من المصّر *musur* (غطاء للرّأس) تدلّت تحته وفرة من ظفائر لماعة طويلة ضيقة على كتفيه، وتنوّرتة القصيرة التي تصل إلى الرّكبة وهيكله الضّخم يميّزه عن العُمانيين المجتمعين في المكان. تناسبت ثقته الكبيرة بنفسه مع رجولته السّائغة في لهجته العميقة، وقد ميزه السّلطان عندما جاء لأنّه كان أحد معارفه في ظُفار.

سأله السّلطان: «كيف أمطار هذه السّنة» مشيراً إلى الرّياح الموسمية في إقليمه في جنوب جزيرة العرب النّائية.

«خير. جاءت في الخامس عشر من رمضان. الله عليم!».

«الحمد لله، وكيف هي حديقتي في المحمّدية؟».

أجابه البدوي: «سوداء! أشهد بذلك» وهو يعني خضراء، كما اعتاد البدو في وصف الأوراق الجديدة وبشكل عام الحالة المزدهرة في نمو الأرض.

سأله السّلطان: «إلى أين أنت مسافراً علي؟».

«إلى دبيّ إن شاء الله».

«إن شاء الله» في العربية تعني إذا أراد الله، وهي طريقة بالتعبير يستعملها المؤمنون بشكل مفرط. المستقبل بيد الله ومن العبث أن يعتبر المرء عن نفسه دون الاهتمام الواجب بهذه الحقيقة. فالقول بأن المرء سوف يفعل شيء بشكل مؤكد في الواقع، يعتبر تحدياً لله. أخبرني السلطان حول هذا الموضوع بهذه القصة الشعبية:

«عندما أرسل الله في البداية الطيور من الجنة إلى جنة عدن أرسلها عند هبوط الليل. فجثمت جميعاً بانتظار اليوم التالي بفارغ الصبر واستطلعت بيئتها الجديدة. قالت الدجاجة وكانت صريحة أكثر من الآخرين: «غداً سوف أطيّر» فقال الآخرون معاً: «ونحن سنطيّر أيضاً إن شاء الله». وعندما أقبل اليوم التالي كان العقاب أول من طار ثم تبعه التسرثم، يرحمك الله، الهدهد المتوجّ بالعُرف، وهكذا كل الآخرين حتى العصفور الدوري. كلّهم باستثناء الدجاجة التي فتحت جناحيها وصققت بهما مرة تلو الأخرى ولكن لم يحدث شيء ولم تتمكن من الطيران.

«وما السبب؟ كانت هي الوحيدة بين المخلوقات التي نزلت قد نسيت إرادة الله وأغفلت قول إن شاء الله».

كان اليوم هو وقت دخولنا مَسَقَط، وثبنا على صهواتنا بقلوب خالية من الهموم. كانت جمالنا مفعمة بالحياة بصيحات راكبيها وأناشيدهم. شق رتلنا الكثبان خارجاً قرب مستنقع شجر منغروف mangrove يؤدي إلى أيكة نخيل في الوطاية Wataiyah، ثم تستمرّ حتى أخذود الجبل الذاهب باتجاه روي Ruwi، ومن هناك قرب حصن بيت الفلج. هبطنا إلى مَطَرَح Matrah المبلّطة، التي خرج أهلها للتّهلّيل وللمباركة قدوم عودة حاكمها.

ذهبنا الآن على طول الطريق البحري الجديد الذي يطوّق السّاحل المحاط بالصّخور حتى يصل إلى ريام Riyam، وهكذا فوق الممرّ الذي يؤدي في نهايته إلى وهج البيوت البيضاء المبهرة التي هي مَسَقَط. أرجعت الهضاب صدى مدافع حصن الميراني الواحد والعشرين. وأنشد البدو بمرح بينما كنا نكافح للتّسير برتل واحد عبر ممرّات المدينة الضّيقة، المحتشدة بالنّساء المبرّعات وغير المبرّعات والفتيات

بملايس زاهية وقد انغمسن بإفراط في التصفيق بأيديهن وألسنتهن ترتجّ بالزّغاريد.
تابعنا إلى الأمام واخترقنا بوابة قديمة نحو مسجد صغير أبيض تحت ظلال حصن
الميراني Merani. توقفنا هنا، وقد أحاط بشخصيّة السّلطان المبجّلة بثوبه الأبيض
جمهرة من مئة هجّان يتألّقون بسيوفهم وخناجرهم.

هؤلاء هم البدو المرافقون لنا، رجال هزيلون جياع، مشرقون بالشمس وندى
الصّحراء، يتنافسون مع بعضهم مع جمالهم الباسلة ويتسابقون قرب القصر إلى حدود
السّوق حيث جلس بانيانتيون Banians شاحبون يقومون بصرافتهم.

عادت لي ذكرى موسيقى فليكر Flecker البطولية «أغنية حرب المسلمين» *War Song of the Saracens* وأنا أنظر إلى هذا المنظر الذي كنت أودّعه.



المغامرة الرَّابِعة

طبول الحرب في مُسَنَدَم

الفصل الأول من المغامرة الرابعة

الإنذار

كانت غيوم الحرب تتجمّع فوق سماء شبه جزيرة مُسنَدم.

مرّ شهران وأكثر منذ غدا سكانها من قبيلة الشّحوح Shihuh متمرّدين. وتطوّر العصيان ليصبح عنفاً. عالج الشّيوخ حسن شيخ خصب المواجهة مع القبائل وهو مندفع بإيمانه بأنه لا يمكن تفويض تصرّف لاحتجازه، وأعلن بأنه منذ الآن فصاعداً يرفض الاعتراف بكل السّلطات وسوف يكون السيّد المطلق في ديرته الخاصّة.

نشأت المشكلة على هذا التّحو: فجأة ظهرت سفينة المسح «أورموند» H.M.S. Ormonde في أفق الشّحوح، جاءت بمخططات للقيام بمسح جديد في ذلك الجزء من العالم الذي خُطّط بشكل سيّء، ومن أجل هذا الهدف كان على فرقة صغيرة مسلّحة بالمزواة وأعلام المسح أن تقوم بالرّسو والصّعود إلى التّلة كما يتطلّب الهدف الاعتيادي في القياس بالاستعانة بعلم حساب المثلثات.

قال الشّيوخ حسن بعد بعض المراوغة: «لا، ديرة الشّحوح بلادنا وليست بلادكم، وما تقولون أنكم تعتمرون فعله لا قيمة له عندنا، وعلى أيّة حال نحن لا نوافق على حقكم بالرّسو على شواطئنا».

أجاب الذي تربى تربية غربية تحترم الوضع القانوني ولكن ببراءة عميقة من الأساليب العربية: «ولكن، هاك رسالة من أسيادك حكام مَسْقَط المطلقين الذين تمتدّ سلطاتهم القضائية على هذه المياه، لقد منحونا إذنهم».

«حسن جداً، ولكننا لا نعترف بحكومة مَسْقُط».

وهكذا صُبَّ الزَّيْتُ على النَّارِ.

مع ذلك في الواقع، لم تكن القوات العاملة التي اتجهت نحو الطريق المسدود ببساطة كل ذلك.

مُسْنَدَم أو رؤوس الجبال Ru'us al Jabal كما تدعى المنطقة كلّها هي أطراف دولة مَسْقُط، لديها سلالة خاصّة بها من النَّاس البدائيين، والشُّحُوح الذين نشأوا من جبالها البعيدة متعلّدة البلوغ، لهم أفعالهم ومواقفهم المستقلّة. تنظيمهم الاجتماعي قبلي مقاتل، وهم بطبيعتهم لا يصبرون على أكثر من الحد الأدنى للحكومة. «الأطراف» تميّز الدّول الشّرقية واسعة الانتشار، كانت لدى الإمبراطورية العثمانية كردستان، ولدى الهند حدودها الشّمالية الغربية. دع السّلطة المركزية للحكومة تصبح ضعيفة لأيّ سبب من الأسباب أو أن يظن بضعفها، تجد الأطراف تحتفل بعريضة وعناد يتعلّذ ضبطه، وتظهر حالة بغیضة وتندفق الدّماء، مثل هذه الحوادث ليس لها أسس سياسية بالمعنى الإيديولوجي، أي لأنّ ليس للأطراف نزعة للتطلّعات الوطنية، فقد ولدت من إدراك غير ناضج للوقائع، إدراك للحظة الحاسمة للتهوؤ والعمل إذا رغبت القبيلة أن تحافظ على أي معنى لقيمة جدودها المحاربين، ويكون ذلك التهوؤ عادة سريع الزّوال بسبب تناقص الذّخيرة وعدم ثبات المزاج.

يمكن للأوروبيين أن يفكّروا بذلك مليّاً لو أنهم اعتبروا الحكومة المنتخبة ذاتياً «شراً لا بدّ منه»، فلن يكون هناك شيء غريب في الواقع في ردود الأفعال لسلطة رجل بدائي يتقيّد به الجميع، ولكن المضجر بشكل خاص هو التّقيّد بالنّظام السّلمي، فالرجل البدائي ليس لديه أيّ احترام متأصل للقانون والنّظام ولكن العكس صحيح. يسبّب له الإنصاف والعدالة في اعتباراتهما المجردة القلق، ويزدري طرق الحياة المتحضّرة المريحة ووسائلها، وقد تعلّم الذين قضوا أغلب عمرهم في التّعامل معه، أن يعجبوا ببعض سجاياه، وتعلّموا أيضاً بأنّ قوة التّوقير هي فوق كل شيء وأنه منقاد على المدى الطّويل لشكل واحد من المعتقد وهو التّهديد بالقسر، وهو ضعف في حقيقته. حاول

أن تلغي الخوف من العقوبات تراه يبادرك بالسعي وراء مالك إن لم يكن وراء حياتك.
والآن لم يعد هناك خوف من العقوبة لقبيلة الشحوح في شهر يناير وسنة 1930 هي
سنة العفو والرحمة.

قال لي رئيس مجاور: «يتغذى الاضطراب المحلي من الخارج»، ربما هو أكثر
المستثيرين في التدرج بالحياد. أصبحت الصحف المصرية والهندية والعراقية
المكرسة للأساليب السياسية تنتقل في عُمان كوسيلة نقل لأخبار الاضطرابات في
العالم - جرثومة ناقلة للعدوى - ووسيلة أيضاً لنقل الصّرخات المدوية لتنازل العالم
المتحضر عن السيف - تصرّيح احتفظ فيه رئيس قراصتي، كان يحثّ على تصرف
معاكس في استخبارات أقلّ مكانة، تحرّكها المصالح الشخصية وليس للأسف
مصلحة شخصية مستنيرة، كالشاهد على الذي أعاق رسم المخطط.

مصدر معارض آخر لسفينة صاحب الجلالة «أورموند» يكمن في مقت متأصل
للأجنبي، مقت له وليس كأجنبي وككافر. ربما توضح خصوصية الديانة القبلية في
جزيرة العرب سبب عدم تجاوز عدد المسافرين الأوروبيين الذين اخترقوها بشكل مفيد
عدد أصابع اليدين. لم يتمكن أي أوروبي على الإطلاق من اختراق موطن الشحوح
فهو محرّم عليهم، ولم يجد هنا موطء قدم صاحب الحانوت الهندوسي الذي تأسس
منذ قرون في السلطنة المجاورة وفي موانئ عُمان المحايدة، لأنّ رجل القبيلة البدائي
المتعصب لمذهبه الشافعي يقسم البشر إلى فئتين: (أ) المسلمين، و(ب) الكافرين -
الحنطة والتبن، مثلاً. ونظرية التسامح المحسّن مع المسيحيين واليهود على حساب
أنهم «أهل الكتاب» هي تهذيب لعلماء الدين فقط، ولم يسمع بها في حياته، ويكفي
عنده أن يكون موظفو السفينة «أورموند» ينتمون إلى الفئة (ب). كان يمكن لشيخ
أقل تعصباً من حسن أن يقدّر العواقب، ولكن شعر حسن بأنّ سمعة ورعه الخاص
في رهان. فقد كان في الواقع يحبّد بين أتباعه الخصوصيين حملة مطهري البدع متبعاً
بذلك نموذج حركة الوهابيين⁽¹⁾ في نجد، وهو نفسه يلعب دور الإمام، وقد تطوّرت

(1) ذكرنا أنّ الوهابية تعبير مغلوط، والصحيح أنّ اسمها: دعوة الإصلاح السلفي. (أحمد)

الأحداث لتوّها مع الحضور الإلزامي لصلاة الظهر في جامع القرية والجُلْد العلني للمقصرين. هل يمكن أن يوجد خزي في ذلك الوقت أكثر من الإذعان لتلوث ترابهم بأقدام الكفار، أو تدنيس هواء جبلهم بأعلام مسح الأراضي التابعة للكفار؟

كان يرغب في تحديهم وهو على ثقة في داخله بأنه لن يحدث له مكروه، ألم يعتزلوا السيف؟ ألم يعطه المطوّع أيضاً جرعة مقدّسة؟ هذه ليست جرعة عادية - ولكنّ فضيلتها المفردة كفلته من عواقب فعلته طوال السنة.

يختفي تقريباً عن البحر البرج المنخفض الذي يقيم فيه الشيخ، رفعت شرفاته الصّفراء نفسها فوق أشجار التّخيل المتمايلة، وقام على مسافة ميل إلى الخلف في أعماق بساتين التّخيل التي تحفّ بأطراف الخليج الصّغير، وتحلّقت حوله في الفسحات بيوت القرويين البسيطة. هذا المكان هو هدف فرقة رجال مجهولين رسوا من مركب داو وصل منذ فترة قريبة تحت جناح ظلام إحدى ليالي نهاية يناير. لم يلحظهم أحد - إلا إذا حافظت القلعة المتداعية في منتصف الطريق الأمامي على مراقبة شبحيّة - قامت تلك القلعة كثيبة مقابل السّماء، كتذكّار هزيل للمغامرين البرتغاليين لأيام درايك. مرّت ثلاثة قرون منذ شيّدها أمير البحر رُوي فريره دا أندرادا Ruy Freire da Andrada، لقاعدة عمليات موجّهة لغنائم هُرْمُز الباهرة، التي كانت مقابل المضائق تماماً في اتجاه السّمال. انحسر المدّ تحتها بسرعة ليكشف ألف يارد من السّاحل، وبات الدّاؤ الآن جافاً في الأعلى، قد تمّدّد على جانبه فوق مقدّمته المزودة برقوق باعتبار.

لَقّت السّكينة أدنى مدرج الجبال المحيطة التي احتضنت القرية الغافية، ولكن جلس في عليّة البرج الحربي الوضع ستة رجال يحيكون مؤامرة على ضوء الشّموع الخافت.

أبحرت سفينة «أورموند» بعيداً عن الشّاطئ على أمل الحصول على الإذن بمتابعة مهمتها الإنسانية وهي بريئة تماماً من الهمجية المحبطة لها.

خرجت القطة من الحقيبة في اليوم التالي، وظهرت رسالتان للتور كانت إحداهما من صالح بن محمد شيخ دبا Daba، موجهة للشيخ إبراهيم بن محمد، رسول مجلس الوزراء.

«بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقد وصلنا كتابكم الكريم، وفهمنا ما تضمنه، وبخاصة عن وصول رجل الحرب إلى شابوص Shabus وإلى خصب. وليكن معلوماً لديكم أيها الأخ أننا لن نسلم مناطقاً لأي كان إطلاقاً، سواء أكان ضعيفاً أو غير ذلك. أما بالنسبة لك فأنت لست ملكاً علينا حتى تبحث في شؤوننا، ونرغب منك أن تؤجل التدخل. وأما إذا وصل السيد تيمور إلى مسقط فإننا سوف نتبعه لنرى ما يفعل وزراؤه في هذا الشأن. هذا ما لزم إبلاغكم والسلام».

مؤرخة 23 يناير 1930

(التوقيع) صالح بن محمد الشحي

والثانية كانت من الشيخ حسن بن محمد شيخ خصب، وكانت موجهة لسيد ناصر بن خلفان، والي خصب، والشيخ إبراهيم بن محمد بن جمعة، رسول مجلس الوزراء:

«بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أعلمتم القبيلة بكل من فيها بأنكم راغبون بوضع راية في رؤوس الجبال، هذا غير ممكن على الإطلاق ولا يمكن الحصول عليه منهم لا كخدمة ولا بأي ثمن، فلا تزعجوننا بأشياء لا يمكننا تحملها، فالعذر منكم. لا توقعوا مرافقة الأصدقاء لكم صباح الغد إلى أماكن ترغبون بزيارتها، ونحن نحذركم منها، فليكن في معلومكم بأننا نرغب بمساعدتكم لإنجاز ما يحتاج الأمر لكي تتمكنوا من التقدم بواسطة خدماتكم الطيبة للحكومات والموظفين «ولكن كثرة الماء تفسد الطحين» فاعذرونا».

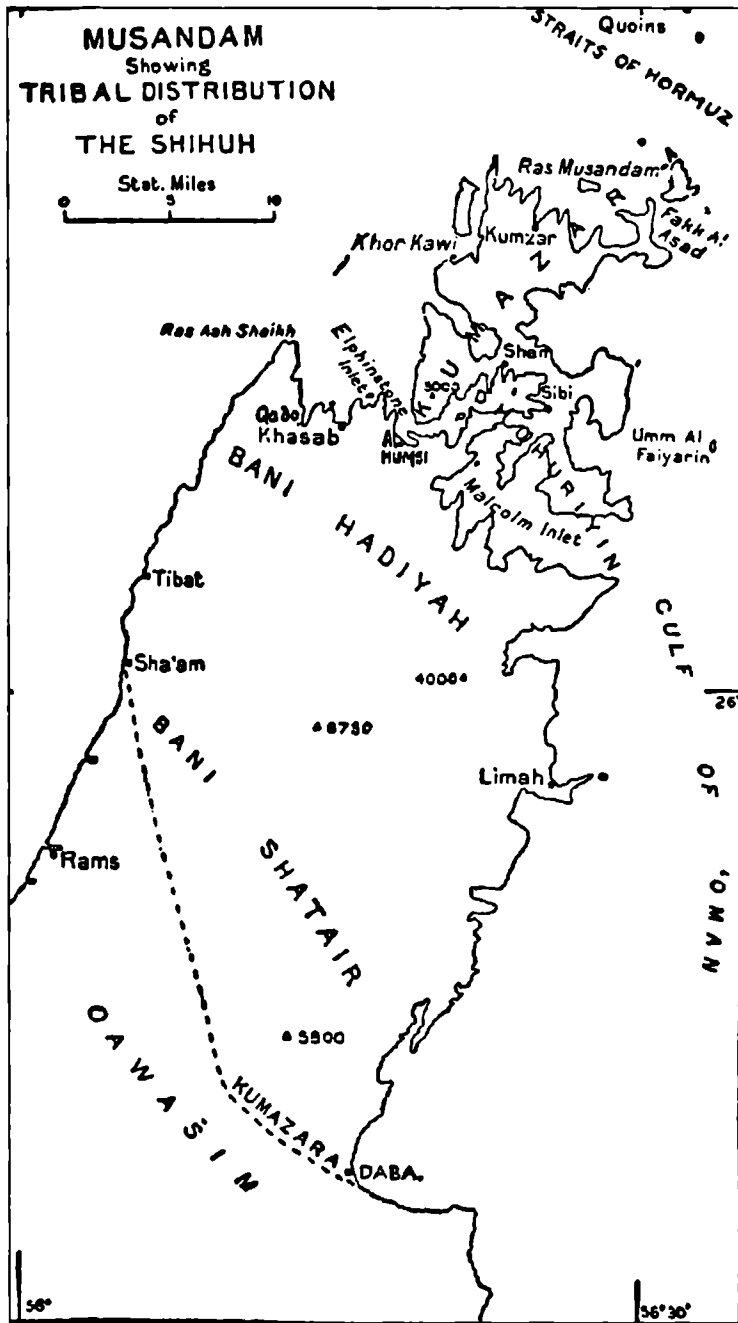
(التوقيع) حسن بن محمد الشحي

تحدث هاتان الرسالتان بصوت منفرد وتحملان التاريخ نفسه، ولكن فيهما أهمية كبيرة: فقد أصدرتا توقيعين منافسين وشيخين مهمين في قبيلة الشحوح، ساندت

دبا وخصب عناصر متميزة عرقياً ولغوياً، فقد فرّق الثأر بينهما، ومن سخرية القدر الكبيرة أنّ الحفاظ على السلام بينهما كان سبب وجود والٍ للسلطنة في خصب. كان بيتاً منقسماً على نفسه لا يجمعهما إلا مواجهة العدو المشترك، مثل الذي زوّدتهم به قبيلة القواسم المجاورة (الجواسم)، كما عُرفوا لدى البحارة البريطانيين في تلك الفترة، فهم سلاله قراصنة شجعان كانوا في القرن الأخير خطراً يتهدّد ليس فقط قبيلة الشّحوح والسلطنة ولكن أيضاً يتهدّد سفن التجار البريطانية التي تمرّ على حرفتهم القانونية. بدأ ارتباط الشّحوح ومَسَقَط منذ قمع هذا العدو، ثم أصبحت الرّوابط روابط المصلحة الشخصية المتبادلة القوية، والآن مع رحيل خطر القواسم ضعفت تلك الرّوابط. أمّا رابطة الصّلة العاطفية التي بقيت، مهما كانت شرعيّتها فسوف لن تعطي عنصر تصرّف إساءة لمصالح الشّحوح وشعورهم، واعتبر الشّحوح دور مَسَقَط في ترخيص نشاطات رسم المخطط الكافرة بأنه لا شيء غير ذلك.

يكمن بيت القصيد هنا، أبرم بالسّر قَسَم عشائري مقدّس، سيمنع أيّ رسولاً لآية جهة: وينبغي لوالي السلطنة مغادرة مُسندَم.





خارطة مُسندَم والتوزع القبلي للشحوح

الفصل الثاني من المغامرة الرابعة

قائد الطراد الحكومي «السعيدي»

كان ذلك في منتصف ليلة من أواخر أبريل، كنت أجذف خارج شاطئ مَسْقَط، فصدرت لي الأوامر أن أتقدم إلى مسرح الاضطرابات وأتعامل مع الأوضاع التي بلغت مرحلة الخطر.

صرخ الرُّبَّان العربي: «المرساة» *Ub anchor*.

سُمع صرير رافعة، وتصدر السفينة كبلها، ورنين البرقيات فيها، ثم تسارعت إلى الأمام بلطف وبعد ذلك حدث ارتطام مكتوم في المحركات في الأسفل، وسُمع صوت رجل في السلاسل التي كانت ترنّ على مراحل خارج المياه السوداء.

السعيدي، يخت صغير بحمولة مئة طن، بدنه أبيض، ومدخته صفراء وسواريه تميل بأناقة، وعلم مَسْقَط الأحمر يرفرف فوقه في الهواء. سلَّحْتُهُ بمدفع هو تشكيس بثلاثة باوندات ومدفعين رشاشين فرنسيين. وبهذا تشكّل أسطول مَسْقَط البحري، ربما هو تعبیر فخّم عن شيء متواضع ولكنه خدم هدفه كسفينة خفر، وقد جلبتُه من البحريّة الملكية الهندية لهذا الهدف منذ أربع سنين، ومنذئذ استطلعنا أنا وهو كل زاوية في الجنوب الغربي من ساحل جزيرة العرب لمسافة ألف ميل.

ظهر الرُّبَّان راشد من انحناءته التأملية خلف ضوء منصب الخرائط.

قال لمدير الدّفة بفضاظة بينما جعل المحركات تدوي وهي تنطلق إلى الأمام مباشرة: «شمال خمس وعشرون غرب»، جثم وميض المنارة على منحدر محيط ميناء

مَسْقَط، واندفع بشكل دائري نحو جهة «السَّعيدِي» ليتوازن هناك بثبات بين إغماضة عين وصحوتها بينما نشقَّ طريقنا في عرض البحر.

كان راشد ابن مَسْقَط من عمالقة الرِّجال وشخصيَّة أيضاً. عندما أفكر بقارب مدفعية مَسْقَط القديم، علي دوماً أن أتصوّر أمرها المهيب الرُّبان راشد، مشتملاً بسترته ذاتها، التي كانت من إبداعه الشَّخصي المتألّق الذي أطلق العنان فيه لذوقه الشَّرقي. كانت في تلك السَّترَة غزارة بالشَّرائط بابتكار الأرابسك في كل مكان استوعب ما وضع فيه، برفقة السَّيف الذَّهبي المتدلّي، عمل ألمعي يفوز بجائزة آية مناسبة احتفالية.

لم يكن طرّاد «السَّعيدِي» أوّل قيادة مسلحة للرِّبان راشد، فقبله كان «نور البحر» (اسم طنان نموذجي للسَّفينة العربية) حتى شاخت السَّفينة بفائدتها الملكيّة والآن تكدح بالتَّجارة في شيخوختها تحت علم آخر، تخدم بتواضع بالتَّجارة على طول السَّواحل الهندية، تعاظمت هيئة ربّانها السَّابق لتبلغ ثمانية عشر حجراً، صاغت هيئته سنين عمره السَّتين لتشبه أبعاد بوذا، وجاء من أعماقها صوت هدير بدا بأنه يطبع في النّفس قشعريرة الامثال في fo'c'sle عوضاً عن المحتوى القدسي. اشتهرت كل أفعال راشد بحيويّة معينة، وكأسه المرفوع احتوى على مصغّر عاصفة باستمرار - مشهد فاتن - واليد المرتعشة التي رفعته كانت وهناً، كما سمعته يشرح مرّات ومرّات، يعود تاريخه إلى أحداث مسألة شرف عندما حاول هو وبخّار أسمر تسوية الأمر بخنجرهما - السَّلاح الوطني. فليكن ذلك مهما يكون، فالمرعاة الصَّارمة للتَّحريم الإسلامي معدّة لمنع الأيادي المرتعشه - تجنّب الأشربة المسكرة، للإدراك - لم يُطلب من بطلنا أيّ ارتباط قوي ملحوظ.

بدا القدر متبسّماً للشَّاب راشد، فقد لاح له ميراثٌ ضخم. أبحر والده التَّاجر العربي في سفينته، مثل التَّموج الأصلي الثَّابت في ألف ليلة وليلة، وتربّى راشد على التَّقليد ذاته. كانت تلك السَّفن في مَسْقَط القديمة في كثير من الأحيان سفناً شرّاعية بريطانية سابقة بيعت في الشَّرق قبل ارتفاع مدّ السَّفن البخاريّة، وكان قدر راشد أن يقضي شبابه كضابط ثانٍ لسفينة كاونتي أوف لانارك *County of Lanark* المزوّدة بأشرعة كاملة،

المتأخرة من بلفاست⁽¹⁾، مركب فاخر امتلكه السيد ومتاع موروث لنفسه.

طغت الذكريات على مزاجه هذه الليلة، وأصغى عقله لصوت أيام مغرقة بالقدم، كان قد وصل إلى نقطة الإشباع من كالكوستا وقد نجح للتو في امتحانات مجلس تجارته هناك لـ «السيد الأجنبي، ذي الزّي المتقن» - إنجاز متوسط لعربي دون تسهيلات تربوية في بلاده - وقد اعتبرها مبشرة بالخير تقرّبه من تأييد أبيه.

يعتبر الحجّ أحد أكبر خمس شعائر في الديانة الإسلامية، تقام هذه المناسبة الكبيرة في مكة مرة واحدة في السنة في أيام مفروضة. وبما أنه مشروع مكلف لا يستطيع تحمّل تكاليفه إلا رجلٌ لديه موارد مالية مريحة، لذلك بالنسبة له فإنّ الحج فرضٌ لمرة واحدة طوال حياته. ومع ذلك يأمل كلّ مسلم بالفضيلة التي تنتج من القيام به مهما كان فقيراً. وهكذا أعلن راشد عن عزمه الديني، فأعطاه الرّجل العجوز بركات أب امتلأ قلبه بالمشاعر لأنه خلّف مثل هذه الذّرية، ومنحه ستة شهور إجازة وشيك بنك على بياض.

كان التّوقف الأول في بومباي. ماذا عليك أن تدفع ثمناً لبومباي! يوجد فيها عدد لا يحصى من التّسالي. نودي على محطة، وابتدأ العبث وعندما قرّر الشاب المسافر التّحرّك، يا للأسف غادرت السّفينة المتوجّهة إلى جدّة لحج هذا العام. آه! ولكن ما زال العالم فتياً وبطاقة الدرجة الأولى التي اعتزم راشد شراءها ليسافر بواسطة سفينة متّجهة إلى ميناء البندقية.

تبين أنّ البندقية تتفوّق على بومباي، وفي الوقت المناسب ستصبح باريس مفضّلة

(1) على هذا النحو مرّت اثنتا عشرة سفينة زراعية إنكليزية قديمة إلى ملكية مَسْقَط وأنهت أيامها في التجارة في كالكوستا - بشكل رئيسي في شحن الثمر إلى الخارج والأرز إلى الوطن، احتكرت مَسْقَط ذات مرة مركز توزيع التجارة في الخليج العربي وكانت تجارة السّواحل تنفّذ على مراكب الدّاء العربيّة، ظهر ميناء مَسْقَط في طبعات القرن الثّامن عشر كغابة من السّواري العالية. بينما تخدم الآن سفن بخارية حديثة اثني عشر ميناءً فارسياً وعربيّاً. ثم مضى عملاء مَسْقَط السّابقون وانهارت التجارة فيها إلى حصّة تافهة في حصص الخليج.

على البندقية. وهكذا انقضت سنة موفقة.

قال راشد وهو يتسم لذكريات مآثره الشّبابية: «فكر في الفرص التّعليمية، الله عليم! ومن يستطيع رفض إغراءات إيطالية وفرنسيّة وضعتها الأقدار عند قدميه؟». فكرت: «سؤال لا جواب له».

يعلم من تعامل مع والده بأنّ التّجادل مع ذلك الشّخص الموقر المختلف غير سار، ولذلك بدأ ضميره البنوي يجيش في داخله. اقترب الشّهر الذي يتلو الحج - الشّهر التّالي بمعنى آخر. توجّب عليه بالضرورة أن يلتفّ بسيره نحو الشّرق، ولكنه سيتريّث لفترة في پور سعيد لجلب عروسه منه، ومن هناك يتابع للقاء في جدّة. وحدث كل ذلك بالفعل، ولكن أحرجه بغتة تمويلات المستنفدة في جدّة، ممّا جعله يتساءل فيما إذا ستطوّر متاعب الحج للزّوجة الفتية بعد كل ذلك، فقرّر تركها في مأوى في جدّة، وتابع هو إلى مكّة والمدينة مع جمع غفير في طلب المغفرة.

وعاد راشد بعد غياب سنتين عن موطنه، مع عروسه، وقد أذى الحج. تمّ ملء الشّيك الفارغ وتقديمه، ولكن ماذا تشكّل خمسة آلاف رويّة بالنّسبة لوالده في تلك الأيام؟ وحتى لو أنها كذلك، فهي لم تشكل إلا نسبة بسيطة من إرثه الشّخصي. لا شيء منطقي أكثر من هذا.

كبر ليصبح رجل أملاك، شاركه الحريم والمحيط بمغامرات منتصف العمر الهامّة، اتخذ راشد سبع زوجات بسلام حق الطّلاق الميسّر في الاسلام، ولكن بدا أن المبدأ الذي يوجّهه كان المكر في المطارحة أكثر من الثّبات في الرّوابط، لذلك فأحدى نغماته السّباعية - شركسية جميلة - كانت قد طلبها بالبريد من القسطنطينية، بينما كانت واحدة أخرى - تؤكّد ذكراها الحيّة إلى الأبد صورة نصفية لها مطلّية بالمينا وُضعت على أزرار قميصه - كانت عروساً إيطالية أخذته إلى هيكل كاتدرائية كالكوتا.

كنا نسير بسرعة سبع عقد باستمرار ونحن نحتضن ساحل الباطنة عندما التفتُ إلى مؤنسي الهزلي لأحبيّه تحيّة قبل التّوم قبل أن أنزل، لم يغادر راشد منصّة الرّبان طوال

رحلتنا في البحر، وإذا صعد أحدنا في ساعات الصّباح الأولى ليستنشق هواء الليل
المنعش يقابله توهّج سيجاره أو هممته المرحه بشكل مؤكّد، اكتسب راشد إلهامه
مع السنين التي استمدّها من سفينته وتبعه، كان بعادته سعيداً، وفي أسلوب طبيعته
المحبّبة المراوغة. يعزو الظروف السيئة إلى غاية إلهية كما يعزو لها ماضياً غير مُخزٍ
ومستقبلاً مجيداً.

إنّ روحه لباسلة حقاً!

* * *



وقفة في الباطنة



خط النهاية



مجموعة من رجال قبيلة الشُّحُوح (لاحظ الفأس)



عَرَضَةُ السِّبُوف لَدَى الشُّحُوح

الفصل الثالث من المغامرة الرابعة

ديرة الشّحوح

صاح الرُّبّان راشد: «افلت»، ثم خشخش الحبل خلال أنبوب ثقب مقدّم المركب، بينما اهتز الطَّرَاد «السَّعِيدِي» عندما قلب ناقل الحركة في المحرّكات وترنّح بتوانٍ داخلًا في المرسى.

وصلنا إلى البوّابة الجنوبية لدير الشّحوح، أنارت لحظات الفجر الأولى جبال الحجر الجبّارة التي كنّا البارحة قد تابعناها صوب مرفئنا، سلسلة جبلية زرقاء تبدو سوداء من البحر لكنها وصلت هنا إلى السّاحل وهناك إلى الوجهة الشّمالية التي كوّنت تجويف المحيط. وكمن تحت الجبال امتداد الخليج البديع، وبساتين النّخيل التي تتبعته. أطلّت فتحات شرفات الأبراج بعيداً عن خلفيتها من النّخيل إلى حيث وجدت مستعمرتان صغيرتان، تلك هي دبا أقدم قرية يمكن أن توجد في هذه الأرض، وقد منحها بلينيوس، ذكراً مشرفاً، إن كانت هي دابانيغوريس ريجيو Dabanegoris Regio التي ذكرها، وهنا أيضاً وقف غزاة البلاد الفرس القدماء وفتتهم الأخيرة تحت راية الوثنية في مواجهة المؤمنين مع الخليفة أبي بكر.

وقف مدفع برتغالي قديم في أكثر مكان ظاهر في الأبراج - وقف في منتصف المسافة في الواجهة - دوى تحية لعلمي، العلم الأحمر لمسقط وهو يرفرف في المقدمة وسرعان ما تقدّم بعد ذلك صديقي، وصعد الشّيخ القاسمي إلى متن المركب لزيارتي. ولكنني جئت لأرى سيد البرج الآخر جاره الشّحي - الشّيخ صالح الذي تمكن من لعب أقوى دور في الشّحوح وقد كشف أوراقه للتوّ على الطاولة. لم تكن حادثة خصب

تخصّصه في الواقع، وحتى الآن في طبيعة علاقات الشّحوح كان قسّمه هو إذا كان له دعم مستتر مكن حدوثها، إن لم يكن بالفعل هو من حرّض عليها.

توصلت ألا أقيم المسؤولية، ولكن أن أنظم تسوية سلميّة إن كان على أحدهم أن ينظمها، وكانت معلوماتي السّرية بأنّ حسن غادر خصب لتوّه في زيارة لصالح، وهي سبب زيارتي.

هل يفصل صالح بعد أن وصلت أنا؟ تصرّفه الآمن كان دون طلب، كنا قد تقابلنا من قبل وعليه أن يعرف ذلك، ولم أكن مخطئاً. كان مقبلاً حتى الآن فلماذا كل سوء الفهم هذا؟ أين كان حسن؟ هل سيكون منطقياً؟ - خط عام في ذلك الجوهر. أحجمت بحذر عن ذكر رسالته التي تدينه منذ شهرين وكانت ترمي لترك الباب مفتوحاً.

لم يكن موقف صالح غير ودي ولكنه كان دفاعياً، ولم يعط جواباً قاطعاً، وتبينت بوضوح بأنّه لن يورّط نفسه أو يورّط حسن بالإذعان لمطالب مَسَقَط المقنعة، حتى يعرف إن كان لدى مَسَقَط الوسائل لفرضها بالقوة.

عاد الدّور لي ثانية، فهل أتمكن من الرّسو على الشّاطئ ومناقشة وسائل الاتصال بحسن؟ وهل سيرافقني صالح إلى ليما أو خصب لترتيب مقابلة هناك؟

كان الرّد: «البيت بيتك (يعني بيته هو)، وهو دوماً تحت تصرفك، ولكن رسوّك اليوم غير ملائم». غداً إذا شاء الله سوف يأتي ويبلغني الجواب.

تبعه مئة خادم ممنطقين بأحزمة إلى قاربه الذي جرّوه إلى الشّاطئ مع ترنيمة بحر قديمة. كم هم متفرّدون هؤلاء الشّحوح! عندما لا يكونون في عداء يكون معظمهم رعاة وصيادي سمك وصانعي سفن وبساتنة نخيل، واليوم كل فرد منهم مدجج بسلاح مارتيني هنري⁽¹⁾ بلا ريب، وفأس مصغّر عجيب خاص بالقبيلة إلى جانب سيف ذي

(1) بندقيّة مارتيني هنري Martini-Henri (المرتينة بلغة المشرق)، سلاح حربي بريطاني الصّنع من تصميم الألماني فريدريش فون مارتيني، يعتمد على آليّة مغلاق يتّسع لطلقة واحدة فقط من عيار كبير (450/577). حلّت في عام 1871 محلّ بارودة سنايدر إنفيلد Snider-Enfield التي تم إنتاجها في عام 1866 لأجل الجيش البريطاني. استمرّ إنتاج بندقيّة المارتيني حتى عام 1891، ويرد ذكرها كثيراً في كتابي «رحلات المغامر العربي» و«جنوبي جزيرة العرب» ضمن هذه السلسلة. (أحمد)

حذّين أو رمح في بعض الأحيان. كان الرّجل الشّحي خشناً ويبدو عدوانياً بشكل عام. لاحظت فوقنا عن بعد جبال متميّزة هي موطنه التي تبرز عدّة أمور غريبة فيه، مثل كلامه ذي اللهجة العربية التي لا تُحكى في أيّ مكان آخر، أو صمته - فهو منعزل غير إجتماعي، تزوّده الكهوف بالملاذله ولقطعانه، وإن لم تكفه الكهوف الطّبيعية الموجودة، يقوم بحفر كهوف صناعية، يخفي في مكانها كهوفاً سرّية عن جيرانه. ولأجل هذا الهدف ينحت حفرة بمساحة أربعة عشر قدماً ويسقفها بالأكاسيا والتراب ليخفيها عن المارين في الخارج. ويوجد باب أرضي يؤدّي إلى مجموعة درجات في الأسفل تقود نحو مدخل معتم حيث يوجد خزان ماء رحب يمكنه من الاختفاء عن عيون النّاس لفترة طويلة، ذلك هو بيت القفل *bait al qufl* الذي يدعى بسبب القفل الطّويل غير العادي الذي يميّزه.

وفي جباله الحصان غير معروف، ويمكن لعدد من الجمال أن تجد المرعى في أدغال الأكاسيا في حفر تجمعات الأمطار حيث لا يمكن لأمطار غير كافية أن تكفي مستعمرات القرى الكبيرة أو تسمح بزراعة أكثر من شريط صغير من القمح والشّعير لسدّ الحاجة المحليّة، ولا يستطيع حتى الحمار القوي احتمال الأحوال المجدبة. يعيش الشّحي في قمم الهضاب المنيعّة مع قطعان الماعز الرّشيق. والبقر عنده محرّم، فهو لا يأكل لحمه أو يشرب حليبه ويقال بأنّه يهرب من الوليمة التي تقدّم لحم البقر - لذلك تجرّ النّساء المحجّبات محرائه.

انتظرت زيارة صالح التي وعد بها دون جدوى في صباح اليوم التّالي لوصولنا، كانت الساعة متأخرة عندما شوهد قارب تجديف يدنو، دلّت الحدود البيضاء في علّمه الأحمر بأن شاغليه ليس لهم علاقة بمسقط، وتبيّن أنّ شيخاً قاسماً جاء حاملاً رسائل من صالح.

كانت فحوى الرّسالة: «استدعيت بشكل غير متوقّع بسبب قضية قتل ولا أنصحك بالرّسو»، انتشرت الشّائعات بأنّ حسن وصل إلى قرية مجاورة لتوّه وأنه قادم للمكوث مع صالح، وأنّه أخذ في حثّ القبائل على الانضمام تحت رايته في الحدث التّأديبي

الذي يُتخذ ضده، اتضح بهذا معنى إشارة صالح بالأمس، كان يركض مع الأرنب الوحشي ويصيد مع كلاب الصيد، كان في نظر السلطة يؤوي الشيخ العنيد، فكان عليّ أن أقدم له النصيحة.

أرسلتُ زميلي في المجلس الشيخ زبير⁽¹⁾ إلى الشاطئ، ليلغهم من جهة بلهجة حاسمة بأن الذي لا يقف معنا فهو ضدنا، ومن جهة أخرى ليستكشف طبيعة الحالة القبلية.

دُقت «أربعة أجراس» للتو عندما جاء الرُّبّان راشد ليعلمنا بتقدّم إحدى السفن البريطانية. وصلت سفينة بحرية من البحر، بدنّها طويل منخفض وساريتها طويلة وتجمّ فيها مدختان، كانت من طراز من الرّصاص جميل ومهيب، بدت جديدة تحت الشّمس الاستوائية. كانت زيارتها غير متوقعة عندي، ولم يكن الطّراد «السّعيدي» مزوداً باللاسلكي، وسرعان ما تحاذينا وصعدتُ منها لأقوم باتصالاتي. كانت لوپين H.M.S. *Lupin*، سفينة الضّابط البحري الكبير بالوكالة التي سأبعث بتقرير عن القضية بواسطتها، جاء ربّانها للمتابعة مع تعليمات مشابهة لمهمّتي، بحثنا الخطط، وسوف يعود مباشرة إلى خصب لنتظرني، وسوف أعاد في منتصف الليل على متن «السّعيدي» للوصول إلى كُمزار في ساعة شروق الشّمس وهناك نسعى لفصل الكُمزاريين (الكمازرة) عن تحالفهم مع الثّوار ونحاول تنظيم تحالف ضد التّطوّرات في المستقبل.

ولكن علام تدل رقصة الحرب المقامة على الشّاطئ التي كشفها تلسكوب السّفينة لوپين؟ يبدو أنه تحدّ صارخٌ كما ظنّ الذين على متن السّفينة.

التفسير بسيط؛ فقد صادف وصول السّفينة لوپين مع مغادرة الشيخ زبير للشّاطئ، وتلك الرّقصة كانت مراسم الوداع - النّدبة *nadabah* الشهيرة أو القبقب *qubqub*

(1) هو الشيخ الزّبير بن علي آل جمعة الهوتي البلوشي، مؤرّخ مسقط وأحد أفراد مجلس الوزراء العُماني الذي تشكّل للمرّة الأولى عام 1920، وكان فيه وزيراً للعدل عام 1928. انظر صورته مع برترام توماس ضمن مجلس الوزراء عقب مقدّمة الكتاب. (أحمد)

- وهي صرخة حرب قبلية (لكنها لا تقتصر على الحرب على الإطلاق) وتنفرد بها جزيرة العرب حسب علمي. يقف لأدائها اثنا عشر رجلاً من القبيلة متراصين في حلقة، رؤوسهم محية إلى داخلها وتكاد تلامس، يقف الشيخ في وسطهم، أو أي شخص وجيه، وهو يضع يده اليسرى مصالبة ل صدره وكأنها في رافعة، واليد اليمنى محية فوق رأسه نحو الخلف. ثم يمد يده المرفوعة ويثنىها ويبدأ بصراخ غريب، ليس دون لحن موسيقي تماماً ولكن يرتفع وينخفض في نغماته فوق مجموعة من ثماني وحدات - نوع من الحدود الصوتية لصفير البجع (الأوز العراقي) ينحدر على مجموعة وحدات الثمانية أو الأدنى منها بوحدتين. يضع شركاؤه في هذه الأثناء أيديهم على أفواههم على طريقة المعضمين *mu'edhdhin*، ويقتحم الحلقة على مراحل مع صياح الجوقة المتقطع. بينما ينطلق بقية رجال القبيلة برقص سيف محموم حولهم، ويلقون بنصال سيوفهم عالياً في الهواء ويلتقطونها بأيديهم العارية.

دربنا حول مُسندَم عند الفجر - ومُسندَم هو نُوء في ساحل جزيرة العرب الشرقي يكسر استقامة تناسق شبه الجزيرة العظيمة. وهو ساحل أجرد منعزل في الحقيقة. البحر كما هو دوماً مثل مرجل مهتاج بسبب التيارات المتضاربة التي تتدفق من خلال مجار ضيقة بين الجزر الصخرية برؤوس بحرية ملتوية داخل المدخل المخصوص في الخليج العربي.

عندما يهتاج «السعيد» بترنحه، تهاجمني أفكار المخاطر المجهولة لجرأة البحارة القدماء أمثال نيارخوس Nearchus، رُبَّان الإسكندر الأكبر الذي أبحر في مضيق هُرمُز تلك بمراكب شراعية غير مستقرّة، وأنجز رحلة من السُّند إلى الفُرات عبر هذه المياه، التي كانت كلها مجهولة في ذلك الوقت.

سمي القدماء سكّان هذه السواحل بالإكثيفاغيين Ichthyophagi (المقتاتين بالسمك)، وما زال هذا المصطلح مستعملاً، ولكن بتفكير لطيف فيما إذا عدل التوزيع العرقي بشكل كبير عبر مرور العصور. أما الشُّحوح فهي قبيلة مركّبة بشكل واضح بأقسام لغوية وعرقية واضحة، ليس في داخلها فقط ولكن في العلاقة مع جيرانها العرب. فهم بحدّ ذاتهم مصدر

اهتمام وحيرة للرحّالين. اعتبرهم الدكتور دي جي هو غارث من أعقاب الأقوام المتبقّين ممّا قبل السّاميين⁽¹⁾ - وهي وجهة نظر ليست بعيدة الاحتمال لبعض العناصر البعيدة. لكن الجغرافيين التقليديين لسوء الحظ صمّتوا حول الشّحوح كما فعل الرّحّالون العرب الأوائل في الواقع، ولكن للقبيلة تراثاً (كما علمت من الشّيخ حسن) من أصل سبئي، وقد هاجروا في القديم من أرض الملكة بلقيس. ولكن من المستغرب أن يصمت الكتاب القدماء في بحث الأهمية القصوى لطريق التجارة القديمة في الخليج العربي، كان يجب أن تحرز شبه الجزيرة الجبلية البارزة تلك، كتمرّ إلى اليابسة للملاحين وتراث قبلي لموقع الشّحوح القديمة، تراثاً تدعمه خصائصهم وموقعهم في جبال نائية من البلاد كان يمكن أن يكون ملاذاً طبيعياً آمناً للبدائيين.

يميل التراث القبلي إلى التّطرف طبعاً، ومع ذلك فهو ملقّب مع التراث القديم - على سبيل المثال الشّروح الفسيفسائية للتشكيلة السّكانية لجزيرة العرب من أصول خمسة: كوش Cush، ويقطان Jokhtan وإسماعيل، وقطوره Katurah، وعيسو - للدّعاء بأنه يظهر حقائق تاريخية إلى حد ما. وهنا تبرز نقطة هامة: فعلى الرّغم من أنّ الشّحوح قد أهمل الجغرافيون التّاريخيون ذكرهم، يبقى لديهم سجل مكتوب للاسم حُفظ في عبارة «الشّوحي» بسفر أيوب. لقد وجدتُ شغفاً كبيراً في اكتشاف مجموعة تطابقات بين أسماء كتاب العهد القديم وبين التّوزيع العشائري والمصطلحات الجغرافية في مُسنَدَم القديمة والحديثة ومحيطها - وهو اكتشاف يمكن أن يظهر تلك المنطقة على أنها تقدّم إطاراً قبلياً لقصة أيوب⁽²⁾. ولكن فلا أقل في مستهلّ حديثي بأنني حسّنت التّظيرة من موضع إثارة الاهتمام أكثر من موقع الإثبات الفكري.

(1) هذا الكلام فيه شيء من الواقع، لكن تعوزه الدّقة. والأصحّ القول إنّ الشّحوح ولهجتهم المتميّزة تمثّل صلة نادرة بلغة حمير القديمة، وهذا الأمر قد يتعلّق أيضاً بلهجة قبيلة المهرة. لكنّ كلام هو غارث ربما ينطبق أكثر على لهجة جزيرة سُقطرى التي يمكن الرّبط بينها وبين بعض اللهجات المحلّية في شرق أفريقيا. يرجي الرّجوع إلى ملاحق كتاب «جنوبي جزيرة العرب» لثيودور بنت الذي نشرناه في هذه السّلسلة. (أحمد)

(2) انظر أيضاً الإحالة إلى سكان الكهوف في سفر أيوب 30، 6.

«فلما سمع أصحاب أيوب الثلاثة بكلّ الشرّ الذي أتى عليه، جاؤا كلّ واحد من مكانه: إلفاز التيماني Eliphaz the Temanite، وبلدّد الشّوحي Bildad the Shuhite، وصوفر النعماني Zophar the Naamathite، وتواعدوا أن يأتوا»⁽¹⁾. الآن، من أكبر وأقدم القبائل في عُمان اليوم بنو بو علي والشّحوح والنّعيم. يوحى الاسمان الأخيران بالتّطابق مع أسماء العهد القديم، وبني بو علي - التي سمّاها بطليموس بليولاى Bliulaie - اشتقّت بالاستناد إلى مايلز من بني تيمان Bani Teman القدماى. وهكذا يمكن مطابقة الملوك الشرقيين الثلاثة القدماء مع الشيوخ الثلاثة الذين يمكن أن يكونوا جيراناً بسبب تلازمهم المرجّح.

«فسقط السّبئيون على الخدم وأخذوها

«الكلدانيون عيّنوا ثلاث فرق، فهجموا على الجمال وأخذوها»⁽²⁾.

كان الاعتقاد معروفاً في يوم من الأيام بأنّ الكلدانيين كانوا بشكل محدّد هم قوم كالديا⁽³⁾ Chaldea في أدنى بلاد ما بين النّهرين، أما السّبئيون الخاضعون لمملكة سبأ في العربيّة السّعيدة (جنوبي جزيرة العرب)، فقد وضعت أرض عوص في موقع جغرافي لا تُحسد عليه لأسباب قانونية، وهي أنّ القصّة تحتاج بيئة للسّبئيين والكلدانيين معاً ليكونوا داخل موطن الإغارة على ضحيّتهم. واعتبار أنّ السّبئيين لم يكونوا فقط في مناطق الجنوب الغربي للجزيرة العربيّة، هو أمرٌ يوحى به اسم ما زال يطلق على قوم غربيين يعيشون في الفُرات الأدنى كنت قد خدمتُ بينهم بوظيفة ضابطهم السّياسي. ثم كان هناك السّبي Sabi التّاريخي في الخليج العربي بالتّراث المحلّي الذي أشارت إليه سابقاً. وقد اقترح التّطابق بشكل واسع بين اسمي كلدان وبني خالد - قبيلة منتشرة بشكل واسع في جزيرة العرب. ومع ذلك يمكن أن يكون ما أشار إليه الجغرافيون التقليديون بشكل محدّد هو أنّ الكلدانيين والسّبئيين يقطنون شبه جزيرة عُمان، وقد

(1) انظر سفر أيوب، 2: 11. (أحمد)

(2) انظر سفر أيوب، 1: 15-17. (أحمد)

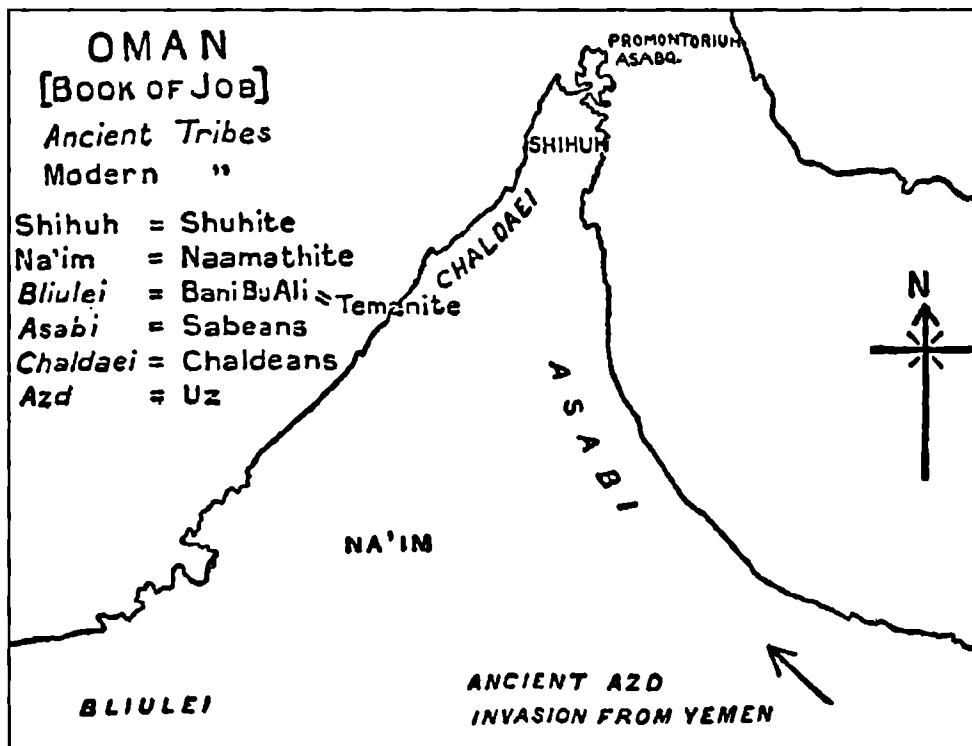
(3) هكذا الاسم بالصّيغة اليونانيّة، وبالكلدانيّة: كَلدو. (أحمد)

وضع پلينيوس الجنس الكلداني تحت جبال Eblitae في الجانب الغربي من مُسندَم، ولم يضع پلينيوس Asabi أو Sabi (بأدثة تشبه العنوان ببساطة) بمحاذاة السّاحلين، ولكنها أيضاً تظهر بانهم أطلقوا أسماءهم على المنطقة كلها - مثلاً پرومونتوريوم أسابو Promontorium Asabo الذي يلقّب به رأس المُسندَم. وهذا الاسم ما زال محفوظاً في اسمي قريتي الشّحوح خصب والسّبي Khasab and Sibi.

وبهذا فإنّ شروط قصّة أيوب قد تبدو مقنعة بالأبعاد الكاملة الاستثنائية للتّوزع العشائري في عُمان القديمة والحديثة. وتطابق اسم قبيلة الأزد Azd - التي ينتمي إليها الاتحاد الكونفدرالي للبيت الحاكم في مَسَقَط اليوم - مع عوض⁽¹⁾ Uz هي مصادفة أخرى غريبة، إن لم تكن مصادفة أكثر غرابة، ولكنه من الإنصاف أن نضيف بأنّ المرجع التاريخي الأول الذي أستطيع تتبّعه لهجرة قبائل الأزديين Azdite هو الغزو الذي تلا انهيار سدّ مأرب. ولكن إن أمكن للمرء أن يتذكّر بأنّ عُمان زوّدت السفن والبحارة لحمل التّجارة القديمة بين بابل والهند، وأنّ سفر أيوب اعتُبر شاهداً نظرياً لدى العديدين على أنه لم يُكتب قبل زمن أسر البابليين، فإنّه لن يبدو مُحالاً أن نفترض بأنه إلى مُسندَم بالذّات، وهي أبرز نقطة في طريق التّجارة الكبيرة في تلك الأيام، قد استند مؤلف سفر أيوب في نكهته المحليّة.



(1) ظنّ برترام بعيد جداً عن الواقع، لجهله باللغات الشّرقية، وهو يطبّق نظريته على الأبجدية اللاتينية، غير أنّ الاشتقاق اللغوي للاسمين (أزد - عوض) لا ينطبق في الواقع على الإطلاق. (أحمد)



قبائل عُمان القديمة كما ترد في سفر أيوب

الفصل الرابع من المغامرة الرابعة

قائمة المظالم

أسفرت مفاوضات صبورة لثمانية أسابيع من أجل إذن لصعود الهضبة عن رفض مطلق، ورد بهذه الطريقة:

من كل جماعة الشُّحوح في قدي،

إلى فضيلة معالي الشيخ المبجل المحترم عيسى بن عبد اللطيف⁽¹⁾.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدّوام. وبعد، فليكن بمعلومكم حول الحادثة التي حدثت بما يتعلّق بالرجل الإنكليزي وأتباع الشيخ حسن والشيخ محمّد بن أحمد، أنّنا قد سمعنا بها ونعلمكم الآن ان تتوخّوا الحذر أنتم والإنكليزي. أمّا أنت

(1) عيسى = Jesus ليس اسم عيسى غير شائع بين العرب، واستعمال اللقب كما هو مستخدم في أوروبا لا يوجد على الأغلب بين الناس العشائريين على الإطلاق، يتبع اسمهم شكل الاسم في العهد الجديد مثل: شمعون ابن يونس Jonas، وتمتلك تلك الأسماء معنى دينياً على الغالب (رغم عدم أهميتها الدّينية) وتذكّر بعادة أسلافنا القدامى. وعلى ذلك، نلاحظ معاني الأسماء التي تتردّد في هذه الصّفحات:

عيسى بن عبد اللطيف

حسن بن محمّد

صالح بن محمّد

راشد

محمّد بن سليمان

ناصر بن خلفان

إبراهيم بن محمّد بن جمعة

يا شيخ حسن وأتباعك فليس لنا علاقة بك ولا تكونوا دخلاء في تخومنا وممتلكاتنا، والمكان الذي تريدونه يقع داخل ممتلكاتنا وحدودنا، ولن يرجع أحد منكم إذا تعدّى منطقته. أقسم بالله! أقسم بالله! أقسم بالله وأقسم بمجد الرب وبحق المتكبر. نحن نتشوق للجهاد (الحرب الدينية) وسنقتل كل من يدخل في منطقتنا ولن نستثني أحداً منهم ليعود سالماً. لا يوجد حاكم يحكمنا ونحن أحرار بانفسنا ولا نتعرف على شيخ أو على حاكم أو سلطان، ونحذركم الآن بكل الإنذارات: حذارٍ من الوصول إلى هذا المكان. وأما أنت يا شيخ عيسى! فالعذر منك. دافع عن نفسك ضد العدو بالوسائل الناجعة وهذا هو المطلوب منك. هذه سياسة الكفار فلا تجرّ على نفسك المسؤولية. إنّ اللّيب من الإشارة يفهم، هذا ما نقوله لك. نحن نشرب الدماء ولا نبالي، مطلوب منك أن تدفع عنا هذا الأمر ولا تتدخل في حدودنا وممتلكاتنا. طغيانكم سيكون على أنفسكم وخطركم على أنفسكم، فلا تلومونا والسلام.

(التوقيع) محمد بن سليمان شيخ البدو في قدى

هكذا كانت الرسالة التي وردت إلى سفينة لويين للوكيل العربي المقيم - المسؤول عن المصالح البريطانية في الساحل المتصالح، وهو رجل محترم جداً في كل تلك المناطق.

عندما ورد الخطاب كانت قدى خارج مجال عمله للتو. كانت في الواقع مقاطعة في خصب كما كانت كل تلك القرى داخل نطاق المرفأ وشيخها والكاتب المدعي، وهو شخص تافه أو على الأغلب لسان حال سيده حسن. صادفت الرسالة ذاتها مناقشات الصباح الباكر. وبعد أن انتظرت سفينة المسح مدة شهرين دون نتيجة، في توقعات يومية لتغير الرأي على الشاطئ، فهمت بأنه أثناء الليل قد تم التوصل إلى التسوية بين عشية وضحاها وأنهم سوف يرسلون لهم فريقاً ليرسو في خور قدى Qada Cove عند شروق الشمس. أرسلوا قارب تجديد مع ابن العميل في الخارج عند بزوغ الفجر دون توقع لخدعة. ولكنهم عندما اقتربوا من الشاطئ أصبح الجميع هناك متلهفين. كان يتولّى الوادي خمسون رجلاً مسلحاً، وقد انتشرت فيه صخور ضخمة سقطت من

فوق المنحدر الذي يحتوي على جروف كوَّنت مكمناً مثالياً، ظهر المسلَّحون فجأة وهم يحملون بنادقهم فوق رؤوسهم وصاحوا:

«عندكم! لا يمكنكم التَّقدم!».

تراجعت الفرقة عند هذا الاستقبال إلى الوراء عن الشَّاطئ قليلاً وأراحوا المجاذيف. لكنهم عادوا وقالوا: «ولكن ألا تعلمون؟ أعطانا الشَّيخ حسن الإذن البارحة!».

«ليس لدى الشَّيخ حسن حقٌّ بمنحكم أيَّ إذن بالرَّسو هنا، ومن يحاول سوف نقاومه».

كان سوء حظ ولكن يمكن للأحوال أن تسوء أكثر. لم يكن هناك إلا شيء واحد نقوم به إذا أردنا أن نتفادى إراقة الدِّماء: تراجعوا وعودوا إلى السَّفينة. وبينما كانت الفرقة المصابة بخيبة الأمل تنسحب صاح رجال القبيلة بتحدٍّ بأنه يمكن لابن العميل أن يرسو عندهم.

تعرَّض الوالي قبل أسبوعين إلى إذلال مماثل على يديَّ حسن نفسه. ذهب أحد عساكر المرفأ إلى السَّوق، وهناك ضربه عبد من عبيد حسن كان يحسده على بندقيته وخنجره، وتمكَّن من الاستيلاء على الغنيمتين - وعلى ضوء الحادثة الأخيرة ومستقبل هيمنة الشَّيخ، بدت هاتان الحادثنان منذرتين ولم يجرؤ أحد من الشَّهود على التَّقدُّم لمساعدة العسكري. وبناءً عليه كتب الشَّيخ إلى الوالي، دون أن ينوّه إلى الحادثة أو إلى السَّلاح في رسالته. وبدلاً من ذلك فقد تحدّثت الرِّسالة بلغة صريحة بأنَّ بقاءه في خصب سوف يعرِّضه للخطر، وأنَّه من المستحسن تسليم الحصن له - أي الشَّيخ - وينصرف. منذ ذلك اليوم وحتى الآن لم يجرؤ الوالي أو عسكره على الدَّخول إلى السَّوق في الواقع. والأسوأ من ذلك، ذهب مرسوم من الشَّيخ أبعد من ذلك، أن يقاطع السَّوق القلعة منذ ذلك الوقت، بحيث أصبح منذ الآن تزويدها بالمؤن يقع على عاتق السَّفن البريطانيَّة، وفي اليوم التَّالي لحادثة قدى جاء تنويع طيش حسن. إذ وضع حارساً مسلحاً على البئر الذي يزوّد الحصن بالمياه وأصدر أوامره للبحَّارة يمنعهم من حمل الوالي على سفنهم.

بلغ السيل الزبى عند سلطة تلك المنطقة، ثمانية أسابيع من المباحثات من أجل امتياز لصعود تلة متعوسة لم تسفر عن نتائج يحدّ ذاتها فحسب ولكن أدّت إلى هذا التّجاوز. كان على سفينة المسح العائدة بشكل دوري من مسح صغير في الجوار، أن تغادر إلى بحر من البحور السبعة أو إلى مكان آخر، ولكن لن يمكنها القيام بذلك بسبب خطط خصب التي تُركت بمجملها غير منفذة. وجدت هضبة أخرى بديلة عن الهضبة المفضّلة رغم أنها أقل منها تفضيلاً، في جزء آخر من المرفأ كان القريون قد هجروها مؤخراً وأدّت المهمة بشكل جيد.

مرّت ثلاثة أسابيع بسرعة منذ حدثت آخر تلك الأحداث، عندما عرف خليج خصب مجدداً نغمات راشد الحادة. كان ذلك في مساء الثالث عشر من شهر أبريل عندما انزلق «السّعيدي» إلى داخل لوپين *H.M.S. Lupin* - ظهوره الأول هنا كان عند بدء الأحداث، وقد وصلت مركب لوپين إلى ممرّ دبا حسب الخطة قبلها بيوم واحد، أي قبلنا بيوم.

صاح الزّبّان راشد: «قارب النّغم! قارب النّغم!» ولكن قبل أن تتمكن من إبعاد مركبنا الشّراعي الصّغير، جاء قارب لوپين ذو المحرّك إلى محاذاتنا من أجلي، وفي غضون بضع دقائق كنت على متن الشّفيينة البحرية وانغمسنا في بحر الإشارات. لم تكن الحالة أفضل ممّا قدّم في التّقرير، كان الجو مكفهرّاً على الشّاطئ وبقي عدم الأمان لرسو أي شخص على الشّاطئ فترة طويلة، وتنامى نفوذ الشّيخ حسن مع نجاحه وأصبح الآن بإرادة الله سلطة عليا لا تُنازع. لم يعد حسن بعد من دبا حيث تركته منذ ثلاثة أيام، فأرسلت رسالة في طلبه. وصل في غضون يوم أو يومين ولكن ليس ليقابلي كما اكتشفنا بعد حين، كان صلباً كحجر الأدامنت، ورفض القدوم إلى متن الشّفيينة تحت العبور الآمن، وتجنّب مقابلي على الشّاطئ في الحصن، وكما تجنّب زميلي المستشار الشّيخ زبير أو السّيد ملك شقيق السّلطان عضو العائلة الحاكمة الذي جلبته معي تحسّباً لحدوث حادثة غير متوقعة مثل هذه - لأنّ الشّحوح معروفون بالتّباهي بولائهم لسلالة البوسعيدي، وقد قامت عناصر منهم قبل خمس عشرة سنة بالقتال

تحت راية مَسْقَط أثناء الحرب الأهلية في عُمان. عزا المدافعون موقف حسن الحالي للخوف، ربما يكون خائفاً، ولكنه تصرّف وكأنه ليس بخائف. كان سبب عودته الوحيد إلى خصب هو الصّيادون الذين نشروا شبّاك صيدهم تحت أنوفنا كل يوم وكانوا قد مُنعوا من القدوم وبيعنا فطورنا الصّباحي - وسمك الأسقمري في خصب لا يستخفّ به.

كانت الأطراف تدار بشكل صارم تبعاً للشكل، وخبرات حسن شجّعت اعتقاده بأنه لن يحدث له شيء، فهو لا يخاف من العقوبات. كانت جرعات المطوّعين فعالة، وسوف يستمرّ بها.

تركت «السّعيدي» الآن وعبرت لألتحق بلوپين *H.M.S. Lupin* «لأجل المدة» فتقديري للحالة يجب أن تذهب عبر ربانها الذي كان التّعاون معه ضرورياً، احتاجت الأوضاع تحرّكاً فورياً. تركت دولة مَسْقَط لوحدها ليس لدى قيادتها المصادر للتّعامل مع الحالة. ولولم تبحث الحالة، لتلتها واحدة أسوأ لأن السّلطة في مَسْقَط في مُسنَدَم رغم أنها كانت وهمية من قبل لكن يمكن تمييزها في ذلك الوقت، وشهرة السّفن البريطانيّة ستعاني عند رسوّها في ملاك أوروبا في المستقبل، ومهما كانت التّفسيّة القبيلة ستصاحبها مخاطر شخصية مميّنة، وفي التّنهاية ربما توجد تدابير للمتمرّدين في أماكن أخرى، لأن انتصار حسن سيكون تشجيعاً للآخرين ليقامروا باللّعبة ذاتها.

توجّهت والرّبّان بجّد للمشاركة في اقتراحات ستنبعث إشاراتها عبر هوائيات لويين حال الانتهاء من وضعها لتصل إلى مراكز السّلطة البعيدة. وإبان الوقت الذي يمرّ حتى نتلقّى الجواب، هيأنا أنفسنا لاستطلاع المرفأ بشكل شامل تحسّباً لاحتمال وقوع العمليات فيه.

توجد روعة في القنّة الجبلية مع أطواقها المتعرّجة العميقة وبحرها الهادئ، نورها صافٍ بشكل استثنائي جعل منظرها الجليل بحدّ ذاته يبدو وكأنه ذو خصائص أثيرية. تعكس الجروف الطّبقية رقعاً بلون رائع في المياه السّاكنة، وتلتفّ التلال العالية في الصّباح الباكر والأمسيات المتأخرة بسنا اللون الورد.

يظهر مدخل مخادع مختلف لجبل كأنه حارس بار ارتفاع ثلاثة آلاف قدم عند الجانب الشرقي من الميناء في مدخل إلفينستون Elphinstone البحري البارز الذي يبلغ طوله سبعة أميال مع راس شَم Ras Sham. وتحيط به من جانبيه على طول امتداده الأفعوانى سلسلة جبال تفرض نفسها أكثر قليلاً من جبل شَم Jabal Sham. تظهر على منحدراته المنعزلة هنا وهناك شجرة متنافرة أو قطع من الماعز يندفع حشده على طول الحواف الخطرة على ارتفاع ألف متر فوق قرية الظهوري التي تعشش قرب الشاطئ. تعج المياه بمراكب جذابة تشبه الغندول، وصيادين يقفون هنا وهناك في مقدمتها ويقومون بأغرب طرق الصيد. يأخذ أحدهم لفة سنارة اليد، لا طعم فيها إلا حشوة قطنية وصوفية مجنحة بريشتين لتجعلها تبدو مثل «جراد البحر» كما يدعو العرب السمك الطائر، وتظهر براعته بقذفها بقوة مثل طريقة رمي الأنسوطه، ثم يجذبها بسرعة بيد فوق الأخرى كي يهجم الطعم وهو يشب فوق سطح الماء ليحرك سمك التونة الذي يكثر هناك. بعد فترة قليلة يترك هؤلاء الصيادون شباكهم ليتوجهوا إلى ضفاف اللؤلؤ لساحل عُمان المتصالح، لأن صيد اللؤلؤ في الصيف هناك يجتذب كل الرجال من السواحل المجاورة. وتلك هي حرفة صيد اللؤلؤ - ربما هي العامل الوحيد الأعظم لاستمرار العبودية في تلك الأجزاء من العالم بسبب مشقتها ومردودها الكبير.

يمكن أن أنوه في عَجالة إلى أن تملك العبيد يعم جنوب شرقي جزيرة العرب، فليس مألوفاً لشيخ أو شخص ذي شأن أن يكون دون بعض الأنفار. وهم يشكلون أساسيات حرسه الشخصيين - وهو تقليد قديم - لأن العبد يعتبر قادراً على الإخلاص الذاتي التادر ولذلك فهو لا يقدر بثمن عندما توضع خطة لقتل سيده - وهو قدر عانى منه العديد من زعماء القبائل. بالإضافة لذلك فالعبيد هم وسيلة قتل العدو. يمكن العثور على ثلاثة أو أربعة عبيد في ملكية الشيخ الأكثر فقراً ولكن امتلاك ضعفي العدد ليس أمراً غير طبيعي. تبعت معاهدة تجارة العبيد لبريطانيا العظمى مع سلطان مسقط والشيخ المهادين في عام 1845 وعام 1856 وعام 1973، نشاطات هامة للبحرية البريطانية، وضعت حدّاً لاستيراد العبيد عبر البحار وحدّاً لفتح أسواق العبيد في

المرافق المحليّة، ولكنها لم تفلح في قمع استعمال العبيد المحليّ. يستمرّ ذلك بسبب الرّأي العام والوازع الدّيني كما تؤوّل محلياً.

يقال بأن سوق التّخاسين في عُمان قد أُتخم بالعبيد قبل تفعيل تلك المعاهدات، واستمرّت العادة بسبب توالد العبيد، وعتق العبيد الذي كان يحدث لم يحلّ المشكلة، ولم تأتِ المساعدة ولا يبدو أنها سوف تأتي من رأي شعبي مجاور مستنير أكثر كالوجود في العراق وسوريا، وما زال المطوّعون الدّينيون ورجال الدّين الرّعماء والكتّاب على سبيل المثال هم الرّعماء في هذه البلاد الأمية إن لم يكونوا هم مخزن التّعليم والتّفوذ الوحيد، وهم يعتبرون معاداة العبودية نشاطات غريبة إن لم تكن منشقة ومدمرة. وقانون البلاد هو قانون الشّرع المقدّس، ربما يكون أقدس مؤسّسة وأقواها في عُمان العشائرية. لا يمكن لأية سلطة أن تتحدّى أوامر الشّرع دون أن تشوّه سمعتها أو تتعرّض للكرامية. يكون العبد بهذا القانون «ملكية» وعند موت سيده يشكّل جزءاً من أملاكه وتقدر قيمته أو قيمتها تبعاً لقانون الإرث الشّرعي الصّارم. وقد عدل التّغيير في الرّأي العام مؤخراً قدر العبيد الذي كان ذات مرة قاسياً، فالיום لا يوجد شراء وبيع متطفلين كما كان الحال في أيام ما قبل المعاهدة، ومع ذلك فإنّ عملية الشّرع في تقسيم الإرث يجب أن تنقل، وهي تنقل بالفعل تداول العبيد حسب قاعدة نقدية.

تنقسم العبودية المحليّة إلى قسمين: قسم عائلي وآخر صناعي، فالعبودية في جزيرة العرب بشكل عام عائليّة، وهي نوع حميد نسبياً، وقد كتبت ملاحظاتي حولها للتوّ ولا يوجد لها نظير في أوروبا المعاصرة، وهي لا تحمل بالتأكيد تشابهاً للعبودية في التّصور الأوروبي للكلمة. ولكن العبد صائد اللؤلؤ يليه بالدرجة زارع التّخيل، بمعنى آخر، ينتمي في تلك الأجزاء بشكل كبير إلى الفئة الأخرى التي تقدّم نقاط اتصال مع أساليبنا في القرنين الماضيين، مثل هذا العبد سيتواجد هنا يعمل في بساتين نخيل سيده أو عند شباك صيده في معظم أوقات السّنة. لا يتلقّى أجوراً لعمله ولكنه مقابل طعامه وكسوته، ونظرياً يبدو أنّ من مصلحة سيده أن يبقيه سليماً جسيماً وعقلياً. وإن لم يكن لدى السّيد بساتين فسوف يعمل في قطع الأخشاب للوقود أو تترك له حرية العمل

في الجوار ليعيل نفسه، ويُطلب منه عادة أن يجلب حمل حطب كل أسبوع إشارة لعبوديته، ويستغلّ العبد الذي يريد التحرّر مثل هذه الفرصة المتاحة، ولكن الرّأي العام في كل البلاد مُتعارف عليه بأنه حين العثور على أحد العبيد الأبقين يعتقله شيخ ذلك الجزء فوراً ويعيده إلى مالكة السّابق. وتدلّ صلصلة قيود الأقدام الحديدية التي تُسمع من حفرة بئر الثور داخل بستان النّخيل على أحد أولئك المتعوسين الفارين.

توضح ضفاف صنعة اللؤلؤ في ساحل عُمان المتصالح اقتصاد العبودية التي تنتج للعالم أفضل جواهره، ويعوّض الحوادث الفردية جيش الرّجال الذي يزحف سنوياً من الجنوب للعمل فيه، تكون فيه على الأغلب وحدات قبلية ونسبة مئوية منهم من العبيد، لأنّ العبيد بشكل عام هم الغوّاصون المتمرّسون حيث أنهم يغوصون منذ طفولتهم، وبالنتيجة فإنّ مكاسبهم تكون غالباً أكبر من مكاسب الرّجال الأحرار الذين يعملون بشكل رئيسي في سحب اللؤلؤ وبعض الأعمال الثّانوية الأخرى في أساطيل صيد اللؤلؤ. يستمتع الحرّ بثمار عمله، لكن مكاسب العبد تذهب إلى سيده. يصطحب فريق صيد اللؤلؤ إن كان حرّاً أم عبداً، إلى البنوك بصحبة عميل عشائري يقوم بجدولتهم مع النّأخذاء (التّوخذة) *nakhuda* الذي يكون له عادة تعاملات معه يكون مهياً في بعض الأحيان لتقديم رهن عقاري ليكفل شروط جيدة له بحقه في الحجز على أموال المدين للخدمات المستقبلية للعبيد. والتّوخذة الذي مؤله تاجر اللؤلؤ يدفع مبلغاً مقدّماً من المال والأرزّ (الغذاء الرئيسي للعربي العُماني الذي يستطيع تحمّل تكاليفه) مقابل حصاد اللؤلؤ، وهكذا يعود ثانية في نهاية موسم صيد اللؤلؤ ليجمع ميزانية الدّخل ومعه موارده البشرية.

مرّت ستان منذ زرتُ خصب لآخر مرة، للتحقيق في عريضة أحد العبيد. وقع فتیان بلوشيان في شرك وبيعا كعبدین منذ ست سنين، وقد أفتفي أثرهما حتى خصب، حيث أنكر الشّیخ حسن معرفته بهما. وقد أدلى عبيد من الدّولة بأنهما في بيته، وتضرعوا ألاّ يُفشى سرُّ أسمائهم حتى لا يُعاقبوا على وقاحتهم. هرب أحد العبدین إلى الحصن ولكن لم يتجرأ أي عسكري أن یقدّم له الملاذ الآمن، فعاد إلى سيده فسُجن وتلقّى

عقوبة تحذيرية لآلامه. قوبلت رسالة المستشار لتسليم العبد بإنكار عنيف من الشيخ لوجوده، ولم يتطلّب إلا خدعة بارعة بسيطة لتمريرهما من وراء المراقبة الرسمية إلى قرية مجاورة وهناك يمكن تركهما لرعاية آمنة عند أحد الموالين حتى تنساهما الذاكرة الرسمية. لم يتوصّل الالتماس لنتيجة مرضية. وفي الواقع لو دفعنا الأمور بقوة لخلقنا حالة تستدعي استعمال القوة.

ثم جاءت قضية جريمة خصب، أمر شنيع نُفّذ بدم بارد وسلاح فولاذي، يعتقد أنّ سَيِّئ الحظ طبيب مغربي متجوّل لم يتمكن من مداواة أحد حسب رواية الشّحوح رغم أنّه كان يأخذ أتعابه. كانت الحقيقة تكمن في مقتنياته حيث وُجد صندوق معدني ثقيل الوزن كان يُعتقد بسذاجة بأنه يحتوي على الكثير من الرّويّات، فكان الطّمع بالحصول على غنيمة هو الدّافع وراء الجريمة. مرّت سنة على تلك الحادثة ولكن الشّيخ اعتبر بأنّ طلب الوالي لتسليم قتلة غريب غامض أتى من مكان مجهول هو طلب مبالغ فيه ولا ضرورة له، وهكذا بقوا أحراراً.

هكذا هو مزاج مُسنَدَم القاتم.



الفصل الخامس من المغامرة الرابعة

قصف بحري

مرّت الأيام سارّة على متن لوپين، أمضى الرّقم واحد وقته بهمة عالية وهو يتخيّر أهدافه ويجدول مجالات الرّمي، ومرّ المدفعي على الذّخيرة المتعدّدة واستنبط ضابط الإشارة جدول إشارات للاستعمال مع المتكلّمين بالعربية في السّعيدي. كل ذلك كان استعداداً ليوم المعركة. فقد عمّ الجوّ شعوراً مكتوماً بالإثارة ونحن ننتظر كلمة الموافقة من السّلطات لإشاراتنا الصّارمة.

قطع الضّابط المؤخّرة جيئة وذهاباً في مهمّته لحمل الرّسائل التي جلبت انتباهاً غير عادي. «هل هذه هي الإشارة؟ هل هذه هي؟» - حتى وقف في أحد الأيام ضابط الإشارة وقبعته تحت ذراعه في وقفة استعداد في حجرة الرّؤّان وقال: «لقد وصلت الإشارة سيدي، إنها من X سيدي، مجموعات N سيدي».

كان تعليق الرّؤّان: «تبدو هذه هي».

نظر بابتهاج بعد خمس دقائق من الإشارة المشؤومة التي حملها بيده.

قال: «حسناً، نحن نتّجه نحوها الآن» ومرّر لي الإشارة عبر المنضدة.

وافقت الحكومة على دعم السّلطة في دولة مَسْقَط، وعلى كل من «لوپين» و«سيكلامن» و«السّعيدي» متابعة الإجراءات التي أُحيلت. سرت رعدة في السّفينة لأنّ البحارة يتممون كلهم تقريباً لجيل ما بعد الحرب، وتلك هي تجربتهم الأولى في حالة «تحت إطلاق النّار» - إذ ليس من المحتمل أن يتلقّى الشّحوح عقوبتهم وهم

متمددون على الأرض، وهم في الحقيقة قد بنوا لتوهم برج قنص صغير قبل ليلة أو ليلتين على جُرف يطل على المرفأ على بعد ثمانية آلاف يارد من مكان رسونا، وكل صباح يأتي شجعان يحملون البنادق وهم يتباهون على طول الشاطئ ويحتشدون فوق الصُخور لاحتلالها حتى حلول المساء. تهوّر تافه من جانبهم ربما لن يستمرّ إلا لوقت نسمح به نحن، ولكنه يدلّ على روحهم المولعة بالقتال.

الآن إلى كتابة الإنذار! ولكن وردت أمور قبل ذلك. كانت زوجة الوالي وأولاده في الحصن ويجب أن نجليهم قبل إرسال الإنذار. ويحتاج الحصن إلى تعزيزات لأنّ حامية الوالي الاعتيادية المؤلفة من أقل من اثني عشر عسكرياً ستكون محزنة لعدم كفايتها، وفي الواقع ستسبّب القلق.

عبرت في تلك الليلة إلى «السعيدى» وحملنا وألقينا في البحر.

قلت للزبان راشد: «أريد الوصول إلى كُمزار بأسرع ما يمكن بعد فجر غد».

إذا شُبّهت شبه جزيرة مُسندَم بسندان حداد فتكون كُمزار عند النقطة التي تقع عليها مطرقة الحداد عندما تقع بشكل مثالي، زرْتُها عدّة مرات من قبل، والزّيارة السّريعة التي قمت بها في طريقي نحو الشّمال إلى دبا حدثت توقّعاً لهذه الزّيارة. كنا عند الفجر نبحر بين هضاب مندفة تذرّوها الرّياح باتجاه القرية التي تنام في حضن المنحدر إلى الأمام. رسوت على الشّاطئ الرّملي وسط مئة من مراكب البّتل *batil* الضّخمة وقد سُحبت بشكل موحد على عارضات قعرها المستوية، عبر ممّرات تعجّ بالصّيادين باتجاه القرية ذاتها، ومجموعة مزدحمة من البيوت المتواضعة ذوات السّطوح المستوية. ذهبت نحو بيت محدّد هو بيت صديقي القديم محمّد بن مهدي ودخلته. سيطر على كُمزار أربعة شيوخ الآن، والشّيخ محمّد أحدهم رغم أنّه أكثرهم نفوذاً وولاء لأن الآخرين قد أقسموا على الميثاق، وهم بالواقع مع أقاربهم صالح في دبا قد شكّلوا فرقة خصب للمتأمّرين في الليلة المشروومة في يناير.

قلت: «حسناً، شيخ محمّد، لديك شهر هل يمكنك تنظيمها؟».

«كل شيء جاهز، سعادتك».

«جيد جداً! أريد مئة رجل للرّسو في خصب هذه الليلة، يجب أن يحدث ذلك هذه الليلة، ويتمّ بسرّية تامة، حيث أنّي لا أنوي تحريض الشّيخ حسن لمقاومة رسوهم».

قال محمّد: «ولكننا لن نستطيع الوصول إلى هناك في الوقت المحدّد، فالريّاح الشّمالية هذه رياح معاكسة».

«لا بأس، سوف تقطر في جزء من الطّريق، وأريدك أنت يا شيخ أن تكون أول من يترجّل، اذهب مباشرة إلى الحصن وحمل عائلة الوالي وأرجعهم على قاربك الشّخصي هذه الليلة ليُعنى بهم إلى حين انتهاء الاضطرابات، وتبقى أنت ورجالك وتقدّم التّقرير للوالي في الحصن».

ينتمي الشّيخ محمّد للمدرسة القديمة ولم يتفق مع أعداء السّلطان. واشتهر كرهه لأعداد كبيرة من الشّخصيات الكبيرة من الشّحوح في خصب، كان بالمختصر المفيد حليفاً متحمّساً.

صاح بأحد عبيده: «أرسل لي جمعة» فدخل المؤتمن على الأسرار: «اسمع يا جمعة» - وتدفق عليه نهر من الأوامر باللهجة المحليّة المحكيّة بشكل خاص عند الكمازرة.

تأمّلت المكان المتواضع حولي بسجاداته الوحيدة، والوسائد المزرية وأنا أدرك بأنه في الحقيقة كان قبراً، وعلى بعد بضعة أقدام منا كانت عظام أقارب محمّد الفانية لعدة أجيال غابرة، فهم مثل الدّرافيديين أو سلالات قديمة أخرى يسكنون في أناو Anau عبر المياه، وهؤلاء الكمازرة يدفنون موتاهم في بيوتهم الخاصّة تحت غرف جلوسهم.

عندما خرجت من بيت الشّيخ محمّد كان رتل من النّساء اللاتي يحملن أباريق فوق رؤوسهن قد اصطفّ في قاع الوادي الذي يقود إلى بئر وحيد منحوت خلف الجُروف في القرية، تقول الأسطورة بأنه سوف يجفّ عندما ينبح كلب هناك، لذلك لا

يدعون ذلك القمام المفيد لقرية الصيد أن يظهر في كُمزار. هل لعواء جوقة الندابات أية علاقة؟ كنت أتساءل. ربما ليس له علاقة لأن صيحة الحرب شائعة لدى العناصر الأخرى الأساسية في الشحوح التي ليس لديها حظر على الكلاب. وكنت قد دُعيت لرؤية أدائها عندما كان قاريبي يُدفع بعيداً عن الشاطئ. كانت هناك أيضاً أربعة قوارب بتيل زُلقت في المياه إشارة بأنّ محمّداً لا يضيّع الوقت في تنفيذ خططنا.

جاءت أربعة مراكب نجحت في تنفيذ المهمة وقد اكتظت بفرقة مؤلفة من خمسة وعشرين رجلاً في كامل عدّتهم الحربيّة بعد صلاة الظهر - إذعاناً لرغبات الرّجل العجوز.

صاح الرّبّان راشد: «ادفع لذلك الرّتل» بينما تعالّى صوت نشيد البحّارة وهم يقتربون، وقف المحاربون بسيفهم المسلولة في مقدّم الطّراد وتابعوا نوعاً من الانهماك في الممارسة، بينما كان القارب يقترب أماناً وتبيّن آخر منظر له يلتصق في الهواء.

قال الرّبّان: «خذ ذلك الخط هناك»، وفي غضون بضعة دقائق كان «السّعيدي» يجري خارج المدخل الأزرق نحو البحر المتلاطم لمضيق هُرمُز مع أربعة بتيلات تشب وهي مقطورة.

أنزلنا هذه القوارب في وقت متأخّر من المساء على بعد بضعة أميال خارج خصب بعيداً عن النّظر في الشّاطئ، سوف تنتظر هناك في عرض البحر حتى يخيم الظّلام ثم تُسحب بالسّرّ إلى البرّ. وأمّا بالنّسبة للسّعيدي فقد أبحر بمفرده ببراءة تامة باتجاه مرساه في المرفأ في الوقت المحدّد لإنزال أنابيه الملوّنة - وهو طقس كان الرّبّان راشد يدقّق فيه عندما اصططّت السفن البريطانيّة قربه. كان زورق لوپين قد اختصر الطّريق باتجاهنا بينما كنا نرمي المرساة ليأخذني لأنضمّ ثانية، وعندما اقتربنا إلى محاذاة السّفينة الحربيّة تواجدت الإشارات والعلامات. لم تعد الرّاية ترفرف فوق مؤخّر السّفينة لأنها قد تقف في طريق نيران المدفع الخلفي ولكنها وُضعت في أعلى ذروته. وقد أنزلت المظلات والدّعامات، ممّا أعطى السّفينة مظهراً عارياً مثل السّفينة الشّراعية عندما تلتفّ أشرعتها.

لن تكون هناك أنوار كشافه في تلك الليلة، وكان محمّد يستحق ذلك كما تذكّرت.
حان وقت كتابة الإنذار.

من حكومة مَسْقَط،

إلى الشيخ حسن بن محمّد الشّحي.

نأمرك أن تسلّم نفسك دون قيد أو شرط، لحكومة البوسعيدي في الطّراد الحربي
«السّعيدي» في غضون مدّة أقصاها ثمانين وأربعين ساعة من تسلّمك هذا الإنذار. إذا
لم تسلّم نفسك فسوف تقصف القوات البريطانيّة وقوات مَسْقَط أملاك منطقة بني
هديّة في خصب من البحر والبر، مع القرى السّاحليّة التّابعة، أي قدي وموخي وحنّا
وفنّخة وحمصي وغصّة والحرف ونظيفي.

وسوف نستمرّ بعد ذلك بالقصف المتكرّر، إلا إذا استسلمت.

لن يُسمح بالصّيد ولا يسمح لمراكب أخرى بالمغادرة أو الدّخول.

إذا سلّمت نفسك لن يحدث ذلك، ولكن إذا لم تسلّم نفسك فليكن بمعلومك بأنك
المسؤول عن كل الأضرار التي سوف تحدث.

(التّوقيع) مجلس الوزراء، سلطنة مَسْقَط وعمان

إلى سكان منطقة خصب الخاضعين لمشيخة حسن بن محمّد

نطلب منكم بموجب هذه الوثيقة أن تغادروا خصب على الفور، كي لا تتعرّض
حياتكم للخطر، ولا تعودوا حتّى نتوصّل إلى تسوية لأمر خصب، لأنّ منطقتكم
ستتعرّض للقصف المتكرّر. يوجد في المغلّف نسخة من الإنذار الذي أرسلناه إلى
الشيخ حسن.

(التّوقيع) مجلس الوزراء، سلطنة مَسْقَط وعمان

كان اليوم هو صباح الثامن عشر من شهر فبراير.

أخذ قارب صغير الإنذار إلى الشاطئ. نظر أفراد حامية مؤلفة من مئة صديق من الحصن ورأوه يمضي قدماً لأن محمّد الكمزاري لا يعمل أثناء الليل. ارتفع علم أسود على سارية أحد المراكب قرب الشاطئ، يحدّد وقت استلام الشيخ الرسالة وهو أمر مهم لتحديد ساعة بدء اليومين منذ الآن، وإذا لم يستسلم الشيخ سوف يبدأ القصف، أعطيناهم مهلة يومين كاملين كي ينزح السّكان من المدن، إذ ربما تزهق أرواح دون قصد. وقد عوملت القرى الصّغيرة المنتشرة في المنطقة بنفس الطريقة رغم أنها قد خوّت للتو، لأنّ رجالها احتشدوا تحت راية حسن في خصب.

قال طاقم القارب الصّغير عند عودته: «لا يوجد جواب، لقد أخذ الشيخ حسن الرّسالتين بيده». قلت له وأنا اسلّمه نسخة: «هاك، خذ هذه عن طريق آخر، وعلّق إعلاناً عنها في السّوق» - فمن الضّروري اتخاذ كل ما يمكن من الحيطة في حال أخفى الشيخ حسن ولم يُعلم قومه لأهداف تخصّه.

مرّت اثنتا عشرة ساعة، أربع وعشرون، ست وثلاثون، ولم تظهر إشارة الإذعان للمطالب، فقط توقف رجال قدى عن القدوم واحتلال برج هضبتهم - وهي حكمة منهم. هل ظن حسن بأننا نخدعه؟ هل في اعتقاده المتولّد من حدسه الذي تحوّل الآن إلى اقتناع بأننا غير قادرين على الفعل وأننا لن نرغب بالتنفيذ؟ بدا الأمر هكذا. لم نسمع بشيء من الشاطئ إلا دخان إشاعة بأن الشيخ يمتلك مدفعاً أيضاً.

بدت لوپين H.M.S. *Lupin* وسيكلامن H.M.S. *Syclamen* و«السّعيدي» مثل «البجع النائم» في فجر يوم الإثنين الحادي والعشرين من أبريل، وهي رابضة في المرسى بتراخ، كما فعلت منذ شهر مضى وأكثر. ولكن جرت تحركات غير اعتيادية على متنها، فقد حلّ يوم التنفيذ، ورفرت الرّاية في الدّرى وأخلت السّطوح من أجل العمل، وانطلق دخان كثيف من خمس مداخن. اقتربت الساعة وكانت سفيتا سيكلامن و«السّعيدي» قد بدأنا بالفعل في اتخاذ مركز البعد، لأنّ أوامر العملية قد اختارت لهما الجهة الشّرقية من الميناء في ذلك اليوم.

كان يجب أن أكون خارج الخدمة في منتصف العملية، كان دوري دور متفرّج فقط، فذهبت إلى منصة الرُّبّان لوبين لمشاهدة أدائها الخاص في خصب.

كان سطح السّفينة أسفل منصة الرُّبّان يعج بالرجال أثناء مراحل عملهم ونُظمت حولهم القنابل بحالة الاستعداد.

يوم! عاد رجع صدى سيكلامن المتأخر وهي تربض مختفية في مدخل إلفينستون. كانت هذه هي الإشارة لمهلة عشر دقائق لكي يحتمي من الهجوم المتقاعسون على الشاطئ قبل بدء القصف الجدي.

قاس رقم واحد ومنظاره معلق في عنقه الصّاري الأمامي، وقفز بخفة إلى منصّة المراقبة لأنّ عمله كان عملاً هاماً للسيطرة على النيران.

نظرنا إلى ساعاتنا. حان الوقت للبدء ولكن لا! كان الرّمم واحد ينادي الرُّبّان من السطح:

«أعتقد أنّي أرى حركة على الشاطئ سيدي».

«لعنهم الله! لماذا لا يغادرون المكان؟» - فترة توقف

قال الرُّبّان: «حسن جداً! مرّر الأمر واستعدوا لإطلاق تحذير فارغ آخر!».

أعطيت عشر دقائق مهلة أخرى.

كانت تهبّ ريح شرقية قوية جعلتنا نتأرجح في زاوية ملائمة مع الشاطئ بحيث يوجّه تقدّمنا لمدفع أربعة إنشات توجيهاً جيداً.

قال القائد: «تابع!» وهو ينظر إلى الأعلى من مكان مراقبته إلى الرّمم واحد في العالي.

فترة توقف.

بعد ذلك جاء أمر بطيء متعمد واضح من منصّة المراقبة.

«رقم واحد مجال المدفع - ثلاثة آلاف - شمال أربعة - لقم - أطلق!».

حدث دويّ يصمّ الأذان، وبدت السفينة تهتز تحت الانفجار الرّهيب. ارتفع لسان نار وانفجار أدخنة حارة، وذهبت القنبلة تزعق نحو هدفها. ثم توقف تبعه صوت دويّ بعيد، وارتفعت سحابة دخان في مقدمة بستان دلّ على وقوع القنبلة.

«مدفع رقم واحد - مئة للأسفل - يمين واحد - لقم - أطلق!».

الصّدمة مرّة ثانية، والصّوت المصمّ ورائحة الحرارة لانفجار الشّحنة.

قال الرّبّان: «رمية موفقة!» وهو يراقب مكان نزولها بمنظاره المكبّر، وعندما انزاح الدّخان شوهد داو الشّيخ الرّابض على الشّاطئ قد حدثت فيه حفرة منفرجة مزّقت جانبه.

وهكذا أخذ ترتيب الأهداف في البداية الشّاطئ وتدرّج إلى الخلف نحو المدينة - كنا ندعوها في الحرب الكبرى الوابل الرّاحف. استعملت هنا لأسباب إنسانية حتى يتمكن الرّجال إذا كانوا في الخلف من انقاذ أنفسهم. مرّ من الوقت نصف ساعة وقد تعلّق ضباب المتفجرات مثل الغطاء فوق القرية المقصوفة.

هذا يكفي خصب اليوم!

كنا في مجرى الأمور.

قال الرّجل الذي كان في المقياس السّلسلي: «سفينة تتقدّم إلى الأمام سيدي!».

قال الملاح: «وسط السفينة» ثم أردف: «اليمينه عشرون».

جاء صوت الرّجل عند حجرة مدير الدّقة في الأسفل: «عشرون من قيادة اليمينه جاهز، سيدي!». وقامت لوپين باكتساح قوي باتجاه قرب خليج قدى.

عندما بلغنا النّقطة التي تعين المدخل المخفي أطلق إنذارنا «فارغ!».

قال الرّبّان: «أبطئ إلى الأمام».

«احكام الميمنة».

«دقة الميمنة محكمة سيدي».

غرّد السّابر: «لا يوجد قاع».

«التّوجيه نحو وسط السّفينة، سيدي».

«ثابت».

«ثابت سيدي!».

«يوجد بعض الرّجال المسلّحين يركضون بمحاذاة رأس الجرف أمامنا سيدي-
نزلوا هناك سيدي!»، قال المساعد وهو ينظر عبر التّلسكوب.

«أين؟».

غرّد رجل المقياس السّلسلي: «ثمانية في العمق».

قال الرّقم واحد وهو يشير: «هناك هل أوجّه عليهم رشّاش لويس؟».

قال الرّبّان وهو متيقّظ لأوامر العملية التي تقول بأنه يجب اتخاذ جميع الاحتياطات
تحسّباً من فقدان حياة النّاس: «ليس ضرورياً، فهم لم يطلقوا علينا النّار».

زحفنا إلى الأمام نحو فك خليج قدي، كان الآن ضيقاً جداً وفكّرت أنه بإمكانني
إلقاء كرة كريكت إلى الشّاطئ في الاتجاهين كليهما، وكانت الجروف تضيق كلّما
تقدمنا إلى الأمام.

كان الهدف محجوباً بشكل جزئي في هذه النّقطة، لأنّ الخليج الصّغير أمامنا
ينعطف انعطافاً حاداً.

جاء القياس: «عند العلامة سبعة سيدي!»، صوت يشد من مستوى أخفض من
غرفة المقياس السّلسلي.

ثم مباشرة تقريباً: «والسادسة والنّصف سيدي».

ويزرز! فرقة! كانت هناك فرقة تشبه ضربة السوط عندما ضربت طلقة نارية حديد السفينة - توقف مؤقت - ثم بينغ! صفير طلقة أخرى فوق رؤوسنا على منصة الرُّبَّان. قال المساعد وهو يشير إلى قمة الهضبة حيث تشير سحابات دخان عرضية إلى مشهد إطلاق نار متقطع.

صدر الأمر: «ليفتح النَّار أحد رَشَاشات لويس في الميناء على ذلك الهدف، صوب فوقهم، يكفي أن يبقوا رؤوسهم منخفضة» تبع ذلك قعقة شيطانية لطلقات لمدفع رشاش بانفجارات قصيرة.

كنا نتقدّم نحو القوس الذي تظهر القرية منه ثانية.

«مدفع رقم واحد انطلق بالعمل حالما نتوجّه نحو الهدف».

بينغ! مرة ثانية - بينما صَفَّرت طلقة فوقنا من زاوية أخرى.

بينغ! بينغ! بينغ! وشعرت بأني أنحني لأتفادي - شيء مضحك تقوم به عندما تسمع صوت الرصاص يمرّ.

قال الرُّبَّان: «الأيدي في الأسفل بعيداً عن منصة الرُّبَّان» نزل السَّلم رسول الرُّبَّان والمساعد وآخرون للاحتماء.

«احتمِ يا توماس - هناك خلف جهاز تعيين المدى».

وضع الرّقم واحد شفّتيه على أنبوب التّخاطب للسيطرة على إطلاق النَّار ثم قال: «ابحث بين الصّخور بمدفع الميناء الرّشاش» وسرعان ما ارتفع صوت جهنمي. كان يرتدّ صوت كل أنواع الرّشاشات بين تلك الجروف الضّيقة وكان زئيراً يصمّ الأذان. تموّجت أماننا سحب الدخان من الحطام المتناثر في القرى المتوارية بين التّخيل.

كراك! ضربت رصاصة منصة الرُّبَّان في نفس الوقت تقريباً مع ثلاثة انبجاسات في الماء تناثرت في الهواء بمحاذاة السفينة حيث كان يسقط المزيد من الطلقات.

«عند العلامة خمسة سيدي!».

صرخ الرُّبَّان للملاح الذي كان فوق الضَّجيج: «ماذا قال؟».

«خمسة قامات سيدي».

قال الرُّبَّان: «أحكم الميناء».

«نصف السَّرعَة إلى الأمام - تسعون دورة».

(كنت أتساءل ترى هل لدى السَّفينة مكان للدَّوران؟)

«قف».

«نصف السَّرعَة في المؤخرة».

جاء صوت من المقياس السَّلاسلِي: «توقفت السَّفينة سيدي».

قال الرِّقْم واحد: «أخبر الذي يقف خلف مدفع الهاون بثلاثة پاوندات كي يبدأ العمل عند الانعطاف».

«متتصف السَّفينة مُحكم».

جاء من قمرة حجرة مدير الدَّفَّة: «متتصف السَّفينة بتوجيه الدَّفَّة سيدي!».

صاح السَّابر: «السَّفينة تسير إلى الخلف».

بانغ! ويزز! واستعر الجحيم ثانية بعد هدوء صاحب ترَنَح السَّفينة وبدأت المدافع الآن بالانطلاق.

«إلى الأمام بنصف السَّرعَة - أربع وتسعون دورة».

«باحكام نحو الميناء».

«توجيه الدَّفَّة باحكام نحو الميناء، سيدي!».

جاء صوت السَّابر: «ستة في العمق سيدي!».

استؤنفت القعدة المصمَّمة للأذان.

صرختُ: «هذه رمية موفقة» وأشرت إلى داو. كان رامي مدفع الثلاثة پاوندات قد سدّد الضربة المباشرة، وثبّ المركب في الجوّ واستقرّ ببطء على عارضته المستوية، وظهرت سواريه غير المنتظمة بشكل مؤسف فوق مياه الشاطئ الضحلة.

«عن العلامة السابعة سيدي!».

أصدر الرُّبّان الأمر: «أوقفوا إطلاق النَّار، ولكن ليبقَ رشّاش لويس ملقماً».

«ثمانية في العمق، سيدي!».

كنا نخرج مجدّداً إلى المرفأ المكشوف، وتبسّم رفاقي على منصة الرُّبّان، الرُّبّان والرّقم واحد والملاح، بسمة رجال يتقنون حرفتهم.

أخرج أحدهم حشوة القطن من أذنيه وتبعنا الطاقم وعُدنا بذلك واضحين في لفظنا ثانية.

قال الرّقم واحد: «يجب أن يلقّنهم هذا درساً».

أجبت: «إنّه بالتأكيد ما كان يلزمهم» دون أن يبدو عليّ ما كنت أفكر فيه - كان ذلك أداء لوّيين الرّائع في المهارة والجرأة وروحها الرّياضية، ونشوة الأبهة التي شعرت أنها تحفّ بأسلوب سفننا.

قال الرُّبّان: «أنا شخصياً أمنح القاديين العلامة التّامة، فقد قاموا بتمثيل استعراض، والآن عندما ندخل هناك في المرة القادمة سوف...»، فتذكّرت بأن للرُّبان نزعة لدخول الأماكن، فقد كان في الواقع الملاح الذي تدبّر أمر مركب «فينديكتيف» *Vindictive* ضدّ كاسر الأمواج في زيبروغه⁽¹⁾ Zeebrugge.

قال الرّئيس عندما نزلنا من منصة الرُّبّان: «لم تكن الرّميات سيئة، أنظر هنا» وأشار بيده حيث أصابت الطلقات حجرة مدير الدّفة وارتدّت على أنبوب البخار الذي أثر في جهاز التوجيه وترك فيه طعنة. تلك كانت الإصابة الأسوأ حظاً، رصاصة أخرى ثقت

(1) زيبروغه ميناء بلجيكي يقع على بحر الشمال، إلى الشمال الشرقي من الهافر. (أحمد)

ظهر المركب القريب، وأخرى ثقت الكوة الخلفية، وأخريات شوّهت الطلاء على جانب السفينة كله. ولكن لم تحدث أية خسائر. كان الخليج المريض فارغاً، ووقف الطيّب الشاب الذي تدرب على استعمال المناشير والرماح وتوقع يوماً مشهوداً وقلبه يتفطر أسى وكأنه يظنّ بأنه قد خُذع!

هكذا عادت لوّيين إلى مرساهما، وعاد السيكلامن و«السعيد» إلى مرساهما في ذات الوقت تقريباً، زارنا رُبان السيكلامن، الشخصية المرحّة في قاربه ذي المحرّك ليوازن الملاحظات ويدعونا إلى العشاء. اعترف بأنه واجه إثارة أقلّ منا. ولكنني فكرت في معاييرهِ - كان قد قاد غوّاصة في بحر الشمال طوال الحرب، وكان أداء سيكلامن أداءً استثنائياً بالتأكيد وإن كان لدينا قدى فهي كان لديها الحمصي وكان فيها القليل.

كان السؤال: كيف هو ردّ فعل قادة على كل الشواطئ؟ في غضون ذلك رغبت ورفيقي المستشار بإرسال رسائل إلى بخا وليما وصدقنا القديم الشيخ صالح في دبا نعلمهم فيها بالعمل الذي نقدناه وهدفنا، ونحذّر بعدم إغاثة المتمرد حتى لا يؤول بهم الحال إلى ما آل إليه حاله.

ولكن وردت رسالة من الشاطئ، هي الأولى من المتمرد منذ القصف. هذا إذن ما فكرت به قدى حول الأمر كله.

إلى السيد ملك ولد السيد فيصل سلطان مسقط وعمان

ليحفظه الله ويديمه ويجلّه ويحميه ويجعل الجنة مسكنه والحدود العين تتلقاه، وبعد فإننا جميعاً قوم عبيدك من قبل قدى نبلغ مقامكم العالي الرفيع. يا مولانا! نحن قومك وعبيدك وتراب قدمك منذ زمن آبائنا وأجدادنا، والآن لا يخفى عليك بأنّ حسن أصبح حاكماً علينا، واليوم نحن لا نريده أن يكون لا شيخاً ولا حاكماً البتة، واليوم نطلب منكم الصفح والمعذرة ونحن تحت إمرتكم وقيادتكم ولا نستطيع مخالفة أوامركم.

أنت إمامنا وسلطاننا ونريد الرد منكم بسرعة في يد حامل هذه الرسالة، ونحن سنطيع أوامركم مهما كانت ونطلب منكم الصّفح. ارحمنا يا مولانا! واشملنا بعطفك. أنتم أهل العطف، وسوف نفعل ما تطلبون منا.

من كل شحوح قدى

(التوقيع) شيخ

من الممتع أن أذكر بأنّ الرسالة كانت في اليد ذاتها التي جلبت الرسالة منذ ثمانية أسابيع. كانوا في ذلك الوقت متغطرسين بنجاحهم ولم يعترفوا بالسلطة، وكانوا شاربى الدماء والآن اصطلح حالهم. كانوا يريدون سلاماً منفرداً.

قلت: «كلا، لن ينفع ذلك» القرى تخصّ الشيخ حسن، وحتى اثنتي عشرة ساعة ماضية كان حسن بطلهم المتبجّج، ويرغبون باتباعه إلى الجحيم إذا اقتضت الضرورة. هذه المداولة كانت مفاجأة حتى الآن. من الواضح إذا طلب الجميع سلاماً منفرداً وحصل عليه فلن يحتاج حسن إلا إلى اللجوء إلى جباله وينتظر حتى تنسحب السفن ويعود للظهور ثانية كشيخ مع نفوذ إضافي. والإذعان لعريضة قدى ستكون خطوة معدّة باتقان لتسفيه النّجاح المطلق. الطّريقة المعقولة الوحيدة للوصول إلى هدفنا وإلى تسوية نهائية تكمن في ضرب سمعة حسن في عيون أتباعه! وهكذا أرسلت رسالة المجلس إلى قدى بمعنى أنه لا يمكن أن يقام السلام حتى يستسلم الشيخ حسن.

لكن لم يكن هناك سبب يفرض عليه الاستسلام بعد. ربما ظنّ بأننا الآن سنكون راضين بالرحيل، لكن تفكيرنا كان يذهب في اتجاه آخر. هل يستسلم؟ هل سيطلب المجئى والمفاوضة؟ يرجّح أن سرعة مبادرته بهذا الفعل تتناسب مع الضّغط الذي سنمارسه عليه. تطلّبت منا الاعتبارات الانسانية أن نراعي بدقة قبل كل قصف حتى لا يكون هناك حاجة للفرار الجماعي على الشّاطئ تحاشياً لخسارة حياة البشر، علاوة على ذلك فإنّ الرّمي بالقنابل على البيوت الطّينية بشكل رئيسي يمكن أن يؤدي إلى

خسائر قليلة نسبياً! ولم تضعف الثقة بحسن بعد، ولكن المسألة مسألة وقت، لأنَّ غرق مركبهم سبَّب وقوع خسارة واسعة، وإضعاف مؤونتهم من الطعام سوف يكون له أثر متزايد باطراد.

كان «السَّطح السَّفلي» lower deck معنيّاً أكثر بالعمل بحدّ ذاته؛ وكلّما تجمّعت يدان أو ثلاث أيدٍ يُعقد اجتماع ما بعد الحادث، وكانت اكتشافات البعض مسليّة لأقصى حد، لأنني مشاهد غير مرئي في أحيان عدة وذلك لأنني كنت أشغل قمرة الرُّبان البحرية في المقدمة، حيث وجدت نفسي للأسف في مكان مناسب جداً لاستراق السَّمع. جاءني الملخّص يعوم عبر فتحات التَّهوية في صباح مشمس، كانت تعليقات رئيسية للبحّارة على رسالة قدى، التي وضعت ترجمة لها على لوحة إعلان الرّجال، قال بازدرار لرفيقه: «الحوار العين! كلهم يختلسون النّظر إليهن!».

بدأت أسهم حسن بالانخفاض بعد القصف الثّاني بعد أسبوع، قُصف بيته وانهار جزء من برج المراقبة، فرأى النّاس في ذلك يد الله، وبرزت فرقة معارضة في المدينة وسرت تمتّات ضد الحماقة التي أنزلت بهم ذلك العقاب، واتفقوا على أنّ على حسن القوي في إيمانه بسلامته من الكفّار أن يخضع لما كان سيقع، كان أمراً مقدّراً، وتذكّرت وجهات نظر الشّخي الكبير: «هل يمنع الله وقوع القضاء؟ أو هل يمنع الله الجبار الإنصاف؟ إن كنت طاهراً مستقيماً فسوف ينهض لأجلك ويجعل سكن استقامتك مزدهراً. ترى الله لن ينبذ الرّجل الصّالح ولن يساعد فاعلي الشرّ».

وردت الآن رسالة عجيبة من دبا، كُتب فيها:

إلى مجلس الدّولة في خصب.

وصلنا كتابكم الكريم، ولم تردنا أخبار هنا تستحق لفت انتباهكم لها، وقد فهمنا ما أعلمتمونا، وبالتّحديد عن حيادنا. نحن إن شاء الله نطيع الأمر. تم إعلام رجال القبائل كلهم، وكذلك سكان ليما وعقبة وكل من يتعلّق بهم ألا يمدّوا يد العون. نطلب من الله

ومنكم المغفرة، فإن ذنوب خدامكم كانت كثيرة جداً، وذنوبهم بسبب ثقتهم بلطفكم، ومن يصفح ويستقيم على الصراط سيجزيه الله خير الجزاء، ومن يُنقذ مسلماً من الموت يسلمه الله من نار جهنم. لم يحجم حسن عن الإذعان إلا بسبب خوفه منكم.

(التوقيع) صالح بن محمد

شيخ دبا الشّخي

هكذا أنجز ارتداد دبا، وكُمزار عادت مرتدة قبل إطلاق رصاصة واحدة، وقدى تلوّح للعالم بأنها ترغب بالانفصال، فأصبح الميثاق الذي أقسموا عليه قصاصات متناثرة.

وجد حسن نفسه مكروهاً ومرفوضاً، ويعتقد بأنّ بدو الجبال هم يده اليمنى، وفي الواقع لديه آلاف منهم يسرون تحت رايته في خصب - وكانوا موجودين - والتشتت الذي يحصل الآن حدث بصعوبة. ولكن أين الإمدادات التي تساندهم؟ سدّ سور من الجبال الطّرقات الداخلية. كان الميناء يتوهّج في الليل بالأنوار الكشافّة ولا يتوقع لمركب أن يعيش خمس دقائق. لذلك فإنّ المئتي رجل الذين كانوا بصحبة حسن بعد عمليات أسبوعين بدأوا يتبدّدون من حوله عائدين إلى قراهم.

كان يوم السّابع من مايو، أصدر إنذار عند الظّهر بالقصف في وقت تالي من اليوم عندما شوهد مركب داو⁽¹⁾ بمحرّك يدخل في المرفأ. وصل وسيط، إذ يعتقد في جزيرة العرب القبلية مثل الأماكن الأخرى بأنّه ليس من اللياقة أو الحكمة طلب الطّرف الأضعف للسلام من الطّرف الأقوى، لذلك يُلجأ للوسيط في عُمان كلها، فهو يحفظ ماء وجه الضّعيف رغم أنّه عملياً يجب أن يكون مقبولاً بشكل شخصي للطّرفين

(1) يستخدم الرّحّالون الأوروبيّون إلى منطقة الخليج العربي تعبير: مركب الدّاو Dhow لتسمية المراكب المحليّة بوجه العموم، لكن هذه المفردة لا تستعمل أبداً في الخليج، بل هي تسمية قديمة شاعت في عهد العبّاسيين (الدّوانيج، أعجميّة تعني السفينة الصّغيرة)، أمّا في الخليج فيسمّى كل قارب حسب نوعه الخاص: بوم، بغلة، سمبوك، شوعي، بتيل، بكن... إلخ. (أحمد)

كليهما، ويقدر اللحظة المواتية لخطوته، إن كانت مبشرة بالخير. وقد قام الشيخ سعيد بن مكتوم في نزاع مشابه وقع ما بين الهناوي والشحوح، قام بإرسال وكيله برسالة إلى حسن يعرض خدماته كوسيط، ثم رفعوا غصن الزيتون الذي كانوا يتعطشون له.

اقترب قارب المحرك ورسى بقرنبا، وصعد على متن سفينتنا صديقي القديم الشيخ سعيد شيخ دبي.

سأل الشيخ: «ماذا عليّ أن أعرض على حسن عندما أصل إلى الشاطئ؟ ماهي شروط مسقط؟».

قلت: «تسليم حسن غير المشروط».

«هل من شيء أقل يا صاحب؟ هل من شيء أقل؟ حياته! ألا يوجد رحمة؟».

«لأنك أنت الوسيط سيكون هناك رحمة، وسيتلقى حسن سجناً محترماً، أعدك بهذا، أما بالنسبة للشيخ حسن بنفسه، فيجب عليه الاستسلام دون شروط».

شرب الشيخ قهوته وعبر جانب السفينة، ومضى به الدّاء القديم الهجين بمحرك كيلفن Kelvin الذي فيه وهو يصدر صوته الانفجاري الخافت بفعالية نحو الشاطئ.

مشيتُ الهوينى مع الرّبان على سطح مؤخرة لوپين، وبحثنا الاحتمالات.

عاد الدّاء بعد ساعة، وتقدّم ببطء شخص متردد من جانب السفينة الأعلى وألقى التّحية.

تحوّلت إلى الرّبان وقلت: «هذا هو الشيخ حسن سيدي!».

انطلق «السّعدي» في تلك الليلة.

كان الرّبان راشد يجمع الواجب مع المتعة في نقل حسن إلى مسقط. وأرسل رسالة إلى حاكم سجن حصن الجلالي في نفس الوقت، تقول الرّسالة: «الشيخ حسن سجين دولة، وستكون مسؤولاً عن حجزه لمدة سنة ونصف».

ترجّلت في اليوم التالي في خصب لأوضح آثار الحادثة، كان حشد كبير من الشحوح

على السّاحل لاستقباله. كان أول عمل هو صنع السّلام بينهم وبين جيرانهم الكمازرة الذين خرجوا الآن من حصن الحكومة نتيجة لذلك. تم تحقيق السّلام، وذهبت إلى القرية لمعاينة الأنحاء التي قُصفت ولكي أقول لهم كلمة ودّية، كان القرويون أكثر ودّاً ممّا عرفتهم من قبل، قاموا بمصافحتي دون الخوف المعهود على حياتهم، وكانوا يشيرون ضاحكين إلى برج الشّيوخ المقصوف، وقالوا بأنّهم دهشوا شيء واحد - هو تواضعنا - وظهر عليهم الابتهاج بالسّلام الذي حلّ عليهم، كان في الجوار كوخ كبير من سعف النّخيل ظليل يزهو بالسّجاد، كانوا قد أعدّوا فيه وليمة على شرفي.

حان وقت انصرافي، فتابعت طريقي إلى الشّاطئ لصعود متن السّفينة وسط حشد متزاحم من المتمرّدين السابقين. وبينما كنت ابتعد سحبوا بنادقهم الملقّمة السيّئة وأطلقوها تحيّة لي - هم يفعلون هذا رغم اعتراضي.

قارب الوقت منتصف التّهار عند صلاة الظّهر عندما انسحبت من الشّاطئ، وعندما نظرت خلفي رأيتهم وشفاههم إلى الأرض في تعبّد خاشع، وتناهت صرخة خافتة عبر المياه:

الله أكبر!

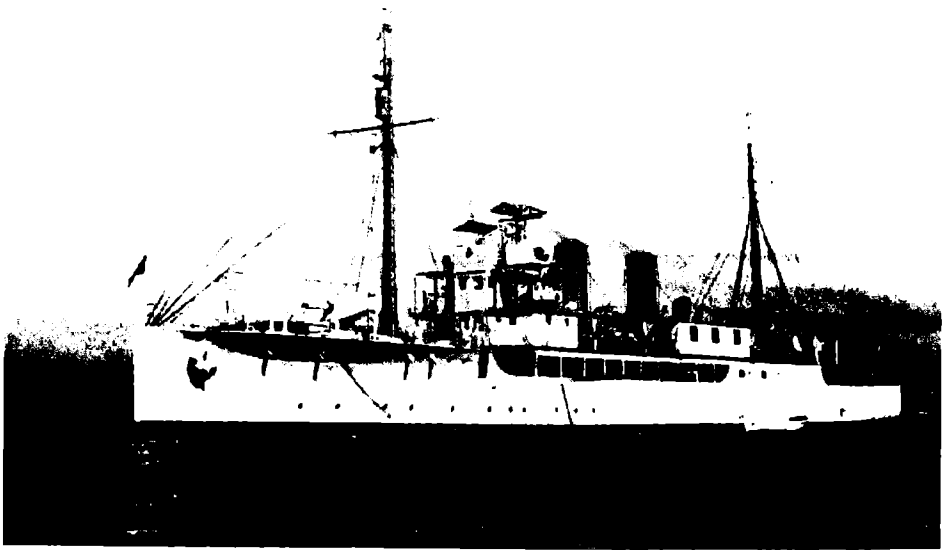
الله أكبر!

لا إله إلا الله!

لا إله إلا الله!

أشهد أن محمّداً رسول الله!

* * *



من مراكب الخليج العربي، سفينة صاحب الجلالة سيكلامن



كُمزار، شاطئ أبيض تحت الجروف



الشيخ صالح بن مهدي، شيخ الكمازة

المغامرة الخامسة

صفحات من مذكراتي في جنوبي جزيرة العرب
الجانب السهل من رحلة ستمئة ميل
على ظهر الجمل، عام 1927

الفصل الأول من المغامرة الخامسة

مغازلة محبطة

أغراني الرّبع الخالي، تلك الصّحراء البكر جنوبي جزيرة العرب، التي استحوذت على اهتمام ويلستد وريتشارد بُرتون كما استحوذت على اهتمام كل رجل أبيض اختار الحياة في جزيرة العرب.

الرّبع الخالي معشوقة مثيرة تومئ لتمنع، كانت تلك مغازلتني الأولى لها، لذلك لم أتعلّق بوهم إخضاعها العاجل الحاسم، يمكن لمجاهل الرّمال أن تنتهياً للاختبار، فطموحي في الوقت الحاضر قد انحصر برحلة تمهيدية بين التّخوم الجنوبية، كان في ذلك ما يكفي، لأنه يمثل مجاهلاً *terra incognita* بمسافات أبعد بكثير من تلك التي بين نهاية الأرض وبين جون أوغروتس⁽¹⁾ John o' Groats، واحسرتاه! عند اختباري الأول وجدت نفسي فاشلاً منذ البداية.

بدا خور جراما Khor Jaramah نقطة بدء مناسبة عندما درست الخارطة، كان الملتقى في هذا الخور قرب حافة جزيرة العرب الذي يقذف نفسه باتجاه الهند. دعاه القدماء كورودام Corodam عندما احتّمى فيه أسطول الاسكندر الكبير في رحلة تاريخية من وادي السّند.

نزلت إلى البرّ تملؤني الآمال، ولكن أين اصدقائي؟ كانت ضفاف الأخوار بريئة متشابهة مع قافلة بشرية، وبعد انتظار يومين بلا طائل عدت أدراجي يملؤني السّخط.

(1) جون أوغروتس قرية في أقصى شمال شرقي سكوتلندا، تُلقّب بكناية: «بداية بريطانيا العظمى» The start of Great Britain. (أحمد)

ربما مرفأ صور الصّغير الذي يبعد عدة اميال يستحق المحاولة! جاء قارب داو بوزن مئتي طن وهو ينطلق برشاقة إلى مصبّ النّهر - لأنه بالرّغم من أن خور جراما مهجور عادة فقد اشتهر بإصلاح المراكب المحليّة قبل عودة رياح السّموم - وألقى مرساته تحت حمى السّعيدي. ومع ذلك لا يحتمل أن يحمل أخبار وصول قافلة لي في صور، وعلى أية حال كان عليّ الحذر في المكان لأنّ المؤمنين قد ثارت حفيظتهم ضد أيّ تطفّل على معظم تراهم المقدّس. عمّ الاهتياج متن الدّاو، وانفصم جبل المرساة فغاص عبداً ملاح على الفور لعمق ست قامات من المياه ليؤدّي دور كلاب بشري وبقي في الأسفل مثل البرمائيات أمثاله لوقت طويل، ثم ظهر شعره الصّوفي وسُحب إلى متن القارب، قال: «صفعني جتّي» ووضع يده على جانب وجهه المصاب وألقى رأسه إلى الخلف ليوقف التّزيف من أنفه.

فسألته: «ألا تخاف من سمك القرش؟».

قال رفاقه: «كتبه الله» يعني بأن نصيب الرّجل هو ما كتبه له الله، ولكن كان واضحاً بأنّ الجنّي كان مرعباً له أكثر ما يكون.

عندما شفي بشكل كافٍ أمره زملاءه الملاحون أن ينزل ثانية، وبعد البقاء دقيقة عاد جسده الأسود العاري واهناً إلى السّطح وقد أتمّ هدفه وربط الحبل، ولكن عندما سُحب من الماء انهار على السّطح والدّم يتدفق من أنفه وأذنيه. كنا في طريقنا ولكن ضمن مسافة النّداء عندما استعاد وعيه، وسمعت من طاقم البحارة بأنه تلقى صفتين في رأسه هذه المرة ولكن لم نعرف هل اعتبر ذلك بأنهما من جنّين أم جتّي واحد على اليمين واليسار.

كلمة صُور في جزيرة العرب لها نفس مدلول كلمة Tyre في اليونانية، وإن كان هيرودتوس كتب الحقيقة عندما دوّن بأنّ فينيقيّاً أخبره بأنّ الخليج العربي كان منشأ الفينيقيين⁽¹⁾، فليس من المستبعد أن تكون صُور هي موطن آباء أولئك المغامرين

(1) لهذه الشّهادة التّاريخيّة من هيرودوتوس أبي التّاريخ أهميّة كبرى فيما يخصّ التّاريخ القديم لمنطقة الخليج العربي، واليوم صار من الضّرورة بمكان التّوسّع في دراسة دور الخليج العربي

التّجار المبكرين من صور Tyre وصيدا Sidon.

لم يكن يوجد قافلة هنا، ولعلّه من السّخف الاعتقاد بإمكانية الالتقاء بوحدة في مثل هذا المكان، لأنّ جو صور جو غير مضياف - ملثّات بالخصومات في داخله وخارجه، واكتساب تعاون فئة هناك يعرّضك لمعارضة مناوئتها. كان حصن الدّولة الذي اعتزمت تفحصه يربض بعيداً في بساتين نخيل على مسافة ثلاثة أميال من البحر، ولشدة براعة مبتدعه فقد بناه فوق الآبار التي تستمدّ القرية منها ماءها، فهو يمثل السّلطة بشكل تقليدي لكنه ضعيف. أشير لي بأنه يوجد على يمين الطّريق بين تلال العيس المنخفضة موقع أحد الكهوف فاعتزمت استطلاعه. كان اثنان من أصل اثني عشر عسكرياً من أتباعي قد دخلاه ذات مرة فيما مضى وهما مستعدّان لدخوله ثانية، ولكن نصحنا البقيّة بالحذر من الجنّ والثّعابين ولكن بشكل خاص من الجنّ وأعلنوا رغبتهم في البقاء خارجه. يقع المدخل المعتم على ارتفاع عشرين قدماً في سفح الهضبة ولا يبدو أكبر إلا بقليل من كوة السّفينة الجانية، ويتطلّب الوصول إليه تمّدّ المرء على الوجه والدّفع بالمرفق لشق طريقه إلى الدّاخل مثل طريقة السّلاحفة في السّير. حمل القائد حسين بوتى *buti* (مصباحاً) لأنني جئت دون مشعل كهربائي أو أية عدة من هذا النوع.

لو أن مرافقي ارتابوا كعادتهم بأحد العلوم الغامضة التي أستطيع بها أن أتنبأ بخزائن الكنوز المدفونة، لكنت تشبّثت بأمل وجود نقوش جدارية وبعض أحجار الصّوّان أو ربما جمجمة قديمة. قادتنا نحن الثّلاثة مسافة عشرة أقدام من الرّحف إلى داخل غرفة معتمة غير منتظمة برائحة عفنة وقلة في الهواء، مساحتها ما يقارب اثني عشر قدماً في خمسة عشر، يكاد المرء لا يستطيع الوقوف فيها باستقامة. امتلأت أرضه بكتل الحجارة التي انحدرت بعيداً بعنف وقد تطابق السّقف معها، وجدت حجرتان أخريتان خلفها

كمهد لحضارات الشرق الأدنى القديم، فمن خلال دراسة التطوّر الكرونولوجي لزمرة اللغات السّامية الشّرقية (الزّمرة الكنعانيّة إن جاز التعبير) نستطيع الجزم أنّ الأمر لا يقتصر على كون أصل الفينيقيين وحدهم يعود إلى هذه المنطقة، بل والأكاديين والآشوريين والبابليين والكلدان. ولهذا تداعيات تاريخيّة عظيمة جداً لم يتم تدارسها إلى اليوم. (أحمد)

ولكن فجوة الدّخول كانت صغيرة جداً لا يمكن لأحد المرور عبرها إلا بحجم رجل دون الحجم الطّبيعي، وحيث أن المرافقين البدو لم يبدوا حماساً للقيام بالمهمة فكان علي أن أقنع نفسي بفكرة أن داخل الحجرات أجرد كالبقعة التي كنا سعداء للزّحف خارجها نحو نور الشّمس الزّائع.

كانت الكهوف الطّبيعية إحدى الخصائص المميّزة لمصيف عُمان، وقد سمعت روايات عن أحد الكهوف الواسعة التي لم تستكشف بعد - يقع على بعد مسيرة يوم ونصف على ظهر الجمل في مقييل Muqil بوادي بني خالد. وعلى الرّغم من أن مدخل الكهف كان ضئيلاً مثل ذاك الكهف في العيس Al 'Ais فإنّ داخله كان على التّقيض تماماً - قاعة مرتفعة منحوتة في الجبل، يقول عنها البعض إنها تمتدّ لمسافة ميل أو أكثر، لعدم تجرّؤ أحد على بلوغ أقصاها خوفاً من الجنّ والصّجيج المقلق للمياه المندفعة تحت أرضه. كان الجوار مأوى شذاذ الآفاق في وقت كتابتي عنه، لذلك لا ينصح بزيارة المكان لهذا السّبب ولأسباب أخرى.

كنت سأرى في تلك الليلة كيف يُطرد الجنّ الذين ابتلت السّماء البشريّة بهم، أو ربما كنت جائراً لأن الزّار ليس مفرقات جنّية ولكنها أرواح محرّرة، وروح شريرة تتملّك الانسان، وتفسير لأمراضه الجسمية والعقلية. فما العمل عندها إلا استرضائه؟ تلك هي طقوس الزّار، ورغم أنها غير موجودة في الصّحراء فإنها تزدهر في كل قرى الصّيد في تلك السّواحل، ورغم أن المسلم المستنير يزورها كبدة، ويحرّمها الوالي في منطقته على خلفية دينية، فإنّ العامة منذ عصور غامضة يتشبّثون بطقوسها الحسيّة. والهيكّل - رغم أنه لا يجرّؤ أحد أن يدعوه هكذا في بلاد المؤمنين الحقيقيين هذه - عبارة عن كوخ من سعف النّخيل بأبعاد فسيحة، ولا يسمح بالحديد عادة فيه، ولا يسمح أيضاً بالقيام بالطقوس يومي الخميس والجمعة خشية أن تبطلها إحدى تلك الأشياء الممنوعة. تكون الشّيخة هي الرّئيسة أو ساحرة أو وسيطة أو آية واحدة منهن تريد، على ألا تكون زنجية مُسنّة مخالفة، وهي تتألّق بقلب أم الزّار.

يأتي المتعبّدون في ليلة رَمسا *rumsa* (لأن الظّلام عنصر أساسي) بفرق صغيرة

ربما يصبح مجموعهم مئة أو ما يقارب المئة، وغالباً معظمهم من النساء. يتوافد قادمون جدد طوال الليل ويغادرون على مراحل تكفل تجمّع الطائفة وتضمن نثر حماس جديد مفعم بالحياة. يمنح كل فرد عرق نعناع إذا كان موسمه، ولكن الجو يظلّ دائماً مثقلاً بالألوان متناسقة مجدولة ورائحة البخور المحترق، لأنّ محارق البخور موزعة بسخاء من أول الغرفة حتى آخرها.

تهيّأت المنصة الآن. وجُلب «ممسوس الزّار» واستلقى في وسط المجموعة وجلست حوله على الأرض صفوف الأتباع باستثناء أم الزّار التي جلست على كرسي، بدأت الطّبول بالظهور، عادة تكون ثلاثة وهي في الحقيقة أساسيّة في كل مكان. بدأ الذين تجمّعوا بأرجحة أجسامهم على إيقاع بطيء في البداية وراحوا يصفقون بأيديهم وينكسون رؤوسهم، ثم يتسارع الإيقاع ومع الوقت تصبح حركاتهم أكثر حيوية كلّما حرّكوا أنفسهم أكثر. تقوم الوسيطة الآن بتلاوة صيغتها ببربرة غير مفهومة يفهمها الأتباع فقط الذين يجيئون بأجوبة مناسبة. وتدرج الليلة وتتغير إيقاعات الطّبول باستمرار، وينشط بقوة ترتجّ الأجسام وتشنّجها ويزداد هزّ الرّؤوس بعنف وتركز نساء الصّفين الأماميين انتباههن الشّديد على المريض، يصبح المريض نفسه متأثراً بمحيطة مثل أنغام المزمار التي يعزفها حاوي أفعى الكوبرا. يجلس المريض ويبدأ بهزّ رأسه بالتناغم مع جيرانه القريبين، تلك هي الإشارة التي ينتظرها الجميع، وهي تدلّ على ان الزّار بدأ يتحرّك في داخله وسوف يتعرّض للطّرد بعد قليل.

تسأله أم الزّار: «هل انت زار؟».

يأتي الجواب: «أنا زار» عبر فم الممسوس الذي يجعله يجيب، إيمانه بأنّ الزّار داخله.

«هل أنت ذكر أم أنثى؟».

أعطي جواب.

«ماذا تريد؟».

يكون الجواب: «دم أضحية»، لأنه دون دم لا يمكن أن يحدث استرضاء.
«اسمك واسم أبيك؟».

في هذه المرحلة يمكن أن يفشل استجواب المريض، وينهار وتنهمر دموعه، وربما لا يتمكن من الإجابة في أول مرة يُسأل بها، ولكن عليه الإجابة قبل مرور سبع ليالٍ لأن تلك هي مدّة الطّقوس رغم أنه غير محتمل أن تمرّ الليلة الثالثة في البداية دون أن يُجبر الزّار على الاعتراف.

يستمرّ في هذه الأثناء الانغماس في قرع الطّبول ودوران الأجسام حول نفسها حتى يتلاشى مؤدّوا الطّقوس في نشوة حسّيّة مُسكرة. وتعتري المريض في النهاية حالة مشابهة تعتبر آخر رمية للزّار قبل أن ينصرف من جسده. يتم احتلال الفراغ مباشرة من قبل الفرد المعاكس لروح الجنّي، لأنّ أفراد الزّار أيضاً ذكر وأنثى أيضاً ويعملون كل زوج معاً⁽¹⁾. والآن قبل أن تظهر الرّوح بإجراءات مماثلة تدور فناجين القهوة ويضاف المزيد من البخور في المحارق.

يأتي بعد ذلك الجزّار. طالب الزّار بخروف أو بقرة، وبينما تحزّ السّكين رقبة الأضحية، يوضع تحتها فنجان قهوة ويملأ بدمها المتدفق ثم يسلم مباشرة للمريض ليشربه. إذا كانت روح الزّار التي تلبسته أنثى لن ينفع إلا دم الثور أو الكبش، أما إذا كان ذكراً عندئذ دم بقرة أو شاة. يتبع ذلك وليمة، فتشوى الذبيحة بكاملها والويل للطاهي

(1) رغم أن الزّار يخدعون بنوع جنسهم، ذكر أم أنثى، أحرار أم عبيد، ورغم أن لديهم قرابة بين بعضهم فإنهم يتلبسون كيانا لكل فرد منهم له صفة مميّزة لوجوده الكلّي، وهكذا فإن Saif Shungar و Bursait و Nuray و Dira الأكثر شهرة بينهم يتلبّسون في بعض الأحيان عدّة اشخاص في أماكن متفرّقة في الوقت ذاته. ومن أمثلة الأزواج الزّار الذين يعملون معاً Warar و Mug و Saif Shungar، و Of Mamid (يدعون في بعض الأحيان Alem Sejjeed (Tulubisan مع إما Mug أو Ingalul - الذي عنده عدّة زوجات. والأرواح المذكورة الأخرى هي Dumfur و Al Qust و Dair Sejjeed و Am Bessu و Fasil، وأما الأرواح المؤنثة فهي Suriq و Iskander و Dai Katu و Taizar و Wilaj. وتابع الطائفة الذي يتلبّسه أحد هذه الأرواح بشكل دوري يقوم على الأرجح بغسل خاتمه (أو خاتمتها) بدم الأضحية.

او أي أحد آخر يضع لقيمة بين شفتيه المتلهفتين للطعام قبل أن يشغل الساكن مسكن الروح الحديث. ولذا يجلب في البداية أمام المريض الذي يوجه كلامه إلى الرئيس، متجنباً ما يكون عادة شهياً - عيونها - وبعد ذلك يتجمع الحشد حول الأضحية المشوية ويشترون بأكلها.

قرّرت العودة إلى مَسَقَط في اليوم التالي. احتفل الصّوريّون، وهم ذرية نائرة، في تلك الليلة بزيارتي بقتل عابث خارج البلدة تماماً، لعضو في قافلة آتية من قبيلة الهناوي المعادية. وقف عناصر معادون داخل القرية ذاتها من أفراد قبيلة الهناوي وهم مستعدّون بسلاحهم، والبريء منهم يخشى أن يُسأل عن أفعال المذنب - إن كان فعلاً - تعبیر البرئ السابق يحمل غير تطبيق تهكمي في صور - وأصبحت أبراج الحرب التي يعجّ بها المكان مثل خلايا التحل بالحركة. لا بدّ أنّ دولة مَسَقَط ستطلب القاتل كما هو مؤكد أيضاً بأنّ رُبعه سوف يحتجزه. الإجراء الوحيد الممكن للرهينة إلى أن يُسلم، هو أن يستولى على داو من أملاكهم ويجزّه إلى مَسَقَط. ترنح مركب وحيد في المرسى حينما انسحبت إلى السّعيدي، ولكنه ربض في داخل مسافة ثلاثة أطوال كبلية من الشّاطئ - أي في مجال مرمى البندقية - وكان تحت قاعه طرد مياه أقلّ ممّا تتطلبه سلامة المناورة، ودورانها الكامل سيكون بهذا عملية غير مرضية ولكن يجب القيام بها.

قلت: «يا ربان راشد انا أحبّذ بشدة أن يُقطر الدّاو!».

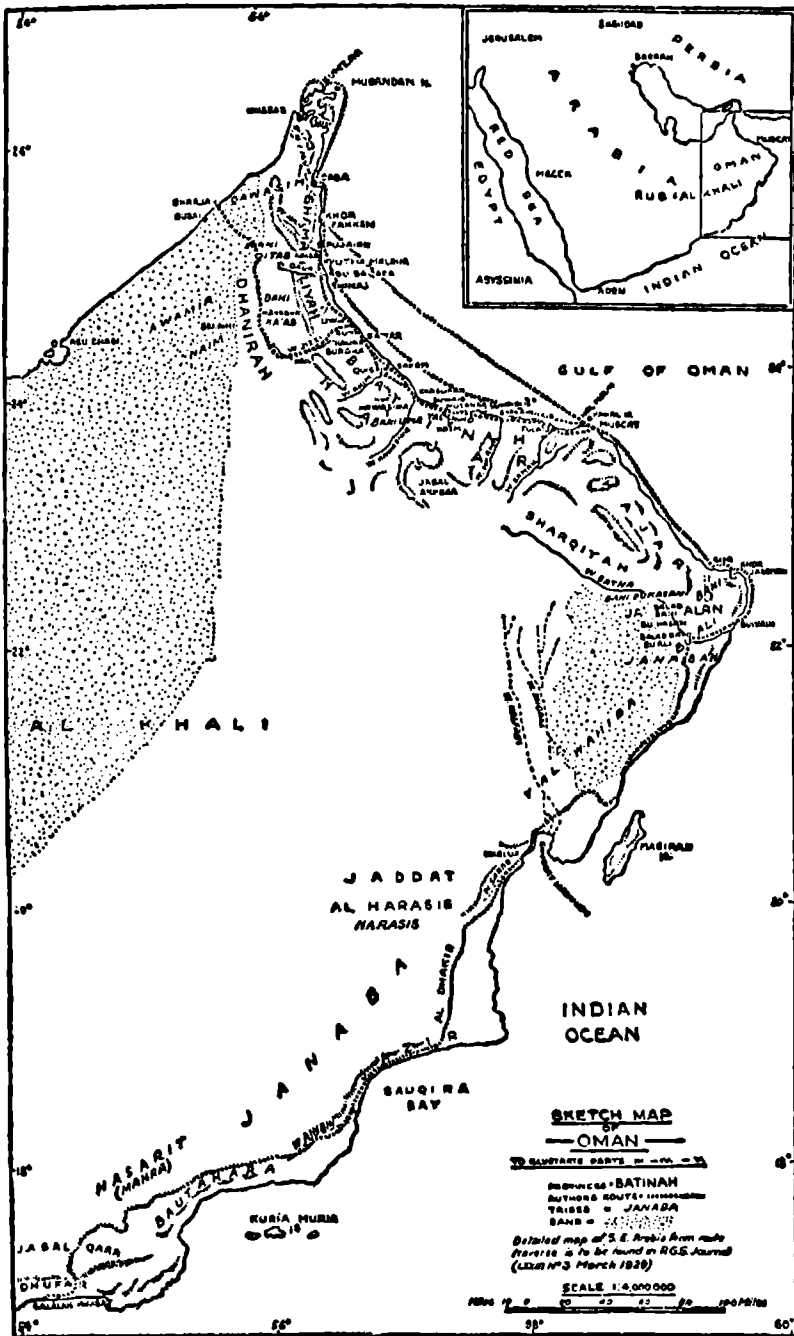
رفع الرُّبّان راشد حاجبيه وغامر بسلسلة انعكاسات أدّت إلى سؤال: «هل أنت متأكد سيدي؟».

أبحرنا ببطء إلى الأمام إلى أقرب نقطة استطعنا الوصول منها إلى المركب، على مسافة نصف طول كبل مسافي، وجعلناه في خط مباشر بيننا وبين التّهاية الخطرة للشّاطئ، لكي نقدّم تغطية لطاقم قاربنا الذين يجب أن يجرّوا القارب، ويقطعوا حبال مرساته ويثبّتوا الحبل الذي سيُقطر به.

كان مركبنا الشراعي الآن بموازاته، وقد وثب المجدف الأمامي إلى مؤخرته لتأدية عمله بسرعة. ولكننا شوهدنا من الشاطئ، وهرع رجال مسلّحون إلى أبراجهم - في صور لا يسير الرّجل خارج بيته دون بندقيته - وفي غضون بضعة دقائق انهمرت علينا رشقة وابل من الرّصاص، وبدأ رفع شراع مركبنا الذي لا يستغرق سوى بضعة دقائق وكأنه تطلب ساعة بينما استمرّ وابل الطلقات، وتناثرت الطلقات حولنا لا على التّعين، ومع أنهم شوّهوا الأجزاء الحديدية وشظّوا أركان الخشب، فإنهم أخفقوا لحسن الحظ بأن يؤذونا في أجسامنا. وهكذا قدّمنا لصور نهاية هدف بنجاتنا بشقّ الأنفس ونحن نتوجه نحو عرض البحر، نحتمي بمركبهم الدّاو الذي التصق بأثر سفيتنا بشكل متمايل وهو يتبعنا برشاقة. لكن ضربت رصاصة مدختنا بفرقة تشبه فرقة مفتاح الآلة الكاتبة الحادة وأخبرتنا بأنه من المبكر التّحاكم إلى مسقط، وبذلك منحنا الشاطئ تصادماً عرضياً دون مبرّر. ربما كان مقدراً له كما كان مقدراً لي أن أعود في ثلوث المراكب البريطانية H.M.S. وأن أنزل إلى برّ صور بعد ذلك بأربعة أيام، ولم أردّ على التّيران التي أطلقت من الشاطئ بمدفع «السّعيد» الرّشاش، رغم أنّ المدفعي العربي تأمّلني بذهول وارتباك في ذلك الوقت حين وضعت في حالة استعداد ولكنّي منعتّه من فتح النّار.

أصبحنا الآن بأمان بعيداً عن مجال التّيران، عدّلنا السّير وتوجّهنا لمسقط مع غنيمتنا، ولكن خططي الشّخصية تقدّمت بصعوبة في الصّحراء الجنوبية الكبيرة، على الأقلّ بسبب الحادثة في صور المجاورة كنقطة بداية.

* * *



عمان، خارطة تمثل رحلات المغامرة الثالثة والرابعة والخامسة



خود جواما، الجون الذي استخدمه أسطول الإسكندر الأكبر



الأمير محمد بن ناصر، شيخ بني بو علي

الفصل الثاني من المغامرة الخامسة

مع بني بو علي

مرّت ثلاثة اشهر.

ترك مركب *nashi* خفيف هادئ في بحر ساكن تحت سماء زرقاء مبهجة ليس فيها إلا ركام سحاب أبيض تكدّس بحيوية على طول الأفق الجنوبي، وترنّح «السعيدى» بسلام في المرسى على بعد أربعة كابلات قياسية عن شاطئ جزيرة العرب.

كانت هنا السّويح Suwaih؛ هنا بداية تجدد الآمال عندي.

انتصب حصن طيني بسيط على مقدمة الشاطئ الأصفر، وتناثرت حوله أكواخ القصب وأجمات نخيل، ولاحت جبال جعلان في خلفيتها البعيدة المرسومة بدقّة بالألوان عند أقصى الجهة الشرقيّة لجزيرة العرب. تربض السّويح خلف صور، وراء خور جراما، إلى الخلف قليلاً من تلك النقطة التي تلتف فيها شبه الجزيرة الضّخمة حول الزّاوية، حيث تكفّ مياه خليج عُمان عن غسل شواطئها وصارت تغسلها مياه المحيط الهندي الجبّار.

دُفع هُوري من الشّاطئ، وهو زورق طويل منحوت من الشّجر، نموذجي في هذه الأجزاء، وجذّف ركابه نحونا وهم يوازنون أنفسهم بأسلوب غريب وهم واقفون فيه، تبعهم آخرون مثلهم وسرعان ما احتشد على متن سفينتنا ما يقارب ثلاثين قروياً أسمر. أضيف إلى فضولهم الطّبيعي لمعرفة عملنا رغبتهم بالربح من بيعنا السمك! لأنّ تلك هي مهنتهم، ولكن منظر السمك الذي اقتلعت عيونه أثار شكوكنا، فأشار الصّيادون إلى خياشيمها الحمراء التي تؤكّد أنه طازج وسرعان ما تبدّدت شكوكي عندما اكتشفت

أنّ لدى المحليين ولعاً بعيون السمك، ويشبعون جوعهم أحياناً بالسمك التيء عندما يكونون في الخارج طوال اليوم على مسافة بعيدة من الشاطئ.

أثمرت رسالتي للأمير محمّد من قبيلة بني بو علي في الوقت المناسب، وهو يقيم على بعد ما يقارب ثلاثين ميلاً في البر الداخلي، فوجدت نفسي ليلة عيد رأس السنة لعام 1927 المباركة أخلف ورائي آلة الحلاقة الأثمة والتبغ وأرتدي زيّ البدوي - لأن الرحلة إلى قرية بلد بني بو علي تقع في قلب بلاد الوهابيين المتشدّدين. جلب لنا شقيق الأمير الشيخ حمدان ست ذلائل مجهزة للركوب وستاً أخرى إضافية مع عشرين بدوياً غريباً للسفر إلى قريتهم. لم أجرؤ على إفشاء خططي الطموحة لخشية تحاملهم عليّ بسببها، برغم أن أحلامي بتخوم جنوب جزيرة العرب قد استحوذت على تفكيري، وهي التي تمتدّ إلى مسافة رحلة جمل لسته أسابيع إلى جنوب مغرب الشمس - تمتدّ في نهاية رحلة صحراء إقليم ظفار المتبسم، بلاد أوفير التقليدية الشهيرة بذهب سليمان وبخوره.

كانت صناديقي تحتوي على آلة الشدسية والأفق الصناعوي والكرونومتر لقياس الزمن، وآلة تصوير والبارومتر المعدني aneroid، وبوصلات وست حقائب من العملة التمساوية ذوات تيجان ماريّا تيريزا⁽¹⁾ التي لم تعجب أصحاب الجمال الإضافيين بسبب وزنها، فهم يفضلون بشكل طبيعي الأوزان الأخف، بينما أثار بي السرج من طراز بيكانر Bikaner غير العملي الذي كان عليّ وضعه فوق سنام الجمل المكشوف مشاعر بين السخرية والاشمئزاز، وأخيراً بات كل شيء جاهزاً فتحركنا إلى الأمام. أذعن الرّبّان المتيقظ راشد لأوامر الإبحار السريّة التي أصدرتها له، وأطلق ثلاث صفرات للوداع على «السعيد» الساحر، ورفع المرساة وغادر متجهاً إلى ظفار.

سينتظرنني هناك فقد قطعت طريق رجعة قواربي.

سرنا بعزلة في أول ساعتين في تلال قاحلة وقيعان وديان مرقشة بالقواقع، وأجمات ضئيلة تدعم أسراب الجراد الأحمر الذي كان يغطينا بين الفينة والأخرى. وعند

(1) انظر صورتها التي أضفتها في نهاية المقدّمة. (أحمد)

الغروب وصلنا غينة Ghina وهي بساتين أكاسيا (سنط) في أرض الرمال المتموجة. جاءني علي وهو مذعور بينما كان المؤمنون يقومون بالتيّم بالزمل عوضاً عن الماء قبل الاصطفاف للصلاة.

قال لي: «ماذا أفعل سيدي؟ فأنا شيعي وهؤلاء وهابيتون⁽¹⁾، وإذا صليت معهم فسوف يضبطونني متلبساً بسبب عدم رفع يدي حسب شعائرنّا المختلفة وسوف أتعرّض بذلك لاستيائهم الشديد».

لم أتمكن من الإجابة على سؤاله إلا بمحاضرة عن شخصيّة كاهن براي Vicar of Bray، مشيراً إلى أنه لا يوجد مكان أفضل من صحراء جزيرة العرب يناسب تطبيق فلسفته.

أيقظني صوت شبّ التار وصوت المؤذن عند أول بزوغ الفجر الكاذب، ثم جرعة كبيرة من حليب الثوق وبعدها ارتقيتُ السّرج! تقع غايّتنا القرية أمامنا على بعد خمسة عشر ميلاً، ولكن توجب علينا إنهاء نصف تلك المسافة عندما انبثق من بقعة في خط الأفق اثنا عشر فارساً، تبين أنه الأمير علي أبرز قريب للأمير محمّد وقد خرج للترحيب بنا. أرخى كلانا اللّجام على مسافة، وتقدّمنا سيراً على الأقدام لتبادل التّحيّات. تابعنا بسرعة، وأقبلنا على القرية التي تقع قرب حواف بساتين التّخيل. كان قد اصطفّ ألف قروي للترحيب بنا.

كانت الطبول تفرع والحشود تتمايل على إيقاعها إلى اليمين واليسار، ويومض لمعان سيوف الرّاقصين تحت أشعة الشّمس وهم يثبون هنا وهناك، وبدأ يرتفع صوت الغناء الذي كان منخفضاً كلما اقتربنا، ثم اسندار رجال القبيلة بسرعة ليشكلوا لنا ممراً وهم يضعون أخمص بنادقهم على أوراكنهم لإطلاق طلقات التّرحيب، ثم أرسلوا وإبلاً من الطلقات الصّديقة تترّ فوق رؤوسنا. مضينا إلى المكان الذي وقف فيه الأمير لاستقبالي، أمام الحصن على سجّادة مُدّت في ساحة مكشوفة واسعة تشكّل أفضل موقع لمشاهدة الفروسية وسباق الجمال الذي كان يجري الآن، لأنّ ذلك العرض كما قلت كان مزيّة لا يمكن الاستغناء عنها للاستقبال العربي في عُمان. مرّ أمامنا اثنا

(1) يستخدم الكتاب الغربيون تعبيراً مغلوطاً هو: الوهابيّة، والصحيح أن اسمها: دعوة الإصلاح السّلفي. (أحمد)

عشر فارساً وهم يعدون على خيولهم، ويشكلون الآن تشكيلة ثم مرة أخرى تشكيلة أخرى وهم يحنون بنادقهم ويطلقونها في نفس الوقت، أو يتسابقون إلى آخر الجزء المستقيم، أو يقف الرّاكب منتصباً على ركاب سرجه متمسكاً بأصابع قدميه فقط، ويحافظ على توازن خطر بوضع ذراعه الممدودة على رقبة رفيقه الرّاكب المستقرّ بارتياح أكثر فوق حصانه. ثم تعيد الفرقة تشكيلها، وتمرّ أمامنا بتشكيلة متراصة مع العدو الوثيد وهم ينشدون الأشعار البطولية، وهو تقليد بدوي نشأ من سيرة البطل عنترة Antar المغرقة في القدم.

يهدر القائد بأبيات شعره، وعند نهاية كل مقطع شعري مؤلف من بيتي شعر يصرخ باقي الفرقة معاً: «الله أكبر».

هذا بعض من ترجمتي التي اخترتها⁽¹⁾:

القائد: أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

الجوقة: أَلله أكبر!

بُشْبَانٍ يَرْوْنَ الْقَتْلَ مَجْدًا... وَشَيْبٍ فِي الْحُرُوبِ مُجَرَّبِينَ

الله أكبر!

إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ... تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَ

الله أكبر!

بِأَنَّا الْمُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا... وَأَنَّا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا

الله أكبر

إِذَا وَضَعْتَ عَنِ الْأَبْطَالِ يَوْمًا... رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ الْقَوْمِ جُودًا

الله أكبر

(1) الأبيات المذكورة هي من معلقة عمرو بن كلثوم الشهيرة. (أحمد)

(268) دَوَّت قنابل مرّجة من مدفعين قديمين يُلقمان من الفوهة، أَرَجَّحَ أنهما من أصلٍ برتغالي من القرن السادس عشر، وحيث زغاريد النساء المعتادة، المبرقات طبعاً، المحتشدات على سطح الحصن ذهابنا إلى الوليمة، أمتعتنا تشكيلتهن أكثر من النوع الصّاحب الذي كنت سأسمعه في الغد. يدعى النوع الثاني فزعة العشيرة، أو رفع الرّاية، إذ يبدو أنّ عشيرة بني بو حسن العشيرة المعادية المجاورة كانت في الليل مستعدة للحرب، وقد قتلت عبداً من عبيد مضيبي في إحدى الحوادث المجاورة. حصلت على هذه الحصّة الاستخباراتية بشكل غير مباشر، لأنه من المعيب أن يتكلّم مضيبي عنها. بينما كان يتعهّدني بلطف بمشورته ألا أتابع خططي في جنوبي جزيرة العرب، كان خادمي يطلّ من الشّرفة فرأى القبائل في الأسفل، رجلاً ونساءً، يهرعون بعيداً إلى القتال، الرّجال يحملون بنادقهم باستعداد في الطّريق ونساؤهم يجرين في أعقابهم لتأييدهم منحنيات تحت ثقل الثّمور وقرب الماء.

كان حصن بلد بني بو علي حيث يعيش الأمير من النوع الكبير الملائم، ارتفع مثل جسر سفينة حربية مدرّجة فيها أبراج مدافع، وقد توجّج في الأعلى ببرجين. وجدت نفسي أقيم في حصن يطلّ على منظر رائع لا متداد طويل لبستان نخيل طويل بشكل غير عادي، وأبراج حربية طويلة وهزيلة ترتفع فوق النّخيل، كان هذا وادي بطحاء المنخفض، شريان إقليم عُمان ضمن الجبال، الواقع في الجانب الشّرقي من أعلى كتلة في جزيرة العرب، على ارتفاع ما يقارب عشرة آلاف قدم، والجبل الأخضر للوادي. نمت منطقة الشّرقية Sharciyah من الآبار التي في قاعها، فمنحت سخاءها هنا في بساتين نخيل بلد بني بو علي، وعبرت بالمجرى القاحل إلى السّاحل الذي يقع على مرمى النّظر من السّويح Suwaih.

مارس مضيبي نفوذاً عالياً في هذه المنطقة الخلفية، وكانت سيطرته الاستبدادية على بدو الجنبّة من الوسائل الضّرورية التي ستمكّني من التّحرّك، وبالمقابل يمكن أن تمنع تحرّكي تماماً. يملك الأمير بأسلوب حياته المتزمّت الجاف حساً بالدّعاية يتّسم بالواقعية والسّخرية، وكان قد سافر في الماضي إلى الهند ويفخر بالكلمات الإنكليزية القليلة التي

يعرفها، كان مستنيراً ويرغب أن يتصرّف بطريقة عقلانية، ولكن للأسف كان تقبله لخططي فاتراً، واكفهرت ملامحه منها وقال: «لم يَقم بالرحلة كاملة أحد من بين أتباعه البدو، لأنّ الطريق البحري كان آمناً وواسطة طبيعية للاتصال، بينما تخوم الصحراء منطقة غير مأهولة ومشاعة، فهي أرض المسيرات القسرية بين المسافات وغدران الماء غير المضمونة، دون حماية من المغير. نعم! كان ثمة عجوزان قديمان حملاً في مناسبات قديمة رسائل عاجلة إلى سلطان مسقط في ظفار في فصل الصيف عندما جرفت رياح السموم كلّ مركب من المحيط الهندي، ولكن توفي أحدهما والآخر أضتته الحمى، وفي الحاليتين عانى الاثنان من إصابات الجمال أثناء الطريق». أحرزنتي الأخبار وواسيت نفسي بأن الوصول إلى هذا الحدّ تبعاً للمقاييس العربية يعدّ امتيازاً، لأنه لم يسمح عربي من قبل لأحد أن يدخل هذه المنطقة الوهابية⁽¹⁾ منذ مئة عام تعود إلى أيام ويلستد الملازم البحري الإنكليزي الشاب. ولكن عرفت أنّ شيخي وأنا لم نفقد الأمل بعد.

كنت قد قلت له: «جئت وأنا على استعداد تام لتحمل المشاق».

كان جوابه ساخراً أو ربما كان مسانداً: «فخامتكم لا يعرف».

قال الأمير في اليوم التالي: «لا يحلم بدوي بقذف جملة في مخاطر غياهب المجهول، وحتى لو استطاعت البهائم أن تجتاز بك الصحراء فإنّ خطر العودة سيكون أعظم، وعليك ان تبيعها فوراً بالقيمة التي تقدّم لك». أفهمني بذلك بأنّ الأمل الوحيد للحصول على الجمال سيكون بشرائها دفعة واحدة، وقلت بحسابات عقلية سقيمة للأزمة المالية التي ستضمّنها تلك الرحلة.

ظهرت عمبة جديدة في اليوم الثالث، إذ يمكن أن يكون التّحرّك دون رفيق *rafiq* من الهناوي فصلاً انتحارياً، ولا يمكن الحصول على رفيق هناوي، ألم يكن بنو بو علي في حالة حرب مع بني بو حسن؟⁽²⁾.

(1) يستخدم الكتاب الغربيون تعبيراً مغلوطاً هو: الوهابية، والصحيح أن اسمها: دعوة الإصلاح السلفي. (أحمد)

(2) بعد مضيّ سنة قُتل الأمير في مناوشة.

حاولت تقبل كل تلك الاعتراضات قدر استطاعتي، فداهنت ودافعت.

«وماذا لو أصابني مكروه! سوف يستهدف بكل أنواع التّقدّي عربي عاقل حرّضني ومدّ لي يد المساعدة للقيام بالمشروع المتهوّر، وهل يمكن أن يؤنّب على سلطته؟ حتى لو أنني سافرت كما قلت دون رعاية رسمية!«.

كان الأمير من الرّجال الذين يصعب إقناعهم، لكنه خضع في التّهاية جرّاء إلحاحي على الأقل إلى حدّ ما. سوف يقدّم لي فرقة مؤلّفة من اثني عشر بدويّاً راكباً للثلاث الأول من الرّحلة، إلى حدود معسكر حليفه القريب الشّيخ الجنابي في جزيرة مصيرة - يقع المعسكر في البرّ الرّئيسي باتجاه الغرب. ومن تلك النّقطة عليّ أن أعيد الجمال، وأقوم بأفضل التّرتيبات التي أستطيع القيام بها، إذا استطعت، من أجل متابعة السّير. ولكن يتوجّب عليّ أن أعطيه رسالة أرفع فيها عنه كل مسؤوليّة في حال وقوع مكروه.

سنحت لي الفرصة للتّجوال برفقة الأمير في قريته بينما كنت أنتظر الجمال والرّفق الهناوي (آل الوهيسي)، وراء البوابة في الممرّات المسوّرة الخارجيّة والحدائق المبهجة. ركض القرويون للإمساك برأس جوادينا والإلحاح علينا للترّجل لتلقّي ضيافة القهوة، لكننا لوّحنا لهم بالتّنحي جانباً. كانوا وهايين ولكن تزمّتهم من نوع غير ظاهر إلا إذا لاحظ المرء عدم وجود التّبغ الذي كان الدّين يقيّد استعماله. كيف يُعاقب المذنب المدخن، فأجاب: «يسجن مدّة خمسة عشر يوماً على الأقل، مع الجلد في بعض الأحيان حتى يندم ويعتبر». إنها حياة حزينة حقّاً ولكنها خلّقت مع اللامبالاة الصّبورة، ويحرّم حتى في حالة الموت إظهار الحزن، لأنّه ليس للانسان حقّ الانفعال عندما تتجلّى إرادة الله.

غمرتني السّعادة وأنا أدير ظهري لهذه الواحة المتحضّرة نسيباً، وأجد نفسي مع قافلة مؤلّفة من خمسين جملاً، نبدأ مسيرنا أخيراً نحو صحراء جنوبي جزيرة العرب التي لم تطأها قدم رجل أبيض من قبل.

* * *

الفصل الثالث من المغامرة الخامسة

التّخوم الجنوبية

بلد منبسط من أشواك الجمل، فيه عُدران مياه سهلة المنال على فواصل ما يقارب مسيرة يوم واحد فقط، سرعان ما تتحوّل إلى قفار رملية حيث لا يصادفنا ما يجب علينا النزول عنه بينما تتعثر جمالنا في هذا الطريق وعلى تلك الكشبان الرملية المنخفضة. تتمدّد تلك الرّمال باتجاه الغرب والشّمال إلى منظومة وديان في حلفين Halfain وبطحاء Batha بالتّالي وتصبّ هنا في شواطئ المحيط الهندي نفسه، مكوّنة جزيرة مثثلة الشّكل انفصلت عن المحيط الرّملي الضّخم المتوسّط في الغرب.

هنا موطن آل وهيبة، وهي قبيلة بدوية من عُمان تدعم عقيدة الإباضية وعصبة الهناوي، فتشكّل بذلك إسفيناً مشوقاً بين القبيلة الوهابية خلفنا، وبين الجبهة المتينة لقبائل الشّافعي أمامنا كلها بسبب نزاع المنافس الغفاري.

يقطن تلك التّخوم الجنوبية سكان متناثرون، يعتمدون على الجمل بمفرده تقريباً على الحياة وكذلك تربية الماعز والغنائم الحربية - وجود بدوي غير مستقرّ وفوق ذلك دموي، أخلاقه عنصرية وعملية شرسة. يحكم سلوك البدو قانون غير مدوّن - ولا يمكن له أن يكون غير ذلك مع الأُمّة الشّاملة - بقدر ما هو محكوم به.

انحدر هذا القانون عبر القرون دون تغيير. و«حكم الحوز» *Hukm al hauz* كما يقال، يتعارض مع الشّرع، ولكنه القانون المقدّس الذي يطبّق عملياً دون أيّ قانون آخر لدى غير البدو. يعتبر القادة الدّينيون في المناطق الحضرية طبعاً أنّ «حكم الحوز» يبعث على الأسى، أي بمعنى أنّه منافس دنيوي للعقوبات الدّينية. وفي الحقيقة فإنّ

البدو سوف يقومون برحلة خاصّة في حالة الزّواج والميراث قد تكون لمسافة مئة ميل إلى المدينة لسجل خدمات القاضي لتنظيم تلك الشّؤون الخاصّة بما يتوافق مع الشّرع، ولكنّه لا يقبل إلا «حكم الحوز» الخالص فيما يتعلّق بخلافاته الخاصّة وحروبه ونزاعاته الدّموية في الثّأر وبيعه وشرائه وسرقة الجمال. فمفسّره وقاضيه هو مدّعي علم مغرور من القبيلة - ليس دائماً وبالضرورة أن يكون الشّيخ. وعندما لا يجتمع المنصبان، فعلى الشّيخ أن يرضخ لقرار ذلك القاضي - والقرار يعود للشّخص الذي اكتسب مركزاً بسبب شهرته بالمعرفة والخبرة واستقامة حكمته التقليديّة.

رويت لي هذه القصة، ويقال إنّ «الحوز» فعلاً هو من هذه القبيلة آل وهيبة الشّهيرة. قتل شاب خاله - وهي مسألة غاية في الأهميّة، فعلى الرّغم من أن الجانب الأبوي من العائلة هو المميّز في شؤن خطبة الابنة وله الحصّة الأكبر من الإرث في ملكية الرّجل (نسل الذّكر)، فإنّه مع هؤلاء البدو ترتفع القيمة العاطفية للخال فوق العم، وقد يصادف عند البدو على عكس العربي في المدينة، أن يأخذ أحدهم اسم عائلة أمّه عوضاً عن اسم أبيه، ولكن ذلك نادر. أضنى الحزن الشّاب القاتل ولكن بعد فوات الأوان، ولم يرتح ضميره عندما سامحته عائلة القتيل⁽¹⁾.

قال: «جُبتى سوداء، لم أعد مقبولاً في المجتمع أكثر من امرأة. فقدت التّمسك بالحياة، ويجب علي أن أكفّر عن فعلتي»، وبات يزدي الكفّارة والتّعويض السّهل بديّة القتل التي يمكن أن يقضي بها الشّرع، ويمكن أن يعتمد بنفسه للخضوع إلى «حكم الحوز».

استمع العجوز لقصة الشّاب القاتل بينما كان يراقبه بدقّة، ثم قال: «أحسنّت بمجيئك». انتظرت القبيلة الحكم الذي يمكن ألا يخلو من القسوة بأنّفس مقطوعة، لأنها

(1) القتل حسب تطبيق قانون الشّرع ليس انتهاكاً للمجتمع، أو على الأقل لا يقاس بهذا المعيار. رغم أن الواقع هو أن الانتهاك مشترك بين القبائل، ولكن داخل القبيلة الواحدة هو انتهاك مقابل عائلة المغدور فقط. وللابن الحق في مسامحة الإساءة وأخذ دية الدّم كفّارة من القاتل، ثم التّالي في القرابة، وإن لم يكن فالأخ، وإن لم يكن أيضاً أقرب ابن عمّ ذكر. والنّظرية الشّرعية التي تقول العين بالعين لا يؤخذ بها في أيّ مكان من جنوب شرقي جزيرة العرب.

اعتبرتها جريمة غير عادية. اقتربت لحظة إعلان النتيجة على الملأ، وقد جثا الشاب الصابر بطريقة التضرع المألوفة أمام مقعد الحكم.

أعلن الحظ: «اسمع يا فلان» وسمّى الشاب «تغرس في قعر ذلك البئر الجاف بعض الرّماح وأسّتها موجهة إلى الأعلى، وحكمي أن تبدأ من هنا» - وأشار بعكازه إلى التّفطة التي تبعد خمس عشرة خطوة من فتحة البئر - «سوف تدير ظهرك إلى البئر، وتسير إلى الخلف حتى تقع في البئر، سوف تزول وصمة العار عن اسمك، وحيثنذ ستكفر عن جريمتك إن عشت أو مُتّ».

سرت موجة رعب بين حلقة رجال العشيرة الذين كانوا نصف جالسين ونصف راكعين حوله، وخيم صمتٌ بارد على سير الأحداث.

لم يقل الشاب القاتل إلا: «إن شاء الله» بورع وإذعان، كان مُدركاً بأن ذلك يعني الموت المحقق، موت ولكنه من نوع رهيب ومع ذلك كان طريقه المشرف الوحيد، ولم يخطر له الارتداد عنه أمام عشيرته، ربما سيموت ولكن مأثرته سوف تخلد.

جاء الرّماح وجّهز البئر، وأخذ البدوي الشاب إلى التّفطة المحدّدة، وهناك أدار وجهه وتحرك بهدوء إلى الوراء نحو قدره المحتوم، ووصل إلى حافة البئر ثم وثب كما صدر الأمر إليه. ولكن عشرة بدو أقوياء وضعوا هناك وتظاهروا بمراقبة التّضحية، ألقوا أذرعهم حوله عندما كاد يقع في داخل البئر، وقد أمروا بشكل سرّي بالقيام بذلك إذا وصلت الأمور إلى هذا الحدّ. نظر الرّجل العجوز في عيني الشاب عندما أحضر إلى أمامه ثانية وقال له: «يا فلان! عُد إلى قبيلتك، لن تكون جُبتك سوداء بعد الآن».

تلك هي القصّة التي رويت عن أيام السيّد تركي جدّ السلطان الحالي وحاكم مَسَقَط وعُمان. والبدوي الشاب الذي قابل الموت بشكل ظاهر لم يكن سوى حامد بن خلفان الشّهير، الذي عاش ليصبح شيخاً بأعلى سلطة في قبيلة آل وهية هذه ورجلاً عظيماً في البلد.



مرّ أسبوع منذ انطلقت من بلد بني بو علي عندما تصدّرتنا مرتفعاً، فلمحت بنظرة إلى مكان في الأسفل عند غُبة حشيش Ghubbat Hashish، إحدى قواعد الطّائرة المائية، التي تقع في داخلها جزر راك Rig ومحوت Mahut وعب Ab الصّغيرة، وقد التوت وبدت بأشكال غريبة عبر السّراب، انحدرنا إلى الشّاطئ وهو سهل ملحي مقلقل أصبح شركاً بعد هطول أمطار حديثة - وفخاً مميّناً للجمال لتعرّضه لتصدّعات مهلكة. وبينما كنا ننحدر تطرّفنا في طريقنا حول اندفاع الخليج - ممّا أثار خشية البدو على بهائمهم.

وصلنا في النهاية راس خلوف Ras Khaluf - المذكور في خرائط الأميرالية باسم راس أبنة Ras Abana. وصادف أنّ العرب لم يعرفوا هذا الاسم الأخير، ويظهر أنه من بنات أفكار أحد المؤمنين الذي ارتجله ليضللّ راسم خرائط كافر - وهو أمر ليس مُحالاً أبداً حدوثه⁽¹⁾. إذ يجب على الرّحالة التّحقّق والتّحقّق ثانية من اسم كل مكان يقدّم له.

كانت هنا قرية خلوف Khaluf وهنا عاش شيخ قبيلة الجنبه Janabah ستة أشهر، كان رجلاً طويلاً نحيلاً بوجه صقر وقسمات أرستقراطية ميّزته عن سوء مظهر أتباعه. كان من حسن حظي أن وجدته هنا، لأنّ احتمال غيابه في جزيرته الأم مُصيرة كان وارداً - يذكرها بطليموس باسم سيرابيس Serapis - وعليّ الآن أن أتوجه إليه للحصول على امتيازات لمتابعة رحلتي. كان وصولي تحت حماية مرافق من بني بو علي حلفائه الأقوياء عاملاً إيجابياً في صالحتي، ومع ذلك كما كنت أتوقع تقريباً رفض في البداية خططي بصراحة، فكان عليّ أن أورد ثانية كلّ الحجج التي قدّمتها ضد رفضه في البداية، وكنت قد صرفت فرقتي السابقة واعتمدت على فضل الشّيوخ بالكامل لينشئ لي حرساً جديداً وجمالاً بديلة جديدة.

تبع ذلك أسبوع حبس فعليّ لي، ولم أشجّع على ترك خيمتي، فمعاملتهم لفرقتي أثناء تجوالهم البرئ في القرية تركت لدي الكثير دون تفسير. فالمحلّيون بدوا غاضبين

(1) أخطأ برترام، فبالفعل يسمّى رأس خلوف أيضاً برأس أبنة. (أحمد)

إن لم يكونوا معادين، وقد تساءلت في لحظة طيش إن كان بإمكانني الإبحار كل المسافة والرّسو في جزيرة شجر المنغروف في جزيرة محوت Mahut، وهو طلب أعرب عن وجود دافع خفي، وعندما أجابني الشّيخ بأنه أمرٌ غير مستحسن، لمّح بأنه من غير المؤكد بعد أنه سيتمكن من ترتيب رحلتي باتجاه الغرب، وإن لم يتمكن من ذلك سيكون من دواعي سروره أن يرتّب مروراً بحرياً لي إلى ظُفار. انقضى ذلك الشّبح الرّهيب، وعندما أُلقيتُ نفسي بعد أسبوع مع قافلة جمال جديدة أندفع قُدماً عبر القفار الجنوبية، كنت أعتلي جمل شقيق الشّيخ الخاص، وقد رافقني سليل الأسرة كدليل لي.

قمت بدراسة المرافقين بينما كنا نشقّ طريقنا إلى الأمام، فقد كانت تحدث خلافات يومية بينهم حول حصص غذاء الجمال، كل بدوي يريد أن ينال حصّة الأسد لجمله على حساب جاره، وأمكن لتكرار سحب الخناجر في ساعة الغضب أن يعلمني، إن لم أكن قد تعلّمت للتو، بأن البدوي شخص سريع الغضب يحتاج للحزم والفهم في معاملته.

يصبح صوت البدوي فجأة مشحوناً بالمشاعر لأقلّ استفزاز في الأحوال العادية، ومشاعره سريعة الظهور. من حسن الحظ أنه يمتلك روح دعابة بشكل غير مهذب. ربما تعبّر كلمة المرح أفضل. ولكن ما هو أكثر أهميّة للرّحالة، أنه قادر على الارتباط الشّخصي. تصرّفه بالغ الحذر، قامته نحيلة وهزيلة وحتى أكبر البدو عمراً يسير بطريقة صبيانية. إحساسه بالوقت ضعيف إلا إذا حوّلته إلى مسافات، فهو لم يتعلّم ما معنى ساعة الزّمن وحتى بعد أيام من الممارسة، وأما بالنسبة للدقائق، فهي تثير جذله وتجعله يتعجّب من تلك المخلوقات المثقلة بالتفاصيل التي تتعامل بمثل تلك التّفاهات.

يستنزف البدوي أحاديثه في الجمال والغزو والدين والنساء. من الممتع التّنويه إلى أنه يندر بين بدو جزيرة العرب أن تجد أنثى بعمر الثامنة عشرة دون زواج ممّا يبرّر إقرار تعدّد الزوجات، وكذلك يبرّر حقيقة قيمتها الاقتصادية لزوجها في المجتمع الرّعوي، فهي تقوم برعي قطعان الماشية عن الرّجل، ويتوجّب بالنتيجة على زوجها

المستقبلي أن يدفع لو الدها ثمناً لها، يتم تزويج معظم الفتيات عند بلوغهن، وهو في جزيرة العرب في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ويوجد القليل من الغزل وبضعة زيجات بسبب الحب، إذ يقضي القانون غير المكتوب بأن ابن عم الفتاة يملك أول حق بطلب يدها، وإن لم يستفد من الامتياز فإنّ لو الدها أن يزوّجها لمن يقدم مهراً أعلى دون مراعاة لرأيها وميلها - فربما يكون رجلاً عجوزاً جداً غير مستحسن لديها. ولكن حكم الزّواج بابن العم يكاد لا يُنتهك حتى لو وجد تباين كبير في العمر وقد علمت عن حوادث إراقة الدّماء في حالات خرق لهذا العرف باستحسان عام.

قال لي أحد البدو في أحد الأيام: «يا وزير! لماذا لا تأخذها؟» (يعني زوجة) وهو يشير بخبث إلى صبيّة حكمانية Hikmani تسحب الماء من بئر في الصّحراء. أجبتّه: «لا أعرف إن كانت ستقبل بي» ثم التفتُ إلى الفتاة التي تقف بالقرب وهتفت: «يا شملة! أتزوّجيني؟».

تجاهلت شملة السّؤال بالضحك، وبقيت مع ذلك في الجوار، فقدّرت أن جوابها مجرد مراوغة أنثوية. وسرعان ما حوّلت انتباهها إلى خادمي الأسمر غير المتحفّظ ذي اللهجة الغريبة، الذي عرفْتُ من حوارهِ معها بأنها ما زالت غير متزوجة رغم أنها قاربت على العشرين، وهو عمر يعدّ في جزيرة العرب بأنّه قد فاتها فيه سنّ الزّواج. سألتها إن لم يكن لها ابن عم، فأجابت بأنه مع الأسف لا يوجد وهو سبب عزوبتها. وأعلى مهر للعروس في عشيرة الجنبه ستون دولاراً من دولارات ماريتا تيريزا، أي حوالي خمسة پاوندات. وإذا لم يكن الرّجل مميّزاً بحسن أصله فسوف يكفي ما يقابل الباوند الواحد كثمان. ينذر أن يحوز البدوي على زوجتين في وقت واحد وغالباً تكون لديه زوجة واحدة، ولكن الأربعة لا تعتبر تبذيراً مقيتاً عند الملائكة إذا تمكن من شرائهن وإطعامهن وكسوتهن، ومع ذلك لم أقابل أحداً أتمهن بأربع.

والطلاق ميسور للرّجل، ليس عليه إلا أن يقول طالق ثلاث مرات، وليس يلزمه من عذر أكثر من أن يكون قد ملّ منها، فيعطيهها صدّاق زواجها المعيّن وتصبح الرّوابط مقطوعة. وإذا مرّت ثلاثة شهور لم يظهر عليها الحمل تنتهي التزاماته معها، ويفضي بالنتيجة لزواج

آخر دون وجل. ويندر في الواقع أن تتوفى امرأة دون أن تذوق نعمة العائلة التي تقبل عليها غالباً في صباحها عند أول تورّد لخدودها من الخجل من براعم أنوثتها.

قلت لراشد، أحد البدو المرافقين: «يا راشد! أليدك زوجة؟».

أجاب: «لا، ولكنني سأتزوج هذه السنة إن شاء الله».

«لماذا لم تتزوج من قبل؟ قلت لي بأنك في العشرين».

«الزواج مكلف».

«كم المبلغ؟».

«ستون دولاراً» (خمسة باوندات).

أجبت: «في بلادي، لا يتوجب علينا دفع شيء للزواج».

قال وقد تأثر بعمق: «الله أكبر، يالها من بلاد مباركة».

ثم فسّرت له: «ولكن يا راشد نحن لا نستطيع تطليقها، وعندما تشيخ وتفقد جمالها علينا تحمّلها ولا نستطيع إعادتها والزواج بفتاة أصغر منها كما تفعلون أنتم».

هتف بمشاعر أعمق: «الله كريم» وكانت تعني: «آه ظننت أنه يوجد ذبابة في مكان ما بالمرهم!».

وعدم الترابط بكلمات البدوي هو معبر عن الأمثال، وقد أضحكنتي الفقرة التالية بشكل كبير. كنا نجلس حول النار في إحدى الليالي، فتوجهت إلى الحرسوسي Harsusi وسألته: «على أيهما يضيع البدوي مذكراته: نسائه أم جملة؟».

أجاب الحرسوسي: «جملة».

«ولكن بالنسبة لك، إذا قُدر عليك أن تفقد إمّا زوجتك أو جملك وعليك أن تختار بينهما، من تختار؟».

كانت تلك أحجية تحتاج إلى التفكير ملياً.

قال أخيراً: «إذا كانا سيموتان كلاهما ويمكنني المحافظة على واحد منهما فقط، سأختار زوجتي لتبقى معي ويؤخذ الجمل، ولكن إذا كان مجرد فراق الواحد عن الآخر فسوف أبقى مع جملي».

وافقته: «أحسنت، جوابك فيه رحمة».

قاطعنا جنابي: «لا تصدّقه! البدوي يفضّل نساءه».

سألته: «لماذا؟».

أجاب الجنابي: «المرأة لك (تخصّك)، ألا تنجب الأبناء والبنات؟ والأبناء ينجبون أبناء، فهي إذن أساس بناء قومك gom (فريق غزو) حولك».

قاطع الحرسوسي ثانية بإيجاز قائلاً: «صدق Sudg» (صحيح) وراح يدخّن بلا مبالاة دون أن يعتبر وجود ضرورة ليقدم أدنى توضيح لتغيير رأيه المفاجئ خلال فترة خمس دقائق.

الجمل عند البدوي أكثر من سفينة صحراء، فهو عطية من الله، وهو يمدّه بأسباب الحياة ويزوّده بالطعام ووسيلة التّقل، وفي بعض الأحيان يمدّه بالكساء والوقاء، وفي الغارات، وفي الحقيقة يكون اهتمامه منصّباً على جملة كل الوقت، وفي هذه الأصقاع الجاهلة من التّخوم الجنوبية، يندر أن تحصل البهائم على طعام من الثمر أو البرسيم كما يقدّم لهم في شمالي عُمان حيث تتوالد ربما أفضل أنواع الجمال في جزيرة العرب. هنا تحتاج للبحث عن العلف بأنفسها، وغالباً ما تتعطل القافلة كلها لساعات أثناء المسير نتيجة عثور الجمال على رقعة أرض فيها أعشاب غضة.

لا يناخ الجمل دوماً لكي يُركب عليه، ولكن ينزل رأسه لقائده أثناء السير ليندفع إلى أعلى رقبتة ويشب نصف وثبة إلى السّرج الذي يوضع دوماً خلف السّنام في هذا الجزء من جزيرة العرب، وإذا كان مضطجعاً فإنّه ينتصب حال شعوره بأقل ضغط على ظهره، لذلك فإن ركوبه ليس أمراً متروفاً مقارنة بالحصان.

يعرف البدوي بشكل ثابت عمر جملة، ولكنه نادراً ما يعرف عمره هو. ويطلب

مهرأ لابنته نصف ما يطلبه ثمنأ لجمله، ويمكن شراء ناقة في خط رحلتي بمبلغ مئتي دولار والجمال الصّغير ستة عشر أو سبعة عشر. زعم دليلي الحرسوسي بأنّ زوجته وابنيه وأربع بنات له يقتاتون على ناقة واحدة وما يقارب العشرين نعجة. جاءت ابنته البالغة من العمر ست عشرة سنة وهي لم تتزوّج بعد تتعثر عند وصولنا قرب مكان مخيمهم لتسلّم على أبيها وهي تتألّق باسمها عقرب، فرفعت برقعها وحكّت أنفها بأنف أبيها، وعندما ابتعدت باحتشام إلى شوكّ الجمل التفت إليّ مازحاً⁽¹⁾: «يا وزير! هي لك مقابل بندقية وستين دولارأ». قلت بشكل عرضي للتخلّص من المجاملة: «تستحق أكثر بكثير».

يُنزى على النّاقة كل سنتين لتستمرّ بدرّ الحليب وتعلن عن حملها بسرور بهزّ ذيلها المضحك عندما يقترب أحد لركوبها، وحين تصيح في الليل عندما تربط من ركبتها وتقلب على العشب، يكون إشارة بأنّ المغيرين قد اقتربوا من المكان، وقد تسبّب إنذاران كاذبان في عتمة الليل للمخيم بهرج ومرج في أكثر من مناسبة، فهبّ البدو من سباتهم مروّعين يحملون بنادقهم وهم يتفحصون المكان بدقّة في كل الاتجاهات.

يتنوّع شرب الماء عند الجمل بالطّبع تبعأ إلى الأحمال التي يحملها والفصل الذي هو فيه. كانت الجمال تشرب كل يومين في مراحل سفرنا الأولى ولكن عند اقتراب نهاية الرّحلة التي كنا فيها لسته أيام وتسعة ساعات ركوب أحياناً بأحمال كاملة عبر أراضٍ وجبال تجاوز ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم، كانت البهائم بحالة جيدة حتى نهايتها، إذ يوجد دوماً بعض الماء في معدة الجمل ويدين البدو بحياتهم لهذا الحقيقة، لأنهم كما أخبروني، حينما لا يجدون غدران الماء في الصّحراء ويواجههم خطر الموت من العطش في الفيافي، يقومون بإدخال عصا في جوف الجمل لإجباره على تقيؤ الماء ويقومون بشربه، تكون النتيجة مقبولة ويمكن شرب الماء إذا كان الجمل قد شرب خلال بضعة أيام، ولكن إذا كان قد شرب منذ مدّة أطول، يخرج سائل أخضر فاسد، ولكنه يبقى أفضل من الموت، أما التقيؤ فيلجأ إليه في حال وجود مشاكل في المعدة،

(1) من الجيّد أنّ برترام يقرّ بوضوح أنّ الرّجل كان يمازحه. (أحمد)

ولحث التقيؤ يشرب البدوي المصاب بول نافته الحلوب.

تزوّدت بالكثير من الكينا وبحمالة دواء، بشكل رئيسي من النوع سريع الانفجار؛ لهذا وجد الضّعيف والسّاذج في شخصي بصيص الأمل رغم أنني أوضحت لهم بأنني لست طبيياً، وكنت أقابل موكب مرضى أينما حللت في مكان مأهول بالبشر. جلبت لي إحدى الأمهات في بلد آل وهيبة ذات يوم أصغر أبنائها الذي كان مصاباً بالهزال وانتفاخ البطن والأطراف الدّاوية، على الرّغم من تصرّيح امرأة مسلمة - لا أشك بأنها مؤمنة - بأنها تتمنى أن تعرف إن كنت ضليعاً في علم النّجم (التنجيم)، وإن كنت أستطيع أن أعرف إذا كان طفلها سيستعيد صحّته إذا غيّرت له اسمه. حاولت فهم الشّيخ الثّافه الذي رافقها، وما شرحه لي جعلني في حيرة فيما إذا ما زال يوجد بقايا من السّبئين عبّاد النّجوم في جنوبي جزيرة العرب. ما زالت النّساء تؤمن - يحتمل أن يكون تراثاً عاماً - بأن النّجم الذي ولد تحته الطّفل قد أودى بالاسم الذي أطلق عليه، وهي متحرّقة لتعرف إن كان تغيير الاسم يسترضي حق النّجم فينتج عنه الشّفاء لجسم ابنها.

للبدو الذّكور خرافاتهم أيضاً، فهم يؤمنون بالتّبوء وبأن تفسير الأحلام هو عام، وقراءة الرّمل له أيضاً أنصاره. عرض لي رفيقي حمّودة الجنابي ذات يوم بالرّسم على الرّمل بسبائنه سلسلة من الخطوط المستقيمة - شخوط - وقاسها بالشّبر وعرض الكف وسألني: «هل سمعت بسالم بن فلان؟». أقررت: «لا».

«لم تسمع بسالم! كان حرسوسياً واشتهر بشخوطه. إنّ شخوطه والله أصدق من لسانه!» ثم سرد لي قصة يؤكّد بأنه كان شاهد عيان عليها. قال لي: «كنا خارجين في غارة ضد بني مُرّة، وكان ذلك قبل ليلة من وصولنا البئر الذي أخبرنا كشافونا بوجودهم عنده لاستقاء الماء. شرع سالم للقيام بشخوطه، وبعد تأمله الرّمل لبضع دقائق قطّب بقلق فتوجّسنا مصيبة، رفع رأسه وهو يقول: «ثقوا بأننا يوم الغد سنسدّد ضربة قاضية للهنأوي وستكون الغنيمة وافرة. ولكنني أرى دماء، إنها دمائي». في اليوم التّالي أُشهد الله على قولي، أغرنا عليهم وغنمنا سبعين جملاً، وقُتل سالم، والله هو وابن عمه».

قمت بمحاولة أو اثنتين لقياس الرّؤوس لأهداف دراسة الأنثروولوجيا (علم الإنسان)، ولكن بقليل من النّجاح حتى الآن، فقد ارتاب مرافقيّ بتعويذة سحرية. أدت محاولتي لتفسير دوافعي البريئة في أحد الأيام إلى أن يعلّق لويتي Luwaiti الحرسوسي: «يا وزير! مَنْ هم خُدّامك؟ أليسوا من البلوش؟».

أجبتّه: «أنا لا أعرف، فقد استخدمتهم في مَسَقَط».

«هل هم من الكافرين؟».

«حاشا (لا سمح الله)، إنهم مسلمون حقيقيون».

«ماذا يأكل الكافرون؟».

«كيف لي أن أعرف؟ فأنا لست كافراً».

قال لويتي وهو ينظر إليّ مرتاباً: «لست بكافر؟ ولكن كل النّاس يقولون ماذا يريد الكافرون بالمجئ لعندنا؟» ويضيفون: «وأنت يا لويتي سيعاقبك الله لمدّك يد المساعدة لهم».

قلت له: «يا لويتي، لا تنصت للرّجال الجاهلين، أنا من النّصارى ونحن أهل الكتاب، وقد اعترف بنا نبيّك بأننا مؤمنون، وهو اتخذ لنفسه زوجة كانت مسيحية».

قال: «هل تصليّ وتصوم؟».

«نعم».

«إذن يجب أن تكون مسلماً. اشهد».

فقلّدتّه بوضع يدي أسفل وجهي ولحيتي وأضفت: «أشهد ألا إله إلا الله».

اكتفي لويتي بنظره بهذه الشّهادة النّاقصة، وقال متأثراً: «الحمد لله! يا توماس لأنك مسلم ولست بكافراً!».

* * *



أجمة من أشجار السنط (الأكاسيا)



«غدير»، أي بركة من مياه الأمطار في الظاهر



بئر الحاج Haj في وادي حلفين



ربيعاتي (رفاق سفري) الثلاثة

الفصل الرابع من المغامرة الخامسة

سمك قرش وجراد

ويزرز! كراك! وصوت يشبه العواء المفاجئ صدر من ستّ بنادق أمامنا على مسافة ما يقارب مئتي ياردة، تبعه أزيز رصاص فوق رؤوسنا وهسهسة في بعض الأحيان، وتناثر تقصّف أوراق نبات هنا وهناك داخل الأكاسيا بقرب يبعث على اليأس.

انكشيت مرتعداً فوق سرجي وربيعة⁽¹⁾ 'rabia' «لويتي» يستحثني باهتياج للتوقف، ثم جرى هو بنفسه كالمجنون أمامي من خلال الأجمات نحو الكامنين لنا وهو يلوح فوق رأسه بكفّيته مثل راية مهلهلة ويرجع الوادي صدى دويّ اسمه واسم قبيلته.

يمكن تصوّر درجة ارتياحي عندما ظهر بعد بضعة دقائق وترجّل وبرفته من كادوا يغدون قتلتنا، كانوا بضعة بدو مندفعين طائشين مع رفاق من قبيلته يريدون الغنيمة، وقد اخطأوا بظنّهم أننا من المغيرين.

الذي حصل أنني ولويتي وجدنا أنفسنا عطاشاً بعد مكوثنا على السّروج ساعات طويلة، وأغرانا التّصور بوجود حليب ماعز في الجوار، فهرولنا مسافة ميل أمام القافلة أملين أن يكون الوادي المبهج قد جذب راعياً مع قطيعه. كانت الشّجيرات المنخفضة النّامية في وادي سراب Wadi Sarab (غابة خضراء تغاير القفار القاحلة خلفنا بشكل

(1) الرّبيع في لهجة الإمارات وعمّان تعني: الرّفيق، وهنا بمعنى رفيق السّفر، وله دور الدّليل بالإضافة إلى ضامن الحماية لا عن طريق القوّة بل عن طريق الحقّ المتعارف عليه بعدم إقدام أحد على أذية من يسافر مع ربيع ينتمي لقبيلته أو قبيلة أخرى حليفة. أمّا لويتي فهو اسم ربيع برترام هنا. (أحمد)

بهيج) قد شكّلت مكمناً مثالياً. تبادلت التّحيّة الآن مع القادمين الجدد، ولم يكن لي الحق أن أظهر الانزعاج الذي كنت أشعر به، لأنّ اللوم بالفعل يقع على رأسي، بالمختصر، كنت أهروول وأهروول في نطاق المغيرين، وهكذا، فإن دخول موطن الغريب بفسح المجال لتفسير واحد، ويؤدّي إلى نتيجة واحدة - يحتمل أن تكون آخر ما يلاقيه في حياته.

لحقت بنا الآن فرقنا، سلّموا على بدو الحرب وتلقوا منهم التّعنيف بسبي - على نحو ظالم، كما فكرت، لأنني قد تعلّمت درسي بشكل قاس. التزمت القافلة بعد ذلك بسيرها، ولازمها أنا، حتى بعد بلوغنا نجد الظّاهر Dhahir الذي يطوّق جدّة الحراسيس، حيث طرد المسير في المسافات المتألّقة المكشوفة المنعشة مثل الشّمپانيا كل أفكار الغدر المتواري.

تتلاطم الأمواج الطويلة على ساحل المحيط الهندي تحت الشّمس المدارية حيث الشّفافيّة المشرقة، ترى الأسماك التي تثب من خلالها واضحة كما لو أنها في سلطانية شفافة، وقد عام التّوارس والغاق ذو الظّهر الرّمادي والطيور البحرية من كل نوع بتكاسل في كتل قاتمة بعيداً عن الشّاطئ. لعب اثنان من فراخ حوت العنبر في الخليج وطارد البشرورس القرمزي العملاق الشّاطئ الذي تقاسمه مع الطّيطوى الصّغير والجيش الكثيفة من السّلطعون الصّغير الذي يتراكم هنا وهناك بين قلاعه الرّمليّة التي لا تعدّ ولا تحصى. تعاظمت انطباعاتي المختلطة عن تلك الحياة المتزاحمة مع هدير الرّياح المكتوم والمحيط الذي يندمج مع شواطئ خليج الجازر Jazir حيث صعدّها الخيال، ربما بعد أسابيع طويلة من فداحة صمت فراغ الصّحراء المقفر.

سمك قرش من أجل العشاء!

سمك قرش من أجل العشاء! أظنّه يكون جذاباً وحده، كتغيير غير مألوف في الغذاء المتواضع حسب ما اقتضته الضّرورة. ليس سمك القدّ المجفف والمملّح المعتاد الذي يرسل إلى البرر الدّاخلي أو إلى زنجبار، ولكن طبقة اللحم الحمراء لسمك قرش بحجم ثلاثة أقدام خرج للتو من البحر. يصطاد سمك القرش بعشرات الآلاف

بعيداً عن سواحل جنوب شرقي جزيرة العرب، ومع ذلك فإن ربحها يأتي من ذبولها وزعانفها التي تذهب إلى الرّفاهيات الأيقورية الشهيرة في الصّين وماليزيا.

طريقة صيدها التي يقوم بها صيادو قبيلة البطحري Bautahara طريقة ممتعة، لأنها تذكر بموضوع معيّن للثّقوش في المتحف البريطاني، يخرج الصّياد وهو أفقر من أن يمتلك قارب إلى مسرح تكاثر السمك وهو يسبح على جلد خروف منفوخ ومعه شبّاه ذات العيون الواسعة، فيلقي بها ويرسيها ثم يعود إلى الشّاطئ. يسبح ثانية في صباح اليوم التّالي على الكيس الهوائي الضّخم ليتفتّح فلينة الشّبّكة العائمة التي تخبره إن كان لديه صيد. وإذا ارتاب بأن سمك القرش لا زال حياً يدعو صيادين اثنين آخرين ويقومون بالسّباحة معاً وهم غير مسلّحين بأكثر من الجلد المنفوخ ويجلبون الوحش المطوّق بالشّبّكة إلى الشّاطئ. وعلى الرّغم من أنّ البحر يعجّ بسمك القرش يقول الصّياد البطحري الرّاوي بأنّه لم يسمع بحياته الحالية برجل قد اصطادته الاسماك - كانت تلك بالمصادفة خبرتي على طول سواحل الخليج حيث تحلّ مراكب الأملود ومراكب التّجديف الصّغيرة محل الجلود المنفوخة. لفت انتباهي زعنف ظهري مشوّوم يلمع تحت الشّمس على سطح الماء، فسألت وأنا أشير إليه: «ولكن ألا تخاف من أن تؤكل؟» فأجاب: «ذلك بيد الله إن لم يكتب لي أن أموت شاباً فلماذا أخاف؟ يمكن أن أسبح دون خطر وإذا كان مقدراً لي ألا أبلغ عمر الشّيخوخة فلا مهرب من الذي كُتب».

قالت جوقة من البدو بإيمان بالقدر: «أي والله!».

السمك وفير ومتنوع، يتقدّمه بالوفرة السّردين، ويُصاد بكميات كبيرة ليستعمل علفاً للجمال، وتطرح هنا وهناك كميات من الصّيد في رقع مربعة خشنة لتجفيفه في الشّمس وتترك فتيات صغيرات لحراسته بحذر. تتسلح تلك الفتيات بالتّقيفة لترعب طيور البحر التي تحلّق بكثافة مصدرة ضوضاء حوله كسرب الغربان وتنقضّ إلى السّفلى فوق فريستها الفضيّة. ولكنني اكتشفت بسرعة بأن الثّورس لم يكن المغير الوحيد، فحين مرّت قافلتني انسل اثنان من البدو المرافقين لي وسمحوا لأنفسهم أن يأخذوا

منه دون حياء، بينما كانت الحارسات الجميلات يعترضن ويسحبنهما من أكمامهما باحتجاج غاضب دون جدوى. لمّا سألت البدوي ألم يكن هذا التصرف معيياً قال بأنه عادة، ولمح مازحاً بأن جمال الفتيات الضحايا قد عكّرني.

يتزوَّج البدوي أربع أو خمس زوجات أثناء حياته في بعض الأحيان، في جزيرة العرب ذات التعددية في الزوجات، حيث يكون الزواج رخيصاً والطلاق سهلاً، رغم عدم قدرته على إعالة أكثر من زوجة واحدة أو اثنتين في وقت واحد، وتتعلّق بهذا حكاية؛ ذهبت ذات يوم للتفرّغ، وعند عودتي إلى المخيم رأيت على البعد في الوادي قطيعاً وصل للتو من الرعي. أرسلت بدوياً لاستطلاع الأمر ولكي يشتري الحليب إن أمكن، فعاد في الوقت المناسب وجلب معه راعية شابة مبرقة. كان قطيعها حراسة متقدمة لعائلة من الحراسيس تسير بثلاثين جملاً متجهين إلى جدّة الحراسيس التي أتينا منها، والتي أخبرونا بأن المطر قد هطل فيها. وعدت مريم، وهذا كان اسمها، أن تجلب لي وعاءً من الحليب اللذيذ ورفضت أن تأخذ ثمنه. كان شرطها الوحيد أن يُسمح لها أن تحلب في وعاء وُضع فيه في البداية حجر ساخن، وهو تقليد وجدته فيما بعد شائعاً ولا يُنتهك في تلك المناطق. وصل فيما بعد رجال قومها إلى الموقع، فتبيّنت أنهم ودودون وتمكنت بواسطتهم أن أسجّل إحدى اللهجات غير العربية التي وجدتها متداولة في جنوبي جزيرة العرب، وجاءني في اليوم التالي حمودة في مزاج من يريد إجراء حوار خصوصي.

سألني: «ما رأيك بمريم؟».

«جمالٌ مرّ بنا، وما هو رأيك أنت؟».

قال بتنهيدة: «آه! لا يوجد امرأة في البلاد بجمالها».

«وكيف عرفت؟».

«اقتربت من أن الزواج بها ذات مرة. الله عليم! أخذت مئتي دولار لأولاد عمها ولكنهم رفضوني. سمّم أفكارهم عني عدو لي، أعطوها لرجل مهري، ومضى الآن

إلى عُمان ليشتري المجوهرات» ثم توقف، وتابع بعد عدة دقائق «لكن في الليلة الماضية بعد أن جلبت لك مريم حليب الماعز، جلست معها في ظل الأكاسيا. الله عليم!».

سألته: «ألسـت راضياً الآن مع زوجتك الحالية؟».

«اسمي (حتماً) ألم تمنحني ولدين؟» ثم توقف: «أما ابنتي فهي من زوجة ثانية توفت، رحمها الله».

«إذن كنت متزوجاً من قبل؟ من ابنة عمك على ما أظن؟».

«لا، ليس لي عم، زوجتي الأولى التي طلقـتها ليس لأنني لم أحبها ولكن لأنها كانت عاقراً، ألم أبقيها عندي مدة سنتين قبل أن أطلقها؟ رأيتها البارحة في Lekbi، الله عليم! وكانت تريد أن ترسل لك عنزة هدية، ولكنني أخبرتها بأن دينك يمنع أن تأخذ الأشياء دون أن تدفع ثمنها» (هنا فكّرت بأن حمودة يكذب) «وأعطيتها أربعة دولارات ثمناً لها، وقد عوّضني خادمك حمودة عنهم».

وافقت: «هذا حقيقي تماماً، ولكن زوجتك الثانية؟».

«آه! كانت وقحة، وعندما أذهب للرعي أو للإغارة، كانت تفرط بالثرثرة مع الجيران، وقد شككت بأحد الرّجال، ليسامحني الله، فضربتة بعصا. انتقم لنفسه تلك الليلة وجاء وأطلق النار على جملي المفضّل. وبعد عدّة أيام قتل أخوها بغيراً من جمالي، ولكن الله منعني من إهراق دمهم، وقامت بيني وبينهم هدنة لمدة شهر واحد. وبعده أقمنا السّلام بيننا، وأعطاني الرّجل جملين وأخوها أعطاني جملاً ومئتي دولار فطلقـتها».

* * *

أُجبرت عند مدخل وادي عينان Wadi Ainan على تغيير جمالي ومستخدمي. ومرة ثانية، هي المرة الثالثة التي يحسن لي فيها الحراسيس، القبيلة التي اعتدت أن أكنّ لأفرادها معزة خاصة، أرسلت حمودة إلى السّاحل ليشتري لي بعض السّمن والتّممر

والأرزّ تحضيراً لرحتي، ولكنه أفلح بشراء بعض التمر فقط وبسعر خيالي، وقد سبب لنا فشله بشراء الباقي بعض مسيرات جوع. كان يتوجب أخذ الجمال لسته أميال كي تشرب ويترك أحد المعارف الجدد وهو شرقي Sharqi الربيع 'Rabia' الوحيد ذو المعرفة المحليّة. ومع ذلك أكد لي الدليل الجنابي الذي أعتمد عليه بشكل رئيسي بأنّ المكان كان آمناً تماماً، لذلك أخذت أنا وشرقي بناقنا بعد الظهر وطفنا أسفل التلال بحثاً عن الطرائد.

قطعنا بين الفينة والأخرى ممّرات مطروقة تشبه طرق الحقل الضيقة خلال خط سيرنا في الأسبوع الأخير عبر السهل ذي السطح الأملس، وقد قال عنها البدوي المرافق لي بأنها آثار الغزلان وإذا تتبعناها إلى الأعلى فسوف تقودنا إلى الماء، وكانت بالقرب منا أكثر من مرّة آثار مشؤومة لابن آوى والذئب والضبع. ولكن هذا المساء لم تكن ثمة دلالات تنم عن الخطر، فذهبنا للحصول على ما يتوقّر من صيد في الجوار. كان يوم نحس، توقفت الريح فجأة لتجلب لنا وباءً من الذباب والطلقات القليلة التي كانت معنا لم تحدث نتيجة. في بلد الأدغال يمكن الحصول على رمية قريبة بالمشي ببطء بين شجرة وشجرة، ولكن في العراء تفرّ الطريدة وتكون محظوظاً إن وجدتتها ضمن نطاق منّي يارد.

عندما وصلت قافلتنا كان يكمن غزالان أو ثلاثة خلف خلفية صفراء غير ظاهرين حتى أجفلهم مرورنا فلاذوا بالفرار، لم يكن ذلك بعيداً عنا بشكل مباشر ولكن غالباً في تماس بنا أو حتى بالتوازي مع المسار الذي كنا فيه، ولكن عندما يصادف أن تكون الغزلان باتجاهك وتستشعر وجودك قبل فوات الأوان فهي تنطلقون بعيداً في رتل واحد بأسرع ما فطرت عليه. تقفز فجأة في منتصف سرعتها ودون نظام أو سبب في الهواء إلى الأعلى بكل أرجلها مرّة واحدة وكأنها قد قفزت من منصة الوثب، ثم تحطّ وتتابع تقدّمها المندفع. سرعتها مذهشة وبدت لي أنها تتفوق على كل مخلوقات الله بأسلوبها وتناسقها. لم يكن لدينا كلاب صيد وأشك فيما لو كان لدينا بأن تتمكّن من صيدها كما يجب. جرّبت في بلاد ما بين النهرين مطاردة الغزال بالسيارة -ولكنّي

أضيف بأنها ليست كرياضة صيد. بعد عمل m.p.h لبضعة دقائق تكون الكلاب قد عادت بصيد طازج خلال لحظات، ولكن تلك الحالة لم تنجح ولا مرة واحدة في الظفر بغزال. عندما أخبرتهم عن ادعاءات تعارض هذا لرجال آخرين قابلتهم من قبل، كان الجواب بأنّ الغزال قد يكون صغيراً جداً أو ضعيفاً أو ربما كانت أثنى الغزال مثقلة بحملها جينياً.

كان لدينا العديد من الجراد للأكل، لو نفذت لحوم الطرائد في وادي عينان. فقبل المجئ إلى المعسكر تماماً مررنا من خلال وابل من أنواع الجراد الأحمر على عمق أميال عديدة. جعلت السماء معتمة وغطت غابة الأكاسيا والطرفاء وشوك الجمل وأي شيء كان أخضر. جمع خادمي حزمًا من المناديل منها، ذكرتني بالفطر واستغرق شيتها قسماً طويلاً من فترة الصّباح. أحاط بدوي وهو يجلس القرفصاء بنار الحطب، يسطّح الرّماذ بعصى الرّكوب ويقحم يده في الحزمة ويسحب حفنة من الجراد فتتكسر أجنحتها الجافّة تحت الضّغط، ويقذفها دون رحمة وهي حيّة في التّار ويقوم بكس الرّماذ بعصاه جيئة وذهاباً في نفس الوقت لكي يدفنها تحت الرّماذ الحار. ربما تحاول جرادة بائسة مغمورة إلى نصفها عند الحافة أن تتهاذى للخروج إلى الحرية، لكنها تُكس ثانية إلى المنتصف ولكن دون خطأ هذه المرة.

بعد بضع دقائق يعاد الرّماذ إلى الخلف، يلتقط الجراد المشوي ويضاف للكومة التي تتزايد قرب الموقد. تنفض الرّماذ عنه لتأكله متفادياً شدة الحساسية إن أردت أن تتبع طريقتهم، وتقتلع الجناحين والدّيل وتتخلّص من الرّأس ومعه الجهاز الهضمي - يلوّح البدو المرافقون لي في بعض الأحيان بأنّ ذلك الإجراء الأخير يمثل تبديداً للطعام - وما تبقى يصلح للأكل. ليس هذا الطّبق يصلح لكتابة القصائد الغنائية فيه، ولكن العرب يعتبرون الجراد طعاماً شهياً، وهو يجلب من حيث الوزن مع الدّجاج سعراً أعلى منه في أكشاك البيع العربية.



ديرة آل وهيبه الحافلة بكتبان الرمال



اثنان من شيوخ آل وهيبه



قاع واد نموذجي في مناطق التّخوم الجنوبيّة الشرقيّة



ممرّ موت بيخن Maut Bikhun

الفصل الخامس من المغامرة الخامسة

البرّ الداخلي المجهول

كنت سعيداً في الواقع بعد بضعة أيام، فقد تمكنا من مغادرة الساحل والانطلاق مجدداً إلى البرّ الداخلي المجهول⁽¹⁾، موطن البدو. نعمت بحماية الشيوخ الأقوياء في المراحل الأولى من رحلتي، وحتى في ذلك الوقت أعيقت فرقتي في ثلاث مناسبات، كانت إحداها في وادي سراب، التي رويتها. ولكن المرحلة الأخيرة من الرحلة وقعت في أكثر من مئة ميل عبر أراضٍ جبلية قاحلة نسيياً، تشكّل حزاماً داخل الجبال الساحلية الداخلية المأهولة، لا تعترف بسلطة الشيخ، ويستخدمها المغيرون فقط. هنا، كان ضرورياً في الواقع، تطبيق تحدي الأرض المجهولة.

«إنه يوم بارد، عبد الله».

أجاب: «سيخفف الله من المشقة».

سألته: «وماذا عن الطريق؟».

«لا يوجد سكان بين هذا المكان وجبال القرا، أي رجل يسير في هذا الطريق يبحث عن الضرر والأذى».

سرنا أثناء النهار بحذر، ولم نشعل النار في الليل. كانت المياه أنفوس من أن تسمح برفاهية الاستحمام. هبطت درجة الحرارة إلى أربعين درجة فهرنهايت في الليل، والتوم

(1) قدّمتُ وصفاً جغرافياً للرحلة برمتها في بحثي «التخوم الجنوبية الشرقية للربع الخالي» وقرئت أمام الجمعية الجغرافية ونُشرت في مجلتها، vol. Ixxiii, no. 3 عدد مارس 1929.

الذي لم يتغير في الخارج مع البدو لمدة ثمانية أيام لم يكن مريحاً بشكل مثالي. ومع ذلك كان ودّ البدو مثل منشط فكري ساعد على تخفيف آثار الزُّحار الطّفيف، - الذي لا يمكن تجنبه عند نهاية رحلة ستة أسابيع، إضافة إلى إثارة المجهول وما يقع وراء خط الأفق. لم يأكل أحدنا طعاماً أخضر وكان الطّعام في معظمه يتكون من التمر والأرز وحليب الإبل.

كان حمّودة يسلي الساعات بالإنشاد، وكانت ترانيمه تحكي بشكل رئيسي عن الحرب والحب، وأغانٍ أخرى مرتجلة تتبع الأحداث التي تمرّ بنا أثناء مسيرة النهار. دوّنت أكبر عدد أستطيعه من أناشيد حداء الجمال، بقدر ما سمحت لي مجموعة الرّموز الأوروبية لأنها تكاد تكون مستحيلة، فالعرب يستعملون السّلم اليوناني الفيثاغورثي القديم لأرباع النّغمة. وتوجد ترنيمه لكل خطوة للجمال: عند تحميلها، وعند إنزال الحمل عنها وعند المسير والجري وفوق الماء والعودة إلى شرب الماء، أمّا الأناشيد الأخرى فهي تعيد للذاكرة أساليب أناشيد البحارة القدماء عندنا. ومن مميّزات موسيقى الصّحراء ولعها بالسّلسلة المتعاقبة والنّغمات الرّشيقة وخلوّها من الفواصل التي تكون أكبر من الثّلاث، وتفضيلها الصّعود في اتّساق الأصوات أكثر من النّزول. الوقت يتحدّى المرء، فقد استطعت أن أسجّله باستعمال أوقات القطعة الموسيقية المختلفة للحنات البديلة وفق أسلوب رافيل Ravel. ولكن التّرنيمات قصيرة جداً، وتكرّر بلا نهاية، والايقاع يتبع نبضة الكلمات بشكل تام. تبدو كلها بعيدة جداً عن نغم الأذن الأوروبية وهي ممّلة إلى أقصى حدّ. كنا نسير في الطّريق في أحد الأيام بعد أن انتهاء غناء بعض البدو، فطلب مني الحرسوسي أن أغني أغنية. لا شيء منفرّ، وجددني أغني:

لطيفة لطيفة ودمثة هي

لطيفة هي عزيزتي ماري

صرّح بأنها رديئة جداً. وأنا الذي كنت أظنّ بأنّ أغنيتي قد هزمت أغنيته إلى درجة الإزعاج، شعرت الآن بأنني مُجبر على أن أقول بأنها لم تكن فعلاً أغنية رجل البتّة ولكن تغنيها فتياتنا. ثم جرّبت أغنية «ثلاث فارات عمياوات» التي كانت أغنية فتیان وغنيتها وأنا أتوقع تلقياً عدوانياً لها، فجعله لحنها يضحك ولم يرغب بسماعها ثانية.

رغب سماع لطيفة هي ماري، ظننت ربما يكون قد لَانَ وشعر بأنّ تقييمه الأصلي كان متزمتاً تافهاً، ولكن لم يكن الأمر كذلك، لأنه اعترف فيما بعد مع غمزة مرحة في عينيه بأنّ ناقته شَمَلا قد أساءت التَصَرّف وأرادت أن تركض بعيداً، واعتقد ان النّعمة المستفزة سوف تضعه في الحالة العقلية الصّحيحة للتعامل معها. فجزّبت أن أدندن أحد الأناشيد الغريغوريّة Gregorian chants فحازت تلك على استحسانه الفوري - لم تذهب بعيداً عن بعض ألحانه. بدت قطعة المقاومة في ذخيرة البدو هي رقصة raghazait لدى قبيلة المَهرة. إنّ تصوّر البدو بأنّ الجمل جميل في مجمله يتمثل بشكل جيد في كلمات لازمة الأغنية التي تستحق التسجيل.

جمال البنات الحلوات

مثل بنات صفير⁽¹⁾ Banat Safair.

بنت سعيد تقترب من نار المخيم

وكانها تنحدر نزولاً⁽²⁾ من شعب صعب.

وجهها التشييط مثل لحم الجمال

الذي لم يصبه التّدى ولا البرّد.

يؤدّي الغناء بصوت عال، تحرّكه العواطف ولكنه حسّاس. وهو أساسي فعلاً في شخصية البدوي. مدهنته وتملّقه العلني من النّوع المخلص ولكن مبالغته أشدّ من أن تصدّق. هو لا يتملّق رغم أنه سيطلب التّقود أو أيّ شيء يراه، ولا يؤلمه أن يصدّه أحد. مزاجه خيالي مبالغ فيه، فبعد أن يحلف بأنّ فراقك عنده كفراقه لروحه، تراه عندما يحين وقته يبتعد وهو يضحك دون أن يكثرث إلا لإرادة الله التي لا جدال فيها.

وحقّ الاستجارة مقدّس، والهارب الفارّ من عقوبة شخص آخر، مهما كانت الفعلة التي ارتكبها، ليس عليه إلا أن يهرب إلى قبيلة بعيدة ويقوم بالدّخالة dakhala

(1) سلالة مشهورة من جمال قبيلة المَهرة.

(2) تشبيه للتكبر، حين تدير رأسها الإبل من جانب لآخر عند نزولها سفح هضبة.

(الاستغاثة من أجل الملجأ) لتتأمن حمايته منذ ذلك الوقت فصاعداً، وعندما يُمنح الملاذ الآمن لا يخونه إلا فعل غادر. وإذا كان مجرمًا ويد الحكومة تستطيع النيل منه بالضَّغط، يقوم من يحميه بشرف نقله إلى شيخ أبعد، حيث يمكن تكرار العملية.

يعشق البدوي الحرّية، وعلى الرّغم من أنها تتضمّن الجوع والعطش فهو يفضلها على راحة العبودية ومكاسبها، ولكن عليه أن يصونها بيده، وليس لحزازاته العائلية والقبلية والتّحزّبية بداية ولا نهاية. لا يجرؤ رجل على الخروج دون سلاح، وسفره عبر ديرة ترودها عناصر معادية يعني مغازلة الموت وفقدان إبله، باستثناء فترات الهدنة المتقطعة، ثم عليه أن يصطحب رفيقاً (عضواً من العصابة المعادية)، يكفي أن يكون ولداً صغيراً ولكن من دم القبيلة وليس عبداً، ويقابل المرء باستمرار الجانب الطّريف منه، ولا تقبل بالعبد كرفيق إلا قبيلة واحدة في جنوب جزيرة العرب - القرّاء، والعبيد الذين يؤخذون في الإغارة إلى كل مكان، يبعدون الموت إذا اقترب من رفاقهم أحرار المولد، يكون العبيد في الواقع مثل الجمال المتداولة في نفس الوقت، هي غنائم بالطبع وتمرّر إلى سوق ملائمة لمبادلتها بذخيرة البنادق أو يمكن مبادلتها بالأرز.

والسّلام بين القبائل سريع الزوال وكذلك الحرب، والحالة الطّبيعية هي تناوب الحرب والسّلم بين الجيران المتنافسين، ولا بدّ أنها مستمرة منذ مئات بل آلاف السّنين. أصبحت قبيلتان بنزاعهما الحربي المتعاقب عدوّتين حتى الممات، وكانتا أثناء رحلتي في هدنة، فوجدت نفسي أقوم بدور حماية حُماتي. سألت محمّد بن خميس الوهيبي: «ما الحكمة من استمرار الصّراع؟ لا بدّ أنه ضدّ دينكم إلى جانب أن ما الفائدة منه؟ لا يأتي منه خير ولكن يأتي منه الشرّ فقط. قبيلتكم اليوم تغزو الجنبه وتقتل أربعة رجال وتأخذ عشرين جملًا، وفي السّنة القادمة تردّ على غزوكم وتسبب لكم الخسائر المشابهة، وبين الفواصل تعيش القبيلتان الواحدة في خشية من الأخرى».

قال: «صحيح، ولكن السّلام الدّائم غير ممكن فالكره المتبادل قويّ جداً، فمن قُتل له أب أو أخ لن يقبل بالسّلام قبل أن يثار لمقتله، والدّعوة إلى السّلام تفقد القبيلة مكانتها ونفوذها بين القبائل النّزاعة للحروب».

كان حمودة الذي كنت أسأله مناهضاً للسلام رغم أنه عاش مروّعاً من قبيلة المناهل التي قتل اثنين من أبنائها انتقاماً لمقتل أبيه، كان مستعداً لشجب العنف بمعناه المجرد ولكن يقرّه عملياً. الإغارة بالنسبة له كانت «منكّهات الحياة» وهو ممثل مناسب لهذا النوع، فكان حديثه وشعره في مدح بسالة المقاتل في المعركة، ومع ذلك كان متديناً بعمق ويؤدّي الصّلاة خمس مرات في اليوم. كانت شدّة احتقاره للناس الذين لا يصلّون ولا يصومون بقوة إعجابه للذين يقتلون أعداءهم، لا يمكن هنا معالجة الضّرورات الاقتصادية بالمثاليات العقلانية، ففي البلاد الرّعوية حيث يقلّ الماء، مصدر الحياة، لا يمكن للماء أن يكون عاملاً متوفراً بشكل دائم، حيث يبقى الرّجل لأيام في ظمأ عند بئر قد احتلّ لتوّه ويمكن ألا تكفي موارد الحياة للفريقين.

سألت حمودة: «ما هو رأيك بالبطاحرة Bautahara؟» ومشيراً إلى القبيلة الأدنى في طبقتها التي تتكلّم «بلسان العصفور»⁽¹⁾.

أجابني: «لا شيء، حاشاك! هل تعرف العبيد؟ حسناً أفضل بدرجة واحدة». ثم يبدو أنه اعتبر بأنّه تجاوز حدوده فأضاف ملحقاً: «ولكن يوجد بينهم رجال، رجال ذباحون».

قلت: «ولكن بالتأكيد أنت لا تحكم على الرّجل بقدرته على القتال؟».

قال: «بلى، أفعل. وأنت كذلك وكل الرّجال أيضاً يفعلون، تقاتلون أنتم الإنكليز». فقلت بضعف: «نعم، ولكن نقاتل أعداءنا فقط».

أضاف: «بالله عليك، هل صحيح بأنّ امرأة تحكم الرّجال لديكم؟».

قلت: «أعتقد ذلك» وأنا أتجنّب إعطاء جواب حاسم، لأنّي أعرف نظرة العرب إلى المرأة وأتعبّج كيف توصل إلى هذه المعلومة.

«حسناً، إذن من هي؟».

(1) إنّ جوانب علم الإنسان في آخر مرحلة من رحلتي شكّلت موضوع بحثي «بين بعض القبائل غير العربية في جنوبي جزيرة العرب»، الذي قرئ أمام مجلس المستشرقين في أوكسفورد عام 1928 ونُشر في مجلة معهد الأنثروبولوجيا الملكي عام 1929، vol. lix، يناير - يونيو.

اعترفت له: «لدى الإنكليز ملكة، ملكة عظيمة لكنها توفيت منذ عدة سنين⁽¹⁾، فخلفها ابنها، ويحكم الآن حفيدها عوضاً عنها».

قال حمودة بتهيدة ارتياح: «الحمد لله!».

ليس غريباً أن يزدهر نوع من الاشتراكية في هذه البلاد بالنظر إلى ظروف الحياة فيها من الجوع والعطش، ولا يوجد تسوّل بمعناه الحقير. ربما يوجد الفقر، فقر عام حسب المقاييس الأوروبية، ولكن إن وجد عند رجل طعام ولم يوجد عند الآخر فليس من المعقول ألا يعطي الأفضل بينهما للأقل حظاً. لا يُسمح للغريب القادم إلى المكان بالمغادرة دون أن يُدعى للمكوث ويقاسمهم الطعام المشترك مهما كان المضيف فقيراً، ولو كانت كسرة خبز، ويوجد لدى المضيف الأكثر غنى قاعدة ثلاثة أيام من الاستضافة، والكرم في هذه البلاد الجائعة هو المنزلة الأكثر سموّاً.

تعالج القصص الفولكلورية الكثيرة جداً بالتفصيل المغزى الدائم بأنّ الجود مبارك والشّح من الشّيطان، وتحمل تلك القصص البسيطة التي تكون عادة قصصاً عن الحيوان خلفية دينية خرافية. سألني لويتي ذات يوم إن كنت أعرف كيف أصبحت «الضّبة» *dabba* وهي من الزّواحف الرّملية التي يعتبرها كل بدوي من الأطباق الغضّة جداً، جيدة كطعام للإنسان، وهل كنت أعرف أصل تفاحة آدم؟ فأبدتُ جهلاً بتلّهُف للمعرفة. فبدأ يخبرني بالفروقات الدّقيقة للمداخل التي تولّدت في رمال الصّحراء.

«كان الرّسول محمّد مسافراً في يوم من الأيام مع مرافق، وعند هبوط الظّلام أناخا جمليهما عند إحدى الخيام، كانت تلك الخيام تعود لملكية رجل موسر يمتلك قطعان ماشية بالإضافة إلى تجارة عظيمة، وعلم الغني بقدوم غريب ولكنه لم يعرف من كان، وتفرض الضّروة عليه أن يرسل له ليدعوه إلى العشاء، ولكنه كان بخيلاً، وبدلاً من ذبح عجل سمين لهم وضع مكانه قطة عجوزاً. لم يخف ذلك عن رسول الله، وعندما قدم الطّبق نبّه الرّسول صاحبه ألا ياكل منه، ونادى على القطة لتحيا في الطّبق، فعادت

(1) يقصد الملكة فيكتوريا (حكمت 1876-1901)، وخلفها ابنها إدوارد السابع (حكم 1901-1910)، ثم ابنه جورج الخامس (حكم 1910-1936). (أحمد)

لها الحياة وبدأت بالمواء وهربت. ودعا رسول الله ربّه أن يجازي الرّجل الغني بما يناسب أفعاله، فحوّله الله إلى الدّباء⁽¹⁾ dabba وجعل أكلها حلالاً، أي مخصصاً للنّاس أن يأكلوها حسب الشّرع.

انطلق الرّسول في اليوم التّالي عند الغروب وتوقّف بالقرب من مضارب رجل فقير. لكن لم يعرف الرّجل الفقير أيضاً منزلة الضّيوف، إنّما امتلأ قلبه بالكرم الرّقيق، فأخذ سكيناً وذبح أسمن خرافه القليلة وجعل زوجته تطبخه ليقدمه عشاءً للغربيين. كان لدى الرّجل ولدان صغيران فأخذ الكبير بينهما السّكين وقال لأخيه: «ارفع رأسك لنلعب لعبة الذّبح كما ذبح والدنا الخروف»، ففعل أخوه الصّغير ما طلبه منه وخرّ ميتاً في بركة دم وقد ذُبح. عندما دخلت الأم إلى المشهد كادت أن تصرخ لتعبّر عن ألمها، ولكن زوجها الفقير منعها وهو يقول: «لا تفعلني حتى لا يسمع ضيوفنا بما حصل فلا يأكلون طعامنا. دعيهم يأكلون في البداية وبعدها يمكنك البكاء». وهكذا جهّز العشاء وأدخل الرّجل الفقير أطباق الطّعام ووضعهم أمام الضّيفين وهو يقول: «هيا تفضّلاً كلاً».

وكان الرّسول قد أنبأه الله بما حصل، فالتفت إلى الرّجل الفقير وقال له: «اجلب ولديك معك في البداية كي نأكل كلنا معاً» ولكن الرّجل الفقير الذي أنهكه حزنه ولم يستطع إخفاءه إلا بصعوبة، اضطرّ لخلق الأعذار، فقال: «بل من الأفضل أن تأكلاً ثم نأكل نحن بعدكم»، ثم سأله عن اسم ولديه، كان اسم الذي مات مسلّم، وعندما نادى اسمه بصوت عالٍ عاد الولد إلى الحياة وإن يكن بتلك الكتلة «تفاحة آدم» في حنجرتة. فتقاسموا العشاء بسرور، ودعا الرّسول ربّه أن يجزي الرّجل الفقير بما يناسب أعماله. ثم التفت إليه وقال: «غداً عندما تصحو في الصّباح، فإنّ كل ما تراه حولك سيكون ملكك!» وعندما أشرق صباح اليوم التّالي انطلق الرّجل ليرعى قطيعه الصّغير، ولكن عجباً! إذا به يجد في مكانه جمالاً لا تُحصى وخيولاً وقطعان ماعز وخرافاً وأنعاماً فابتهج ابتهاجاً عظيماً لأن ذلك كلّه كان ملكه.

* * *

(1) أي ثمر القرع. (أحمد)



على درب الرحلة في ديار المَهرة



أربعة صيادي سمك من جزيرة مصيرة يصنعون شباك صيد

فهرس الكتاب

5	سلسلة رواد المشرق العربي.....
7	هذا الكتاب
29	نقاط حول الترجمة
35	مقدمة، بقلم السير آرنولد ويلسون.....

المغامرة الأولى

حملة تأديبية ضد عرب الأهوار

41	الفصل الأول: عناد
49	الفصل الثاني: لقاء تمهيدي
63	الفصل الثالث: هدوء مؤقت
71	الفصل الرابع: الوقوع تحت السيطرة
85	الفصل الخامس: معاهدة استسلام

المغامرة الثانية

ضابط المنطقة في بلاد الرافدين أثناء عصيان 1920

91	تمهيد
----	-------------

101	الفصل الأول: أحداث قادمة
109	الفصل الثاني: الشَّطْرَة
115	الفصل الثالث: ميراث الأتراك
121	الفصل الرَّابِع: أساليب بريطانية
127	الفصل الخامس: قعقعات المتمرِّد
135	الفصل السَّادس: احتجاز الحصن

المغامرة الثالثة

رحلات على متون الإبل في سلطنة عُمان وما حولها

155	الفصل الأول: رحلة طويلة مع السَّلاطَن في الباطنة الشَّرْقِيَّة
183	الفصل الثَّاني: رحلة بالبرِّ مع السَّلاطَن في الباطنة الغربيَّة
215	الفصل الثالث: وقفة - رحلة على ظهر الجمل عبر شبه جزيرة عُمان
241	الفصل الرَّابِع: في الطَّرِيق مع السَّلاطَن بمنطقة الشَّمِيلِيَّة
269	الفصل الخامس: الارتحال نحو الدِّيار في الجنوب

المغامرة الرَّابِعة

طبول الحرب في مُسَنِّدَم

279	الفصل الأول: الإنذار
287	الفصل الثَّاني: قائد الطَّراد الحُكُومِي «السَّعِيدِي»
295	الفصل الثالث: ديرة الشَّحُوح
305	الفصل الرَّابِع: قائمة المظالم
315	الفصل الخامس: قصف بحري

المغامرة الخامسة

صفحات من مذكراتي في جنوبي جزيرة العرب

الجانب السهل من رحلة ستمئة ميل على ظهر الجمل، عام 1927

337	الفصل الأول: مغازلة محبطة.....
349	الفصل الثاني: مع بني بو علي
357	الفصل الثالث: التّخوم الجنوبية
371	الفصل الرابع: سمك قرش وجراد.....
381	الفصل الخامس: البرّ الداخلي المجهول

* * *

مخاطر وجولات في جزيرة العرب

يرتبط اسم برترام توماس باجتياز صحراء الربع الخالي المهلكة، وهي المغامرة العظيمة التي ظلت تتردد في أذهان رحّالي الإنكليز كافة، إلى أن تمكّن منها في النهاية هذا المغامر الجسور الذي كان وزيراً لدى سلطان عُمان، فتوجّه إلى ظفار عام 1928 ثم اجتاز الربع الخالي عام 1930. وكنا مؤخراً قدّمنا للقراء الكرام الكتاب القيم الذي يصف رحلته التي اجتاز بها «الربع الخالي»، انطلاقاً من صلالة بظفار في جنوبي عُمان ووصولاً إلى الدوحة بقطر، وأينا كيف كان بحق آخر جيل رحّالي أوروبا الأصليين في جزيرة العرب.

فاليوم، يسرّنا أن نقدّم كتاباً ثانياً لهذا المستكشف المقدم، الذي لم يكن من زُمرة الرّحّالين الاعتياديين، يضمّ خمس مغامرات تدور أحداثها ما بين منطقة الأهوار في جنوبي العراق عام 1918-1920 إبّان العصيان والثورة في وجه البريطانيين، وفي عُمان التي قام فيها (سنة 1927) ببعض الرّحلات البرية السابقة لرحلته الشهيرة في الربع الخالي، فضلاً عن بعض الرّحلات البحرية التي كان بعضها بصحبة السلطان ذاته (بين 1928-1930)، فأتحفنا بإضافة شائقة وممتعة تُضمّ إلى مكتبة تراث أدب الرّحلات في جزيرتنا العربية.

السعر 55 درهماً



إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY